أنور الجندي

شبهات التغريب

في غزو الفكر الإسلامي

المكتب الإسلامي

المكتب الإسلامي
دمشق : ص.ب ٨٠٠ – هاتف : ١١١٦٣٧ – برقياً : إسلامي
بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١–هاتف:٤٥٠٦٣٨-برقياً : إسلامياً

منذ أن طرح « الاستشراق » مصطلح « التغريب » في الثلاثينات من هذا القرن ، وقد لفت الانظار الى احدى الغايات الكبرى التي يستهدفها الغزو الثقافي الغربي للفكر الاسلامي ، وهي صبغ الثقافة الاسلامية بصبغة غربية ، واخراجها عن طابعها الإسلامي الخالص ، واحتواؤها على النحو الذي يجعلها تفقد ذاتيتها وكيانها ، وتنماع فيما أطلق عليه اسم « الثقافة العالمية » أو الفكر الاممي .

ولا ريب أن هذا المخطط هو أقسى ما واجه الفكر الاسلامي في عصوره المختلفة ، لانه جاء في غيبة ارادته الحرة ، وفي ظل ارادة الاستعمار المسيطرة التي عملت منذ أن بدأت سيطرتها على العالم الاسلامي على غزو العقل الاسلامي ، والنفس الاسلامية من خلال ثلاث قوى كبرى هي « المدرسة » و « الثقافة » و « الصحافة » وذلك بطريق السيطرة على هذه المؤسسات ، وادارتها بواسطة رجاله من مستشرقين ومعلمي ارساليات ومبشرين ، ودعاة تغريب .

وقد استطاع النفوذ الاستعماري أن يحتوي عددا كبيراً من أبناء المسلمين والعرب لهذا المخطط ممن علمهم في معاهد الارساليات وجامعاته المتخصصة في هذا الشأن أمثال معهد الدراسات الشرقية وغيره ، ممن استقدمتهم الى الغرب حين تتلمذوا على المستشرقين وأساتذة مدرسة العلوم الاجتماعية ، والتحليل النفسي ، والتفسير

المادي للتاريخ ، وهي مجموعة مختلطة يجمع فيها الفكر المادي ، والنزعة الماركسية ، والدعوة الليبرالية ويستبطنها جميعا النفوذ التلمودي اليهودي الصهيوني الذي استطاع في السنوات السبعين الاخيرة أن يحتوي الفكر الغربي الاوربي ، وأن يسيطر عليه ، وأن يوجهها الى تنفيذ أهداف بروتوكولات صهيون ابتداء من الثورة الفرنسية الى الثورة الروسية الى اسقاط الخلافة العثمانية الى احتلال فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس ، في اتجاه يدعي أن الصهيونية هي وريثة الاستعمار الغربي ، وأنها تتحرك في اتجاهين : ماركسي وتلمودي ، وتحاول أن تسيطر على علوم اللغة والدين المقارن والانثروبولوجيا والعلوم الانسانية (النفس والاجتماع والاخلاق) •

وليس من شك أن حركة التغريب Wastutsm هي حركة كاملة ، لها نظمها وأهدافها ودعائمها ، ولها قادتها الذين يقومون بالاشراف عليها ، تستهدف احتواء الشخصية الاسلامية الفكرية ، ومحو مقوماتها الذاتية ، وتدمير فكرها ، وتسميم ينابيع الثقافة فيها •

وقد امتدت حركة التغريب من خلال مؤسسات التبشير والاستشراق ، ومن خلال دعوات الاقليمية ، والشعوبية والعلمانية واشاعة محاولات انتقاص الدين والحملة على النبوة والوحي ومهاجمة بطولات التاريخ الاسلامي والغض من القرآن ، والنظر اليه على انه كتاب كتبه بشر ، واعطاء القيم الاسلامية روح الشك الغربية التي واجهت بها حركة النهضة الفكر الغربي في مرحلة القرون الوسطى بالتشكيك في الكتب المقدسة •

كذلك فان هذه الحركة وجدت طريقها في مجال القصة والمسرحية والرواية السينمائية حيث أتيح لها اشاعة روح الكشف والاباحية ،

ومعارضة القيم الاخلاقية والدينية • وفي مجال التراث استطاعت هــذه الحركة أن تحيي كتابات دعاة الانحلال في الوجدان امثال : أبي نواس وبشار ، ودعاة وحدة الوجود والحلول أمثال : السهروردي والحــلاج وابن عربي ، وأولئك المارقين من الإسلام أمثال : ابن الراونــدي وابن المقفع ، وأولت اهتمامها بألف ليلة وليلة والاغاني والرباعيات المنسوبة كذبا الى عمر الخيام •

وجــرت محاولات التغريب الى خلق الخلاف والخصومــة بين العرب والمسلمين في إثــارة النزعــات العصبية القديمــة وإعادتها الى الوجــود ، والكلام عن دور كل منهما في الحضــارة ، ومحاولة رد التراث الاسلامي الى أصول بعيدة كالفرس والهنود واليونان وإثارة نظرية السامية والآرية والتركيز عليهما ، ثــم إثارةعمليات الكشوف الأثرية واستغلالها في تمزيق وحدة المسلمين ، ومحاولــة تصوير كل قطر اسلامي وكأنه مستقل ومنفصل ، ولــه فكره ومفهومه وتاريخه ، وخلق جو من الصراع بين القوميات الاسلامية •

كذلك اهتم التغريب بدراسة عالم ما قبل الاسلام ، وإحيائه في صورة الفرعونية والجاهلية والوثنية والفارسية المجوسية القديمــة ، وإحياء الحديث عن الحركات الهدامــة كالباطنية والقرامطة والخرميــة والبابكية والتوسع في دراستها •

وكذلك إسقاط دور الحضارة الاسلاميــة في التاريــخ العالمي اسقاطاً كاملا ، ومحاولة تجاهلها وإنكار أثرها في الغرب وفي الحضارة الحديثة •

وإثارة دعوات جديدة كالبهائية والقاديانية والروحية الحديثــة وتمزيق وحــدة الفكر العربي الاسلامي بعزل الاخــلاق عن التربيــة

والدين عن الادب والسياسة عن الدولة وإثارة عشرات من الدعاوى الالحادية والاباحية •

وهكـذا جرت حركـة التغريب وفق مخطط منظم لتدمير القيم الاساسية للفكر الاسلامي بمحاولات متعددة تستهدف احتواء الفكر الاسلامي، وحمل المسلمين على قبول ذهنية غريبة عنهم ، والتفريط في ذاتيتهم وذهنيتهم بعد انتقاصها الشديد بمحاولات تزييف التاريـخ ، وتشويه مبادىء الاسلام •

ولقـد كان من الضروري أن نكشف هـذه المخططات ونجليها لشبابنا العربي في كل مكان حتى يكون على بينة من هذا الخطر الذي يحاول أن يحتويه ، ويقضي على كيانه ،ويصهره في بوتقة الفكر الغربي في أشد مراحل التحلل والضعف والتمزق لهذا الفكر ونحن في هـذه المحاولة ، ومن خـلال عشرات القضايا المثارة نكشف وجهـة الفكر الاسلامي في مختلف الشبهات التي يتعرض لها ، والتي تطرحها حركة التغريب •

ولقد أخذت صيحة « الاصالـة » والبحث عن الذاتيـة وتأكيد الأنيّة تعلو في كـل أطراف العالم الاسلامي وخاصة في البلاد العربية داعية الى التحرر من هذا الخطر الشديد ، بعد أن أصبح على الفكر الاسلامي أن يعيد النظـر بالنقـد والتصحيح لمختلف المصطلحـات والابحاث التي تطـرح الآن في مجال النفس والاخـلاق والاجتماع بوصفها علوماً انسانية ، وأن يكشف عن نظريته الاصيلة وموقفه من مختلف القضايا •

ومنـذ أن ارتفعت الاصوات بالدعوة الى الاصالـة ، والتماس الذات والتحرر من التبعية ، فقد تكونت بمرور الايام مناعة قادرة على

الفهم دون الخضوع ، والامتصاص دون التحول ، وبرز جوهر الاسلام مع التحديات الغربية والوجودية والماركسية جميعا .

ولم تكشف الابحاثعن براعة فكرنا وقدرته على العطاء فحسب ، بل كشفت عن زيف الفكر الغربي وقصوره عن إشباع النفس العربية الاسلامية فضلا عن عجزه عن حل المعضلات التي تواجه حضارته ومجتمعه .

إن فكرنا الاسلامي اليوم يقف موقف الحذر والمراجعة لكل ما يطرحه الفكر الغربي ، ويقف موقف المعارضة حين يتصل الامر بالفلسفات المادية والإباحية والوثنية .

ولقد كان كفاح الاسلام قائما طوال تاريخه في سبيل تحرير فكره وأهله من هيمنة الفكر البشري ، منذ رفض الاسلام مبدأي التقليد والتبعية إيمانا منه بأن التقليد يحول دون الاصالة ، وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية .

وفي هذه الصفحات نمضي مع شبهات التغريب الى أبعد مدى حتى نصل الى جوهر الحقيقة ، ونكشف الزيف ، ونرد الحق الى نصابه .

الباب الأول

مخططات التغريب وأدواته

من اجل معرفة مخططات التغريب وادواته يجب علينا ان نركز على دور الصهيونية العالمية،وعلى ماضي الصهيونية ممثلاً في المؤامرة اليهودية القديمة على الفكر الاسلامي لنصل الى فهم اخطار التبعية والمحاولات التي تجري مستهدفة اذابة الشخصية الاسلامية ، وذلك عن طريق الحرب النفسية ، وبث المسلمات الوافدة .

ثم علينا بعد ذلك ان نعرف دور الاستشراق في تغذية مخططات التغريب .



ظاهرة التغريب أسطورة أم حقيقة ؟

هناك محاولـة غريبة خطيرة تستهدف دائما معارضة القول بأن هناك : ظاهرة تغريب، وغزو ثقافي، أو محاولة احتواء للفكر الاسلامي، أو سيطرة فكر وافد ، وتحاول أن تعتمد هذه المحاولة علـى أمرين : الامر الاول : هو القول « أين هذه المؤسسة التي تسمى التغريب ؟ »

ذلك لأن المؤسسة ليست بناء مجسما ، لـه دار ولافتة مكتوب عليها مدرسة التغريب أو مؤسسته، وذلك هو تساؤل السذج الاغرار، قصيري النظر ، الـذين يعدهـم التغريب أحسن أدواتـه وأكثرهـم نفعا ، لأنهم يقومون بخدمته دون أجر ، ومن حساب النوايا الطيبة .

والامر الثاني : هو مداورة التابعين الفاهمين العملاء الذين هم كالحية الرقطاء يخادعون الناس ، ويخفون حقيقتهم وحقيقة أوليائهم . ومع الأسف فان الذين يشككون في التغريب هم مـن النوع الاول : أولئك الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم .

ذلك أن التغريب لم يعد بعد هذا الوقت الطويل ليكون موضع تساؤل أو تشكيك ، وربما كان ذلك جائزا في الثلاثينات حيث كـان يغطي العالم الاسلامي والامـة العربية ظـلام كثيف ، وكانت هناك حقائق كثيرة ما تزال محجوبة ولعل أهمها : بروتوكولات صهيون التي ظهرت في العالم كله عام ١٩٠٢ وظلت ممنوعة من دخول الشرق والعالم

الاسلامي حتى عام ١٩٥٢ تقريبا ، والى ما بعـد أن قامت اسرائيل في قلب الامة العربية •

ولقد كشف دعـاة التغريب أنفسهم هـذه الحقيقة ، ولعل أول وثيقة في هذا المجال هي كتاب « وجهة الاسلام » الذي ألفـه هاملتون جب مع جماعة من المستشرقين ، وأعلن فيه صراحـة أن هدف البحث هو معرفة :

« الى أي حد وصلت حركـة تغريب الشرق ، وما هي العوامل التي تحول دون تحقيق هذا التغريب » •

ويمكن لقارىء الكتاب أن يستكشف مناهج التغريب واضحة ، كأنهـا السهام تندفع في أعماق العيون الضالة والمضللة لتسقط عنهـا غشاوات الغباء والجهل ، وجاء بعد ذلك كثيرون ، فأشاروا الى ذلك ، وأوردوا المصادر والوثائق •

من العـرب الدكتور عمر فروخ والدكتور الخالدي في كتابهمـا « التبشير والاستعمار » ومن الغرب المؤرخ العالمـي توينبي في كتابـه « العالم والغرب » •

وهناك عشرات الادلـة والوثائق التي تضع الحقيقة ناصعة أمام من يريدها لوجه الحق ، ولا يمالىء فيها خدمـة لأقطاب التغريب ، ودعاة الجنس ، وعمالقة الغزو الثقافي •

ومن يتابع كتاب « الغارة على العالم الاسلامي » وهـو سابق سبقاً بعيدا لكتاب هاملتون جب ، وقد ترجمه العلامـة محب الدين الخطيب في « جريدة المؤيد » قبل أن يبدأ هذا القرن بسنوات ، وكان اسمه الحقيقي واضح الدلالة على الهدف هو :«فتح العالم الاسلامي»

يجد القضية أكيدة واضحة ، وأن مخططاتها منسقة وموزعة على المؤسسات : مؤسسة المدرسة والجامعة عن طريق الارساليات ، ومؤسسة الصحافة والثقافة عن طريق الصحيفة والمجلة والكتاب ، ثم هناك مؤسسة أخرى أشد خطرا ظهرت من بعدهما مؤسسة القصة والمسرحية والشاشة والاذاعة المسموعة والمرئية .

وليس بعد ذلك دليل على وجود هذه الحقيقة ، حقيقة مؤسسة التغريب ، ولها دعاتها وكتابها المنبثون في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، ولعل من يطالع بعض الاجتماعات التي عقدت في احدى دور الصحف الكبرى (1) يجد الامر واضحا وجليا وليس في حاجة الى دليل جديد أمام الاغرار الحمقى الذين أعماهم حرصهم على أن يكونوا أتباعا أذلة للاسماء اللامعة من كتاب الجنس والقصة ، وأن يكونوا ثمارا فجة في هذه الشجرة الملعونة التي شاخت وتحطمت .

لا ريب أن من يرى مؤسسات التبشير والاستشراق ، وما يصدران من شبهات وتحديات يحكم بما لا يدع مجالا للشك بوجود هذه الظاهرة وحركتها الدائبة .

إن مفهوم مصطلح التغريب في عشرات من تعاريفه انما يعني : خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه ، ثم تحاكم الفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي من خلالها بهدف سيادة الحضارة الغربية وتسييدها على حضارات الامم ، ولا سيما الحضارة الاسلامية .

ولقد ذكر المبشرون والمستشرقون أن هدفهم هو خلق أجيال جديدة من العرب والمسلمين تحتقر كل مقومات الحياة الاسلامية بل الشرقية ، وابعاد العناصر التي تمثل الثقافة الاسلامية عن مراكز

(1) راجع ندوة القذافي في الاهرام عام ١٩٧٢ .

التوجيه ، ولقد عملت حركة التغريب في موالاة عجيبة ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الاسلامية الباهرة والتشكيك في عظمتها وفي مقدمتها الرسول الكريم وصحابته وأبطال الاسلام ، ومفكروه كما ركزت على إحياء النماذج الشاذة والاذاعة بها أمثال الحلاج والسهروردي وبشار وابن الراوندي •

ولقد جرت هذه المحاولات من منطلق براق هو الصحف الضخمة والمطبوعات الانيقة ، مع هالة الاسماء ، وبريق الالقاب ، وضجيج الشهرة ، واستخدمت اسلوب الاحكام المسبقة ، وخلق الافتراضات ، ثم بناء نظريات مسمومة على أساسها •

ولقد كان دعاة التغريب هم أكثر الناس إفسادا للمنهج العلمي الذي يدعو الى التحذير من الحماسة والتقريرية ،والعاطفة والتعميم فسقطوا في هذه الاخطار وفارقوا هذه المحاذير ، وان واحداً منهم لم يستطع أن يخلص بكلمة الحق والانصاف ، وكانت كتاباتهم جميعا مشوبة بذلك الاستعلاء والعدوان وعبارة الحقد وأسلوب التعصب •

ولعل من أخطر محاولات (التغريب) محاولة وضع البديل في مواجهة الاصيل ، والعمل على تقديم بدائل سريعة ذات مظهر لامع ، وتحوطها هالة من الضجيج لكل فكرة أصيلة في محاولة لخنقها ولتحويل الرأي العام عنها في ظل طوابع من الاغراء والتزييف ، وتحت اسم البحث العلمي والعبارات البراقة الخادعة •

وليست هذه الطريقة بجديدة على الفكر الاسلامي ، ولكنها سنة كل العصور ، ولعل أبرز ملامح تاريخ الفكر الاسلامي هو ذلك الكفاح الدائب دون هيمنة الفكر الوافد ، أو العقلية الخارجية التي سلطها عليهم اليونان والهنود والمجوس واليهود ، ولقد بدأت هذه

المقاومة في صور ملحمة رائعة كان أعلام المسلمين ومفكريهم ونوابغهم جيلا بعد جيل ، يقاومون دون السماح لشخصية الاسلام الحضارية والفكرية (ذات الطابع المتميز) تحت اسم (التوحيد) أن تذوب ، أو تتلاشى في شخصية حضارية أخرى ٠

ولقد ظل المسلمون قادرين على ذلك في مجال الفكر في العصر الحديث ، بل لعلهم كانوا أقدر عليه في مجال الحرب والجهاد ، وان هذا الرفض ليتجلى في أروع صوره ، في صمود الجزائريين ومقاومتهم فناء شخصيتهم العربية الاسلامية أكثر من مائة وثلاثين عاما ٠

ولقد ظل أعـلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث يوالون دق الطبول في مواجهة أخطر المحاولات الدائبة المستمرة لتحريف الفكـر الاسلامي (أصوله وتعاليمه وأحكامـه) تارة بالنقص منها وأخـرى بالزيادة عليها ، وثالثة بتأويلها على غير وجهها ٠

ولقد كان من أكبر الاخطار التي واجهتنا دون إرادة حرة، هـو محاولتنا فهم كثير من الامور من خلال مناهج الغرب ومقاييسه ، هذه المناهج والمقاييس التي كونها الغرب من خـلال ظروفه الاجتماعية ، وتحدياته التاريخية ، وتركيبه النفسي والاجتماعي ٠

إن هناك حقيقة لاسبيل الى تجـاوزها أو انكـارها هـي أن في العالم ثقافتين : اسلامية وغير اسلامية ، ولا يمكن أن يلتقيا في اطار واحد ، يخطىء البعض حين يظن أن « التغريب » هـو حمل المسلمين والعـرب علـى قبول ذهنية الغـرب فحسب ، وانما الحقيقـة أن « التغريب » هو محاولة خلق (دائرة فكر) تهدم بناء المسلمين والعرب ، وتنتقص فكرهم ، وتشـيع فيه الشبهات والمثالب ، ثم لا تدفعهم الى أي جانب مـن جوانب البناء أو النهضة مستمدة من أي فكر آخر ٠

ومن شأن هذا الفكر المجهول النسب ، أن يحول بين المسلمين وبين أية حركة أو نهضة ، وانما هو يمسكهم ليدوروا في هذه الدائرة المغلقة ، حتى ينتهوا ، وتجعلهم يفكرون من داخل دائرة مادية خالصة ، معزولة تماما عن العقيدة الإيجابية المتكاملة التي علمهم إياها الاسلام ، وهداهم إليها منهاجا للحياة ، قادرا على التقدم من ناحية ، وعلى مقاومة الغزو من ناحية أخرى .

وهم منذ ركنوا الى هذه الدائرة الصماء ، فقدوا كل قدرة على الحركة الاصيلة ، ذلك أن تركيب الفكر التغريبي الوافد ، انما استخدم أعظم ما استخدم تضارب المذاهب الغربية وصراعها ، وأحيا في نفس الوقت كل ما أنشأته الشعوبية والزندقة والباطنية في الفكر العربي الاسلامي من مفاهيم وشخصيات ، لتقيم من هذا كله تلك الدائرة التي تقتل النفس العربية قتلا ، وتحول بينها وبين الحياة والحركة والبناء والتقدم جميعا ، وتضعها في الذل والظلام والدوار .

ونحن نعرف أن شخصيتنا تستمد قوتها من قيمنا ، فاذا انحرفنا عن هذه القيم ، فقدنا الطريق ، وتهنا في البيداء ، وذلك هو ما قصد اليه التغريب ، واستطاع أن يحققه الى حد كبير ، ولعل أبرز محاولات التغريب هو الحيلولة دون قيام خط التقاء بين العناصر والشعوب التي يجمعها فكر واحد في الاصل مصدره القرآن واللغة العربية ومنهج محمد بن عبد الله ، وذلك عن طريق استهلاكها في الاقليميات والامميات والمفاهيم التي تفصل القيم ، وتمزق العناصر التي وحدها الاسلام في كل متكامل جامع .

فاذا أضفنا الى هذا محاولة هدم المجتمع وتقويضه بنشر

الاباحية عن طريق القصة ، وفلسفات الوجودية والهيبية وغيرهـا ، عرفنا الى أي مدى تجري المحاولة الخطيرة •

بل إن ما ألقي الى العرب والمسلمين من مفاهيم الحرية والتقدم والديمقراطية والعدل الاجتماعي وغيره ، انما كـان في الاصل هـو (عطاء) الاسلام للبشرية كلها وللحضارة أساسا ، قـد أعيـد اليهـا وقد شابه اضطراب كبير غلف بأغلفة براقة لامعة •

ولعل أخطـر محاولات التغريب انما ركزت علـى تفريغ العقل والقلب الاسلاميين من القيم الاساسية المستمدة من التوحيد والاخلاق والايمان بالله ، ودفع هذه القلوب عاريـة أمام عاصفة هوجاء تحمل معها السموم عن طريق التعليم والصحافة والكتاب والمسرحية والفيلم والازياء والملابس •

ومن ثم خرجت هذه المؤسسات جميعا ذلك الجيل الذي حمل دعوة الهدم ، وسار بهـا تحت اسم التقدم والحضارة ، وعمـد الى متابعـة المستشرقين والمبشرين في تحريف التاريخ الاسلامي وتشويه مبادىء الاسلام وثقافته ، وانتقاص الـدور الذي لعبه في تاريـخ العالم ، مع خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين •

وفي عشرات المجالات والقضـايا عمل (التغريب) في مجـالات التفرقة بين الاسلام والعروبة ، وفي النظرة الجزئية ، والفصل بـين الدين والمجتمع ، واللغة والتاريخ ، وعن طريق احياء الروابط القديمة التي أبادها الاسلام ، وقضى عليها نهائيا •

وخلق شبحا كريها اسمه القديم والماضي والتاريخ مع أن أمـة واحدة من أمم الشرق والغرب لا تستطيع ان تدعي أنها انفصلت في أي نهضة عن ماضيها وتاريخها •

وأكبر الدعاوى الباطلة التي يثيرها التغريب هي عالمية الثقافة ، والحضارة البشرية ، ووحدة الفكر البشري ، وكلها دعوات لها دواخلها وغاياتها المريبة ، التي تتمثل في مفهوم واضح هو (تذويب) الفكر العربي الاسلامي و (احتواؤه) وصهره في بوتقة الأقوياء المسيطرين اصحاب النفوذ العالمي السياسي المسيطر .

ونحن نعلم ان لكل أمة ثقافتها وقيمها وذاتيتها ومفاهيمها وتراثها ومزاجها النفسي الذي شكلته القرون المتطاولة ، والعقائد والقيم ، وأنه لا سبيل أن تنصهر الا الامم الضعيفة الذليلة ، أما الامة الاسلامية والفكر الاسلامي ، فانه من المستحيل أن ينصهر أو يذوب في أي معدة مهما كانت ، ذلك لانه اعمق جذورا ، وأقوى قوة من كل قوى الارض .

ولكن ما هي القوى التي تقف من وراء محاولات التغريب ؟

لا ريب أن من وراء حركة التغريب قوى ضخمة من أهمها الصهيونية .

ولا ريب أن من وراء المعركة بين الامة العربية والصهيونية خلفية فكرية غاية في الخطورة تستهدف اخراج العرب والمسلمين جميعا من العقائد والقيم والاخلاق والمفاهيم التي بناها القرآن في النفس الانسانية ، وان امتنا لا بد أن تكون على بينة من ابعاد هذه المعركة التي تمتد الى أعماق القلوب والعقول والتي تستهدف إخراج العالم من الاديان والانسانية والربانية جميعا ، وذلك بمحاولة افساد التاريخ واللغة والتراث والازدراء بالقيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتشريعية الاسلامية التي شكلت هذا المجتمع العربي الاسلامي منذ أربعة عشر قرنا ، وان وراء مخططات التبشير والتغريب ، والغزو الثقافي قوى صهيونية واستعمارية تحاول ان تلقي الى العالم الاسلامي فكرا زائفا وشبهات مضللة تستهدف افساد حضارته ومفاهيمه في مجال التربية والنفس والعقائد ، ومحاولة احياء الوثنيات القديمة من يونانية ومجوسية من مخلفات الامم السابقة للاسلام وهي مخلفات قضى عليها الاسلام نهائيا بعد أن استوعب خير ما فيها ، وساغه في اطار التوحيد والايمان .

ان محاولة الصهيونية الكبرى هي اخراج العرب والمسلمين من قيمهم الاساسية ومفاهيمهم الأصيلة ، وذلك بطرح هـذه المذاهب والدعوات والمفاهيم التي تقوم على الفلسفة المادية والهيبية ، وتتصل بفلسفة الملابس والزينة ، وتكثيف شعر العوارض ، والسيطرة علـى مذاهب الروحية الحديثة ، وتحضير الارواح ، واشـاعة الاسـاطير والسحر والحذر وما يتصل بذلك من احياء التراث الوثني الاغريقي (الهلينية) والتراث الشرقي الاسطوري ، وما يتصل بذلك من مفاهيم الاباحة وكسر القيود اللا أخلاقية في مجال النفس والذات .

ولقد عمدت الصهيونية العالمية الى احتضان كل المذاهب الهدامة وتحريكها في سبيل تحقيق هدفها الـذي أعلنته من (بروتوكـولات صهيون) والرامي الى تدمير القيم الانسانية في العالم كله كمقدمـة للسيطرة عليها .

والمنطلق الاكبر لهذه الدعوات هو فصل الدين عن المجتمـع واثارة الشبهات حول العقائد السماوية ، والتشكيك فيها ، واستغلال بعض النظريات التي لم تثبت علميا لترديد أفكار مضللة ، كالقول بأن الانسانية كانت وثنية ، ثم عرفت التوحيد في الازمان الاخيرة .

وقد جرى هذا القول على ألسنة الكثيرين من البـاحثين دون تنبه لخطئه ولهدفه ، ذلك أن عالم الانسان بدأ مؤمنا وأن آدم أبـا البشر كان موحدا ، وأن الانسانية لم تنقطع عنها رسالات السماء منذ تلك الآماد البعيدة حتى اختتمت برسالة الاسلام .

وان البشرية هي التي عارضت رسالات السماء في كثير مـن

الأحيان ، والتمست الوثنية وعبادة الشمس والقمر والنجوم والأصنام وعبادة النور والظلمة ، وأنهـا هي التـي دعت الى المذاهب المـادية والاباحية والالحادية منذ قرون بعيدة .

وأن ذلك جاء بعد أن ألقت رسالات السماء الى البشرية كلمة الحق ، ولقد كانت الصهيونية في صورتها القديمة هي حاملة لـواء كل هذه الدعوات الهدامة المضللة ، وناسجة فلسفتها ، والداعية إليها والمفككة لرسالات السماء ، والمحرفة لكتابها ، وهي التي ادعت أن لها الها خاصا ليس للعالمين جميعا ، وأنها امتازت بميزة خاصة لم تفز بها شعوب الارض جميعا ، وكانت دعواها باطلة ، وإن المراجعة الدقيقة لتاريخ الالحاد والاباحة في البشرية جميعـا ليكشف عن احتضـان الصهيونية له ، وحمل لوائه منذ القديم وفي العصر الحديث أيضا .

وتمثـل الصهيونية في مفاهيمهـا التي شـكلتها في التلمـود ، ونسجتها منذ عام ٧٠ ميلادية حتى الآن على معارضة كاملة ، وتدمير شديد لكل ما أعطت رسالات السماء وكتبها الانسانية من قيم وحقوق ومثل عليا .

وأنهـا تقف على معارضـة كاملة لكل مـا قدمت الاديـان للبشرية من قيم في التوحيد والاخاء الانساني العالمي ، والعدل والايمان والاخلاق .

وتستهدف بهذه المعارضة العودة بالمجتمع البشري الى العصور الهمجية والى عهد الكهوف .

كشفت الوثائق التاريخية التي تسربت في السنوات العشـرين

الاخيرة عن حقائق كثيرة في هذا المجال ، وفي مقدمة هذه الوثائق (بروتوكولات صهيون) السرية التي افتضح امرها في آخر القرن الماضي وطبعها سرجيوس بيلوس عام ١٩٠٥ ، وحال الاعلام الاستعماري والصهيوني دون دخولها العالم الاسلامي حتى عام ١٩٤٨ عندما بدأ في ترجمة بعض نصوصها نقولا حداد ، ثم ترجمها محمد خليفة التونسي كاملة .

وقد نشرت لاول مرة في جريدة نيويورك ورلد عام ١٩٣١ وعلق عليها هنري فورد ، فقال : انها تصدق ما هو حادث الآن في العالم ، لقد مر على نشرها ستة عشر عاما وهي تصدق على حالة العالم في هذه المدة .

وبهذه البروتوكولات تأكدت حقائق كثيرة أهمها محاولة ثلاثمائة رجل كل منهم يعرف زملاءه الآخرين من الصهيونيين قد رسموا مخططا للسيطرة على العالم ، وأن هذه البروتوكولات قد أكدت الصلة بين الماسونية والصهيونية ، كما أشارت الى عدد من المخططات التي تنفذ من أجل هذا الغزو أهمها الصحافة والمذاهب الفلسفية المادية ، وأنهم عن طريق طرح هذه المفاهيم يرومون القضاء على كل القيم الاخلاقية والعقائد السماوية قبل السيطرة على (الجوييم) أي غير اليهود ممن يطلقون عليهم الأميين ، وإبادتهم والسيطرة عليهم مادياً وثقافياً وروحياً لتسهل مهمة تدميرهم والقضاء عليهم .

واذا راجعنا الكثير من دوائر المعارف العالمية وكتب التاريخ نجد أن الصهيونية قد قامت بجهد كبير في تزييف معظم المواد التي تتعلق بالعرب والاسلام وفلسطين وسيدنا ابراهيم ، وكل ما يتعلق بالخطة التي يحاولون فرضها وطمس المعالم الحقيقية للتاريخ العربي الاسلامي .

واذا كانت (بروتوكولات صهيون)قد حجبت عـن العالـم الاسلامي منذ انكشاف امرها اكثر من خمسين عاما ، فان تصريحات السلطان عبد الحميد بشأن فلسطين والقدس قد حجبت أيضا مثل هذا الوقت بل يزيد ، ولما كشفت هذه التصريحات، غيرت مفهوم التاريخ العربي الاسلامي الحديث كله هذا التاريخ الذي كان قد حجب منه جانب كبير من مؤامرة استيلاء الصهيونية العالمية على فلسطين والمخطط الذي سارت فيه حتى حققت هذه المؤامرة ، وهذا النص الذي كتبه مؤرخ متحرر مـن النفوذ الصهيوني يلقي الضوء على ماذهبنا إليه : أو أن الافعى اليهودية في طريقها الى أورشليم قد مرت على القسطنطينية فدمرت الخلافة الإسلامية ، ولم يكن لها مفر من تدميرها قبل الوصول الى أورشليم واقامة دولة اسرائيل •

وقـد جرت المحاولات العديـدة مع السلطان عبد الحميـد ، واستمرت سنوات طويلة وباءت بالفشل ، وقد سجل هرتزل ذلك في مذكراته التي طبعت بالالمانية من أن السلطان أدلى بتصريح حاسم قال فيه : « بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبذل بعد اليوم شيئا من المحاولـة في هذا الامر (أمر دخول فلسطين والتوطن بها) فاني لست مستعدا لان أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب الى الغير ، فالبلاد ليست ملكي ، بل هي ملك شعبي روى ترابها بدمائه ، فلتحتفظ اليهـود بملايينهم من الذهب » •

وكانت الصهيونية العالمية قد عرضت على السلطان أن تدفـع خمسين مليونا من الجنيهات لخزانة الدولة وتسديد ديونها ، وكان لهذا الموقف الحاسم من السلطان عبد الحميد أثره البالغ في القضاء عليه ، وانهاء الخلافة العثمانية •

ولا شك أن انكشاف هذه الحقائق يعد تصحيحا لاكبر خطأ في التاريخ الاسلامي العربي المعاصر .

كشفت (بروتوكولات صهيون) عن مخططات التدمير التي عمدت اليها الصهيونية العالمية ، وقد أشارت هذه البروتوكولات الى خطة عمل تفذت فعلا في المجتمعات العالمية : «علينا أن نشجع الانحلال في المجتمعات غير اليهودية ، فيحل الفساد ، ويعم الكفر ، وتضعف الروابط المتينة التي تعتبر أهم مقومات الشعوب ، فتسهل علينا السيطرة » .

وتقول البروتوكولات : « قد فتنا بعضهم ببعض بالامور الشخصية والشؤون القومية لكل منهم ، وسيظل هذا الانهيار في طريقه حتى يستنزف قوى الانسانية ، وتهلكها الانقسامات ، وتفشو بينها الكراهات والمكايدات والحسد كما تفشو المجاعات » .

واستتبع ذلك العمل في العالم الاسلامي على ضرب كل محاولات الالتقاء والوحدة ، وقد تنبه العرب والمسلمون لهذه المخططات جميعا سواء منها ما يتصل بالتقارب والاخاء والوحدة ، وما يتصل منها بالمفاهيم والمذاهب والقيم .

ولا شك ان الهدف من طرح هذه الشبهات المتعددة المتصلة بالعقائد واللغة والتاريخ انما تهدف الى اغراق العرب والمسلمين في دعوات متعددة متضاربة حتى لا تشكل لهم وحدة جامعة ، ويمكن القول : إن هناك يقظة صادقة الآن إزاء مخططات الصهيونية وفهماً واضحا لاهدافها ومطامعها ، وتصحيحا دائما لكل الشبهات ، وتحريرا

للفكر العربي الاسلامي من كل ما يراد به من محاولات ٠

للانسانية جميعا ، وليس للعرب والمسلمين وحدهم ٠

وان العرب حين يأخذون اليوم بأسباب العلم الحديث والتكنولوجيا منطلقين من ايمانهم العميق بالله وثقتهم في نصره ، انما يلتمسون الطريق الصحيح للمواجهة التي تتحقق بالصبر والصمود والنصر وتعلي من شأن الحق ، وترد الباطل الذي تكيد به الصهيونية

غير اننا قبل ذلك كله نحن في حاجة اساسية الى معرفة أبعاد هذه المحاولة المطروحة لاذابة الفكر الاسلامي ٠

ان ما وقع للعالم الاسلامي والامة العربية عام ١٩٦٧ بما أطلق عليه « النكسة » امتدادا لما أطلق عليه عام ١٩٤٧ « النكبة » ليس الا ثمرة مخطط بعيد المدى ، جرى تنفيذه مرحلة بعد مرحلة في دقة دقيقة ومتابعة خطيرة ، ويمكن القول : إن هذا المخطط قد سبق عمليات الاحتلال التي تمت للجزائر ومصرفي الثلاثينات والثمانينات من القرن التاسع عشر .

وقد ارتبط هذا المخطط بخيوط مختلفة منها الارساليات التي استقدمت الى الشرق واستقرت في بيروت والقاهرة واستانبول ومنها فئة ١٨٦٠ ومنها مناهج كرومر وليوتن ولاتيمري ودنلوب ، ودار كور وزويمر وهانوتو ولورنس وجلوب من بعد [١] ، وهي المناهج التي وضعت ووصفت من بعد بأنها أعمال التغريب ، وأشار اليها هاملتون جب المستشرق البريطاني ومعه أربعة في بحث مستفيض ظهر تحت عنوان « وجهة الاسلام » عام ١٩٣٠ .

ويضاف الى هذه الخيوط (بروتوكولات صهيون) عام ١٨٩٢ وتقرير الوزير البريطاني (كامبل) عن وضع حاجز بشري بين أهل المنطقة

(١) راجع مخططات هؤلاء الدعاة في كتابنا « الاسلام والثقافات العربية في مواجهة تحديات الاستعمار » .

العربية بفصل آسيا وافريقيا وغير ذلك من مخططات ووثائق عن أعمال ومؤمرات لم تكتشف الا بعد منتصف القرن الحالي تبين معها كيف دبرت الصهيونية العالمية بالاشتراك مع الاستعمار الغربي عملية التهام دولة الخلافة العثمانية وتدميرها فتحا لطريق الصهيونية الى فلسطين ، وتمزيق وحدة العالم العربي ، واقامة الصراع بين العروبة والاسلام •

وكل هذا كان يستهدف سقوط القدس في يد الغرب وخروجها من أيدي العرب والمسلمين اعادة لمخططات الصليبيين والفرنجة قبل ثمانمائة عام وباسم الاستعمار الغربي هذه المرة ولحساب الصهيونية وهو ما حدث عام ١٩١٨ حين دخل اللورد اللنبي القدس وأعلـن : «الآن انتهت الحروب الصليبية»، وكان ذلك مقدمة لسيطرة الصهيونية على القدس ١٩٦٧ وما أشارت اليه المصادر المختلفة من أن الاستعمار الغربي كان مخلب قط للصهيونية •

ولقد اشترك الاستعمار والصهيونية والنفوذ الغربي جميعا في مخطط واحد يستهدف وضع الفكر الاسلامي العربي تحت النفـوذ التغريبي ومحاولة غزوه وتدميره والتشكيك فيه ، واثارة الشبهات من حوله من أجل القضاء على الذاتية العربية الاسلامية والتهام هذه الأمة ، وإذابتها في بوتقة النفوذ العالمي الذي تسيطر عليه اليهودية التلموديـة بعد ان استوعبت الفكر الغربي المسيحي واحتوته •

وقد جرت محاولات الغزو الثقافي والتغريب والاحتواء والتبعية في حلقات متعددة متصلة ينكشف الآن خيوط كثيرة منها منذ وقت مبكر عندما أعلن أحد الكتاب في مجال الدراسة الادبية عن غيـاب شخصية «ابراهيم» عليه السلام وأنكر وجوده بالرغم مما ذكرته الكتب المقدسةوفي مقدمتها القرآن ولقد توالت هذه المخططات حتى كانت نكسة ١٩٦٧ •

ولقد كانت محاولة التغريب وخصوم العرب والمسلمين بعد النكسة طرح مذهب تغريبي اشد فتكا وأقسى ضراوة : هو الدعوة الى ما أسموه « علمنة الذات العربية ، واخراج الجيل الجديد من اطارات الدين » .

وقد طرح هذه المذهب بقوة ، وحاول الدعاة اليه ان يعتبروه المخرج الوحيد للامة العربية من الازمة والنكبة والنكسة جميعا .

وقد أكدت الوقائع زيف هذا الادعاء ، وكذبت الاحداث هذا الاثم المطروح في صورة منهج للتحرير ، وكشفت الامة العربية عن أصالتها ، وخالفت هذا الطريق كلية ، وأبانت عن تبعية الدعوة والدعاة، بل لقد اكدت ارتباط الذات العربية بالعقائد والقيم والاديان ، وكانت الكلمات التي رسمت المناهج الجديدة كلها تتحدث عن بناء أمة عربية من داخل اطارات التشريع الاسلامي .

ولقد كانت المطاردات التغريبية بعد النكسة بالغة الخطورة ، لقد كانت تقول : إن على العرب أن يختاروا بين القيم والعقائد ، وبين بقاء الاحتلال الصهيوني ، وان على العرب أن يختاروا بين إلغاء الذات العربية ، وبين إلغاء الاحتلال الصهيوني ، فيدركوا أن الإلغاء الاول هو شرط أساسي للإلغاء الثاني (على حد تعبيرهم) بل لقد ذهب بعض قادة العدو إلى القول بأنهم يعملون على زعزعة الحضارة العربية عن مكانها ، وبناء حضارة أخرى على أنقاضها .

ان المحاولة تجري من أجل تغيير العقلية الاسلامية وانكار فطرتها وحوافزها والسؤال هو : هل يمكن تغيير هذه العقلية التي كونتها قيم وحوافز امتدت أربعة عشر قرنا دون أن تنفصل فيها المراحل ، أو تتوقف .

هذه العقلية التي اقامت أساسها على التوحيد،والتي شكلها مفهوم الايمان بالغيب ، ودفعتها دعوة القرآن إلى النظر في الكون ، والتماس البرهان ، فأخرجت المذهب العلمي التجريبي ، وقد مت للبشرية مفاهيم الحضارة بمعنى المدنية والعدل الاجتماعي والشورى وحقوق المرأة .

هـذه العقلية التي أضاءت هـذا الكوكب بعلومهـا وآدابهـا واكتسحت الغرب كله بعلومها وشرائعها ، وحطمت الاوثـان ، ودفعت أصحاب الاديان الى اعادة النظر في أفكارهم ، وحـررت كثيرا مـن العقائد من الاضطراب والتعقيـد ، وأباحت للناس حريـة التفكـير والارتباط باللـه دون وسيط ، وقاربت بين الانسان وبين فطرته ..

هل هذه العقلية بتاريخها الطويل ، وأعماقها البعيدة الجذور ، وآثارها التي لا حد لهافي بناء الحضارة البشرية ، يمكن ان تـزال وتدمـر ؟ .

ذلك هو السؤال الذي يوجه الى هذه القوى الغازية التي تظن أنها ازاء فكر بشري ، أو منهج فلسفي من اليسير تغييره والقضاء عليه .

كما حدث حينما احتوت اليهودية التلمودية الفكـر الغربـي ، وأخرجته عن قيمه ومقوماته ، واحتوته احتواء كاملاً داخل إطارات البروتوكولات . من الحق أن يقال : إن لأمتنا منهج فكـر وفلسـفة حياة ، وان لنا نظرية أصيلة في الاجتماع والنفس والتربيـة والاخـلاق والاقتصاد ، هذا الفكر أصل أصيل وان بدا عليه غشـاء خفيف ممـا سفت الرياح ، ولكن الجوهر ما زال ناصعا ، وقادرا علـى الاخـذ والعطاء ، وعلى التقبل والرفض .

واذا كان الفكر الغربي قد مر بمراحل ثلاث : لا هوتية وفلسفية وعلمية فان الفكر الاسلامي سار منذ نشأته على مبدأ واضح ، هـو الاسلوب القرآني الجامع بين العقـل والقلب ، والروح والمـادة ،

والدنيا والآخرة ، ومضى يشق طريقه في الوسط المتكامل الذي لا ينحرف الى اعلاء المادية أو اعلاء الروحية ، أو الى الغاء الفردية او الى الغاء الجماعية .

وكان المسلمون اذا انحرفوا الى اسلوب العقل وحده عادوا وصححوا منهجهم ، واذا انحرفوا الى اسلوب الوجدان وحده ، عادوا فصححوا طريقهم ، ملتمسين منهجا متكاملا قائما على العقل والقلب ، وفق منهج القرآن نفسه .

لقد رفض الفكر الاسلامي مبدأ « التقليد » ومبدأ « التبعية » ذلك ان التقليد يمنع الاصالة ، والمعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية ، والتقليد في نظر الاسلام ينطبق على الوافد وعلى الماضي جميعا . والمسلمون دائما يربطون بين مفهوم التقدم ومفهوم الاصالة ، ويجعلون تقدمهم مستمدا من النبع الاصيل .

يقول لورنس براون : « ان الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام وفي قدرته على التوسع والاخضاع وفي حيويته ، انه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي » .

ويقول العلامة « مسر » : « ان الغربي لايصير عالما الا إذا ترك دينه . بخلاف المسلم ، فانه لا يترك دينه الا اذا صار جاهلا » .

ولذلك فان أخوف ما يخافه الغرب جميعا هو انبعاث العرب عن طريق مفاهيم الاسلام . وبعد .. فهل نحن في حاجة الى خلق محور تدور حوله النفس العربية ؟ .

الواقع أن هذا المحور موجود في القرآن ، وفي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ممثلة في منهج الاسلام ، وهذا المنهج موجود في

أعماق النفس العربية وإن تكن قد طمسته المحاولات التغريبية والاستعمارية التي تعمل جميعا على إخراج النفس العربية بعيدا عن أصالتها وجذورها ومزاجها النفسي .

ان وحدة الفكر هي التي تخلق القوة القادرة على مدافعة خطر إخراج الذات العربية من إطارات الاسلام ، والفكر الاسلامي بأصالته ويسره وبساطته وسماحته هو القادر على أن يصوغ العقل العربي ، ويشكل النفس العربية من جديد .

وقد كان ــ الفكر الاسلامي ــ قادرا دائما ــ وفي خلال العصور المختلفة ــ على دفع عقليات الامم التي تؤمن به الى الفطرة والتوحيد .

وقد استطاع بأصالته أن يخرجها من فكرها القديم ، وأن يصوغها من جديد صياغة اسلامية ربانية خالصة ، ووجهها نحو الكعبة ، وربطها بالقرآن ، وجمعها بالعربية في طريق التاريخ والحضارة .

إن المسلمين واجدون في الاسلام حل كل معضلات البشرية ، وللاسلام حلول لاكبر القضايا التي عجزت الايدلوجيات والفلسفات والمذاهب عن حلها في العصر الحديث وأهمها : العنصرية والاستبداد والظلم الاجتماعي .

إن المسلمين يعلمون أنهم قد اجتازوا مرحلة التبعية ومرحلة التقليد ومرحلة الولاء ، ودخلوا مرحلة الرشد الفكري ، واعادة صياغة الذاتية العربيه الاسلامية على أساس الإسلام ، وفي ضوء القرآن وللعرب والمسلمين خصائص ومقومات ثقافية وحضارية تجعل لهم ذاتا خاصة لا تدوب في اتون الامم الاخرى .

ان الهدف كله هو الاذابة ، وان الخطر كله هو الاحتواء .

ومن هنا فان علينا أن نعرف أبعاد المؤامرة التي تستهدف القضاء على أصالة الاسلام .

أشار العقد الفريد الى قول الشعبي لمالك بن معاوية حين قال : « احذروا الاهواء المضلة ، وشرها الرافضة ، فانهم يهود هذه الامة يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، لم يدخلوا الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتا لاهل الاسلام ، وبغيا عليهم • وقالت الرافضة : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي وكذلك قالت اليهود من قبل » •

ويقول صاحب العقد الفريد : كان لليهود أثر غير قليل في بعض المذاهب الاسلامية ، ولا ريب أن ملامح المؤامرة اليهودية المجوسية واضحة في تاريخ الاسلام وضوحا تاما •

* أبو لؤلؤة الفارسي ومقتل عمر بنْ الخطاب « المؤامرة اليهودية المجوسية » •

* عبد الله بن سبأ وفكرة الحق الالهي في الدولة وابطال الشورى •

* حركات الملاحدة والقرامطة والباطنية ••

* التأويل في نصوص الكتاب والسنة ، والقول بالظواهر والبواطن .

* صناعة البدع والمحدثات واشاعة الخرافات والقصص .
* اذاعة الاساطير الاسرائيلية والتفسيرات الغامضة .
* فلسفة الاشراق ومسائل الاتحاد والحلول .

والمعروف أن مختلف الفرق الباطنية والمضلة تقوم على التأويل ، والتأويل «غير التفسير» يقصد به باطن المعنى أو رموزه وإشارته أو الجوهر الخفي وراء الكلمة التي لا تدل عليه ، كما تقوم هذه الفرق على اسقاط التكليف ، وحط أعباء الشرع عن المتعبدين ، وتسليط الناس على اتباع اللذات ، وطلب الشهوات ، وقضاء الوطر في المباحات والمحرمات .

ان هدف المؤامرة اليهودية منذ قديم هو هدم الاسلام من الباطن ، هدمه فكريا وعقائديا . ولذلك « فقد أشاعت بين جماهير المسلمين مجموعة من الافكار التي تنطوي على الخرافة والتخذيل النفسي ، وتقديم تفسيرات مضللة عن الاسلام ، وكانت من اكبر الاسباب التي حولت المسلمين عن تكوينهم النفسي ونظامهم الاجتماعي .

وقد جمعت هذه الايدلوجية اليهودية بين طرفين بالفصل بينهما من حيث يجمع بينهما الاسلام :

طرف عقلاني يغلو في مفهوم العقل اوالحس ، وطرف حدسي خالص يغلو في مفهوم الروح والوجدان .

ولقد جرى بعض ذوي الاهواء من المسلمين وراء هذا المفهوم الزائف ، لانه يرضي الرغبات ، ويحرر النفس من الضوابط والقيود

ويحول دون اقامة الحدود حدود الله التي لاتعتدى عليها ، وخلفوا وراءهم مفهوم الاسلام الجامع المتكامل .

واذا نظرنا اليوم وجدنا الصورة تتكرر حيث يؤمن المسلمون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض ، فهم اما عقليون او حدسيون ، وهم قد يحققون في حياتهم مفهوم العبادة ، ولكنهم يغضون – جهلا أو قصدا – عن مفهوم ارتباط الاسلام بالمجتمع وتطبيق الشريعة .

ونرى في كثير من الكتابات المعاصرة هذا الطابع الباطني المسرف في الاعتماد على كتب معينة سواء من كتب المعتزلة أو الباطنية أو الصوفية والفلاسفة ظنا منهم أن أي نوع من هذه الانواع ، هو مفهوم الاسلام ، أو أنه يمكن أن يصبحوا به ، وقد وقعوا على مفهوم الاسلام الصحيح . وعيب هؤلاء أنهم لا ينظرون نظرة كلية الى حركة التطور التي صاحبت الفكر الاسلامي في القرون الاربعة الاولى من حيث ارتباطه بالفرق والاحزاب السياسية ، ومن حيث طبيعة شكله بعد أن اتصل بالفلسفات المختلفة .

ولا ريب أن الاعتزال والكلام والتشيع والتصوف كلها مراحل في فكر واحد ، وحلقات متصلة استعلت بنفسها ، ثم غلب عليها مفهوم الاسلام الجامع التي تشكل جامعا لخير ماتناولته هذه الفرق والدعوات بعد أن صفاها من أسباب الصراع والخلاف السياسي والفردي ، واستوعب عصاراتها في أعماقه .

فالاسلام نظر عقلي ، وأشواق روحية ، وحب لاهل البيت ، ودعوة للحوار مع غير المسلمين ، ولكنه ليس عقلا خالصا كما يظن

من يقرؤون فكر المعتزلة ، ويظنون أنه هو الاسلام وحده ، أو من يرون أن الاسلام حين تجاوز الاعتزال ، فقد ميزته في النمو والحركة ، كل هذا لا يصدر الا من أصحاب النظرة الجزئية التي تسيطر على الفكر البشري عامة والفكر الغربي في العصر الحديث .

ويردد كثير من الباحثين الذين يتبعون مدارس الاستشراق والتغريب عبارة « هزيمة المعتزلة » ويريدون بها القول بأن هذه الهزيمة انما كانت عاملا من عوامل التأخر والتخلف ، والقائلون على هذا النحو لم يستوعبوا حقائق الاسلام ، ولم يفهموه فهما صحيحا ، وربما فهموه من داخل دائرة الفكر الغربي .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة كانت نتيجة طبيعية لاختلاف هذه الدعوة مع جوهر الاسلام ، ومع طبيعة الفكر الاسلامي ومنهج المعرفة منه ، هذا المنهج الذي يقوم على جماع العقل والوجدان .

لقد كان الاعتزال أساسا محاولة لمواجهة المذاهب الفلسفية التي كانت تحتمي وراءها الاديان المعارضة للإسلام ، وقد أدى دوره في هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام في الاديان والفلسفات الاخرى في قوة وادلال منهم ، وحقق كثيرا من النتائج ، وأدخل مئات من الوثنيين في الاسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو في تأكيد موقفهم وفكرتهم ، حين أعلوا شأن العقل ، وبلغوا به مبلغا خطيرا ، ولما كان المسلمون يؤمنون بالغيب والشهادة ويؤمنون بالوحي والعقل ويتكامل ايمانهم هذا ، ويتشكل في وحدة واحدة ، فان إعلاء شأن العقل وحده

كان خروجا على مفهوم الاسلام ، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة ، وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح . ومن هنا جاءت التعديلات والتصحيحات التي قام بها الامام الاشعري ، ومدرسة الامام أحمد بن حنبل، إذكان لا بد أن يعود الاسلام الى أصوله ، وأن يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من الانحراف . وبذلك كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الاسلام وتعديلا لمسار فكره ، وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعا الى أن الاعتزال كان وليد الفكر اليوناني وتابعا له ، وأنهم كانوا يتمنون له نجاحا مضطردا يخرج الاسلام من مقوماته ، كما أخرج المنطق الاديان السابقة ، ولكن أصالة الاسلام كانت أكبر من هدف الفلسفة اليونانية . ولذلك فان الدعوة التي تتردد اليوم حول تجديد الفكر العربي مستخدمة فكر المعتزلة هي دعوى باطلة ، لانها لاتفهم الاسلام، ودعوى زائفة ، لان الاعتزال ليس هو الفكر الاسلامي ، ولكنه مرحلة من مراحل تطوره وتشكله ، انصهرت بعد فيه انصهارا كاملا .

كذلك تجيء الدعوة الاخرى الى تفسير القرآن تفسيرا باطنيا ، وهي لا تعدو أن تكون حلقة من الدراسات الشعوبية التي تستمد مصادرها من الفكر اليهودي ، القائم على الاسرائيليات ، والذي يتصل بالباطنية واخوان الصفا والسبئية والقرامطة .

ولا ريب أن محاولات تفسير الجزاء بأنه روحي والجنة والنار بأنهما شعور نفسي ، والتي تحاول أن تبيح ما حرم الله من حدود اللباس والزي والزينة كل هذا زيف مردود وقديم من المجوسية التلمودية يتجدد على أيدي دعاة ربما لا يعرفون مدى خطر الكلمة التي يقولونها .

ويرجع هذا الى أن قراءات أصحاب هذا الفكر تنصب على كتب التصوف الفلسفي ورسائل اخوان الصفا وكتابات ابن المقفع وابن الراوندي وغيرهم ممن ينكرهم الفكر الاسلامي تماما ، ويشجب صلتهم به •

ويعود بنا هذا مرة أخرى الى قانون المفاصلة القرآني الذي تجري محاولات كثيرة لتزييفه اليوم تحت أسماء الثقافة العالمية ، التبادل الثقافي ، التقاء الثقافات ، وحدة الفكر البشري الخ •

إنما تريد كل هذه الدعوات دمج القليل في الكثير ، والضعيف في القوي ، والفكر الاسلامي الآن وأمته في موقف الحرج ، وفي أفواه الازمة الكبرى ، وفي موقف التحدي إزاء الغزو الثقافي والسياسي والاجتماعي والعسكري لا تستطيع أن تستعلن وجود ثقافتها المتخيرة ولا تستطيع أن تفرض طابعها ، ولذلك فهي في موقف الاحتواء من الثقافات العالمية التي تتقارب الآن سواء أكانت رأسمالية أم ماركسية أم صهيونية ، بينما يقف الاسلام وحده ثابتا شامخا كالطود لا يمكن أن ينصهر أو يحتوى أو يغرق في أتون هذه الثقافات ، فهو وحده الدين الخالص ، والفكر الرباني ذو الطابع الانساني ، وتلك هي دعوة القرآن الى المسلمين منذ أربعة عشر قرناً في المفاصلة والمواجهة والوقوف على معالم واضحة ، وقول معروف فاصل ، دون أن تنطوي أو تقبل التبعية ، وذلك هو « الخطر » القائم أمام الغزو العالمي التلمودي الذي يستهدف السيطرة على العالم كله وإذلاله للايديولوجية اليهودية التي رسمتها بروتوكولات صهيونية •

وقد فاتت مرحلة استطاعت فيها الصهيونية أن تحتوي الفكر

الغربي كله ، وأن تحركه من داخل دائرتها في مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والنفس والاخلاق والتربية •

واليوم يواجه المسلمون المعركة من خلال صلتهم بالفكر الغربي الذي وقـع تحت الاحتواء التلمودي والـذي يحمل الآن جـذور المؤامرة اليهودية الكبرى •

إن قانون المفاصلـة القرآني يقول : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) [البقرة : ١٣٠] (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكـم عن دينكم إن اسـتطاعوا) [البقرة : ٢١٧] (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهـم) [الكهف : ٢٠] (إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبـوا خاسريـن) [آل عمران : ١٤٩] صدق الله العظيم •

وبعد فهل المؤامرة القديمة ، قد غيرت جلدها ؟

الإسرائيليات الجديدة

لـم تكـن الاسرائيليـات الجـديدة إلا صورة مجددة مـن الاسرائيليات القديمة ، غير أنهـا وضعت في صورة المناهج العلمية ، وألقي عليها ظل من براعة التعبير ، وصنعت في نظريات مستحدثة . ولقد كشف كثير من الباحثين الجذور التلمودية في :

* مذهب التحليل النفسي لفرويد .

* مذهب ليفي بريل عن القول بتطور الأخلاق .

* مذهب دوركايم عن القضاء على المسؤولية الفردية وتغليب المسؤولية الجماعية .

* مذهب ماركس في إعلاء التفسير الاقتصادي للتاريخ .

وفي مجال هدم « إسلامية » الثقافة العربية والامة العربية كانت المحاولات والمؤامـرات تدور حول تزييف التاريخ وتصوير حملات الباطنية والقرامطة على أنها حركات ثورية اصلاحية .

وقد ظهرت هذه الحركة في أفق الفكر الاسلامي المعاصر بعد أن صدرت توصية مؤتمر بلتيمور الذي عقد في عام ١٩٤٢ والـذي دعا إلى الاهتمام بدراسة وابتعاث الحركات السرية في الاسلام . ومن ثـم بدأت كتابات (عربية) كثيرة في هذا المجال ، تحاول أن تصور حركات الامتعاض علـى الاسلام ودولته على أنهـا حركات اسلامية أصيلـه .

وفي السنوات الاخيرة تركز الحديث حول القرامطة ووصفهم بأنهم حركة تقدمية ، وجاء أحد الدعاة الى الشرق ليصف القرامطة بأنهم دعاة العدل في الاسلام ، من أمثال جارودي ، ووصفهم الدكتور طه حسين كذلك عام ١٩٥٠ تقريبا في بحثه في مجلة الكاتب المصري اليهودية المصدر .

ولم تكن حركة القرامطة في الحقيقة حركة اسلامية ، ولكنها كانت إحدى الحركات المتصلة بالمؤامرة التي دبرت على الاسلام ودولته ، هذه المؤامرة المتصلة التي اشترك فيها اليهود والمجوس والقوى الشعوبية لحساب الدولة الرومانية الشرقية .

ويمكن أن تصدر في تقييمها التحفظات التالية :

أولا ـ لم تكن حركة القرامطة انسانية الطابع ، أو تعمل على تحرير الانسان أو تكريمه ، وقد استخدمت الاسلام ستاراً لها لتحقيق أغراض المؤامرة ، بل كانت حركة [illegible]فية محضة .

ثانيا ـ ارتبطت حركة القرامطة بثورة الزنج ولم تكن ذات طابع اسلامي ، بل كانت بمثابة الأخذ بالثأر على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « فقد حرض هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم من إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم » .

ثالثا ـ لم تكن هذه الحركة اسلامية ، لأنها لم تستطع أن تحقق نهج الاسلام في الحكم ولو ليوم واحد وإنما حققت مناهج الشيوعية في المال والعرض ، وقام مجتمعهم على المنافسة ، وكان التقدم فيه قائما على الثروة المالية ، فكان مجتمعها مجتمعا طبقيا .

رابعا ـ كذلك ينفي عنها طابع الحركة الاسلامية اعتداؤها

علـى الاراضي المقدسة ، وتجريح الرسول وصحابته ، وقـد هاجم القرامطة موسم الحج ، وقتلوا نحو ثلاثين ألفا من الحجاج ، وانتزعوا الحجر الاسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج •

خامسا ــ تؤكد النصوص التاريخية الصلة الوثيقة بين حركـة القرامطة وبين الحركة الباطنية الاسماعيلية في دور الستر وإن اختلفت معها في دور الظهور •

سادسا ــ كان المجتمع القرمطي مجتمعا طبقيا فيه طبقة السادة وفيه طبقة العبيد التي كانت تتكون من الاسرى ولم يكن لها أي حق في أي حرية أو مساواة مـع الآخرين ومعنى هـذا انقلاب الوضع •

فقد عهد العبيد الى الاستيلاء علـى السلطة ووضعوا أصحاب البلاد في موضع العبيد •

سابعا ــ كشفت الوثائق أن هناك صلات ظاهـرة وخفية كانت قائمة في ذلك الوقت بين الباطنية والصليبيين •

ثامنا ــ يعـد الحلاج من أمثلة هـذه الروابط بين الحركـة الباطنية وأعداء الدولة الاسلامية وقد كان الحلاج مـن أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية وأنه كان على صلة بالقرامطة • وقد روي عنه أنه أقسم في أحـد أحاديثه القدسية التي كـان يزعمها لنفسه [١] لعام ٢٩٢ هـ •

وهذا العام هو الذي شهد الثورة الكبرى للقرامطة ، وقد سجل هذا كله ماسينيون في كتاباته عن الحلاج •

---

(١) رجعنا في هذا الى بحث الدكتور محمود قاسم (الهلال ينايـر ١٩٧١ م) •

وهذه التحفظات تكشف عـن زيف دعوى المدعين بأن حركـة القرامطة ثورة اسلامية أو حركـة اصلاح ، كـذلك فان بعض كتاب العرب قد أولى اهتمامه للحلاج ووصفه بأنه داعية تحرير الانسان من الظلم والحقيقة أن الحلاج لا يستطيع الثبات في مجال الزعامة الإسلامية لحظة واحدة .

فقد وصفته كتب التاريخ التي بين أيدينـا بأنه « رجل مجوسي الاصل ، اشتغل بالمخاريق والحيل وادعى العلم بالاسرار ، ثم تناهى الى ادعـاء النبوة ، ثـم الربوبية ، واستغوى غلمـان قصر المقتدر العباسي لينفذ بهم الى تحقيق غايته ، فأدى ذلك الى قتله » .

وذكر امام الحرمين في كتابه « الشامل » أنه كان بين الحلاج وبين الجنابي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة ، وأن هذا هو السبب الحقيقي لقتل الحلاج ، فالحلاج لـم تقتله الكلمة مهما كانت مغرقة في الشك والوثنية ، وانما قتل حين ثبتت عليـه مراسلات الى القرامطة ، وتبين أنه كـان وكيلا لهم ، وكان القرامطة قـد أزاحوا النظـام الاسلامي ، وسفكوا الدماء ، وخربوا البلاد ، وأنشأوا لهم عاصمة في هجر حملوا اليها الحجر الاسود ، فظل بها ثلاثين عاما .

ولقد قيل : إن دعوى الحلاج في الحلـول والاتحاد والاشراق ووحدة الوجود كانت منطلقه إلى تمزيق الفكر الاسـلامي وإفساده ، وهـدم تعاليم الاسلام تمهيدا لتحطيم سلطته السياسية وهـو نفس المنهج الذي سلكته الباطنية ، فقد رأى خصوم الاسلام إزاء عجزهم عن هدم الدولـة أن يلجؤوا الى تقويض عقيدة التوحيد التي جمعت شمل المسلمين ، وتذرعوا الى ذلـك بنظريات التصوف الهنـدي ،

والمجوسية الفارسية ، والفلسفة الوثنية اليونانية ، وكـانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الاسلامية ، والترخص في الحدود ، وإباحـة المحرمات •

وقـد جرى الحلاج في ذلـك شوطا طويلا ، فادعى الالوهية ، واتهم بمعارضة القرآن ، وأنه يحيي الموتى ، وأن الجن يخدمونـه ، وأنـه يعمل من الخوارق مايشبـه المعجزات ، وأنـه كان يدعو إلى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت الحرام في مكة ، وله من أصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها إلا هو ومن أرسلها اليه •

وقد أشار الدكتور قاسم الى أنه مما يثبت إدانة الحلاج بالعمل مع القرامطة أنه كان يصرف الناس عن الحج ، وكـان يستعيض عنه بكعبة مصغرة في بيته يطوف بها أتباعه طوافاً يغنيهم عن الذهاب الى مكـة •

ومن الظاهرات الجديدة في أفق البحث ظاهرة (وحدة الوجود) وهي ذات مصدر ديني قديم لا يقول بالتوحيد ، ويتصل بالتعدد حتى ليمكن القول :إنها إحدى ركائزه الاساسية ، وقد وجدنا مـن أمثال الدكتور حسين فوزي وغيره من يفخر بأنه يؤمن بها •

ومذهب وحدة الوجود دخيل على الفكر الاسلامي وهو مـن المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطـة بالوثنيـة والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التي تحرر منهـا الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها • وتعني وحدة الوجود تأليه المخلوقات ، واعتبار الكون هو « اللـه » جل جلاله ، وهي دعوى تتناقض مـع جوهر العقيدة الاسلامية تناقضا مطلقـا بحيث لا يمكن التوفيق بينهـا وبين دين عقيدة التوحيد بأي وجه من الوجوه •

ومفهوم الاسلام في مواجهة وحدة الوجود : هـو أن الموجود اثنان : « واجب الوجود » وممكن الوجود .

أما واجب الوجود ، فهو صانعها الواحد الاحد الفرد الصمد ، وأما ممكن الوجود ، فهو هـذه الكائنات التي ندركهـا بحواسنا الخمس مباشرة .

كذلك أنكر الاسلام عقيدة الاتحاد : حلول الخالق في المخلوق ، أو استغراق المخلوق في الخالق .

والاسلام يميز طبيعة كل منهما ، ولايقبل وحدة الوجود ، لأنهـا تتعارض مع (لا إله إلا اللـه) .

ومن هنا نرى كيف أن الاستشراق وهو مادة التغريب والتبشير جميعا يركز على هذه القضايا :

١ ــ قضية التصوف الفلسفي وفكرة وحدة الوجود في مجال العقائد .

٢ ــ وقضية الثورات المضادة للاسلام ، ويحاول أن يصفها بأنها ثورات اسلامية كالقرامطة والزنج وغيرها .

ولقـد أغري بعض الذين يكتبون بهـذا منذ وقت بعيد ، وما تزال أجيال الشعوبيين تتوالى وتجدد دعواها . (واللـه يقول الحق وهو يهدي السبيل) .

أخطار التبعية

إن أخطر ما يدعونا اليه « التغريب » : هـو « التبعية » ، وإن أخطر ركائز الفكر الاسلامي هو الاصالة والتميز واستحالة الاندماج أو الذوبان أو الاحتواء في الفكر الامي .

فالاسلام هو النموذج المتميز بالتكامل مـن ناحية بينما الفكر الغربي يتسم بالتجزئة والانشطار ، وهو الجامع بين العقيدة والفكر في وحدة لا تنفصل ، وهو الذي يعتمد على الوحي والنبوة ورسالـة السماء أساسا له ، ثم يكون العقل وسيلة من وسائلـه والعلم منهجا يجري في مجراه .

ومن هنا تبدو خلافات كثيرة ، ومباينات واضحة بين فكر لـه جذور عميقة ممتدة راسخة من العسير اقتلاعهـا أو تحطيمها ، وبين فكر آخـر وافد أتاحت له « الظروف » ثمـة أن يكون لـه نفوذ وسلطان مسيطر حتى حين .

إن أخطـر ما حذر منه فكرنا الاصيل هـو متابعة الناس بغير برهان ، والخروج من ذاتيتنا ومقوماتنا تحت سيطرة الاهواء والبريق ، وإن أكبر ما دعينا اليه الحرص على حفظ كياننا بطوابعه الاصيلة من

أن تستوعبه الدعوات أو تحتويه المذاهب أو تحطمه الاخطار .

لقد كانت أمتنا قادرة في أوقات المحن والازمات أن تتقوقع وتضم جناحيها على كنزها تحفظه بين أحضانها ، ولا تفرط فيه حتى تزول الازمة ، وتنكشف الغاشية .

ذلك أن الامم التي استهانت بقيمها ومركبات شخصيتها من لغة وعقيدة وتاريخ وتراث ، هذه الامم ضاعت أدراج الرياح ، ووضعت في توابيت المتاحف .

إن هناك محاولة مضللة تحاول أن تقول بوحدة الامم أو وحدة الثقافة وهي تنبعث من الاقوياء المسيطرين بالاستعمار والنفوذ وأدوات الغزو ، ومن هنا فهي محظورة ، علينا أن نواجهها بحذر وأن نعرف أنها إنما تريد أن تبتلعنا في أتونها الضخم .

إن وحدة الامم والفكر انما تتصل بالقيم الانسانية العليا من الإخاء والعدل والحرية ، وهي قيم لا يعرفها الغزو الاستعماري الذي يصارعنا الآن ، ويشتبك معنا في أخطر معاركه في قلب عالمنا الاسلامي العربي .

إن الفكر الاسلامي يؤمن بوحدة الجنس البشري ايمانا لا مراء فيه ، ولكنه يقدر أثر الخلاف الذي أوجدته محاولات البشرية في تشكيل فكرها بما يغاير القيم الاساسية التي جاء بها الدين الحق ضوءاً كاشفاً ونوراً هادياً .

إن هناك محاولة خطيرة لاخراج البشرية من اطار الايمان والتوحيد والمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي والبعث والجزاء .

وقد نجحت هذه المحاولة في بعض أطراف الارض ، وهي اليوم تمتحننا نحن المسلمين بأخطر امتحان ومحنة ، حين تحاول تحطيم ذلك الحائط الماثل القائم في وجه الوثنية والمادية والالحاد والاباحية : حائط الاسلام .

« فلنتنبه إلى هذا الخطر الذي يحاول أن يجتاح فكرنا كله » فحيثما ترى خطرا ، فهو متصل به : خطر حول اللغة ، وخطر حول العقيدة ، وخطر حول الاخلاق ، وخطر حول الشباب ، وخطر حول التربية ، وخطر حول مفاهيم الثقافة .

ان هناك حربا تشن على العقائد الموروثة وعلى المسلمات التي تتصل بالوحي والبعث ، وهناك فلسفات مطروحة ترمي الى إلغاء القيم الثوابت واقامة التطور المطلق ، وتجاوز الروح واقامة المادة وحدها ، والغاء الضوابط الاخلاقية والمسؤولية الفردية ، ودعوة الى رفع الوصاية عن الشباب ، بل هناك دعوة صريحة اعلنت خطتها باخراج العرب والمسلمين من اطارات الدين ، ودعوتهم الى علمنة الذات العربية .

ومن وراء هذه الدعوات : الاستعمار والتغريب والصهيونية العالمية .

وهناك دعوات إلى إعادة طرح الاساطير ، والإباحيات في أفق الفكر الاسلامي عن طريق القصة والمسرح والصحافة .

وهناك دعوات تزين الباطل وتزخرفه ، ودعوات تحول الشر الى صور براقة زاهية ، وتضع الفاسد مكان الحق .

وهناك محاولات لاحياء الجاهلية العربية ، والوثنية الاغريقية ،

والمجوسية الباطنية وقد تجد هذه الدعوات تقبلاً مـن الشباب القليلي الخبرة ، الذي عجزت المناهج الحديثة ان تطفيء غلته ، وتسد نهمتـه من القيم والمفاهيم الاسلامية العاصمة من الزلل وهناك محاولات تضع تخلف المسلمين والعرب وهزيمتهم الماضية في مواجهة فكـر الغـرب كسبيل للتحرر ، وفي مواجهة فكر المسلمين كمصدر للهزيمة ، وتلك كلها محاولات باطلـة •

فالمسلمون والعرب لم ينهزموا الا من منطلق واحد ، هو أنهـم تشبثوا بالتبعية وأساليب الفكر الوافد ، وتركوا أسـلوبهم الاصيل ومنهجهم الامثل الذي انتصروا به خلال تاريخهم كله •

وكذلك لم ينتصروا إلا حين التمسوا منهجهم ، ورفعوا عقيرتهم بكلمة اللـه •

وقد نسوا في ظل مرحلة القسر والاستعمار ان مناهجهم تختلف اختلافا كبيرا عن مناهج الغزاة والمستعمرين من ناحية ، وان هـؤلاء الغزاة لن يقدموا لهم إلا كل زائف ومضطرب وفاسد وأنهـم حجبوا وما زالوا يحجبون عنهم أسرار العلم واساليب التقدم وان باعوا لهـم منتجاتهم حتى يقفوا عند حدود الاستهلاك •

آثار التبعية

لقد حرص الإسلام على الفصل بين الفكر الإسلامي الرباني المصدر والانساني الاتجاه ، وبين الفكر البشري المختلط بين الوثنية والمادية .

من اخطر الوصايا التي تجاهلها المسلمون ، والتي كانت بعيدة الأثر في حمايتهم من ضربات الغزو الفكري والتغريب ، لو أنهم حرصوا على التمسك بها ، هي دعوة القرآن لهم الى « الحــذر » من الاوهام والشبهات التي حفل بها التاريخ القديم ، وذلك بعد أن كشف القرآن عن زيفها وأبان وجه الحق في مختلف القيم التي طرحت ، وخالفت كلمة اللـه ، وتعارضت مع الفطرة والعقل .

ولو أن المسلمين تمسكوا بهذا التحذير ، لكفاهم ذلك عن كثير مما وقعوا فيه من محاذير ، وفي اكثر من مـوقع في القرآن يكشـف محاولة الاحتواء : (يايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين) [آل‌عمران : ١٠٠] وقال ــ سبحانه وتعالى ــ أيضا : (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم) [البقرة : ١٠٩] .

وأيضا : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتـاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) [النساء : ٤٤] .

ولقد أولى الرسول ــ صلى اللــه عليه وسلم ــ هذا التحذير اهتماما كبيرا حتى لا يقع المسلمون في هذا الخطر ، فحيث يأمر الاسلام المسلمين بأن ينظروا في الســماوات والارض ويتفكروا ، ويدعوهــم الرسول الى أن يطلبوا العلم ولو في مكان ناءٍ ، ويرى أن أي علم نافع اوتيه المسلمفهو أحق الناس به ، اذا هو يحذّر كثيرا من الخوض في ذلك النوع من المعرفة : الذي يتصل بالعقائد والثقافات والقيم الفكرية٠

عن جابر رضي اللــه عنه ، فيما يروي الامام احمد بن حنبل : أتى سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضي اللــه عنه ــ النبي ــ صلى اللــه عليه وسلم ــ بكتاب اصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبــي قال : فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يا بــن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شــيء فيخبروكم بحــق فتكذبوه أو بباطل فتصدقوه ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه الا ان يتبعني » ٠

ووقف رسول اللــه ــصلى اللــه عليه وسلم ــ فقال : « يا أيها الناس ، اني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي الكلام اختصارا وقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تتهوكوا (أي تتشككوا) ولا يغرنكم المتهوكون ٠ ثم أمر بتلك الصحيفة فمحيت حرفا حرفا ٠

وقد جاء القرآن مؤيدا لهذا المعنى في أفصح بيان :

(او لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) [العنكبوت : ٥١] ٠

وروى الشعبي عن جــابر عن رسول اللــه ــ صلى اللــه عليه وسلم ــ قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدونكم ، وقد ضلوا ، وانكم إما أن تصدقوا بباطل ، واما ان تكذبوا بحق » ٠

تلك ركيزة من أخطر ركائز الاسلام ، وضعها القرآن الكريم ، مصدر الفكر والثقافة والعلم كله ، ونماها رسول اللـه ــ صلى اللـه عليه وسلم ــ وتركها عبرة واضحة جلية ٠

غير أن المسلمين لم يلبثوا بعد ذلـك أن دخلوا في متاهـات كثيرة ، وجاءت المذاهب الهدامة ، والدعوات الضالة القديمـة التي عرفها المجوس والهنود واليونان ، فصبت قدرا من شرهـا في محيط الاسلام ٠

وكان المأمون هو الذي سمح بترجمة الفلسفة الإلهية الوثنية ، إذ توقف المسلمون قبل ذلك عند ترجمة الفلسفة الرياضية والطبيعية واكتفوا بها ، انطلاقا من مفهوم الاسلام في البحث عن العلم والانتفاع به ، دون البحث عـن العقائد والثقافات ، ولقد كانت ــ العقائـد والثقافات ــ قبل الاسلام مضطربـة حافلـة بالخلط بين الحقائـق والاباطيل ، حتى لقد بلغت الغاية في ذلك حيث شكلت مذهبا وثنيا إباحيا ماديا يكاد يتجدد على مدى العصور ٠

ولا ريب أن ما يواجه البشرية اليوم من مذاهب ودعوات ، إنما هي عصارة ما طرح مـن قبل ، واستمداد منه ، والجديد فيهـا أنها صيغت في اسلوب عصري ، ووضعت في قالب براق حتى يغرى بهـا البسطاء ومن لم تكتمل ثقافتهم الاسلامية ٠

ولقد كان الخطر أننا قصرنا في تنبيه أهلنـا وأجيالنا الجديدة وتحذيرهم من ذلك الشر ، وأننا لم نكشف لهم عـن أبعاد المؤامرة التي يعدها خصوم الاسلام في كل عصر وكل جيل ٠

ومن هنـا فقد قرأ شبابنا هـذه الشبهات على أنهـا فلسفات ومذاهب ، بل ربما على أنها حقائق ومسلمات ، وبذلك وقعنا في خطر

التبعية بعد خطر التقليد .

وإذا كانت الازمات القاسية التي تمر بالمسلمين اليوم يمكن ارجاعها الى مصدر أول ، فإنما هو هذا الانحراف عن تحذير القرآن والرسول ، ومتابعة المضلين الذين آثروا مفهوم التأويل ، فكان أخطر الاسلحة التي استعملت لتفسير النصوص تفسيراً يخرجها عن مدلولاتها الاصلية الى مفاهيم منحرفة .

ولقد حذر القرآن من هذا ، ووضع الخطة الكاملة التي لا يضل معها مؤمن : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) [آل عمران : ٧]

لقد كان لإحياء الفكر البشري القديم آثاره البعيدة في إثارة الشبهات ، وإحياء الزندقة والإباحة ، غير أن علماء المسلمين وأئمتهم (من أمثال الشافعي والاشعري والغزالي وابن تيمية وابن حزم وعشرات) قد واجهوا هذه الازمة الخطيرة ، ودحضوا الشبهات ، وأبانوا وجه الحق في الامور كلها .

وفي العصر الحديث عندما جاء الاستعمار يحمل معه التغريب والغزو الثقافي وأداتهما التبشير والاستشراق ، أعاد إحياء هذه الشبهات من جديد وقدمها في صورة مذاهب وفلسفات .

وما تزال هذه الشبهات تواجه المسلمين ، وتحاول أن تصرعهم ، إلا من عصم الله ، ولقد تحركت أقلام النابهين من العلماء في العصر الحديث لترد هذه المحنة ، ولتصحح المفاهيم وما تزال لم تتوقف .

ومن أبرز هذه المفاهيم المخالفة للفطرة المعارضة للعقل المختلفة

مع رسالة الاسلام ومفهوم القرآن :

(١) الدعوة الى انكار الغيب والبعث والجزاء والجنة والنار .
(٢) الدعوة الى سقوط التكليف عن كل من وصل الى معرفة اللـه .
(٣) عبادة قوى الطبيعة .
(٤) نظريات الفيض والإشراق والاتحاد والحلول .
(٥) دعاوى الروحية الحديثة وتحضير الارواح .
(٦) مذاهب البهائية والماسونية .
(٧) دعوات الاقليمية كالفرعونية والفينيقية .
(٨) فصل الدين عن المجتمع والدولة .
(٩) طرح المفاهيم الوافدة في القوميـة والعـدل الاجتمـاعي والقانون .
(١٠) الدعوة الى العالمية والأممية .
(١١) ادعاء التعارض بين العروبة والاسلام .
(١٢) طرح النظرية المادية المنكرة لوجود الخالق .
(١٣) الدعوة الى التحلل والإباحة والحرية الدينية والاخلاقية.

ولا ريب أن المسلمين يعرفون ــ التماساً بقيمهم ومفاهيمهم من القرآن ــ أن هـذه الدعوات كلها قـد وجدت في غير بيئة الاسلام وقامت في غير ظل التوحيد ، وأنهـا هي المقاتـل التـي صرعت الامـم والحضارات والتي جاء الاسلام ليعارضها ويمحوها ، ويقيم للبشرية منهجاً ربانياً في مصدره ، انسانيا في تطبيقه يقوم علـى أساس العدل والحق والايمان باللـه ، ويرسم للحياة الدنيـا طريقها الواضح الى العمران في نطاق الاخلاق ، وإقامة المسؤولية الفردية والالتزام الخلقي وربط الدنيا بالآخرة .

الشخصية الإسلامية

من المتعين أن الشخصية الاسلامية هي هدف التغرب الاول ومن هنـا نجد بعض المستشرقين المعاصرين يفترض أن التصادم بين الحضارات والامم قـد يؤدي الى فقدان الشخصية الذاتية ، وظهور الشخصية العالمية ، بل وربما أدى ذلك في نظـره الى محو الشخصية القومية .

ووجهة النظر هذه تنطلق من هدف مقرر في نفس الباحث الذي يجري في طريق الاستشراق وأهدافه التعريب ودعاواه ، وربما وجد لها آثاره في التاريـخ الغربي غير أن تطبيقها علـى العالم الاسلامي والفكر الاسلامي ربما يكون مخالفا ، وربما يكون كبيراً .

والحق أن اتصال العالم الاسلامي علـى المدى الطويل خـلال أربعة عشر قرنا بالحضارات والامم لم يفقد ذاتيته ولا شخصيته ، ولم يذبه في أي شخصية أخرى أو يحوه أو يستوعبه .

ومعنى الشخصية العالمية هنا : هو ذلك الطابع الـذي فرضته الحضارة الغربية على الامم التي تشترك فيها ، وهي شخصية مقسمة اليوم الى مذاهب وتيارات وفلسفات وايديولوجيات لا حـد لهـا ، بحيث يمكن القول بأنه ليست هناك شخصية عالمية واحـدة ، وانما

هناك دعوات الى العالمية تحمل لواءها كل المعسكرات ، وتحمل لواء مثلها الصهيونية العالمية .

أما عالمية الاسلام ، فانها عالمية فكرية ممتدة لم تسقط خلال هذه القرون المتوالية ، لأنها ارتبطت بالعقل والقلب والثقافة ، وشكلت مفهوما انسانيا حقيقيا قائما على أساس التوحيد والعدل والايمان بالله والغيب والايمان بالبعث والجزاء ، وقد جعلت المسؤولية الفردية والالتزام الخلقي أساساً لعالميتها وحضارتها .

ومن المستحيل أن تسقط الامة الاسلامية صريعة للشخصية العالمية الاستعمارية الغربية المنقسمة اليوم بين المذاهب والايديولوجيات ، والتي تمر بالمراحل الشائكة المبعثرة من تاريخ الحضارة .

وربما تصدق فكرة استيعاب الشخصية العالمية لأمم أخرى ليس لها جذور الاسلام والامة العربية ، وليس لها مزاجها النفسي وذاتيتها المتفردة المتميزة .

أما بالنسبة للعالم الاسلامي والامة العربية ، فان المواجهة بينها وبين الحضارة الغربية ، فانها لم تصدر عن إرادة حرة ، ولذلك لم تكن مواجهة في مستوى القدرة على الاخذ والرفض ، كانت مواجهة مفروضة جاءت في ظل مرحلة احتلال ، ونهاية مرحلة ضعف .

ولذلك فان الاستجابة الاولى للغزو السياسي والاجتماعي والثقافي لا يمكن أن تكون بحال من جانب العرب والمسلمين إقراراً بالتقبل والانصهار ، وبالتالي ، فانها لا تصل أبداً الى صدور حكم بفقدان الشخصية الذاتية .

وإذا كانت الامـة الاسلامية العربية قـد استسلمت ثمة تحت ضغط النفوذ الاستعماري ، فان هذا الاستسلام قد جاء في المعسكر السياسي وحـده ، أما في مجال الفكر ، فقـد بدأ التمرد ، وبدأت المقاومة ، وبدأت المعارضة منذ اللحظة الاولى .

ثم ظل هذا الاتجاه يعمق حتى أثر على المجال السياسي العام ، ومنذ اليوم الاول لصدام الحضارة الاستعمارية مع الامة العربية كان هناك تأكيد واضح ، واصرار كامل بالفصل بين تقبل الحضارة المادية، ومناقشة الثقافة والفكر قبل تقبلهما .

ولقد أصاب الشخصية العـربية بعض ظلال التقليد والتبعية ، ولكنها سرعان ما وضحت أمام النظرة الاصيلة ، وسرعان ما أخذت تتحرر من هذه التبعية لتعاود تصحيح المسار ، وتأكيد ذاتيتهـا .

ويمكن القول إن المرحلـة التي تمر بالامـة العربية الآن هي : مرحلة (الرشد الفكري) واس- '-ه الذاتية وتجديد الاصالة ، وبناء الاساس للنهضة مستمداً من الاسلام والقرآن والتوحيد .

أما ظاهرة الضياع لدى بعض المفكرين الذين يكتبون بالعربية فليس مصدرها أن هنـاك صراعا فكريا ، ذلك أن الفكـر الاسلامي متكامل متسق متوائم يجمع الاجزاء ويربطها بالاصل ، ويضم العناصر ويقيمها على الكل ، ومن هنا فهو محرر من ظاهرة الصراع الفكري التي يعرفها الغرب الـذي يمزق العناصر ، ويفرق القيم ، ومن هنـا تتقاتل هذه القيم ، وتمزق الشخصية الانسانية الواحدة الجامعـة بـين الروح والمادة .

ليس هناك صراع فكري في الاسلام والثقافة العـربية ، وانما

هناك انفصام أوجدته مفاهيم وافدة ، بين طبيعة النفس العربية الاصيلة القائمة على الفطرة المستمدة من جذورها وقيمها ، وبين التطلعات التي تحاول أن تفسر الظواهر بمقاييس غربية ومفاتيح غربية وعلى أسس ومذاهب ليست أصيلة ، ومن هنا ليس لها قدرة التحكم في بيئة لها ذاتيتها ومفاهيمها المختلفة عن البيئة التي صنعت تلك المذاهب .

فالضياع ليس سمة أصيلة في الفكر العربي ، ولا عند الذين يستمدون مفاهيمهم من قيمهم ، ولكنه سمة الضائعين أنفسهم الذين انحرفوا عن أصالة ذاتيتهم ، وخرجوا عن مقومات فكرهم ، سواء أكان هذا الخروج نتيجة التقليد للصور المغرية البراقة ، أو كان نتيجة للتطلع الى ما وراء ذلك .

إن بعض كتابات ظهرت أخيراً قد كشفت عن ذاتية بعض الكتاب الذين تحولوا من أصالة الفكر العربي الى زخرف الفكر الوافد ، تحت تأثير عوامل أهميتها أن البيئة التي عاشوا فيها لم تستطع أن ترضعهم قيم أمتهم وفكرها على نحو أصيل ، وأن ما وجدوه كان مشوباً بكثير من الزيف والتحريف ، وكان مغلفاً بالبدع القديمة الوافدة من الثقافات الفارسية المجوسية والإشراقة الهندية ، والإسرائيليات التي وضعت حاجزاً كثيفاً من ضياء الاسلام الصحيح ونوره الاصيل ، وبين النفوس التي خرجت من بيئات غلب عليها التحدي ، ووجدت بين أيديها مؤلفات تحمل على الاسلام ، وتدس الشبهات ، والتي وجدت كتباً غربية تحمل سموماً براقة لامعة من أمثال : قال زرادشت لينتشه أو غيره وغيره .

فليس العذر في انحراف الكتاب ووسمهم أنفسهم بسمة الضياع

هو الفكر الاسلامي ولكنه العجز عن الوصول الى الفكر الاسلامي من منابعه الاصيلة ، ووصول كتب وثنية براقة عامرة بكلمات ضخمة، تدعو الى الاندفاع في حياة اللذات والاباحيات ، وتصرخ بأن نهاية الحياة هي نهاية الحياة ، فتخالف مفهوماً صحيحا وأساسيا في الفكر الاسلامي هـو المسؤوليـة الانسانية والالتزام الاخـلاقي والبعث والجزاء .

هذا هو الفهم الوثني الذي يستشرف الآن كل فلسفات الوجود والنفس والاخـلاق من أجل القضاء علـى قيمة أساسية في فكـرنا الاسلامي تأتي بعـد التوحيد مباشرة ، تلك هي المسؤولية الاخلاقية الفرديـة .

وقد بدا لبعض هؤلاء أن يجعل من أزمته الفردية ظاهرة عامة ، كما فعل من قبل دعاة الادب المكشوف والجنس ، وليس هذا صحيحا على إطلاقه ، ليست هذه أزمة مجتمعنا ولا أزمة فكرنا ، وربما كانت أزمة مجتمع آخر وفكر آخر ، له ظروفه التاريخية وتحدياته وعلاقاته بالأديان والعقائد المختلفة .

إنها أزمة فكر غربي يمر بأشد مراحل حياته ضعفا وتحللا ، بعد مرحلة طويلة من الاضطراب والصراع ، هـو ثمرة مرحلة الغروب ، بعد أن فقدت الحضارة الغربية والفكر الغربي قيمتهما تحت تأثير وطأة الاحتواء الصهيوني التلمودي الذي يعمل هناك منذ أكثر مـن قرن ونصف على تحريف القيم وإغراق الفكر الغربي في وثنيـة الإغريق وسلبها كل ما أعطتها الاديان والفكر الاسلامي .

ولا ريب أن طابع الفكر العربي الاسلامي بعيد كل البعد عـن

مثل هذه الصورة المتشائمة وهـذه المفاهيم المأساوية المستمدة مـن المسرحية الاغريقية ، والتي تقوم علـى الصراع بين البطل والآلهة ، وفق فكرة الخطيئة وغيرها من مظاهـر الصراع والتناقض والضياع التي ليس لها أصل أصيل في الفكر الاسلامي الـذي يستمد مقوماته مـن القرآن ، ويقف علـى قاعدة راسخة مـن التوحيد والايمـان والاخـلاق •

فتلك في الواقع قشرة غربية وافدة ، وسحابة وافدة ، ليست من الاصل الاصيل ، ولا من طبيعة الوجود النفسي والاجتماعي العربي الاسلامي القائم على ذاتية عميقـة ومزاج نفسي راسخ في الايمـان باللـه ، وفي الثقة به ، وفي العمل تحت لواء الحق الواضح ، الـذي يعيش الواقع دون أن يحس بالضياع أو الاستعلاء جميعاً •

فلنقف دون ذوبان الشخصية

هل يمكن أن تذوب الشخصية ، شخصية الفرد العربي المسلم ، وشخصية الجماعة العربية الاسلامية ؟ .

هذه هي المحاولــة الخطيرة التي يجري التخطيط لهـا بأمكر أساليب الدهاء والذكاء والبراعة الاستعمارية الصهيونية ، هذا الكيان العربي الثقافي الاجتماعي الذي يستمد وجوده وأسسه وقيمه مــن الاسلام والقرآن هو موضع التحدي الخطير الذي تتكتل كل القوى على النيل منه وتحطيمه .

لقد كانت الصورة في مجال المقاومة توصي بالقدرة والحركـة والتكتل عندما كانت هذه الامــة تحت نير الاستعمار ، فلما تحررت منه ظنت أنها قد أصبح لها من الحق أن تمضي دون تحفظ الى طريق التحرر والانطلاق .

وكان هذا في الحقيقة عجزا عــن تصور أبعاد التحدي الخطير الذي لم يكن انتهاء الاستعمار إلا غشاء خفيفاً يخفي من ورائه مواجهة أشد خطورة هي الصهيونية التي ركزت قواعدها في فلسطين منذ عام ١٩٤٧واستولت على القدس عام ١٩٦٧ فأصبحت خطرا قائما يتصدر قلب الامة العربية ، ويمزق وحدة الارض والفكر ، ويصارع من أجل

الوطن الكبير من خلال مذاهب ومفاهيم وفلسفات كلها وافد ، وكلها معارض لفكر هذه الامة وقيمها ومثلها العليا •

إن الخطر الذي تواجهه الامة العربية بالصهيونية أكبر من خطرها بالاستعمار ، وان اجماع ارادتها لمواجهة هذا الخطر يجب أن تتضاعف ، وأن تدخل مرحلة أعمق من مرحلة الوطنية التي كانت تحارب بالكلمات •

إن الامة العربية لن تجد سلاحا تواجه به الخطر غير « قرآنها » ترفعه على الرايات ، وتتجمع حوله ، وتجد منه نورها ومنطلقها •

إن هذه الامة يجب أن تبنى من جديد حول فكرة التوحيد وفريضة الجهاد ، مؤمنة بأنها لا تعيش للشرف ولا للمتعة ولا للحياة العارضة ، ولكنها تعيش لتحمي القيم التي جاء بها الدين الحق ، وتموت من أجلها على أن تكون مستعدة لتقديم الشهداء ، وأن تحسن صناعة الموت ، وأن تعيد صورة الرعيل الاول ، ليست باغية ولا معتدية ، ولكنها تحمي نفسها وتطهر أرضها ، وتسترد مكانها •

إن هناك محاولة لتذويب الشخصية ولسحق الكيان ، وأبعادها واسعة ، إنها تتصل بالاستشراق والثقافة والصحافة والتراث ، وهناك مذاهب وفلسفات وافدة تحاول أن تلقي مفاهيم جديدة في الاخلاق والنفس والاجتماع •

وهناك شبهات تثار حول كل القيم والمقدرات ، وهذه كلها توضع في أساليب لها طابع علمي براق وتنشر في كتب وصحف لها طابع مزخرف جذاب ، وكلها محاولات لتضليل الفكر ، تدفع الى الاستسلام في مجال المواجهة •

ولا ريب أن بناء الشخصية بالقوة واليقين ، وعلى أساس

التوحيد والايمان ، وفي إطار الاخلاق والعدل ، من شأن ذلك كلـه أن يرد الصيحات المدوية والاخطار المواجهة .

إن للاسلام نظـرة ومنهجاً ، وفي كـل قضية موقفا ورأياً ، إن هنـاك ذهنية اسلامية أصيلة لها مقوماتها ولهـا استقلالها الواضح الصريح ، هي التي بنت هـذه الامة منذ نشأتهـا وما تزال تبنيهـا وتقومها ، كلما انعرج بها الطريق ، فلا بد أن تعيد الامة بناء نفسها : فكرها وشبابها ومقاييسها على أساس هذه النظرة المستقلة الخالصة ، التي لا تخضع لمفاهيم الآخرين .

ان طريق التبعية والتقليد يدفعنا الى تيه الصحراء الواسع الذي ليس له صدق او قرار ، اما طريق الذهنية الاسلامية فهو الطريق المعبد المحفوف بالامن .

(وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) [الأنعام : ١٥٣] ان الطريق الصحيح هو طريـق الشريعـة الاسلامية والاخلاق الاسلامية ، والعقيدة الاسلامية ، وهو الطريق الذي يهدي الى بناء الشخصية المؤمنة التيتبيع نفسهافي سبيل الله،وتسترخص الموت والجهاد في سبيل نصرة الحق .

وعن الطريق الصحيح نجد العلم وأساليبه ومناهجه التجريبية التي تحقق كسب القوة وبناء الجيش ، ودخول دائرة التكنولوجيا والذرة ، في مواجهة الاخطار ومقاومة العدو وتأكيد الوجود الحق .

ان أمتنا لن تحقق وجودها الا اذا أقامت بناء أخلاق العزيمة ، وانشاء الشخصيات المعصومة عن الهوى ، وبناء الرجولة والقضاء على كل عوامل الترف والخور والانحلال والفساد .

ثم إن معرفة الطريق الحق دون العمل له هو خطر آخر ، لأنـه تعويق للارادة عن أن تستشرف موقعها الخطر الذي يتزايد ويستشري •

ان هدف عدونا هو « ذوبان الشخصية » ، وذلك بالقضاء على مقومات كيانها وعلامات القوة فيها ، واحتوائهـا بأخـلاق الضعف والانحلال والاباحة ، حتى لا تقوى على مواجهة التحديات •

ذلك أخطر اهداف العدو : بناء أجيال ذليلة ضعيفة ، لا تؤمن بحقها ولا تؤمن بربها ، ولا تستطيع ان تقدم الفداء ، ولا تستطيع ان تصمد امام الخطر وامام التحدي •

ان نظريات الجنس والاباحة ، والوجودية ونسبية الاخـلاق والتطور المطلق ، والحركة التي لا ترتبط بالثبات ولا بالقيم الثابتة ، كل هذه مفاهيم ونظريات يراد بهـا دفع الشـباب الى الانحـلال والتفسخ ، واذا نجحت الصهيونية العالمية في القضاء على الشـباب وتحطيمه وتدميره تمكنت من اذابة الشخصية العربية الاسلامية ، وبذلك تسقط الثمرة في أيديها دون عناء •

ان بناء الشخصية في داخل الامة ، بالايمان والاخلاق والصمود وتحرير النفس من هذا الركام الضخم من أخطار القصة والمسرحية والاغنية ، والصورة العارية ، واخطار الملابس ، وارسال الشعور ، والخلط بين الرجل والمرأة ، باستئناث الرجل وترجـل المرأة ، كـل ذلك من شأنه ان يحول دون استكمال القدرة على مواجهة الخطر ، وتضعيف المقـاومة ويعمل على إذابـة الشخصية ، ان الخطر ليس في ميادين القتال وعلى جبهة المواجهة وحدها ، وانما هو في بناء الامـة كلها لتكون قادرة على الصمود ،ولتعيش حياة الأهبة الدائمة والمرابطة الدائمة في الثغور دون ملل أو قلق •

ان محاولة اذابة الشخصية التي بدأها الاستعمار والتغريب والغزو الثقافي منذ سنوات طويلة لم تحقق شيئا ، لان العرب والمسلمين كانوا غاية في اليقظة والقدرة على المقاومة خلال ذلك الاحتلال ، اما بعد الاستقلال ، فان طارئا خطيرا من التراخي قد طرأ عليهم في نفس الوقت الذي تصاعدت فيه حركة الاستعمار الثقافي والغزو الصهيوني ، ومن خلال الأمن الخادع بأن هذه المنطقة تستطيع ان تكون على نسق التحلل الغربي •

ان هذه الامة قد جاءت من هذه المنطقة لتحرس كلمة اللـه ، وتحمل رسالة الحق ، ولذلك فهي ممتحنة بالتحديات والاخطار : الصليبيين والتتار والاستعمار والصهيونية ، وهي لذلك يجب ان تحمل مسؤوليتها وقدرها بأن تكون على قاعدة « المرابطة الدائمة » ، وبأن تكون مفطومة عن الاهواء وبأن تكون يدها على الزناد أبد الآبدين في حماية كلمة اللـه •

الحرب النفسية

من ابلغ مظاهر التغريب الحرب النفسية .

ومن أخطر ما تواصى به المسلمون مستمداً من أعمق مقومات الاسلام : هو القدرة الدائمة على مواجهة الحرب النفسية التي تحاول اخراجهم من قيمهم وذاتيتهم .. فقد عمل الاسلام على تحرير أتباعه من التأثير الاجنبي بكل أنواعه ، ودعا الى اليقظة إزاء الحرب النفسية التي تهدف الى تغيير المعالم الاصلية لعقيدة المسلمين وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي . ذلك ان أعداء الاسلام يعلمون جيدا ان الطريق الوحيد الى تمزيق وحدة الامة هو ضربها من خلال قوائم فكرها باثارة الشبهات وادخال مفاهيم وتفسيرات غريبة تختلف عن التفسيرات الاصيلة .

ولقد كافح المسلمون في تاريخهم كله لتحرير الفكر الاسلامي من هيمنة أي فكر آخر ، او عقيدة أخرى ، ولذلك فان من أهم المسؤوليات الملقاة على الكتاب والمثقفين والشباب اليوم هو اليقظة والنفاذ والقدرة والوعي على تعرف ابعاد الاخطار التي تحيط بالمجتمع والامة والفكر، ولن يكون ذلك الا بتعرف أبعاد الاسلام نفسه وحقائقه ومعطياته .

ان هناك عدوا خطيرا لا يتوقف عن إلقاء السموم والشبهات في مياهنا وآبارنا ، فعلينا أن نتحصن بالحذر واليقظة ، ولنكن قادرين على

مواجهة هذه الشبهات ودحضها • وان هناك حربا نفسية تعمل علـى تشكيك امتنا في وجودها رغبة في تدمير صمودها ومقاومتها ، تمهيدا لتدمير وجودها نفسه •

ان من أهم أهداف الحرب النفسية : التخويف من المـوت او الفقر او الارهاب بقوة العدو • والاسلام قد كفل لنا موقفاً حاسماً من كل ذلك ، وحررنا من هم الرزق وخوف الموت ، وملأ قلوبنا ثقة بالله في مواجهة كل خطر : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكـم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا اللـه ونعم الوكيل) •

وليس من طبيعة المسلم اليأس او القنوط ، وتحـري الحملـة

النفسية في محاولة التشكيك في عشرات من الحقائق ، واثارة الشبهات في عديد من القضايا فضلا عن إلقاء مفاهيم وافدة لا تتفق مـع ذاتيـة الإسلام وطبيعته الأصيلة القائمة على التوحيد والإيمان والأخلاق •

لذلك فقد كان من الضروري أن يتنبه المسلمون الى الحقائق الأصيلة التي يريد العدو دحضها ، وأن يهبوا من أجـل الدفاع عـن ذاتيتهم الخاصة التي يراد تدميرها •

أولا : عرف المسلمون الاسلام ، ليس دينا فحسب ، ولكنه دين ومنهج حياة ، وهو نهج متكامل مترابط لا يؤخذ منه جانب ويترك جانب ، ولكنه يؤخذ بكامله ، وان أبرز مفاهيم الاسلام الذي انتصر به المسلمون هو أن تعاليم الاسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها او تفتيتها ، او الاخذ بفرع منها دون آخر ، فكل فرع منها مؤثـر فـي الفرع الآخر ، متأثر به •

وقد أكد الاسلام على ضرورة التكامل بين تعاليمه الاجتماعية والاخلاقية والتربوية • والاسلام ليس خادما للمجتمعات الا من خلال

مقوماته الربانية ذات الاطار الثابت الواسع المرن في الحركة الداخلية ، وليس الإسلام مطية ذلولا لأهـواء البشر ولا مسوغـاً لانحـرافات الحضارات والمجتمعات •

ثانيا : ان المفهوم الاسلامي قد تكامل تكاملا كليا قبل ان يختار النبي محمد صلى اللـه عليه وسلم الرفيق الاعلى ، وقبل الاتصال بالفلسفة اليونانية ، وإن فهم الإسلام فهماً صحيحـاً عميقـاً قـد أعطى البشرية شحنة من القوة والايمان والتضحية دفعتها الى تحقيق رسالة اللـه في الارض ، وبناء الامة ، واقامة الدولة •

وان الاسلام حين أصابته الاحداث ، وفي ظـل أخطـار الصليبية والتتار والفرنجة ، استطاع ان يفتح الطريق الى قلوب جديـدة في جنوب شرقي آسيا ، وفي قلب افريقيا ، فأضاف الـى معتنقيه أضعاف أصحابه الاصليين •

ولقد كان من أبرز قوانين الاسلام ، قدرتـه الفائقة على تجديـد نفسه من الداخل ، وعلى اعادة صياغة فكره كلما انحرف هذا الفكر أو أصابته (دخائل) تحوله عن جوهره ، وأنه كان دائما كيانـا حيـا قادرا على الحياة والتجدد ، قادرا على الاخذ والعطاء ، قادرا علـى التوسع والتكيف مع المجتمعات والعصور •

ومنذ ظهر الاسلام وكل حدث في العالم كان مرتبطـاً به على نحو من الانحاء • ومنذ انتشر الاسلام الى اليوم لم يتغلب عليه من الاديان متغلب ، وان تغلبت على أمته الشدائد •

واذا كان الفكر الاسلامي قد استقبل نتاج الثقافات الاجنبية ، فانه وقف منها موقفا واضحا هو الاخذ منها على قاعدته ، ورفض ما

يتعارض مع مقوماته وذاتيته ، وخاصة ما يتعارض مع التوحيد ، ولقد كان الفكر الاسلامي ولا زال مستعصيا ــ وسيظل ــ على الاستسلام للنظرية الوافدة التي قاومها ويقاومها طويلا ، وأعلن وجهة نظره واضحة في مختلف القضايا ٠

ثالثا : من أهم عوامل القدرة على مواجهة الحرب النفسية ومقاومتها : الحفاظ على اللغة والتاريخ والتراث ٠

ومفهوم المسلمين عن اللغة العربية أنها لغة [1] دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم ، وقد أجمع الاولون والآخرون على اعجازه بفصاحته الا من لا حفل له من زنديق يتجاهل أو جاهل يتزندق ، ثم ان فصاحة القرآن يجب ان تبقى مفهومة ، ولا يدنو الفهم منها الا بالمران والمداولة ودرس الاساليب الفصحى ، والاحتذاء بها ، واحكام اللغة ، والبصر في دقائقها ، وفنون بلاغتها ، والحرص على سلامة الذوق بها ، وكل هذا يجعل الترخص في هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد ٠

ولقد عرف المسلمون اللغة العربية على أنها لغة العرب ولغة الاسلام نفسه ، وقد كانت معجزة القرآن أن جميع الامم التي تتكلم العربية وتفكر بها ، تجمعها وحدة فكر ، وتربطها آصرة ايمان واحد ٠

وقد وصف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اللغة العربية فقال : « أنها تثبت العقل وتزيد في المروءة » ٠ وهي الى ذلك غنية لاحد لغناها ، يقول الخليل بن أحمد في كتاب العين : ان عدد أبنية كلام العرب (٤١٢ و ١٢٣٠٥) كلمة ٠

ويقول الحسن الزبيدي : ان ما يستعمل من ألفاظ اللغة العربية

١ ــ مصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن) ٠

(٥٦٣٠) لفظا فقط ، ونحن نعرف أنه عندما نزل القرآن بها أزاحت السريانية والكلدانية والنبطية والارامية واليونانية والقبطية ، قبل أن ينقضي قرن واحد ، وقد كتبت بها اللغات التركية والفارسية والأردية والافغانية والكردية والمغولية والسودانية والإيجية والساحلية ، كما كتبت بها لغة أهل الملايو ، وقد حدث هذا منذ ألف عام •

ولا ريب أن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية ، وستبقى هذا النموذج الخالد المنزل دائما قمة البيان العربي ، وسوف يستحيل على مدى الاجيال أن يظهر عمل من صنع الانسان يفوقه بيانا •

وقد اعترف بذلك كثير من الباحثين الغربيين ، وفي مقدمتهم (بول كراوس) الذي قال : لا لغة عربية بدون القرآن • ويقول سيديو : « ان اللغة العربية حافظت على صفاتها بفضل القرآن » •

واذا كان النفوذ الاجنبي قد حاول عزل اللغة العربية عن مفهوم القرآن ومستوى بلاغته بالدعوة الى تبسيطها ، واشاعة العاميات ، ومحاربه الفصاحة ، فان العرب والمسلمين متيقظون لمدى خطر هذه الدعوة ••

رابعا : لقد انتصر المسلمون دائما بالوعي الكامل لتاريخهم ودورهم في الحضارة العالمية ، وما قدموه اليها ــ من مناهج وتطبيقات واضافات علمية ــ معروف مقدور ، ولقد بلغ الذروة بتقديمهم « المنهج العلمي التجريبي » الذي كان مفتاحا لكل الانتصارات العلمية الحديثة •

ولقد تأكد اليوم للعالم كله ذلك الدور الفعال الذي قام به المسلمون في بناء مدنية أخلاقية ، واعترف الكثيرون اليوم بهذا الدور •

وفي مراجعة لماذكره جوستاف لوبون وبريفلت وهونكه وغيرهم نجد هذا المعنى واضحا صريحا حتى يقول لوبون : « كلما أمعنـا في دراسة حضارة العرب وكتبهم العلمية وفنونهم ظهر لنا أن العرب هم الذين منحوا أوروبا (المدنية) مادة وعقلا وأخلاقا ، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير » .

والحق ان الحضارة الاسلامية انبعثت انبعاثا طبيعيا من مقوماتها الاساسية من القرآن ، وتميزت الحضارات البشرية المختلفة بطابـع التوحيد القائم على الاخلاق والعدل ، وقد اتسـمت بالسماحـة والانسانية والاخوة العالمية ، اذ حرصت على توفـير الحرية لغـير المسلمين ، واحترمت شعائرهم ، وفتحت أمامهم أبواب المناصب .

أما مفهوم التاريخ في الاسلام ، فهو تحقيق « منهج » اللـه في الارض ، مؤمنين بأن اللـه قد وضع نظاما عمليا واقعيا هو مصـدر سعادة البشر اذا ساروا بمقتضاه ، وا ينكبوه الى أنظمة اخـرى يضعونها ويشقون بها ، وقد ـهم الى هذا المنهج ، ليصوغوا واقـع الارض في اطاره .

والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة من المؤمنين لتحقيق منهج اللـه في الارض .

يقول ولفرد كانتول سميث : ما من دين استطاع ان يوحي الـى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وان اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختـلاف القومية واللغة ، وان المسلم لا يفهم الاسلام حق فهمه الا اذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ..

خامسا : أوصى الاسـلام المسلمـين باليقظـة ، ودعاهم الـى

عرض كل ما يتصل بهـم على (القرآن) • مع النظـر الى مـا وراء النصوص والكلمات ، والتوسع في المراجعة والنظر ، فالانسان عـدو ما يجهل • الروح والمادة معا جناحان للحياة • • والعقل والقلب معـا •• جناحان للمعرفة •

ولقد كان المسلمون دائما كلما مرت بهم الاحداث وواجهتهـم التحديات يلتمسون الاسلام في منابعه الأصيلـة في القرآن والسنـة الصحيحـة •

والاسلام بالنسبة الى العرب على اختلاف اديانهم وثقافاتهـم هو تراثهم القومي ، وقد دعا الاسلام الـى التفرقة بـين المعـارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية • والتقدم في مفهوم الاسلام تقـدم مادي ومعنوي ••

وليس في الفكر الاسلامي ما يميت شجاعة المسلم ، أو يـؤدي الى فتور همته •• والتجديد في المفهوم الاسلامي يقوم على أساس تكامل الماضي والحاضر ••

ولا ريب ان فترة ضعف المسلمين لا تمثل جوهر الاسلام • ان الذين يردون ركود المسلمين الى الاسلام نفسه يخطئون ، فان الاسلام براء من كـل عناصر التأخر والركود ، فقـد أقـام نهضـة ، وأنشـأ حضارة ما زالت تضيء للانسانية من خلال الاجيال ••

ومن الحق ان يقال : ان ضعف المسلمين انما يعود الى انفصالهم عن أصول الاسلام ومقوماته باندفاعهم في حياة الترف ، وتعطيلهـم للجهـاد •

ولقد تواصى المسلمون بالحذر مـن خطر بالغ : هـو تحريف

مفاهيمهم التي تتمثل اليوم في التغريب والاستعمار الثقافي ، والغـزو الفكري في محاولة لايقاع الهزيمة بالعقيدة الربانية ، واذاعة الالحاد ، وتقويض المجتمع •

سادسا : لقد كان الاسـلام قادرا علـى التجـدد مـن خـلال مقوماته ، ولم تخل حقبة من تاريخ الاسلام حتى في أشد عصوره ضعفا من المصلحين والمجددين من ذوي العقول المستنيرة ، والقلوب المؤمنة ، لقد كان شغلهم الشاغل هو الرفض بالسماح لشخصية الاسلام الحضارية أن تذوب وتتلاشى في أي حضارة أخرى •

ولقد كانت ـولاتزالـللاسلام انتفاضات حاسمة ، تسقط كل ما أدخل الى جوهره من قيم غريبة عنه • ولقد كان الفكر الاسلامي قادرا دوما على رفض الدخيل ، وطرد الجسـم الغريب •

ان أبرز مفاهيم الاسلام في هذا الا ر هـو اعطاء العلم والحياة والحضارة كمالاً أخلاقيا وتحرر من عبودية المادة ، فالاسلام يـرى ان كل حضارة لا ترتكز على الاخلاق حضارة زائفة •

ان اهم مآتي الاسلام تلك المآتي التي تميزه عن سائر النظم ، هـو طبع الحياة بطابع انساني أخلاقي ، أي بطابع رباني ، وانه يهتم اهتماما على درجة واحدة بالدنيا والآخرة ، والنفس والجسد ، والفرد والمجتمـع •

وليس الفكر الاسلامي فكراً تجريديا ، ولكنه ينطلق مـن الواقع الحي ، ويعالج الامور معالجة موضوعية واقعية •• فهو ليس ايتوبيا خيالية ، ولكنه صبغة اللـه ، ومن أحسن من اللـه صبغة •

ولقد تقرر في كل الثقافات أن انبعاث الامم انما يبدأ من فكرها

ومقوماتها ، وإن أخوف ما يخـافه الاستعمار هو بعث الامة عن طريق الاسلام •

ومن المقطوع به : أن الفكر الاسلامي لا يعمل الا ضمن اطار (القرآن) الذي هو الحكم على كل ما يواجه المسلمين من فكر ورأي وأمر ••

سابعا : ان الطريق الوحيد الذي حفظ وجودنا وكياننا ، هـو حماية العقائد والاصول التي تقوم عليها الاخلاق من الشبه والشكوك التي تطرحها الفلسفات المادية ••

وان أكبر عوامل النصر في مفهوم الاسلام هو حماية (الأصالة) وحفظ (الذاتية) وأن يقظة المسلمين في هذه المرحلة انما تتمثل فـي كلمة واحدة هي : (تحويل الاسلام الى ايمان ، وتحويل الكلمة الى سلوك) ••

إن أهم ما في الإسلام هو المطابقة بين الكلمة والسـلوك ، وان انبعاث الأمم إنما يستمد قوته من فكرها الأصيل ، ومقوماتها الحقيقية •

وان أبرز معالم الفكر الاسلامي في مختلف عصوره ومراحله هو قدرته على أن يأخذ حاجته من أي ثقافة دون أن تحتويه ، وأنـه يأخذ ويرفض ، وأنه يأخذ ويعطي ، وأنه لا يأخذ الا ما يزيده قـوة وما يتفق مع مقوماته الاساسية •

ولا ريب أن بين الماضي والحاضر والمستقبل في مفهوم الفكـر الاسلامي ترابطا وتكاملا لا سبيل الى تجزئته ، ومن العسير تصور الثقافـة العربية منفصلة عـن الفكر الاسلامي الذي هـو مصدرها الاصيل ، فقد طبع الاسلام الثقافة العربية في الماضي ، ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها الى أبد الآبدين •

ثامنا : لقد كان من مقوماتنا الاساسية على مدى تاريخنا ــ القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان ــ حماية مقوماتنا ازاء كل غزو .

وقد كان الاسلام عاملا أساسيا وقاسما مشتركا في كل حركات التحرر التي قامت بها الشعوب الاسلامية . ولا ريب أن النضالات الوطنية قد انطلقت جميعها تحت راية الجهاد ، وفي سبيل الله . . ولقد كان الاسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية والثقافية ضد الاحتلال والاستعمار . والاسلام لا يعزل المفاهيم عن التطبيق ، ولا يفصل بين القيم . وللاسلام ذاتيته الخاصة ومقاييسه الخاصة . ويمثل الاسلام النظرة الكاملة في الابعاد الانسانية والروحية والمادية والعقلية . وهو جامع العلم والخلق معا ، كما هو جامع القلب والعقل ، ولا سبيل الى فهم أي قطاع من الفكر الاسلامي على حدة ، ولا بد من أن تلتقي القطاعات وتترابط ..

ان اعادة بناء الفكر الاسلامي في اطار الاسلام وعلى قواعده الرئيسية من وحدانية الله ، واستخلاف الناس في الارض تحت حكم الله وفي ظله ، انما يمثل جوهر الايديولوجية التي لم تتخلف طوال تاريخ الاسلام ، والتي لا يستطيع العرب والمسلمون أن ينحرفوا عنها .

لقد أثبت الفكر الاسلامي صلابته واستقلاليته وقدرته على البقاء ، فانه في عديد من أزمانه لم يسقط ولم يتداع ، ولم تضطرب أصول مقوماته ، بل ظل محتفظا بذاتيته في مواجهة الغزو ..

تاسعا : عرف المسلمون الاسلام منهجا متكاملا جامعا بين العقل والروح ، وبين الدنيا والآخرة وسطا بعيدا عن طرفي الترف والنسك .. متمثلا في كل أمره ظواهره وأعماقه ..

فالانسان روح وجسد ، ولا يمكن تفسيره من جانب واحد من كيانه : من جانب الجسد وضروراتـه ، أو جانب الروح ودوافعـه ٠٠
والانسان لا تنطبق عليه مناهج المادة ، ولا تشريحات الحيوان ، ولا تفسر دوافعه بالطعام وحده ، أو الجنس وحده ، وانما هـو كـل متكامل ٠٠

وقـد ترابط العمـل والايمان في مفهـوم الاسلام ، وورد ذكـر الايمان في القرآن متصلا بذكر العمل الصالح أكثر من خمسين مرة ٠٠

وأخطر ما مني به المسلمون هو : انفصال العلم عن العمل ، أو بقاء العلم دون الممارسة والتطبيق . والعلم في الاسلام هو العمل بكامل مفهومه ٠٠ وليس العلم العقائدي وحده ٠

كما حرم الاسلام التفاضل بالاجناس والانسان والطبقات وأنكر العصبية ، وعمل على تحرير العقل من الضلالات والتقاليد الباطلـة ٠٠

عاشرا : ان أمة تشكلت وفق منهـج قرآني رباني ، وصبغـت عليه قرونا طويلة ، من العسير عليهـا أن تلتمس منهجا آخر قد كونتـه أمم أخرى تختلف مع عقيدتها وتتباين مع مقومات حياتها ٠

ذلك انه من خلال هذه المناهج الوافدة يتوزع فكر الامـة ، ويختلف هديها ، وتضيع أكبر مقومات القوة والصمود ، وهي وحدة الفكر التي هي مقدمة وحدة الامة كلها ٠ ٠

ومن هنا كانت ضرورة الحذر من مدارس الارساليات ومعاهدها وجامعاتها ، والحذر من مناهجهـا في التربيـة والتعليم التي تسـرب السموم الى الصحافة والثقافة العامة ٠٠

وإن مفهوم التحرر من التقليد الاجنبي يعني بالضرورة تصحيح مادسته الشعوبية والتغريب حـول الاسلام والقرآن واللغـة العربيـة والشريعة الاسلامية من شبهات وسموم ، وتنقية المفاهيم والقيم من الشوائب والاخطاء .

ولا سبيل إلى ذلك الا بالاستعصام بالقرآن ، فهو المصدر الاول والاكبر لحل جميع المتناقضات ، وهو العامل الاقوى لامداد الفكر والامة معاً بالاصول الاصيلة والحلول الصادقة التي تعصم حيـاة المسلمين من الاضطراب والتمزق ، ولا سبيل الى اقامة وحدة فكـر الا بتوحيد مصادر التربية والتعليم .. ولاريب ان وحدة التعليم هي أساس وحدة الفكر والثقافة والامة جميعا ..

المسلّمات الوافدة

اذا كانت الحرب النفسية من أساليب التغريب ، فان المسلمات الوافدة من أخطر معطياته ونحن نعرف انه من خلال الفترة التي وقع فيها العالم الاسلامي (والامة العربية جزء منه) تحت سيطرة النفوذ الاستعماري طرحت مفاهيم كثيرة ومذاهب متعددة عن طريق الفكر ، بدأت في أول امرها غريبة ، وعارضها من عارضها دون أن يقطعوا برأي ، وربما كانوا في هذه الفترة اقل قدرة على الاداء العلمي ، او لم تكن هناك منابر تجلي ما يكتبون ، بينما اتيحت لتلك الافكار كل وسائل الذيوع والانتشار ، ومن هنا وجيلا بعد جيل ، ترددت هذه الآراء الوافدة حتى أصبحت في عصرنا هذا من المسلمات التي تروى وكأنها حقائق التاريخ أو العلم الاصيل .

والواقع أن هذه الافكار طرحت في أول الامر على أنها افتراضات ، أو نظرات وافدة من مجتمعات وآداب وأمم أخرى ، وكان يجب أن تظل في هذا الاطار ، حتى يقف منها الفكر العربي واضحا ، بيد أن الامور كانت تبدأ على هذا النحو ، ولكنها سرعان ما تتحول الى أن تعرض هذه النظريات على أنها أفكار قد تقررت وقبلت وأصبحت حقائق ومسلمات ، وتلك هي براعة الدعاة وغفلة أصحاب الشأن في بلادنا .

واليوم تبدو هـذه الآراء وكأنما هي حقائق وأسس ومفاهيم لا تقبل المعارضة أو المناقشة أو الرد ، وقد مضى زمن سار من فوقها ركب الكتاب ، وخرج من أعماقها انتاج الكتاب أيضا •

ولا ريب أن الادب العربي يستمد أصوله من الفكر الاسلامي ، كما يستمده من النفس العربية التي شكلتها طبيعة أمة لها تقاليدهـا ولغتها ، وقد جاء الاسلام ، فشكلها من جديد في اطار التوحيد ، وألقى اليها شحنة مـن أضخم شحنات الفكر والعلم والايمان من خـلال القـرآن الكريم ، وامتدت الى كل الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصاديـة ، ومجالات الثقافـة والتربيـة والتعليم ، فتمثلت في مجموعها فكرا له طابعه وذاتيته ، ومزاجه واستقلاليته ، التي تجعله متميزا تميزا واضحا عن الفكر الذي يتمثل في فلسفات وأديان وعقائد وأمم أخرى •

ولقد واجه الفكر الاسلامي أكبر محنة في تاريخـه حين واجه الفكـر اليوناني والفارسي والهندي الذي وفد اليه بعـد أن شكل مضامينه ، وأرسى قيمه ، وحدد مفاهيمه ، بل وأقام مناهجه العلمية أيضا ، وكان هذا الفكر الوافد قد جـاء برغبة أهل الفكر الاسلامي وليس قسرا عنهم ، ثم جاء وهم في أوج القوة •

ومع ذلك فقد أخذوا منه وردوا ، وقبلوا ورفضوا ، وحافظوا في كل ذلك علـى أصولهم وقيمهم أن تمس أو تنحرف أو تحتوى أو تستوعب ، بذاتيته ، حيث عجـز الفكر اليهودي ، والفكـر النصراني عن ذلك ، وسقط في براثن الفلسفات الوثنية والاغريق القديم •

أما في العصر الحديث ، فان المواجهة بين الفكر الغربي الوافد ، والفكر الاسلامي ، فلم تكن من منطلق القـوة ، ولم تكن ارادة الفكـر

الاسلامي حرة طليقة إزاءها ، فقد جاءت مع سيطرة النفوذ الغربي ، وحملت معها لواء فكر من الفكر الغربي أريد به زلزلة قيم الفكر الاسلامي وهزها ، وإثارة الشبهات حولها ، ومن هنا كانت الجولة أكثر قسوة ، وكانت مواجهتها أشد عنفا وهولاً •

وما تزال هذه المواجهة قائمة ، وقد مرت بمراحل مختلفة كما مرت الجولة الاولى •

مرت بالمواجهة المؤمنة اليسيرة التي قام بها بعض الباحثين والمفكرين — والتي لم تكن قادرة على استيعاب الموقف ازاء تعقد الافكار المطروحة ، وبراعة عرضها وطابعها البراق الذي يخطف أبصار السذج •

ولكن سرعان ما تسلح الباحثون بنفس أسلحة خصومهم ، وتقدموا اليهم يناضلون بأسلوب الفلسفة واسلوب العلم الحديث ، بل إن بعض هؤلاء كانوا قد تعلموا من الغرب وعرفوا مفاهيمه في البحث والجدل ، فواجهوا القضايا مواجهة قادرة على مستوى الاسلوب

وكان هذا الاسلوب أشبه في تاريخ الفكر الاسلامي بمرحلة « أهل الكلام » الذين اتخذوا من أساليب خصومهم أسلحة لمواجهتهم بها ، وقد كانت هذه المدرسة هي مدرسة المنطق والفلسفة وبرز فيها محمد عبده والعقاد واقبال ومالك بن بني وغيرهم من الاعلام الذين صاولوا المفاهيم المطروحة ، وواجهوها بقوة •

ثم لم تلبث في السنوات التي سبقت الحرب العالمية —وخلالها— أن ظهرت مدرسة هي امتداد على الطريق ، ولكنها أكثر عمقا وأصالة، تلك هي التي حمل لواءها مفكرون أبرار التمسوا مناهج الفكر

وأساليب الجدل والرد والمحاجة من القرآن نفسه وقالوا : إن القرآن وهو الاصل الاصيل للفكر الاسلامي يستطيع أن يقدم الاجابة الحاسمة وبدحض الشبهة الذائعــة •

وهذه المدرسة أشبه بمدرسة ابن تيمية في الازمة الاولى مــن حيث دعوته الى منطق للفكر الاسلامي مستمد من القرآن معارض لنهج أرسطو الذي سار معه مشاؤون كثيرون وسقطوا في منتصف الطريق•

ظهرت هــذه المسلمــات الوافــدة في الأدب : في القصــة والنقد واتصلت أول الامر بما حاول الادب اليوناني أن يطرحه مــرة أخرى ، ثم بما حاولتأن تطرحه الفلسفات الحديثة في مجال النفس والاخلاق•

وكان أخطر ما رمت اليه فصل الادب عــن الفكر كله ، وإشاعة أخطر نظرية في هذا المجال تلك هي نظرية الانشطار:التخصص واستعلاء كل فن وتخصص وانغلاقه على نفسه ، وقولته البلقاء بأنه لا يدخــل في اختصاص غيره وليس لــه أن يسأل عــن ارتباط تخصصه بآثاره البعيدة في الجوانب الاخرى من الفكر أو المجتمع •

ومن ذلــك أن الاديب ــ على مفهوم الفكر الوافد ــ يرى أنه مرتبط باطار الادب وحده ، فاذا اتصل هــذا الادب بالمجتمع وكانت له آثار معينة ، فانما هو ينظر اليهــا نظرة التمزق ، فيقول : المجتمع من شأن علماء الاجتماع ، والاخلاق من شأن علماء الاخلاق والدين من شأن رجال الدين ، والاقتصاد من شأن علماء الاقتصاد •

وهكذا يبدو مدى الخطر الكامن في محنــة التخصص التي طرحها الفكر الغربي في مواجهة فكرة التكامل الجامع التي يطرحها الفكــر الاسلامي حين يرى أن الاديب مسؤول في مجال الاجتماع والاخلاق والــدين والاقتصاد والتربية ، وأن عملــه ومادته لا بــد أن تكون

ملتقية في انسجام ويسر ومواءمة مـع مختلف المواد الاخـرى بحيث لا تقضي على القيم الاساسية التي نشأت وتشكلت مـن أجلها وهي بناء الانسان : عقلا وروحا وجسما •

تلـك في رأيي أخطـر المسلمات الوافـدة التي أصبحت الآن لا تناقش تحت صولة القائلين بأن التخصص هو أبرز مفاهيم العصر ، ولسنا في حاجـة الى أن نرد هذه النظرية الى مصادرها مـن الفكر اليهودي التلمودي ، وانما أحب أن أقرر حقيقة لا سبيل الى تخطيها أو إغفالها وهي (أن الفكر الاسلامي لا يقبل التخصص علـى هـذا النحو ولا يقره) •

فالاديب ــ على هذا النحو ــ حين ينظر الى الادب المكشوف أو الى الادب الجنسي ، لا يجد الابعاد الحقيقية لأثـره في المجتمع ، وهـو حين ينظر الى الادب الـذي تأثر بنظرية فرويـد أو فلسفـة الوجودية ، لا يستطيع أن يتخطى الحواجز المضللة الموضوعـة أمامه ليرى أن هذه النظريات هي مذاهب اجتماعية أساساً أريد بها أن تؤثر في الادب كما تؤثر في المجتمع ، وأنهـا بدأت كفرضيات وليست هي حقائق يقينية ، فكان لهذا خطره البعيد المدى من ناحيتين :

مـن ناحية التقوقع في دائرة الادب وحدهـا دون النظـر الى الآثار الاجتماعية للادب، أو النظر الى المذاهب المطروحة على أنها مذاهب اجتماعية لها آثار في الادب •

ثم تجيء بعد هذا : المسلمة الخطيرة الوافدة وهي قول الادباء : إن الادب لا يدخل في نطاق الدين ــ والدين هنا هو الاسلام ــ وهي أطروحة ليست أصيلة ، وانما نقلت نقلا الى مجتمعنا وفكرنا مما كان يقولـه الادباء في الغرب ، حتى يتخلصوا مـن نفوذ معين ، في نفس

الوقت الذي لم يكن فيه الدين في الغرب إلا مفهوما لاهوتيا خالصاً يرتبط بالعلاقة بين الله والانسان ٠

أما الاسلام فهـو ليس دينا بهذا المعنى ، انما هـو دين ونظام مجتمع ، ولذلك فهو منهج فكري واجتماعي واسع وشامل ، والادب بهذا المفهوم جزء منه ، لا ينفك عنه ٠

ولذلـك فاذا جاءت قضية كقضية الوجوديـة ، أو الجنس أو الفرويدية ، نفهم أنهـا في ذاتهـا مذاهب فلسفية اجتماعية ، وليست مذاهب أدبيـة في الاصل ، وهي تطرح مفاهيمها لتؤثـر في النفس والاجتماع والتربية والاخلاق ، حينئذ تكون المعادلة باطلة حين نقف نحن وراء حاجز الادب لنناقش هذا ، أو لنقول ببساطة : هذه مسائل دينية ٠

وكلمة مسائل دينية هي من الفكر الوافد ، الـذي يحاول أن يفترض أن الاسلام كدين الغرب قائم علـى أمور اللاهوت والعقائد وحدها ، وهي تستهدف عزل وجهة نظر الاسلام عـن مسائل الاجتماع والادب والقانون والاقتصاد ، وهذه ــ عندنا ــ هي أخطر المسلمـات الوافدة التي اكتسبت بحكم الترديد والتجاهل والعجز عـن تحرير المفاهيم ، اكتسبت طابع المسلمات أو الحقائق وانبنى عليهـا كثير مـن الاخطاء والاخطار ٠

ولقد جرت على هـذا النحو محاولات شبلي شميل وجرجـي زيدان ، ومن بعدهما جيل الفكر الوافد من الوسطاء والقناطر الادبية وخدام الفكر الغربي وسفرائه وتابعيه ، ومـن تعلموا مـن دوائـر الاستشراق ، ومدارس الإرساليات، ومن قدموا أطروحاتهم تحت اشراف اليهود من أمثال ليفي برايل ودور كايم وغيرهما ٠

ثم من جاء بعد ذلك من دعاة الوجودية والتفسير المادي للتاريخ

وغيرها ، وما يتصل بهذا كله من كتابة القصة والمسرحية والسيناريو والاغنيــة والبرنامج الاذاعي والاذاعــة المرئية ، كل ذلــك كون « وجودا »ضخما أصبح له سلطانه وجبروته وهو ينطلق اساسا مــن هذه المسلمات الوافدة ويقوم عليها .

فمن ناحية فهو يفرض مفاهيم غربية ووافدة ولها جذور تتصل باليونانية او بالوثنية القديمة في مجالات عدة :

في مجالات التراجم والبطولات : يفرض مفهوم المأساة وهــو مفهوم مستمد أساسا من فكرة الخطيئة الاولى ، وهذه لا يعترف بها الفكر الاسلامي ولا يتحرك في داخلها .

اما في مجالات النقد ، فيعتمد على مذاهب قامت اساسا في ظل النظرية المادية ، فهي تنكر الروح وتنكر القيم ، وتعامل الانسان على أنه جسد ومادة ، وتغفل تماما جوانبه الوجدانية والروحية والفكرية.

وفي مفهوم القصة يقوم التصور على الصناعة لا على الواقع ، ويتجاهل الفوارق بــين المجتمعات والامزجــة والبيئات ، والدوافــع والبواعث ، بين مجتمع غربي لــه أسلوبــه ومفاهيمه وعقائده ، وبــين مجتمع عربي اسلامي له طابعه وأحواله .

وفي كتابــات الجنس يبــدو واضحــا مفهــوم الفكــر العربي الاسلامي ، وهو يختلف اختلافا جذريا عن مفهوم الغرب ، فالفكــر الاسلامي وبالتالي الادب العربي لا يجعل من الجنس قضية ما ، ذلك لان قضية الجنس انما بدأت من خلال تاريخ طويل عرفته اوروبــا يقوم على أساس الدعوة التي حملتها المسيحية الى الزهد والاعتزال في الصوامع وانكار الرابطة الطبيعية بين الرجل والمرأة ، والدعوة الى

انكار متاع الحياة والدافع الحيوي ووأده وتحريمه والنظر اليه نظرة الجريمــة •

وما يتصل بهذا من دعوة الدين في الغرب الى مقاومة رغبــات النفس ، وتحريم الطلاق والالحاح على عدم اعتراف الانسان بينه وبين نفسه بالحق في ممارسة هذا الدافــع الحيوي ، ومــن هنــا نشأت نظرية الكبت التي جاءت الفلســفات السيكولوجية لهدمهــا ودفع الانسان الى الانطلاق في هذه الجوانب الى اقصى مدى •

كان هذا الكبت هو مصدر الانفجار ، ومصدر الدعوة الصاعقة الى كتابات الجنس وفلسفته وقضاياه •

أما في الفكر الاسلامي وفي الادب العربي ، فالامر جد مختلف ، ذلك ان الاسلام يعترف بالنشاط الحيوي للانسان ، ولا ينكر حــق الانسان في مزاولة هذا النشاط ، ثم هو يرسم له ضوابطه ، وإطــاره وحدوده المعقولة التي تحفظ التركيب الانساني قويا ، وتحول بينه وبين الانهيار والتصدع •

فالاسلام بهذا المفهوم يلغي مسألة الكبت إلغــاءً حيث يعترف بهذه الحاجة ، ويعترف بحق ممارســتها ، فاذا تأخرت ، أو حــالت حوائل دون اتمامها في وقت ما ، فان امــرا لن يقع ممــا يصورونه بالنسبة للكبت الغربي من أمثال الجنون او الاضطراب العصبي ، ذلك ان مصدر الاضطراب العصبي انما هو انغــلاق الطاقة نهائيــا عن الاعتراف بهذا الدافع الحيوي ، أما الاعتراف به ، والاقرار بوجوده ، وحق ممارسته مــع تأجيله ، فانه لا يوقع ابدا في مثل هذا الخطــر الذي يوقع فيه المفهوم الغربي والمجافي للطبيعة والمعــارض للفطــرة والفرق ان الاسلام يعترف بالدافع الحيوي ثم يؤجله ، فهــو لا يقيم

له في نفسه عقدة ما ، اما في الغرب ، فانه ينكره اساسا بينما هو يهز النفس هزا فينشأ العصاب والمرض •

وفرويد نفسه قد فرق بين الكبت وعدم الممارسة ، فمسألة الجنس لها أبعادها وهي في الادب العربي الآن وفي الفكر العربي المعاصر انما تعالج بتهويل كبير في محاولة لاعطائها حجماً اكبر من حجمها الطبيعي •

فليس في الاسلام اديرة ولا صوامع ولا رهبانية ، وليس فيه الغاء للطلاق يفتح الطريق الى الاباحة المستترة ، وليس فيه انكار لطاقة من الطاقات البشرية على النحو الذي يدعو الى انفجارها بالمرض العصبي ، فأمر الجنس قد انطلق اساسا من تفسير ديني ليس أصيلا في المسيحية السماوية ، وانما دخل اليها وهو عدم اعتراف الانسان بهذا الواقع القائم في داخله ، حيث لا يحق له ان يفكر في ممارسته بينما الاسلام يقرر وجود هذا الدافع ، ويقرر ممارسته ، ويضع له الضوابط التي تنظمه ، ويدعو الى التسامي في حالة العجز عن تحقيقه•

وهناك مفاهيم وافدة اخرى أصبحت في حكم المسلمات كقول بعض اصحاب المذاهب الاجتماعية او السياسية : « العلم يقول كذا » •• بينما ان هناك فارقا واسعا واضحا وعميقا يعرفه جميع الباحثين بين العلم والفلسفة ، وان العلم هو نتاج المعامل بينما الفلسفة هي نتاج العقول ، وما تنتجه العقول انما هو افتراضات واحتمالات لا تصل الى مجال الحقيقة العلمية ، وانما هي محاولات لرسم مناهج حياة قد تخطىء وقد تصيب ، وهي عرضة للتغيير باختلاف البيئات والازمان •

وليست لها صفة الثبات ، او ليس لها جذورها الاســاسية في الفكر والمجتمع .

وهناك من المسلمات الوافدة : مصطلح (وحدة الثقافة العالمية) أو تبادل الثقافات ، او تلقيح الثقافات ، وهذه مسألة تكشف عنهـا ذاتية الامم بأجلى بيان .

ذلك انه ليست هناك ثقافة واحدة ، ولكن هناك علم واحد ، أو معرفة واحدة ، اما الثقافة ، فهي ترتبط اساسا بالامـم وتسـتمد وجودها من قيمها ومقدراتها وعقائدها .

ولذلك فهي تختلف باختلاف هـذه العقائد والمقـدرات ، ولا سبيل الى دمج ثقافة في أخرى فان في هذا قضاء علـى ذاتية الامـة المحتواة ، واذا كانت هناك دعوة صادقة وليست مراوغة الى وحـدة عالمية للثقافة ، فان الامم ذات الحضارة العريقة الواقعة تحت سيطرة النفوذ الاجنبي والتي ما زالت تواجـه تحديات الغزو السياسي او العسكري أو الفكري كالامة الاسلامية فانها ان قبلت ذلك فسوف تنصهر في بوتقة واسعة ، ، وتذوب في أتون عميق ، وسوف تفقد كل مقومات وجودها وكيانها ، ومن المستحيل ان يحدث ذلك لامة يتصل ارتباطها بفكرها الى اربعة عشر قرنا ، وقد عزت خلال ذلك الزمـن الطويل على الاحتواء والذوبان في مختلف العصور والازمان ، وكانت قادرة على ان تعطي ، وتقبل وترد ، وترفض من الفكر البشري وفـق قاعدتها الاصيلة .

الاستشراق

من تحصيل الحاصل القول بان أبرع ادوات التغريب هي « شبهات الاستشراق » :

ومن المقطوع به ان الاستشراق من خلال هدفه ومهمته قدم للفكر الاسلامي العربي أشياء كثيرة نافعة لا يمكن انكارها ولا تجاهلها في مجال احياء التراث والتبويب والفهرسة .
ولكن هناك ايضا سموم كثيرة ، ومع ذلك فان لنا على ايجابيات الاستشراق تحفظين :

الاول : ان التراث الاسلامي العربي سرق من البلاد بأساليب متعددة يمكن الرجوع اليها فيما أشار اليه كثيرون منهم الدكتورة بنت الشاطىء في كتابها « تراثنا » وبعض الابحاث الاخرى .

وكان انتقال هذا التراث الى ايدي دوائر الاستشراق واحدا ومن أخطر التحديات ، لانه أصبح حجة علينا لا لنا ، وأصبح إحياؤه يجري على النحو الذي يختاره الاستشراق ، وليس وفق ارادتنا الخاصة ، وكل ما حاولناه في السنوات السبعين أو الثمانين الاخيرة لايعدو قطرة في بحر ، هذا فضلا عن ان محاولتنا كانت بطبيعتها ليست لها أبعاد التقدير الكامل ، وانما كانت تجري في مجال الاحياء للادب أو للشعر او لغيره مما هو ليس الأهم في التراث .

التحفظ الثاني :

١ ــ ان المستشرقين جروا على خطة إحياء انواع معينة من هذا التراث ، في مقدمتها التصوف الفلسفي ، وعلم الكلام ، وأبحاث الاعتزال والباطنية ، وكل هذا ليس لنا ، ولكنه علينا ، والمقصود به طرح خلافات سياسية قديمة أفسدت فكر المسلمين ، ومزقتهم شيعا في الماضي ، ثم تلاشت بعد أن تغلب عليها المنهج الاصيل الذي أقامه المسلمون تحت اسم « مذهب اهل السنة والجماعة » .

٢ ــ عني المستشرقون بجوانب معينة من التراث ، وأولوها اهتماما كبيرا منها دراسات الحلاج التي عني بها (ماسينيون) ودراسات عن السهروردي وبشار وأبي نواس واخرى عن الف ليلة وليلة وكليلة ودمنه ، وما يتصل بابن الراوندي واحياء الاغاني ، وكل هذه الدراسات فيها شبهة طرح مفاهيم من شأنها ان تحطم مفهوم الاسلام الاصيل او تزيفه .

٣ ــ كان المستشرقون في الماضي يقفون من رجالنا موقف التلاميذ، أمثال احمد زكي باشا ، وأحمد تيمور ، وعبد العزيز جاويش .

وليراجع الباحثون مناقشة عبد العزيز جاويش في مؤتمر المستشرقين في الجزائر عام ١٩٠٥ لاحد المستشرقين عن القرآن واللغة العربية ، ثم تغيرت الخطط ، فأصبح مثقفونا في جامعات اوروبا تلاميذ للمستشرقين في دراستهم ، وجاء بعضهم الى مصر من بعد ، فأعلى من شأن الاستشراق (يراجع مقدمة طه حسين لكتابه عن الادب

الجاهلي)ومن المعروف أن طه حسين وزكي مبارك ومنصور فهمي ، ومحمود عزمي كانوا تلاميذ لمستشرقين يهود هـم : دوركايم وليفي برايل والاخير هذا حرض منصور فهمي على معالجة موضوع تعـدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم باسلوب استشراقي •

٤ ـ خطأ الرأي الذي يردده المستشرقون ويتابعهم فيه طه حسين وزكي مبارك من أن العرب كانوا أمة لها حضارة كاملة ، ومجتمـع منظم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول الاسلام •

والحقيقة ان العرب لم يكونوا أمـة ولا شيئا مذكـورا الا بالاسلام وشعرهم يشهد بأن كلمة العروبة لم ترد فيه اطلاقا وانمـا وردت كلمة القبيلة ، فالاسلام هو الذي جعل العرب أمة •

٥ ـ الكتابة عن الاستشراق من وجهة نظر إسلامية أو عربية يقتضي الاعتماد على مصادر اصيلة ، وعلى الكتاب الموثوق بهم وفي مقدمتهم مصطفى صادق الرافعي ورشيد رضا ومحمد عبده والدكتور محمد محمد حسين ، ومحمد المبارك ، ومحمد عزة دروزه ؛ والدكتور حسين الهراوي والدكتور محمد البهي والدكتور عمر فروخ وعبد العزيز جاويش •

ثم تأتي بعد ذلك كتابات المستشرقين عن الاستشراق لتكـون موضع المناقشة ، أما ان تكون كتابات المستشرقين هي المصدر لدراسة الاستشراق ، فذلك مما سيتعارض مع المنهج العلمي •

فاذا جاء بعض الكتاب ممن تابعوا المستشرقين فشأنهم في ذلك شأن المستشرقين انفسهم ، تؤخذ آراؤهم بحذر •

٦ ــ الحملة التي شنها الاستشراق على الدولة العثمانية حملة ظالمة، وقد قامت اساسا منذ يومها الى اليوم لحساب الصهيونية العالميــة وجاءت على أثر الموقف الشريف الكريم التاريخي للســلطان عبــد الحميد في وجه هرتزل ومطلبه السماح لليهود بالاقامة في فلسطــين (يراجع في هــذا بحث احمد الشقيري وأحمــد طوبين عــن القضيــة العربية) .

ولقد ظهرت في السنوات الاخيرة وثائق متعددة تكشف الكثير من هذه الحقائق ، هذا ولا يمكن اصدار حكم تاريخي علمي علــى الدولة العمثانية دفعة واحدة ، ويجب مراعاة مرحلة القوة ومرحلة الضعف .

اما في الفترة الاخيرة فهناك امران واضحان تمام الوضوح أمــام الباحث ، يحاول المستشرقون وأتباعهم طمس حقيقتهما ويدخلــون الواحد منهما في الآخر ادخــالا مريبا همــا : مرحلــة السلطان عبــد الحميد التي انتهت عام ١٩٠٩ ، ومرحلة الاتحاديين التي بــدأت في نفس العام وانتهت بنهاية الحرب العالمية الاولى .

المرحلة الاولى هي مرحلة المقاومة الصامدة برفع رايات الجامعة الاسلامية في وجه الاستعمار والصهيونية ، بينما الثانية هي مرحلــة الصراع الدموي ، وتسليم فلسطين لليهود ، وقتل العرب والقضــاء على الدولة بادخالها في الحرب العالمية ، وتسليم طرابلس الغــرب للايطاليين .

٧ ـ لاريب ان الادب العربي هو من صنيع الاسلام، فلم يكن للعرب قبل الاسلام أدب بالمعنى العلمي لهذه الكلمة الا قصائد الشعر والكهان ، اما الادب العربي ، فقد أقامه القرآن وان كان قد انحرف من بعد على ايدي الشعوبية الفارسية .

٨ ـ ان أية محاولة لتصوير فلسفة الاستشراق لا تعدو ما أورده الباحثون المنصفون من انها محاولة الاستعمار الغربي لدراسة العقلية العربية الاسلامية ، والنفس العربية الاسلامية بقصد الانتفاع بذلك في التعامل معها ، والسيطرة عليها ، وتدمير مقوماتها التي اعطتها القدرة على التماسك والصمود .

٩ ـ من الخطر الكبير في مناهج العلم تصوير الحركة الاستشراقية بأنها حركة علمية بمفهوم البحث العلمي المنهجي القائم على الوصول الى الحق .

فالاستشراق في شطريه : ـ عاملا مع الكنيسة أو عاملا مع وزارات الاستعمار ـ لايستطيع ان يخلص الى الحق ، وانما هو يؤدي دوره في إثارة الشبهات ، وتقديم الزاد الكافي لدراسات التبشير ومعاهد الارساليات لخلق ظاهرة من انتقاص العرب والمسلمين وفكرهم ولغتهم وعقائدهم .

واذا كان الاستشراق علماً كما يحاول البعض أن يقول ، فاين شرائط المنهج العلمي القائمة على البحث المتجرد والانصاف ؟!.

ومن احق ان يقال : إن المستشرق إنمـا هو واحـد من ثـلاثة : متصل بالكنيسة ، او بالاستعمار وفي كليهما لن يكون منصفـا فاذا كان غير ذلك ، فان هناك من عجزه عن فهم البلاغة العربية ما يعوقه كثيراً عن تقصي الحقائق والوصول اليها .

ونحن نعرف كيف ان بعض المستشرقين فسر الآية القرآنية : (وكل انسان الزمناه طائره في عنقه) بقوله : « ان كل انسان يأتـي يوم القيامة وفي رقبته حمامة » وهناك عشرات من مثل هذه الاخطاء اوردها العقاد في كتابه « ما يقال عن الاسلام » .

والعقلية الغربية التي ينبثق عنها الاستشراق لا تقبل بأي حـال ظاهرة الانصاف للعرب والمسلمين والقرآن ومحمـد والاسـلام ، وصدق أحدهم حين قال : « ان كراهية العرب والاسلام انما يرتضعها الاوربي مع لبان أمه » .

١٠ ــ ان هناك محاولة لتقسيم الاستشراق الى مرحلتين :

مرحلة عقدية ومرحلة اخرى جديدة يطلق عليهـا اسـم مرحلـة علمية ، أما العقدية ، فهي تلك المرحلة التي هاجم فيها المستشرقـون الاسلام بعنف وضراوة ، اما المرحلة الجديدة والتي تسمى بالمرحلة العلمية وهو وصف غير صحيح ، ولو انها وصفت بأنها (سياسية) لكان ذلك أصح واصدق . والمفكرون المسلمون يعرفون جميعـا أنه في العقدين الاخيرين قد تراجع الاستشراق عـن أسلوبـه القديـم المباشر واستعمل أسلوبا أشد مكراً ، وأسوأ سبيلا ، وهـو محـاولـة الدخول في الموضوعات من باب التقدير والمدح حتى يخدع القارىء ويكسب ثقته ، ثم لا يلبث بعد ذلـك ان يثير شبهات خفينة متتاليـة في اطـار هذا التقدير العام الكاذب ، ولقد تنبه لهذا كثير من الباحثين المسلمين اليقظين واشاروا الى خطورته ، وحذروا من الانخداع له .

وغالبا ما يكون هذا الاسلوب بعد دخول الاستشراق اليهودي الى ساحة الاستشراق (برنارد لـويس ، ردونسون ، جاك بـيرك ، م بيرجر) •

ولا ريب ان الاستشراق في المجال العقدي يعمـل على هـدم الاسلام والرسول (صلى اللـه عليه وسلم) والقرآن ، وفي المجال السياسي يعمل على هدم الامة العربية ، واللغة العربية ، والحضارة ، والتاريخ •

١١ ــ لم يكن الاسلام غامضا امام الفكر الاوروبي، بل كان معروفا وقد كشفت الحروب الصليبية لمن جاؤوا الى الشرق سماحة المسلمين والعرب ، وعرفوا قدر الاسلام وعظمته ، ولكن الذين ذهبوا الـى اوروبا وتحدثوا عن ذلك جرت المحاولات لقتلهم والتخلص منهم[١]•

١٢ ــ ان اضخم صيحة كانت تصدر من الفكر الغربي هي صيحة (المنهج العلمي في البحث) وفي مختلف مجالات الدراسات التـي اتصلت بالاسلام والعرب كان هذا المنهج العلمي مسموخـا ، وقائمـا على الأحكام المسبقة مليئاً بالتعصب والحقد والكراهية ، ممـا يدل دلالة اكيدة على ان القيم في الفكر الغربي هي قيم خاصة ومحلية ولا تنطبق على الناس جميعـا •

فالمعروف أن المنهج العلمي التجريبي قد أنشأه المسلمون ، ولكن

---

(١) راجع ابحاث الحروب الصليبية .

الاوربيين حين نقلوه ظلوا أكثر من ثلاثمائة عام ينكرون ذلك ، وفي نفس الوقت يهاجمون الاسلام الذي هداهم الى هذا المنهج .

والمنهج العلمي في المعرفة من نتاج الإسلام أيضا ، وقد كان الاسلام منصفا مع الاديان السابقة له ، فقد ناقشها في سماحة ، ولم يقم أحكامه على الهوى او الرأي المسبق ، وشهادة هاملتون جب للمسلمين في هذا معروفة .

أما الاوروبيون فيما نرى من كتابات المستشرقين عن الاسلام والعرب ، فاننا نرى انهم تجاوزوا الحق الى التعصب والكراهية والحقد وعدم الانصاف .

١٣ ـ هناك رأي بأن الاستشراق قد يستطيع ان يتحرر مع الزمن. وكيف يمكن للاستشراق أن يتحرر من ايدلوجيات الغرب وهو وليدها ومن صنعها وخادمها ، والمرتبط بها ارتباطا جذريا وعضويا ، وليس عنده باب واحد مفتوح الى الحق او الانصاف او النظرة العلمية الصحيحة يستطيع ان ينفذ منه .

١٤ ـ حاول الاستشراق ان يهدي الغرب الى فهم النفسية العربية الاسلامية والعقلية العربية الاسلامية ، ولكنه عجز حقيقة عن فهم هذه العقلية وتلك النفسية ، فقد تغلبت أهواؤه وآراؤه المسبقة ، وبذلك فشل الاستعمار نفسه في التعامل مع العرب والمسلمين .

أما رحلات الاستشراق الى الشرق ، فقد كانت سريعة خاطفة ، وكانت تحمل معها شعور الاستعلاء والحقد (نموذج ذلك في هانوتو وغيره) .

لا ريب أن بحوث جولد زيهر ، وسنوك هرو جنيه ، ويوسف

شاخت في الشريعة الاسلامية ليست علمية ، وهي تقوم على أساس فكر مسبق ، وهدف واضح من انتقاص اصالة الشريعة الاسلامية واستقلاليتها ، وقد عارض آراء هؤلاء كثيرون ، منهم (العلامتان الشيخ محمد الغزالي والشيخ ابو زهرة) .

١٦ ـ لاريب ان اصدق مفهوم للاستشراق هو أنه(العلم في خدمة السياسة والاستعمار) وهدفه هو اذابة الشخصية الاسلامية وتغيير ما بنفس المسلمين من ايمان بالاسلام ومثله وعن تعلق بنظمه ولغته وحضارته تغييرا يسلم الى التنكر لهذا كله وقطع الصلة .

ولاريب ان كل الشكوك والشبهات المتداولة الآن والتي يستغلها التغريب والغزو الثقافي والتبشير انما هي من صنع الاستشراق .

وهناك تجربة رائدة في هذا المجال قام بها الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله الذي التقى بأغلب المستشرقين الاحياء في مختلف جامعات اوروبا،وقد اورد هذه التجربة في كتابه عن السنة [١].

وفي كتابنا « الاسلام والثقافة العربية » عرض واسع لحركتي التبشير والاستشراق ، ودراسة مفصلة عن أبرز المستشرقين ، مرجليوث ، لامنس ، لويس شيخو ، لويس براتران ، لنسنك ، جولد سيهر .. الخ

وعرض لمختلف القضايا التي أثارها الاستشراق في مجال الاسلام والفكر العربي الاسلامي وليرجع اليه من يشاء .

---

(١) انظر « السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي » ص ١٢ طبع المكتب الاسلامي .

الباب الثاني

بين الفكر البشري والفكر الانساني

هناك محاولة يهدف اليها التغريب هي تمييع الفواصل الدقيقة بين الفكر الانساني الرباني المصدر وبين الفكر البشري الذي صنعه الانسان ، والذي يسيطر الآن على الفكر الغربي ، هذه المحاولة تستهدف احتواء الفكر الاسلامي والتأثير عليه وعلينا دائما أن نكشف هذه الفوارق ، وأن نركز على أوجه التباين الواضحة بين الفكر الاسلامي والفكر البشري في مجالين واضحين :

الاول : تكامل الفكر الاسلامي وانشطارية الفكر الغربي

الثاني : مفهوم الثوابت والمتغيرات

بين الفكر البشري والفكر الإنساني

هناك مذهبان من مذاهب الفكر يتصارعان في المجتمعات : أحدهما : الفكر البشري ، وثانيهما : الفكر الانساني •

اما الفكر البشري ، فهو حصيلة ذلك التراث الوثني القديم المتضارب الذي اصطرع مع الاديان السماوية ، وحاول أن يثني البشرية عن طبيعتها ونظرتها •

أما الفكر الانساني ، فهو عصارة الاديان ، والنبوات ، والكتب المنزلة ، ويقوم في أصفى مقوماته على « التوحيد » الخالص ، ومنه يستمد كل القيم والمقومات •

ولقد احتفظت الامم التي نزلت فيها الاديان بذلك التراث القيم واصطنعته أسلوبا للحياة ، ووجدت فيها راحة النفس ، وسلامة القلب وكرامة الايمان ، وصدق العقل ، وقد مضى الفكر الانساني في طريقه لا يتخلف •

أما الفكر البشري ، فقد كان يجد من ظروف ضعف الامم هذه وسيلة الى الانطلاق والتوسع ، فيضفي على الحياة صورة الوثنية والتعدد ، ويحيي تراثا قديما رفضته الاديان هو تراث العنصرية ، واعلاء الغرائز ، وانكار الآخرة ، وتزييف كل القيم الكريمة ، وفي مقدمتها الاخلاق •

ولقد يحاول بعض خصوم الفكر الانساني المستمد من التوحيد الخالص أن يزينوا للناس في أسلوب من الزخرف والتمويه كيف يحوي هذا الفكر مظاهر وصورا قد تعجب بعض السذج ، وتأخذ بألباب من قصرت بهم التربية والثقافة عن فهم أبعاد الفكر الانساني في شموله لعالمي الغيب والشهادة ، وقدرته على الاستجابة للطبيعة البشرية ، وفهم للنفس الانسانية ، وبعد بها عن الزهادة والترف ، وعن الجمود والانحراف جميعا .

واذا كان الفكر البشري يركز على اشياء اهتدى اليها قدماء المصريين ، والكلدانيون ، والهنود ، والفرس ، واليونان ، وغيرهم ، فما هذه الاشياء مما يتصل بالحقائق الا من تراث الاديان ورسالات السماء التي قدمت للدنيا اصدق المفاهيم ، أما ما سوى ذلك ، فليس هو الا ما أطلق عليه الرموز والاسرار مما يتصل بالحروف ، او الكلمات ، من أمثال الخنفساء الذهبية ، والحية ، والسمكة والثور الذي يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح ، وأبي الهول والاهرامات والمثلثات والمربعات والدوائر والاعداد المقدسة ، وكلها مما يدخل في باب اوهام العقل البشري في عصور قصوره وضعفه وتخلفه .

وهي من التراث البائد الذي صهرته أضواء الدين الحق الخالص الذي ارسل الله به الانبياء والرسل ، وكان ختامه الإسلام بالقرآن .

ماذا يمكن أن تعطي هذه الرموز والأسرار إلا الأوهام والسحر من صناعة العرافين والسحرة والمشعوذين الذين زيفوا الفكر الانساني ، وادخلوا اليه عبادة الاوثان ، والذي جاء الاسلام مدمرا لكل ما في ايديهم من اوهام خدعوا بها الشعوب والامم .

فاذا جاءت اليوم بعض الدعوات الضالة والمذاهب الهدامة لتعيد احياء تلك الاشياء ، فانها لن تجد لها قبولا في عصور ارتقى فيها العقل البشري ، ولم يعد يصدق في الاساطير والاوهام والخرافات التي ظلت تضلله عصورا طويلة ، وترده عن مفهوم التوحيد وضياء الحق الذي جاءت به رسالات السماء والذي قدمه الاسلام في صورته النهائية . هذه « الرموز » التي يعلي من شأنها أصحاب الدعوات الضالة والمذاهب الهدامة ، ما كانت البشرية في حاجة اليها ، وما كانت الاديان الا رسالة الوضوح والصراحة والحق الناصع ، فقد كان رسول الاسلام — عليه الصلاة والسلام — يقول للناس: «اسألوني» وقد جعل كلماته على المحجة البيضاء واضحة مشرقة مضيئة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

لم تكن رسالات السماء في حاجة الى ان تخاطب الناس بالرموز ، ولا ان تجعل لها حديثا لطبقة غير طبقة الجماهير ، وانما كان ذلك شأن الدعوات الباطنية السرية الضالة المضلة التي كانت تريد ان تسوق الناس الى مطامعها بالخداع ، وتجمع الناس اليها بخدعة السر وتهويل الرموز والصور والاستعراضات ذات البريق الخادع .

إن الاديان السماوية في أصولها الاصيلة قد صدقت الناس بالحقائق ، وقدمت اليهم كل ما يهدي قلوبهم وعقولهم وأنفسهم وأرواحهم ، فلم يعودوا في حاجة الى سر ، ولم يحتفظ الرسول — صلى الله عليه وسلم — دون الناس جميعا بسر أفضى به الى أحد من خاصته ، أو أهله ، وانما كانت رسالته للعالمين جميعا .

ولقد كذبت حقائق التاريخ ما ذهب اليه دعاة الفكر البشري من أن الدين تحول الى طقوس متحجرة ، ومراسم لا روح فيها ولا

حياة ، فان الدين الحق قد حفظ نصه الموثق ، وأصوله الاصيلة ، دون أن تعدو عليها الفلسفات أو النظريات الوثنية ، فمضى صافيا صادقا يهدي في يومه الاخير الى ما كان يهدي اليه في يومه الاول •

ومن العجيب أن بعض الذين تعلموا في مدارس الارساليات قد عجزت مفاهيمهم وقيمهم التي استمدوها (والقاصرة عن فهم حقيقة الدين) أن تعصمهم من السقوط في وهدة مثل هذه الدعوات ، والتي جاءت لتخرج فريقا من الناس من أديانهم بأن تقدم لهم هذه الحصيلة من البدائل الوثنية الضالة من خرافات وأوهام وأساطير •

إن « الوثنية » : في مقابل « التوحيد » ما تزال تصارع منتهزة فرص ضعف المجتمعات واضطرابها ، ووقوع الاحداث الكبرى كالحروب والازمات لدفع العالم دفعا الى طريق الخطر ، وفي ظل التخويف وإثارة الاعصاب تنمو الدعوات الضارة والمذاهب الهدامة ، وتقوى وتستشري •

وليس من أمر يساعدها أو يؤازرها إلا نقص الثقافة الاساسية ، المستمدة من الدين ، والقائمة على الايمان بالله ، وان نقص التربية أساسا في هذه الناحية هو الذي يوجد هذه الثغرة الخطيرة في النفس الانسانية فاذا هي لم تمتلىء باليقين ، امتلأت بالشك ، وإذا لم توسد لها عوامل الحق ، استطاع الباطل غزو الفراغ فيها ، والسيطرة عليه ، وإحلال تلك الطوابع الخطيرة من القلق والضياع •

ولا ريب أن أزمة الانسان المعاصر اليوم هي أزمة فكر وخلق ، فقد استطاعت مذاهب التحلل والإباحة أن تسيطر عن طريق الصحافة والثقافة وأن تؤازرها قوى ضخمة ، فتدفعها الى مجال التعليم ، ومن

ثم أصبحت نظريات وفروضا افترضها بعض الفلاسفة وكأنها حقائق مقررة ، بل إنها قد استعلت حتى هزمت الحقائق الاساسية ، وعزلتها عن الحياة •

وهذا هو أعلى ما وصل اليه من « الفكر البشري » مما يشكل الآن ما يسمى بأزمة الحضارة وأزمة الانسان المعاصر ، وهي قضية تناولها غير قليل من الباحثين والعلماء والمتخصصين ، وكشفوا عن مصدرها الذي يتلخص في : (نمو عقل العالم وتوقف قلبه عن النمو) ومن ثم نشأ ذلك التضخم الواضح ، وذلك الانحراف العميق الذي عجز عن دفع العقل والقلب بمعدل واحد ، ولقد كان من أخطر الاخطار التي واجهت البشرية في سعيها على مدى القرون ، هو فقدان التوازن والمواءمة بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، والنفس والجسم ، سواء باعلاء الوجدان على النحو الذي سلكته الغنوصية الشرقية أو إعلاء العقل على النحو الذي سلكته الهلينية الغربية وقد جاءت الاديان عامل توازن ، وجاء الاسلام (بوصفه دينا ومنهج حياة) معدلاً لهذا المنهج جامعا له ، منسقا بين قوتيه على نحو يحقق للبشرية أسمى ما تتطلع اليه •

غير أن انحراف البشرية عن الدين ، وعن حقائقه العليا الاصيلة القائمة على التوحيد والعدل والايمان والغيب والجزاء والمسؤولية الاخلاقية ، هذا الانحراف تحت سيطرة الفكر البشري وفي ظل تسلطه باسم العلم أو الفلسفة ، ومن خلال نظريات بزاقة المظهر ، قريبة الى المطامع والشهوات والغرائز ، كل هذا أوجد تلك الازمة الواضحة الاثر التي تواجهها البشرية الآن راجعة بها القهقرى الى الغابات والبدائية ، محطمة لما تحقق من مدنية وارتقاء يراد أن يبلغ بها الى

الغاية الانسانية العليا التي دعت اليها الاديان السماوية المنزلة .

ومن هنا فلا بد لتصحيح مسار البشرية من اعادة النظر في كل النظريات والمذاهب التي كانت في أصلها بمثابة فروض تناقش ، ثم انقلبت مع ضعف المتلقين وإصرار القوى الغازية الى حقائق ، لا بد من اعادة النظر في هذه النظريات على ضوء النتائج التي ترتبت عليها في ميدانها وفي الميادين التي انتقلت اليها وسوف نجد أنها فشلت فشلا ذريعا في تحقيق التقدم أو السعادة المرجوين منها ، ذلك لأنها خالفت الفطرة ، وعارضت طبيعة الانسان البشرية القائمة على القلب والعقل ، والجامعة بين القيم الفكرية والنفسية والمادية جميعا ، ومن هنا نجد أن منطلقاتنا الحقيقية والاصيلة في عالم الشرق والغرب والاسلام هي أصدق الاضواء الكاشفة ، وأهدى السبل النافذة الى الفطرة الانسانية ، والى تحقيق التقدم والسعادة ، بما تجمع فيه من عوامل الرحمة والقوة ، واليسر والواقعية ، والجمع بين العدل والحرية ، والايمان والعلم ، والدنيا والآخرة .

إن أزمة العصر وأزمة الانسان المعاصر هي في كلمة واحدة : جاءت نتيجة اعلاء جانب على جانب ، وتغليب المادة على الفكر ، وعزل النفس عن الروح ، ومحاكمة الانسان الى مقاييس المادة وحدها ، وتطبيق نتائج المعامل التي قامت على الحشرات والحيوانات عليه ، بينما هو مخالف لذلك روح وجسم ، وعقل وقلب .

ومن هنا نجد الفكر البشري ، وهو يذهب في طريق مليء بالكآبة والظلام بينما نجد طريق الفكر الانساني مضيئا مشرقا يهدي الى الحق ، ويرد عن الانسان عوادي القلق والضياع والتمزق .

الانشطارية

أخطر التحديات في وجه الفكر الإسلامي

١ ــ ما هي الانشطارية ؟

هي الفصل بين القيم المتكاملة في الفكر وفي النفس الانسانية وتجزئتها والعجز عن تكاملها وارتباطها ، وعدم القدرة على الاستيعاب ، أو رؤية الابعاد المختلفة . ولما كان الفكر الاسلامي والثقافة العربية تقوم أساسا على التكامل بين القيم ، والترابط بين الاجزاء بما يلتقي بالانسان نفسه الجامع بين المادة والروح فان « الانشطارية » هي مصدر الازمات البشرية والحضارية التي تصيب الامم والافراد .

ولما كان الفكر الغربي بطبيعته التي نشأ عليها وتشكل بها ، هو فكر انشطاري يعجز عن التكامل ، ويرى استحالة التقاء العناصر في كل واحد ، فقد طغى هذا الطابع على الفكر الاسلامي العربي واللغة ، وحاول أن يسيطر عليهما ، وأن يعجزهما عن تحقيق أصالتهما والتماس ذاتهما .

والغربيون يعرفون « تكامل الفكر الاسلامي وطابعه الجامع » تمام المعرفة ، ويذكرون ذلك بوضوح حين يعدون أبحاثهم ، ولكنهم يدعونه الى الانشطارية استمدادا من مفهومهم ، ورغبة في أن

يصهروه في بوتقتهم ، أو ينفـذوا خطتهـم في احتوائـه ، والسيطـرة عليه ، وادخاله فيما يسمونه مجال الثقافة العالمية أو الفكر الاممي •

ولـذلك فان التسليم بالانشطاريـة في مجـال حركة الفكـر الاسلامي هـو قبـول بالتبعية ، ورضى بالتغريب ، وتسليم بالغـزو الثقافي •

٢ ـ بدأت الانشطارية في الفكر الغربي من نقطة الفصل بين الدين والدنيا ، وعزل الدين عن الدولة ، وفصلها عن المجتمع ، وقصر الدين على العلاقة بين الله والانسان حتى أصبح مفهوم الدين يعني العلاقة وحدهـا ، هذا المعنى لكلمة الدين المتعارف الآن في مجال البحث عامـة والحديث علـى اطلاقه كأنما يستمد مفهومه من كلمة Releyon الاجنبية وهي لا تعني مفهوم الدين بالصورة التي نفهمها في الفكـر الاسلامي ، ولا تشمل منطلق مفهوم الاسلام الجامع بين الدين والدولة والعبادة ومنهج الحياة •

بينما يعني جانب اللاهوت الغربي أو العبادة في الاسلام جـزءاً ..ن الدين لا يكتمل الدين إلا بتمامه بإقـرار مناهج العلاقات بين الناس والله ، وبين الناس وأنفسهم ومجتمعهم ومن هنا فان الفكـر الغربي يستطيع أن يكـون متقبلا لكـل الايديولوجيات والمناهـج الاجتماعية والمذاهب الاقتصادية ، لأنه لا يخضع هذا الشطر للدين ، وليس له منهج من الدين يرتب هذه الجوانب ، أما في الاسلام ، فإن المسلم يجد منهج العبادة والمنهج الاجتماعي كاملين ملتقيين لا ينفكان ولا ينفصلان •

ومن الفصل بين الدين والدنيا ، نشأ الفصل بين الدين والعلم ، ثم نشأت مذاهب وأيديولوجيات تحاول أن تضع نظماً للمجتمعات بعيدة عن الدين ، ثم جاء العلم ، فحقق بعض الانتصارات التي دفعته الى الامام ، الى المكان الذي وصف بأنه دين البشرية في العصر الحديث ، ومن استعلاء العلم استعلت المادية ، ووقع الانفصام الكامل بين شطري النفس والحياة ، فغاض جانب الروح والنفس والوجدان والقلب ، واستعلى جانب العقل والعلم والمادة •

وأصبح الامر كله قائماً على المحسوسات والمعقولات والتجريب ، أما ما سوى ذلك ، فهو خرافة وأساطير وغيبيات — على حد تعبير الفكر الغربي — وبذلك أنكرت الفلسفة المادية شطرا غنياً كبيرا من الواقع الذي هو قائم فعلا ، وإن كان مما لا يدركه الحس ، ولكنه مما أكدته الاديان وجاء به الوحي ، ولا يكتمل فهم الحياة وهدفها وغايتها إلا بالتماسه وإقراره •

ولقد اتسع نطاق طابع الانشطارية في الفكر الغربي ، ففصل بين الحاضر والماضي ، بل أنكر الماضي كلية ، ودعا الى الانفصال عنه ، ورمى التراث بكل مهانة وانتقاص ، واعتبر الماضي كله « مجموعة من التقاليد والاوهام التي تجاوزتها البشرية بعصر العقل والعلم » •

ودعت الانشطارية الى الفصل بين مفاهيم الاجتماع والاخلاق والنفس وبين القيم الثابتة التي قررتها الاديان فيما يتصل بالحدود والمحرمات والضوابط ، ودعت الى الاطلاق الكامل والتحرر من كل الحدود ، ودعت الى ما يسمى نسبية الاخلاق والتطور غير المقيد ، أو غير القائم على محور ثابت •

وارتفع الصوت بإعلاء ما أطلق عليه مبدأ التغيير والمتغيرات على

نحو أصبح لا يقيم وزنا للحقائق الثابتة والاصول القائمة ، فأرسلت الدعوة ارسالا الى القول بالتغيير المستمر لكل كائن وكل فكرة .

ثم ظهرت عقلية الجزئيات والتفصيلات والتخصصات التي تحجب عن أذهان الناس الصورة الكاملة والواضحة للفكر البشري أو لحركة المجتمع الكاملة أو التي تعطي الانسان نظرة كاملة لها أبعادها للحياة والكون .

وتبدو ظاهرة الانشطارية في كل جوانب الفكر والحياة على هذا النحو :

أولا : انشطارية في نظرية المعرفة بين العقل والقلب .

ثانيا : انشطارية في نظرية الحكم : بين الدين والدولة .

ثالثا : انشطارية في نظرية الاخلاق : بين النسبي والثابت .

رابعا : انشطارية في نظرية الادب : بين تكامله أو تجزئته متصلا بالفكر .

خامسا : انشطارية في مفاهيم العلم : بصراعه مع الدين .

سادسا : انشطارية في السياسة : بانفصالها عن الاخلاق .

سابعا : انشطارية في التربية : بفصلها عن العقيدة .

ولما كانت طبيعة الفكر الغربي ــ كما ذكرنا ــ تتمثل في التجزئة لا في التكامل فهي تفهم شيئا واحدا ، وترى الآخر ضده على الاطلاق، ترى أن الحياة مصدرها الجنس حسبما جاءت « نظرية فرويد » ، ولا تقبل أن تكون للحياة مصادر متعددة يمثل الجنس احداها .

وترى أن تفسير التاريخ تفسيراً ماديا حسبما جاءت « نظرية ماركس » ، ولا ترى الصورة الواسعة بأبعادها والمادية جزء من عوامل كثيرة تؤثر في تشكيل التاريخ وتفسيره ، وفي مقدمتها الدين والعقائد والاخلاق والمسائل المعنوية بالاضافة الى الطقس والبيئة وهكذا .

وترى أن الجنس الابيض هو وحده الذي يملك التفوق ، ولا ترى أن التفوق لا يرتبط بعامل الجنس ، بل يرتبط بعوامل أخـرى مختلفة •

ترى أن مصادر القيم المادية والحسية والتجريبية ، وتقيم كـل المناهج على أساس العلمانية ، ولا ترى أن في الافق مناهج أخرى غير المنهج المادي ، وأن للانسان قوى أخرى غير العقل •

فهي لا ترى إلا وجها واحـدا ، وتقف عنده : (إما هـو وإما الوجه الآخر) ، ولا تتسع مفاهيمها الى امكان الجمع والمواءمـة أو الامتزاج أو الالتقاء أو التوازن بين الجانبين المـادي والروحي ، أو العلمـي والديني •• وهكذا تفصل بين الاشـياء فصل التعـارض والمخالفة والخصومة الكاملة ، ولا تستطيع بطبيعة تركيب فكرهـا ، وميراث عقليتها ، وطبيعتها التي غرستها عوامل كثيرة أن تقبل التقاء القيم وتكاملها كما تلتقي وتتكامل في الانسان نفسه •

فهي تقبل العلم ، وترفض الدين ، وتقبل المادية ، وترفض الروح ، وتقر المحسوس ، وترفض المغيبات ، وبذلك تقر الانشطارية أساسا للفكر •

ومن نتائج هذا ان وقـع الصراع والفصل ، والتضـاد بـين الفردية والجماعيـة ، وبين الحرية والعدالـة ، وهمـا في الاسـلام متكاملان مجتمعان ، يلتقيان مع تناسق ومرونة فقد انقسم الفكر الغربي الى فكر فردي ليبرالي وفكر جماعي ماركسي ، وقد كان هذا الانقسام من شيمة هذا الفكر قديما من أيام اليونان أيضا بين الرواقية والإباحية بينما يقوم الإسلام على الجمع بين الفردية والجماعيـة •

وسينقل الفكر الغربي من مفهوم تعـذيب الاجساد والرهبانيـة والعزلة في الصوامـع ، وبحقوق الفطرة في الزواج والنعمة والطعام الى النقيض الكامـل في الإباحة والانطلاق وإعلاء الجنس والـدعوة الى الشذوذ والمارجيينيا والهيبية من النقيض الى النقيض ،ومن التجميد الكامل لرغبات الجسد الى الاطلاق الكامل الى درجة الانفجار .

ولا ريب أن أبرز ما يصدم الفكر الاسلامي مـن أصول الفكر الغربي وأسسه الوطيدة هو هذه الانشطارية التي تحول الى أبعـد الابعاد من الالتقاء بين الفكرين ، ولقد عمد دعاة تعميق الانشطارية (وهي اليهودية التلمودية) الى اعلاء شأن التخصص الجزئي وحجب أهل التخصص عن التماس النظرة الكاملة التي يعرفون موقفهم فيها ، فهم يعرضون عن النظرة الشاملة « لأن كل فريق منهم قد اعتاد النظر الى الشطر الوحيد الذي تخصص فيه ، وكأنه كل منفصل عن غيره ! ، فعالم النفس قد استغرق فكره مبادىء ذلك العلم ومقاييسه ، وكذلك عالم الاقتصاد الذي يرى أن مسـائـل العيش هي قوام الاصـلاح الانساني » . !

والحق أن هذه المسائل كلها انما هي جوانب مختلفـة ومظاهر متنوعة لوحدة كاملة تدور حول « الانسان وحول مجتمعه » ، ومن العجيب أن يقف الباحث عند حدود جزئية ، ودون أن يلم بالصورة الكاملة ليرى موضعه الحقيقي فيها ، ومن العجيب ـ أيضا ـ أن هذه العلوم كلها تحاول أن تقيم صورة صحيحة للانسان أو المجتمع ، ولكن علماء كل قطاع لا يتعدون النظرة الى أبعد مما تحت أيديهم ، بينمـا لا يفرض التخصص ذلك في الاسلام ، وانما يرى أن يكون لكل علم رجاله،ولكن على مستوى التكامل والفهم والالتقاء ومعرفة أبعاد دور كل

منهم ، ومدى أخطاردور كل منهم — أيضا — في التأثير على الصورة الكاملة بالعطب أو الافساد ، أما في الفكر الانشطاري ، فان رجل المجتمع لا يسأل عن مسؤولية رجل الاخلاق ، ورجل الادب لا يسأل عن مدى دوره بالنسبة للتربية أو النفس أو الاجتماع ، وهكذا تتمزق الاختصاصات ولا تلتقي في منظور متكامل الا اذا كان هذا المنظور هو القوى التي تحرك أجهزة العلماء جميعا ، وتستفيد من تخصصهم الشديد الذي لايتجاوز الجزئيات ، ومن هنا يقوم ذلك الاحتواء الخطير التلمودي الصهيوني للفكر الغربي ، ويحركه في الطريق الى تدمير المجتمع البشري وتقريبه الى تحقيق أهداف الصهيونية على النحو الذي يبشر به الكثيرون ، ويتنبأ به مؤرخوهم وعلماؤهم أمثال رودنسون وجارودي وغيرهما .

ان المفهوم الحقيقي الاصيل الذييقوم من مصادر الفكر الاسلامي المتكامل الذي لا يقر الانشطارية أو التجزئة هو : أن حركة العلم والفكر كلها انما تقوم من أجل بناء الانسان وبناء مجتمعه ، ولذلك فهي لا بد أن تتكامل ، تكامل هذا الانسان من حيث كونه روحا وجسدا ، فمن حيث كونه جسماً فهو موضوع العلوم الطبيعية ، ومن حيث إنه ذو حياة ، فهو موضوع علم الحياة وعلم الحيوان ، ثم هو من حيث إنه روح ونفس وقلب فان هناك علوم الأخلاق والعقائد ولكن ذلك كله لا ينفصل ، ويتحرك في اطار بناء هذا الانسان وحمايته من الاخطار ووضع الضوابط التي تجعل حركته صحيحة ودقيقة وبعيدة عن الانحراف والاصطدام أو التحطيم والتدمير .

ولا بد لذلك من ايمان بالله ومحيط كامل من الاخلاق ، وايمان صادق بالمسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، وتصديق بالجزاء والحساب في الآخرة ، ومن هنا تكون الحياة لها رسالة وهدف ، وتكون قد حصنت من عوامل الانحراف والتدمير والإفساد .

الانشطارية والفكر الإسلامي

سمات أربع للفكر الغربي في مرحلة انحلاله وترديه ــ هذه المرحلة التي يمر بها في هذا العصر ــ هي: الانشطارية،والشك والارتياب والاباحة والتشاؤم •

ونستطيع أن نقول : إن الانشطارية هي مصدر الاخطار كلها ، ذلك أن أبرز سمات الفكر الغربي التي كانت أكبر مقاتله وأقوى عوامل اضطرابه هي الفصل بين القيم والعجز عن تكاملها وترابطها ، والوقوف وقفة الترجيح الكامل والإعلاء الشامل لواحدة من هذه القيم والتوقف عندها ، أو الانتقال سريعا الى مضادها دون القدرة على التوسط أو المواءمة أو الجمع أو التكامل بين القيم •

وقد كانت هذه معارضة صحيحة وعميقة لطبيعة تشكيل الانسان نفسه ، الذي يجمع بين قيمتين مختلفتين متكاملتين في تركيبه النفسي والجسدي والعقلي جميعا ، هي العقل والقلب والروح والمادة ،والنفس والجسد •

فاذا أقر مبدأ الانشطارية ، فانه يؤدي بالطبع الى كتم أنفاس واحد من هذين العنصرين ، وازهاقه تماما وإعلاء العنصر الآخر •

وقد مر الفكر الغربي بالمرحلتين تباعا دون أن يفطن الى التكامل بينهما ، ووجد أزمة خانقة في المرحلة الاولى عندما أعلى من شأن

الروح ، وبلغ بها أقصى درجات الرهبانية والزهادة والانصراف عن الحياة والزواج والعمل والارتزاق،وآثر الاعتكاف في الاديرة ، وكانت أزمته الخطيرة ، ثم لم يلبث أن انتقل من النقيض الى النقيض ، فآثر المتعة والحسيات ، وأعلى شأن الجنس والاباحية واللذة والمتعة ، وبلغ في ذلك أقصى مدى،وأنكر إنكاراً تاماً كل مايتعلق بالروح أو الوجدان أو ما وراء الكون ، وأنكر الخالق والرسالات والوحي والدين عامة ، وتلك أزمته القائمــة الآن في أخطر مراحلها .

وهـــنا مصـــدر الخطر ، ومصدر الانحراف ، ذلـــك أن هـــذه الايديولوجية المادية الصرفة إنما تقوم على انكار عنصر جذري مـــن عناصر النفس الانسانية ، هي العقيدة والروح والعالم الداخلي والغيبي كله ، هذا العالم اختفى تماما في هذا العصر وراء سحابات من الشك والقلق والتمزق والتدمير النفسي .

فقد رفعت الايديولوجية التلسودية المعاول لهدمـــه وتحطيمـــه وتدميره فكريا بالفلسفات وعمليا بالاباحة ، ولا ريب أن هذه الحملة المصطنعة المضادة لطبيعة الانسان ، والمضادة للفطرة ، والسابحة عكس التيار ، سوف تنفجر يوما ما ، ذلك أنها إنما تحاول أن تقتل كائناً حيا موجودا في كيان كل انسان ، كائنا لاسبيل الى تجاهله أو إلغائـــه .

ولقد حاول الفكر الغربي أن يطرح هذه القضية ، وان ينقل هذه الأزمة الى مجال الفكر العربي الاسلامي ، وأن يلقي على أفق الاسلام ضلال الانشطارية وطابع التشاؤم .

والفكر الاسلامي هو بطبيعته فكر انساني الطابـــع ، رباني المصدر ، يقوم على الفطرة التي فطر اللـــه الناس عليها لا تبديل لخلق

اللـه ، فهو متكامل يفيض بالرحمة والطمأنينة والسماحة ، ولا يقبل الانشطارية أو التشاؤم .

ذلك أنه يقوم على تكامل القيم وانسجامها،ولايفترض إمكان قيام شطر منها دون الشطر الآخر ، فضلا عن أنه لا يعلي جانبا منهـا على مختلف الجوانب .

أما الفكر الغربي ، فقد قام أساساً على « الانشطارية »، وعلى الفصل بين القيم ، وعلى عصور سادت فيها ظاهرة واحدة ، ثم جاءت عصور أخرى ، فسادت فيها الظاهرة المضادة ، في خروج من النقيض الى النقيض ، دون قدرة على التوسط أو المواءمة أو التكامل ، بينما لم يعرف الفكر الاسلامي هذه التجزئة ولم يقرها .

ومن نقطة الانشطار سقط الفكر الغربي في أزمة « المادية » عـن طريق اعلاء العلم وتقديس العقل ، ومن ثم كان انكاره لجوانب أخرى من الحياة والنفس غير المادة والعقل ...

وكان لهذا الانحراف أثره ، فقد عمت ظاهرة التشاؤم في وجدانه وفكره كله ، وطبعته بطابع الملل والتمزق والتمرد والصراع والخـوف من الموت ، والرغبة في اعتصار الحياة ، وانكار الآخرة والجزاء .

ولا ريب أن الانسان القائم في تركيبه الطبيعي على المادة والروح معا ، لا يستطيع أن يكون روحا صرفا يعيش علـى النسك والزهادة ، ولا مادة صرفا يقوم على الاباحية والانطلاق ، ولكنه لا بد أن يكونهما معا في تعادل وتوسط .

ولا ريب أن الجانب العقائدي (الذي يضرب اليوم بعنف) كامن في أعماق الانسان ولا سبيل الى الغائه أو انكاره .

وهذا هو مفهوم الانشطارية التي تقبل اليوم بالعقل والجسم ، وترفض النفس والروح ، وتقبل بالمادة ، وترفض الوحي ، وتقبل بالايديولوجية ، وترفض الدين الحق ، ومن هنا كانت أبرز مظاهر الفكر الغربي اليوم : ظاهرة التشاؤم على السرف في الاباحة وبنتيجة الشك والارتياب .

ولقد صور أحد الباحثين[1] هذه الظاهرة الخطيرة فقال :
لقد ساد الوجدان المتشائم ايديولوجية النظام الغربي بكل أبعادها ومظاهرها في الآداب والفنون والفلسفة والاخلاق والسياسة .

وان هذه الايديولوجية السوداوية المتشائمة تنتشر في أوسع نطاق في عالم الغرب أفكارا عن لا معقولية الحياة وعبث الوجود .
وقد أصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر يؤمن بالتطور الانساني .

ومن هنا فان الوجودية والهيبية هما آخر صيحات الفلسفة التشاؤمية ، ويرد كثير من الباحثين مصدر التشاؤم الى القول بالخطيئة التي تطارد كل انسان في الغرب .

ولو كان لنا أن نتعمق هذه الظاهرة ، وأن نبحث في خلفياتها لرددنا ذلك كله الى الايديولوجية التلمودية التي استطاعت في هذا الوقت من تاريخ العالم أن تحتوي الفكر الغربي كله بشطريه ، وأن تسيطر عليه وتوجهه الى غايتها .

والايديولوجية التلمودية هي فكرة وفلسفة ونهج حياة معارض تمام المعارضة للفكر الانساني ذي المصدر الرباني مما جاءت به رسالات السماء .

---

(١) عن بحث للاستاذ سمير كرم .

وأبرز وجوه المعارضة قيامه على الربا والاباحية وانكار البعث ، وهو ما يضاد مفهوم الدين الحق ، ومفهوم الاسلام في الانفاق والايمان بالبعث وأخلاقية الحياة والمسؤولية الفردية •

لقد صنع اليهود نهجا خاصا هـم سادتـه ، وعملوا عن طريـق الفلسفات والايديولوجيات ليجعلوه منهجا عالميا ، وحاولوا أن يدخلوا فيه الغرب كله ثم البشرية بعد ذلك جميعا •

وقد جمع هذا النهج كـل ما حمله الفكـر البشري القديم مـن وثنية والحاد وتعدد ، واحتقار للاخلاق ، وانكار للجـزاء والحساب في سبيل اشادة امبراطورية الربا ، وعبادة الذهب ، والتكالب على ماديات الحيـاة •

وبذلك سيطر اليهود على الفكر البشري ، وعمدوا إلـى احتـواء الفكر الغربي كله بداخله ، ولم يعد الآن في العالـم منهج قادر علـى مقاومة منهجهم غير منهج القرآن الذي تبناه الاسلام ، والذي هو منهج التوحيد الخالص ، والايمـان بالبعث والمسؤولية الاخلاقية والالتـزام الفـردي •

هذه الايديولوجية التلمودية ، حسبما ورد في « البروتوكولات » هي التي تحاول أن تشيع في البشرية كلها طابع الانشطارية ليكون مدخلا الى الانفصال عن النفس والروح والعقائـد والجوانب الغيبية والالهيـة ورسالات الانبياء والاديان والبعث والجزاء جميعا ، مما لا يقـع تحت عنوان الماديات والمحسوسات وما يتصل بالعقـل والعلمانية ومناهـج التجارب المادية •

ولا ريب أن الانشطارية هي مصدر ذلـك التيار الـذي يعتصر

النفس البشرية في الغرب ، ويأكل هناءها ، ويدعها تترنح بين القلق والتمزق ، وذلك لانه مضاد لطبيعة الاشياء ، حينما يحجب بهذه القوة القائمة وراء الفلسفات والمذاهب والايديولوجيات حقائق لاسبيل لانتزاع الانسان منها ، وهي حقائق كامنة في كل فطرة صادقة ، وذلك من أجل تحطيم معنويات الانسان وتركه غثاءاً تقتله الاهواء والشهوات ، ودوافع الغريزة ، وتقتل فيه كل ارادة وقوة وقدرة على الحياة الصحيحة .

وهنا يبدو سر من أسرار الدين الحق : هو سر قدرة الانسان على مواجهة نفسه ، والحيلولة بالإيمان واليقين بالآخرة وجزائها من الحساب والعمل الدائب على توقي نفسه بالضوابط والحدود حتى لا تسقط شخصيته صريعة الاهواء والماديات واللذات الصاعقة .

ومن هنا كانت ضرورة الدين الحق من عند الله بالوحي للانسان الذي ليس قادراً وحده على أن يحمي وجوده ، أو يعرف طريقه ، وهو الانسان الذي تغلبه الاهواء في حياته وتغلبه في سلطانه السياسي والاجتماعي ، لكي يكون متسلطا لا يعرف العدل ، ويستعلي باللون والجنس على الالوان والاجناس ليفرض نفوذه على الآخرين .

وتلك أخطر المخاطر التي عجز الانسان منذ وجوده على الارض والى اليوم ، وبالرغم من اتساع العلم والثقافة من أن يحقق موقفا يحمي به وجوده من التحلل والانهيار ، ويحمي موقف البشرية من الظلم والاستعباد وتلك حاجته دوما الى حافز من خارج وجوده ، وضابط من قوة عليا أكبر منه هو منها موضع المحاسبة والجزاء وهو من تصرفه موضع المسؤولية الاخلاقية والفردية .

ومن هنا كان مفهوم الاسلام المتكامل الشامل قادرا على مواجهة الانشطارية وقادرا على الاحتماء بقيمه من أن يغتاله خطرها الدائم .

الثوابت والمتغيرات

ان أبرز معالم الفكر الاسلامي المستمد من القرآن الكريم تقوم على أساس : الافق الواسع ، والابعاد المتعددة المرتبطة بالنظرة الكاملة، وطابع التكامل الجامع الذي لا يحصر نفسه في جزئية ما ، أو قطاع واحد ، أو يعلي من شأن أحد الاساسين اللذين بني عليهما كيان الانسان « النفس والروح أو هدف الانسان » الدنيا والآخرة ، وتبلغ قضية الثوابت والمتغيرات غاية الغايات في تكامل النظرة ورحابة الافق وسلامة القصد . فالثوابت هي العمد التي تتحرك من حولها أو في داخلها متغيرات الحياة ، وأبرز القيم التي تقوم على الثبات : الاخلاق فهي مرتبطة بالانسان قائمة معه ما قامت السماوات والارض ، فالخير والشر والحق والباطل ما يزال في مفهومه الاصيل منذ أنزل الله الرسل والكتب، ولن يصبح الباطل حقا، أو يصبح الشر خيرا ، ولن يغير الزمن في حركته، أو المجتمع في تطوره من ثبات الاخلاق ، وانما تتغير العادات والتقاليد التي صنعها الانسان نفسه ، لانها تبلى وتفسد، أما القيم الاخلاقية العليا التي جاء بها الدين الحق ، فانها لا تتغير ، لانها في مواجهة فطرة الانسان التي لا تتغير ، فهي من الثوابت القائمة التي تتحرك من حولها الاشياء والناس ، ونحن لسنا مطالبين بأن تتواءم قيم العقائد والاخلاق مع متغيرات الحضارة والمجتمعات ، بل على المجتمعات أن تتواءم مع قيم العقائد والاخلاق الثابتة القائمة (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) .

وكما دعا الاسلام الى تثبيت الاخلاق ، دعا الى تثبيت « الخلق » واستبقاء الصورة الاولى التي خلق الله الانسان عليها ، وكان حرصه على أن يحفظ الانسان شخصيته وكيانه من التغيير أو الخروج عن الطبيعة والفطرة في نفس الوقت الذي دعاه الى تغيير النفس ، والانتقال بالسلوك الى مراحل أشد عمقا وايمانا وصلة بالله .

ولذلك عارض الاسلام : الواصلة والواشمة ومغيرات الصور والداعين إلى تجميل الطبيعة أو تغيير خلق الله ،سواءبالتصوير أو الرسم أو الكتابة أو التمثيل . ويستهدف الاسلام من ذلك حرصه على ثبات الشخصية الانسانية أيضا ويقظتهاوحضورها حتى لا تقع فيأسر المغيبات أو المغيرات بالتخدير أو السكر أو التجميل حتى يكون الانسان هو نفسه وليس شيئا آخر ، وحتى يكون مريدا وحاضرا .

كذلك حرص الاسلام على أن يجاوز العوامل التي تدفع الى التخدير وغياب الشخصية وهو الصراع النفسي الذي يدعو صاحبه الى طلب المغيبات . وذلك بتوجيهه الى الايمان بالله ايمانا صادقا عميقا . يستقيم معه في رضى وطمأنينة تقبل كل الاوضاع من فرج وشدة وأزمة ورحمة ، كل من عند الله . فعليه أن يكون قادرا على مواجهة كل حالة، وتقبل كل وضع ، واذا لم يكن ما نريد ، فلنرد ما يكون ، ولنتأقلم مع كل وضع حتى نغيره الى ما هو خير منه ، كذلك دعانا في نفس الوقت الى اليقظة والحرص في المواجهة ، والمعاودة في حالة الاخفاق ، والحذر من الاخطار المفاجئة ، وتقبل أوضاع العسر واليسر والنجاح والفشل جميعا .

ومن هنا فان المسلم يواجه الحياة في يقظة وحضور ، ولا يجد نفسه في حاجة بحال ما الى أن يغيب أو يغير خلق الله ، أو ينفصل بالغياب ، أو بالتغير عن واقعه وحاضره . وفي أمر ما خلق الله عليه

الانسان من صور ، فهو متقبل لهـا « اللهم أحسنت خلقـي ، فأحسن خلقي ، وحرم وجهي على النار » فالاخلاق أعظم من الصورة ، والمسلم يؤمن بأن الصورة الظاهرة لا تكون حسنة بشكلها ، بـل بمضمونها ، فاذا حسنت ، وساء مخبرها فهي شؤم على صاحبهـا • وليست العبـرة بالجمال المادي ، وانما العبرة بالسلوك والخلـق ، ولا ريب أن الايمان يضفي على الطبيعة البشرية جلالا ونورا ، ولا تبـدو نقائص الانسان في تركيبه عيبا مع حسن التصرف والسماحة والايمان ، والاسلام لا يقيم وزنا لمفهوم (الاناقة) الذي هو في حقيقته تغيير لخلـق الله بالزيادة أو النقص ، وانما يؤمن الاسـلام بالبساطة ، ويؤمـن بالحق والكرامـة والسماحة ، ويرى أنها أفضل ، وأنهـا تعطي للصورة الظاهرة كمـالا وجلالا • كذلك يرفض الاسلام مفاهيـم الوثنية من القـول بتجميل الطبيعة أو محـاكاة الطبيعة أو تقليـد الطبيعة • ويـرى أن هـذا ليس من شأنه ولا من قدرته (ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور • ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصـر خاسئا وهو حسير) هذا في مجال الثبات •

أما في مجال التغير ، فقـد رسم القرآن في كلمـات قانون قيـام الحضارات والمدنيات وسقوطها : (ان اللـه لايغير مـا بقـوم حتـى يغيروا ما بأنفسهم) •

فالحق تبارك وتعالى يدعونا الى أن نغير أنفسنا اذا أردنا أن نغير مجتمعنا وأوضاعنا ، فمنطلق الاصلاح والنصر والتحول من الضعف الى القوة متمثل في « ارادة التغيير » والتغيير هنا هـو التحرك في اطـار الثوابت من أصول الايمان أساسا ، وليس التغيير بالحركة خارجه أو ضده ، ذلك أن الهزيمة انما تأتي من مجاوزة الاطار الثابت المحكم الذي رسمه الحق تبارك وتعالى لحركة الحياة بما تتضمن من مفهوم رسالـة الانسان في الكون ومسؤوليته الفردية والتزامه الاخلاقي •

وتحدث الازمة في المجتمع أو الحضارة نتيجة هذا التجاوز : نتيجة مجافاة نواميس الله في الكون والمجتمعات • وهي أداء رسالة الحياة وأمانتها بحقها • وفي الوجهة الصحيحة لها : ربانية الاتجاه ، انسانية الطابع ، متكاملة جامعة ترعى حدود الله ، وتحفظ ضوابطه • فاذا تجاوزتها ، وقع الخطر،وسقطت الامم في الازمة ، فلا يغير الله ما بالناس مرة أخرى ، ويعيدهم الى الجادة حتى يغيروا ما بأنفسهم مما التبس بها من اضطراب وزيغ وميل الى قيم ومفاهيم وفلسفات ومذاهب يلتمسونها منهجا للحياة ، فتميل بهم الى طرق ومناهج وغايات • فاذا هم في تيه الصحراء الذي لا ضياء معه ولا هدى • ولقد بدأت أمم طريقها على جادة الحق ، ثم انحرفت عن منهج الله وأسلوبه ، وجاوزت سننه ، فضاعت في تيه الصحراء ولم تعد • والمسلمون في هذا مثلهم مثل أية أمة لاطريق لهم الا ما هداهم اليه القرآن القائم فيهم بالحق حجة عليهم ونورا : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) •

والنفس الانسانية هي منطلق حركة التصحيح ، ونقطة لتغير النفس التي ينكرها الفكر الغربي جملة ويجحدها بينما يعدها الاسلام حقيقة لا تقبل النقاش ، فأساس الاعتقاد في الاسلام وجود النفس الانسانية التي هي منطلق الارادة الحرة التي تتبع المسؤولية الفردية والجزاء الاخروي ، فاذا فقدت حضارة هذا المفهوم ، فهي منطلقة الى غاية متخبطة في التيه لا يردها شيء •

أما نحن المسلمون ، فقد دعانا الاسلام الى أن ننظر حين نقع في نطاق الازمات الى النفس ، فتغيير النفس هو محور العمل من أجل تصحيح مسار الامة كلها والحضارة كلها ، وهي منطلق التغيير في سبيل

التماس المنابع الاصيلة مرة أخرى (بل الانسان على نفسه بصـيرة) والجزاء يبدأ من النفس الواحدة . (ومن يتعد حدود الله ، فقد ظلم نفسه) وهي مركز الجهاد والايثـار ، ومنطلق الفكـر والذكر ، وقـد ساق الله تبارك وتعالى اليها الرحمة ، فلم تكلف نفس الا وسعها ، وهي مطالبة بأن تبصر ما قدم الله لها من بصائر ، ومن جاهـد فانما يجاهـد لنفسه ، ومن شكر ، فانما يشكر لنفسه ، ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه وكذلك من يبخل وينكث ويظلم ، فانما يظلم نفسه ، وقد كشف اللـه تبارك وتعالى حقيقتها في وضوح كامل : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) ومن هنا جاءت الدعوة الى نهي النفس عن الهوى ، وأن تدعوها لتنظر ما قدمت لغد ، وأن تحول بينها وبين الشح واتبـاع الظن ، وما تهوى الانفس ، وفيها يبتلى الانسان وغاية الامر (عليكـم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) وملاك الامر كله : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

وهذه دعوة القرآن الصريحة الواضحة الى التغيير ، والى التحرر من القيود والاوضار والاخطار التي تردت فيها النفس الانسانية حين خالفت ، وانحرفت عن طريق الله ، وهي دعوة الامم الى أن تلتمس من جديد طريق الله حتى تنزاح ما على كواهلها من آصار التسلط الخارجي ، وحتى تجد نفسها مرة أخرى في طريقها الحق لاداء رسالتها الخالدة .

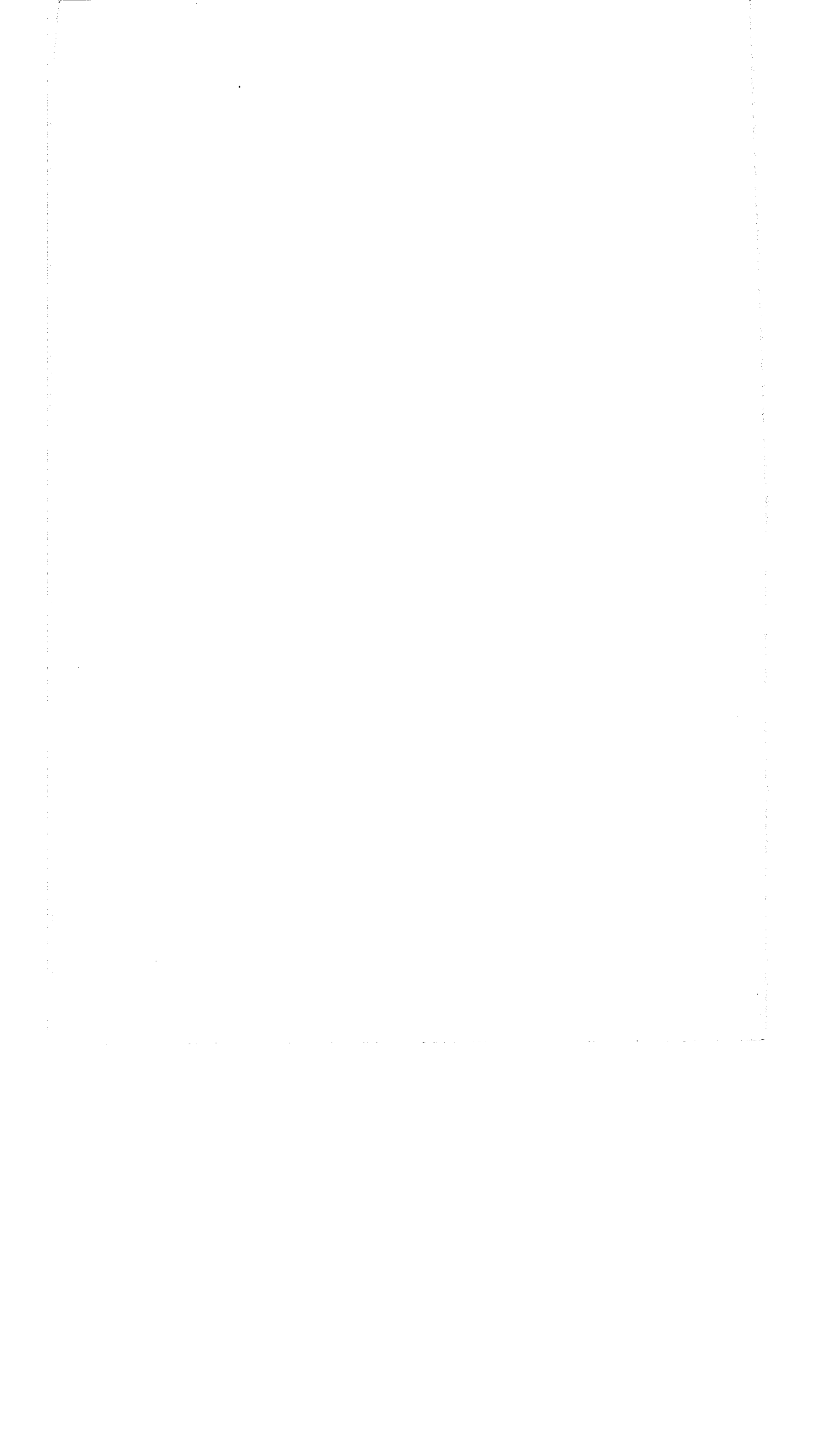
علينا اذن : أن نعمل على تثبيت الخلق ، وتغيير النفس حتى نمتلك ناصية أمورنا ونقيم كلمة الله بالحق .

الباب الثالث

مواجهة التغريب

لا بد للفكر الاسلامي في العصر الحديث من ان يواجه محاولات التغريب ، ويكشف عنها ، ومن هنا تنطلق الدعوة الى غربلة الحصيلة الوافدة اولا ، ومراجعة ذلك الركام الضخم الذي نقل الينا من الفكر الغربي القديم والحديث ، ومن الفكر الشرقي الوثني الباطني لنتبين حقائق الامور .

ثم لا بد من العمل على تحرير المصطلحات وتصحيح المفاهيم والبحث عن اصول القيم والتماس الاصالة نفسها كمنطلق لبناء الفكر الاسلامي المتجدد.



غربلة الحصيلة

أعتقد أن الفكر الاسلامي اليوم يجب أن يكون قد دخل مرحلة غربلة الحصيلة ، وهي مرحلة طبيعية في وقتها وإبانها تذهب عنه الزند ، وتصحح منه الخطأ ، وترفض الزائف • ذلك أن الفكر الاسلامي خلال أكثر من مائة عام الآن قد واجه التحدي الخطير الذي فرضه نفوذ الاستعمار الغربي حيث طرح في أفقه عشرات من النظريات والقضايا والمفاهيم التي بدت اليوم بعد تكرارها ، وكأنها من المسلمات التي لا تقبل المعارضة ، أو النقد أو الرفض نتيجة ما وقر في النفوس من كثرة ترديدها وتداولها ، ولا ريب أن هذه المسلمات قد تداخلت في مختلف قطاعات التاريخ والفكر والعقائد واللغة على النحو الذي جعل الفكر الاسلامي في مظهره متغربا على نحو من الانحاء •

ولما كان هذا التحدي ما زال قائما ، فان المسلمين لن يتحرروا من الغزو الاستعماري الصهيوني المادي الا اذا أزالوه نهائيا ، وبدؤوا يفكرون من داخل دائرة فكرهم ، ومن خلال طوابعهم الاصيلة التي هي بمثابة المنارات الكاشفة على البحر الواسع في ظلمات الليل ، ولن يستطيع المسلمون أن يهتدوا بغير مناراتهم التي تسرج من قرآنهم ، وكل منارات غيرها لن تستطيع أن تهديهم الطريق •

ولقد واجه المسلمون من قبل مثل ذلك : حين ترجمت آثار الفكر اليوناني القديم ، فكان للفكر الدخيل آثاره البعيدة وأخطاره الخطيرة التي

اصطرعت مع أصول الاسلام فترة لا تقل عن قرنين من الزمان حتى استطاع الفكر الاسلامي أن يكسر خطرها ، وأن يحطم مدها المتعالي حين استطاع أن يتعلم مفهوم أهل السنة والجماعة ، وكان لجهود الاشعري وابن حزم والغزالي وابن تيمية أثرها البعيد في تحرير الفكر الاسلامي ، وانعتاقه من قيد الهلينية الوثنية •

أما اليوم ، فقد هوجم الفكر الاسلامي وهو في مرحلة تيقظه • ولما كان قد أكمل أدواته وقد وقع هذا في ظل احتلال عسكري وسياسي، ونفوذ استعماري خطير • ولذلك فقد كانت ارادة الفكر الاسلامي مقيدة ازاء تلك الموجات الضخمة من الترجمات والنقول الغربية القديمة والحديثة التي كانت متعارضة متباينة ، والتي اصطرعت طويلا خلال قرن من الزمان أو يزيد • وقد بدا اليوم أن الفكر الاسلامي وهو يستجمع قواه ليشكل نفسه من جديد في ضوء التحديات الخطيرة التي يواجهها المسلمون ، انما يلتمس الاصول الاصيلة ، والمنابع الاولى أساسا لحركته ، ومن هنا فان هناك قضية كبرى تثار : هي غربلة الحصيلة ، هذه الحصيلة الضخمة التي فرضت على المسلمين دون أن تكون لهم ارادة حرة في الاختيار بالقبول والرفض •

كذلك فان ما نقل الينا من الفكر الغربي كان في أول الدعوة اليه . انما يمثل فكرا اسلاميا وصل الى أوربا وأعيد تشكيله فيها ، غير أن ذلك في مجال مفاهيم الحرية أو الديمقراطية ، أو القومية ، أو الاشتراكية يحتاج الى نظرة أصيلة ، والى التفرقة الواضحة بين مفاهيم الاسلام المتكاملة الجامعة ، وبين نظريات الغرب التي ارتبطت بتاريخه وتحديات مجتمعاته •

ومن ثم فان أخطر ما نواجهه الآن أن نجد فريقا يتلقى معلوماته من كتب الاستشراق والتبشير ، وفريقاً يأخـذ معلوماته من كتب مرحلـة الضعف والتخلف أمثال : نزهة المجالس وبدائع الزهور ودلائل الخيرات وكتب الحواشي والتقارير •

والقول الفصل في هذا : هو التماس مفهوم القرآن مؤيدا بالتطبيق النبوي الكريم في السيرة والسنة على ضوء عبارة السيدة عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » وان علينـا واجبا ضخما نحـو تحرير الفكر الاسلامي مما دسته الشعوبية في تاريخ العرب والاسلام من سموم هذه السموم التي تلقفها الاستشراق وبنى عليها نظرياته وشبهاته •

اننا بازاء مناهـج في البحث وأساليب في النظر خاصة بأصحابهـا تشكلت في ظل فكرهم وعقائدهم ، وقد نقلتها معاهد الارساليات في ظل التبشير والاستشراق ، ووجدت في أحضانه الشعوبية منطلقا ، وأخطر ما فيها : طابع الفكر الوافد الـذي يقوم علـى الانشطارية والتجزئة ، وطابع الفكر الاسلامي الذي يقوم على التكامل والنظرة الجامعة ، ومن هذه النقطة تتوالى عناصر الاختلاف والتباين فيما يتصل بالثقافة وعلاقتها بالحضارة ، ونحن نؤمن أن من حقنا أن نأخذ الحضارة المستحدثة والعلم التجريبي ، ولكننا لا نأخذ الثقافة ، فلكل أمة ثقافتها الخاصة ، وقضية الانسان من أخطر القضايا ، فقد طرح فكر وافد كثير في حاجة الى غربلته وتصفيته في هذا المجال ، هل الانسان حيوان ؟ أم هل هو اله ؟ أم هـو آثم بحكم ولادته ؟ أو مجبور التناسخ ؟ وللاسلام في الانسان تصور كريم : انه خير المخلوقات ، وانه مستخلف في الارض وحامل للامانة !! وهنا تصور واسع فيما نقل وترجـم للميتافيزيقيا (عالـم الغيب) وفي قضايا الالوهية والكون والحياة والانسان ولدى المسلمين تصور كامل

لعالم الغيب ولتاريخ البشرية ، فقد خلقها الله الى يوم البعث وما بعده من جزاء وهي واضحة التقاسيم فيما يتعلق بالكون والحياة والانسان ، فليس المسلمون في حاجة الى تصور آخر لها مما حاولت العقول البشرية أن تصل اليه باجتهادها دون أن تحيط به علما .

وهناك محاولات كثيرة لتضخيم دور المعطيات اليونانية القديمة ، أو التأثير الغربي في مجال المجتمع والمرأة والثقافة والتعليم .

ولقد قاوم المسلمون مختلف التحديات التي فرضت عليهم ، ورفضوا المذهب القائل بأن يسيروا سيرة الاوربيين أو يندمجوا فيهم، وصححوا كثيرا مما حاول الفكر الوافد ان يفرضه من تصغير حجم المسلمين ، أو تنقيص قيمتهم ، أو الغض من تاريخهم ، أو اعتبار الحركات الهدامة كالبهائية والقاديانية من حركات التجديد ، او اعلاء الفرعونية أو غيرها من الحضارات الوثنية السابقة ، كذلك صحح المسلمون مازيفه الفكر الوافد من نسبة اليقظة الى الحملة الفرنسية ، وكشفوا عن ارتباط اليقظة بالاسلام نفسه المتجرد من داخله من قبل ذلك بأكثر من خمسين عاما .

ووقف المسلمون موقف التصحيح لمحاولات اعلاء ما قبل الاسلام من تاريخ وحضارات ومفاهيم تتعارض مع الاسلام .

ولقد وضح في مواجهة هذه التحديات أن الحياة والفكر والمجتمع الاسلامي لا يستطيع أن ينفصل أو ينعزل عن روح الاسلام السارية فيه فكرا ولغة وثقافة وتاريخا وخلقا وتقاليد ، كما تنبه المسلمون الى أهداف الغزو الثقافي في محاولة تقويض الاسرة المسلمة بنشر الاباحة أو هزيمة العقل الاسلامي باذاعة الالحاد ، ذلك أنه لن تستطيع ثقافة أمة ما أن تفرض نفسها على ثقافة أمة أخرى خاصة

اذا كانت هذه الامة عريقة الجذور لها حضارتها وقيمها التي تشكلت على ضوئها منذ ثلاثة عشر قرنا ، وخاصة اذا كان هناك تعارض في جوهر الثقافات .

ان المسلمين اليـوم مدعوون الى تحرير فكرهـم ، وتصحيح مفاهيمهم ، والتماس منابعهم الأصيلة الثمرة دون ان يفقدوا طموحهم الى الوصول الى أبعد مدى في مجـال العلم والتكنولوجيـا التي يريدونها من داخل قيمهم . وهم مدعوون اليـوم الى غربلة هـذه الحصيلة والاستغناء عن الفاسد منها ، والرد على الزيف والشـبهات التي تحويها ، وذلك في سبيل هدف كبير وكريم : هو تخريج الجيل المسلم الذي يؤدي رسالته للانسانية .

تصحيح المفاهيم

لا شك ان « الدعوة الى تصحيح المفاهيم » عمل كبير الاهمية في هذه المرحلة من حياة أمتنا وحياة فكرنا الاسلامي وثقافتنا العربية ، وهو ما يتطلب منا القاء نظرة واسعة على الأخطاء الكثيرة التي تواترت في العصر الحديث ، ومن خلال كثير من الابحاث والمؤلفات والكتب الدراسية المقررة والمناهج التعليمية المختلفة ، والتي حاول النفوذ الاجنبي والاستعمار الفكري فرضها ودعمها وتعميقها وصقلها واعطاءها صورة الحقائق الاساسية التي لا تقبل الشك بينما هي زائفة ليس لها أصل علمي تعتمد عليه ، أو سند تاريخي يضمن الثقة بها .

ويمكن تقسيم هذه الاخطاء أساسا الى عدة أصول عامة :

اخطاء تاريخية اصبحت حقائق :

اولا : وفي مقدمتها : حملات الاستعمار على أفريقيا وآسيا التي توصف في الكتب المدرسية بأنها طلائع الكشوف الجغرافية : حيث تقول هذه الكتب ما يلي :

« شهدت اوروبا في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر حركة اكتشافات جغرافية واسعة ، وقد وصل الاوروبيون الى الهند بالدوران حول افريقيا الجنوبية » .

والواقع أن هذه ليست كشوفا جغرافية ، ولكنها فتوحـات استعمارية كانت بعيدة عن روح العلم وعن أسلوب الكشف،وكانت المراحل الاولى للاستعمار قد حملت في مضمونها أساسا مفهوما خطيرا هو العمل على تطويق عالم الاسلام من الخلف •

فالبرتغاليون لم يكتشفوا الهند ، ولم يكتشفوا افريقيا ، أما الهند فكانت معروفة في أوروبا منذ العصور القديمة •

ولم يكن هنري الملاح وفاسكو دي جاما والبوكرك مكتشفين علماء بقدر ما كانوا غزاة طامحين الى الفتح والسيطرة ، يحملون في أعماق أنفسهم روح الكراهية والتعصب ضد المسلمين •

فقد كانت تصرفاتهم وأعمالهـم في مختلف البـلاد الاسلامية والموانيء العربية التي نزلوا بها تدل على هذا الحقد البالغ العنف •

وان هذه الحملات انطلقت من الاندلس : اسبانيا والبرتغال بعد تحررها من النفوذ الاسلامي والعربي كرد فعل لذلك ورغبة في الانتقام والغـزو •

ولذلك فان من أخطاء كتبنا المدرسية والتاريخية المختلفة أنهـا تصور هنري الملاح عالما ومكتشفا ، أو تصور فاسكودي جامـا على أنه رحالة مخلص للعلم ، بينما كان الجدير بها أن تعرفه على حقيقته في رحلاته التي تحمل طابع العنف ، ومن أمثلة ذلك ما فعل في رحلتـه الثانية الى آسيا قبل وصوله الى شواطيء الهند حيث اتجه بمدافعه الثقيلة الى المراكب الاسلامية التي تحمل الحجاج من مكة فأحرقهـا وأغرقها بعد ان نقل اموال الحجاج .وأمتعتهم الى أسطوله وبعد أن حظر على رجاله انقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والاطفال حتى هلكوا جميعـا •

وكل ما تورده الكتب العربية عن اكتشاف أوروبا لافريقيا هو نوع من الخطأ المحض ، فقد كان عبور المحيط الهندي من سواحل افريقيا الشرقية الى آسيا معروفا من البحارة العرب والهنود منذ قرون .

وينطبق هذا على ما وصفت به رحلة « صمويل بيكر » الى منابع النيل واهتدائه الى بحيرة البرت وأنه وصل الى بلاد بكر لم تطأها قدم انسان ، فقد سبق صمويل بيكر الى هذه المناطق كثير من مؤرخي العرب ورحالتهم ، وقد وصفوا قبائل النيل قبيلة قبيلة وشرحوا عاداتها وأخلاقها ، وقارنوا بين تواريخها ولغاتها .

فالاستكشاف لم يكن — في الحق — الا طلائع الاستعمار ، ولم يكن له طابع علمي ، انما كان قائما على العنف والتعصب ، ولم يكن — في الحق — ارتيادا لارض بكر ، بل كان مسبوقا بكثير من الرحالة المسلمين والعرب .

ثانيا — ومن هذه الاخطاء القول بأن النهضة في العالم العربي انما كان مصدرها حملة نابليون ، وأن العرب والمسلمين لم يستيقظوا من نومهم حتى أيقظهم الغرب وهو قول لا سند تاريخي ولا علمي له ، فان العالم الاسلامي والامة العربية قد استيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، هذه اليقظة التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر او حوالي عام ١٧٥٠ م على التحديد حينما انبعثت صيحة الامام محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد ، وما كان لها من اصداء في العالم الاسلامي كله .

وهذا يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ويسبق وصول الارساليات التبشيرية بمائة عام على الأقل .

وقبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء في الازهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الانسان ، حينما اخذت العهد المكتوب على الامراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أي ضرائب أو قيود •

ثالثا ــ ما يوصف بأنه : الاحتلال التركي

وذلك ما يذهب اليه كثير من المؤرخين والباحثين حين يصفــون الرابطة التي كانت قــائمة بين العرب والاتراك داخل نطــاق الدولة العثمانية على أنها احتلال أو استعمار تركي ، بينما هو لم يكن كذلك ، وفي الحقيقة أن أصدق ما يصور به هذا الارتباط بأنه اندمــاج بين العرب والعثمانيين في وحدة اسلامية شاملة ، بعد أن ضعفت القوى العربية وقوى المماليك والسلاجقة واتسع الخطر الاوروبي مرة أخرى وحاول استئناف الحروب الصليبية من جديد •

والمعروف ان العرب ــ من قبل ــ قد رحبوا بالوحدة الاسلاميــة العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك في مصر والبربر في المغــرب ، واصبحوا هدفا لحملات صليبية جديدة ، وقد وجدوا في العثمانيــين منتعشا جديدا للاسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الاسلام عالية خفاقة، وأعادت ذكرى الابطال الاوائل في سبيل اعزاز الاسلام ونشره •

كما رحب العرب في مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن نقموا على دولة المماليك اهمالها شأنهم في المرحلة الاخيرة ، فحاربوا في صفوف العثمانيين • والواقع انه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الاسلامي هــو الوحدة الاساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنظمة تحت لواء

الوحدة الاسلامية الكبرى ، ومن أن يقال : إن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الاولى بتمثيل مفهوم الاسلام في نطاق الحكم ، وتحركوا من خلال اطاره ، ويشير المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم ، واتخذوهم قدوة وعملوا على جمع القلوب اليهم بتقدير العلماء والاتقياء وانشاء الجوامع والمدارس .

ومن هنا كان القول بأن الرابطة بين العرب والترك كانت استعمارية انما هو من الالفاظ المدخولة التي فرضها الغزو الفكري والتغريب ، أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد تنحي السلطان عبد الحميد وفي ظل حكم الاتحاديين ، فذلك أمر آخر له عوامله وجرائره ويحتاج الى دراسة خاصة .

رابعا ــ العصور الوسطى

عبارة تتردد على الألسنة في محاولة تصوير العصر الاسلامي الزاهي بأنه هو من العصور الوسطى المظلمة ، ومن الحق أن يقال : ان العصور الوسطى تاريخيا انما هي الفترة الواقعة بين سقوط روما في القرن الرابع المسيحي ، وبين عصر النهضة الاوروبية في القرن الخامس عشر ، هذه الفترة يطلق عليها الاوروبيون : فترة العصور الوسطى المظلمة حيث سادت أوروبا مرحلة من اسوأ مراحل الضعف والتأخر ، ولكن هذه الفترة بالذات ومنذ القرن السادس الميلادي في العالم الاسلامي هي فجر الاسلام ، وامتدادها هو امتداد الحضارة الاسلامية وقيام الدولة الاسلامية التي وصلت الى حدود الصين شرقا، وحدود فرنسا غربا ، والتي قامت خلال هذه المرحلة الطويلة بدور ضخم في التنوير والعدل شمل هذه المنطقة الكبرى من العالم ، وبلغ

أوروبا نفسها ، هذه المرحلة كانت بالنسبة للمشرق والعالم الاسلامي مرحلة ضياء وقوة وحضارة ، ولذلك فان اطلاق كلمة العصور الوسطى انما هو اطلاق ظالم ، فالعصور الوسطى المظلمة انما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده ، ولكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للهند والفرس والعرب ومصر والمغرب كله بل والاندلس أيضا .

خامسا — رجال الدين

كلمة غربية مستوردة يحاول الكتاب والمفكرون ان يطلقوها على العلماء المتخصصين في دراسات العقائد والفقه والشريعة والتفسير ، والذين تكون دراستهم في الاغلب مستمدة من المعاهد الاسلامية الخالصة : كالازهر والزيتونة والقرويين وغيرها ، والواقع أن الاسلام لا يعرف طبقة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين ، لها نظام خاص أو حقوق معينة ، أو نفوذ من أي نوع ، ولكن هناك « علماء متخصصون » في الدراسات الاسلامية والدينية .

سادسا — انتاج مرحلة الضعف والتخلف

ان فترة ضعف العالم الاسلامي هي السابقة لمرحلة اليقظة الحديثة وما ظهر فيها من انتاج وآثار غلب عليها طابع الجمود والتقليد لا يمكن ان يمثل بحال جوهر الفكر الاسلامي او يتخذ سندا لرمي الاسلام وفكره بالقصور والتخلف وخاصة فيما يتعلق بالجبرية التي سادت مفهوم الصوفية أو دخول عناصر الفلسفات القديمة الهندية والفارسية والمجوسية تحمل مفاهيم لا تتفق مع جوهر التوحيد كوحدة الوجود والحلول والاتحاد ، والمفروض ان يحاكم الفكر الاسلامي الى أصوله الاولى ، والى انتاج أعلامه الرواد ، لا أن يحاكم الى انتاج فترة الضعف والجمود ، فالفكر الاسلامي في جوهره الأصيل ما زال مضيئا ايجابيا

مؤثرا معطيا للامم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية .

سابعا ــ تأخر العرب والمسلمين مصدره الاسلام

هذه دعوى يرددها النفوذ الاستعماري واتباعه من دعاة التعزيب والشعوبية وتلقى آذانا صاغية ، ولكنها حين تعرض على منهاج العلم والتاريخ يبدو زيفها واضحا وضوحا لا لبس فيه ، ومن الحق أن يقال : ان تأخر العرب والمسلمين انما يرجع اساسا الى الانحراف عن مفهوم الاسلام ، فلو ان العالم الاسلامي ظل مرتبطا بمقومات الاسلام وقيمه الاساسية لم ينحرف عنها ، لما وقع في هذه الازمة .

والواقع ان تخلف المسلمين هذا عن مقومات فكرهم من القوة واليقظة والوحدة هو الذي مكن الغرب من احتلالهم ، وهم في هذه المرحلة لم يكونوا يمثلون الاسلام ، وكان الاسلام محجوبا بهم ، والقول بأن تأخر المسلمين مصدره الاسلام مردود بتجربة التاريخ ، فقد أقام الاسلام حضارة ضخمة في ظل عقيدته ومفاهيمه ، واستطاع أن يقدم للانسانية نموذجا فذا من التقاء العلم بروح الدين ، كما أهدى الانسانية المنهج العلمي التجريبي الذي قامت على أساسه الحضارة الحديثة .

وبعد :

فان القضية الكبرى في مجال الاخطاء الشائعة هي قضية « الفكر الاسلامي » نفسه ومقوماته وأسسه وماوجه اليها من شبهات، وما جرى حولها من محاولات التشكيك والخلط .

تحرير المصطلحات

١ ــ إن اكبر حاجة أمتنا في مجال الفكر والثقافة أن نستكشف ذاتنا، ونسترد شخصيتنا ونصحح مفاهيم قيمنا ، ونعيد النظر في المصطلحات والكلمات في ضوء الحقائق التي كشفت عنها السنوات الاخيرة والوثائق التي رفع عنها الستار ، والتي تدعو العرب والمسلمين الى التعرف على أبعاد حملة الغزو والتغريب والحرب النفسية التي تشنها القوى الاستعمارية والصهيونية من اجل القضاء على ذاتية العرب والمسلمين ومقومات فكرهم المستمدة من أصول الفكر العربي الاسلامي .

ان الوثائق الكثيرة التي ظهرت في السنوات الاخيرة ــ وخاصة ما كشفت عنه بروتوكولات صهيون وموقفها من الثقافات والنظريات الفكرية والاجتماعية المطروحة ــ كل هذا قد اوضح مدى خطورة المخطط الذي يحاول الاعداء اغراق العرب والاسلام فيه ، رغبة في تدمير كيانهم ، وتحطيم معنوياتهم وشخصيتهم حتى لا يستطيعوا مواجهة حركة الغزو التي تنشب أظفارها بقوة في فلسطين ، وتتخذها رأس جسر الى محنة كبرى للامة العربية والعالم الاسلامي .

من هذا المنطلق تجيء الدعوة الى محاولة تصحيح القيم والمصطلحات وتحريرها من الزيف الخطير التي يراد صبغها به حتى

يتحقق هدف الاستعمار والصهيونية من داخل دائرة الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، وهذا هو اخطر ما يحفز الهمم نحو اعادة صياغة المفاهيم الاساسية في ضوء الاصول الاصيلة لها المستمدة من الاسلام والقرآن .

ان حركة الغزو الفكري والتغريب تقوم على أساس تزييف الحقائق وتسويهها وافساد مضامينها ، ولقد تنبه المفكرون المسلمون منذ وقت بعيد الى هذه المحاولة الخطيرة ، وعمدوا الى تحطيمها والكشف عن الحقائق المطوية .

ومن ثم فقد أصيبت هذه الموجة بضربات متعددة ، ولكنها مازالت تضيف وقودا جديدا ، وتتحرك في أساليب جديدة .

وأعتقد انها هي كبرى قضايانا التي لا ينفذ الجهد في العمل لها مهما اتسع وتشعب واستمر جيلا بعد جيل .

فاذا لم يكن من اليسير القضاء على هذه الموجة ، فلا أقل من العمل الدائب بالوقوف في وجهها ، وتصحيح ما تزيفه ، ورفع الاغشية عما تموه به ، ودحض الشبهات التي تحاول طرحها ،أو اسباغ الطابع العلمي عليها .

ان الغزو الثقافي قضية هذا الجيل ، وهذا العصر ، لانه المحاولة الباقية للقضاء على القوة النفسية القادرة دوما على اعلان الحذر واليقظة ازاء مخططات الاستعمار والصهيونية .

ان آية الجهاد أن لا تجد موجة التغريب الكاسحة استسلاما أو قبولا ولكن تجد دوما معارضة ومقاومة ومواجهة وكشفا عن خططها .

واذا كان الفكر والثقافة هما أخطر مجالات الغزو ، فان هذا

الميدان وحده هو أكبر ميادين المقاومة والصمود ، فهذه هي خطـوط المواجهة الواسعة ، والثغور العديدة التي تحشد لها القوى ، وتجند لهـا الاقـلام ، وهذا هـو خط الدفاع الفكـري الـذي يوازي تماما خط الدفاع العسكري الصامد •

٢ ــ ومن الحقائق التي تكشف عنهـا الاحداث ان مرحلـة التبعية الفكرية القائمة على عقدة الاجنبي ، أو الجري وراء بريق الفكر الغربي أو تقليده والاعجاب به والدعوة الى نقله نقلا كاملا قد انتهت ، وأن مرحلة من الرشد الفكري والاستقلالية ، وبروز الذاتية ، والقدرة على التماس قاعدة اساسية مستمدة من الاصول والقيم الاساسية التـي عرفها العرب والمسلمون منذ وقت بعيد ، وأقامـوا عليهـا كيـانهم وحضارتهم ، هذه المرحلة قد بدأت فعلا •

لقد بلغنا مرحلة التشبع والامتصاص ، ومضـى دور التقليـد والمتابعة ، وبدأ دور الوضوح والرشد واكتشاف المـزاج النفسـي والاجتماعي الاصيل •

ولقد كشفت حركة اليقظة العربية الاسـلامية عن مخططـات الاستعمار والتغريب والتبشير والغزو الثقافي ، وعملت علـى ردهـا ودحض زيفهـا ، وابراز ذاتية الفكر الاسلامي والثقافة الاسـلامية القادرة على امداد العرب والمسلمين بأسباب القوة والحركة والتقدم •

واذا كان الاسـتعمار والتغريب قد حرصا على تشويه الفكر الاسلامي والثقافة العربية كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين ، فان ظاهرة جديدة واضحة قد أثبتت وجودها ، وأكدت ظهورها هي :

اليقظة والحيطة والحذر من هذه التيـارات المسـمومة بعد أن انكشف أمرها ، وعرفت الدوافع الخفية والخلفيات التي تدفع اليها ، فقد كان للصيحات المتوالية أثرها العميق في العقل العربي الاسلامي ، والنفس العربية الاسلامية للتعرف الى هذا الخطر الكامن من وراء نظريات كثيرة ومذاهب متعددة ما تزال تطرح في افق العالم العربـي الاسلامي ، وكلها تحاول تدميره ، والقضاء على مقوماته .

ومن خلال مظاهر الثقافة والادب والقومية والفلسفة والحضارة واللغة وفي مجالات الاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية والسياسة تطرح مفاهيم متعددة متضاربة لتصارع المفهوم الاصيل الذي يستمده العرب والمسلمون من قيم فكرهم الاساسية .

ولقد طرحت نظريات وافدة في هذه المجالات جميعا جرت معهـا الثقافة العربية شوطا حتى استوعبتها ، ثم كشفت عن زيفها ومعارضتها للقيم الاصيلة التي بنيت عليها اسس الفكر الاسلامي والثقافة العربية منذ أربعة عشر قرنا .

ومن هنا فقد كان من الضروري اعـادة تقييم هـذه المصطلحات والمفاهيم والنظر فيها من جديد في ضوء أصولها الاصيلة وفي مواجهة هذه التحديات التي فرضها الغزو الثقافي والتغريب ، وذلك لوضعها في الصيغة المحررة بعيدا عن تشويهات التبشير والاستشراق أو مغالطات التغريب والشعوبية .

وهذا التحرر من مفاهيم الشـرق والغرب ، والتمـاس المنابع الاصيلة لفكرنا في مختلف هذه القضايا هـو الطريق الوحيد للنهضة العربية الاسلامية ثمرة اليقظة ، وأمامنا كل الحقائق التاريخية تؤكـد أن الامم لا تنهض نهضة البناء الا بالتميز والتفرد عن غيرها ، ذلك هو الطريق الذي يشكل للامم وجودها وحضارتها .

أما التشابه والتبعية والغرق في أتون الامم ، والتماس مفاهيم الثقافات أو الحضارات ، فانه هو العامل الاساسي للتقوقع في مرحلة الانتقال التي لا تنتهي ، والتي تحول دون أن يصل العرب والمسلمون الى مكانهم الحق الذي اقامتهم عليه قيمهم ، او ان يستأنفوا دورهم التاريخي في مجال الحضارة .

٣ ــ وأولى الحقائق التي تكشف عنها ذاتية الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، هي ذلك التباين الواضح بين العوالم والامم ، فهنا عالمان منفصلان لكل منهما قيمه ومقدراته وفلسفته وذاتيته ، قام عالم الغرب على مفاهيم الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية في اطار المسيحية الغربية ، وقام عالم العرب والاسلام على مفاهيم القرآن وحدها ، وعندما نقل الغرب اليه الفكر الاسلامي ، رفض أن يقبله كاملاً ، وصاغه في قوالبه الاصيلة المستمدة من اليونان والرومان .

وقد اخذ عصارة العلم الاسلامي متمثلا في المنهج التجريبي ، ولكنه رفض ان يأخذ اطار الاسلام القائم على التوحيد والاخلاق .

وظل اكثر من أربعمائة عام وهو ينكر هذا الاثر وهذه الصلة ولا يرى ــ صلفا وغرورا ــ أن في العالم حضارة غير حضارة الرومان التي انطفأت منارتها في القرن الرابع ، وحضارة اوروبا التي اوقدت أضواؤها في القرن الخامس عشر ، في تجاهل عنيد متعصب للدور الذي قدمه الاسلام للحضارة والعلم حتى جاء في السنوات الاخيرة من يعترف بالفضل ، ويحاول أن يكشف عن هذه الصفحة الفاخرة .

ومن حقنا أن نعرف دورنا في الحضارة والعلم والفكر الانساني كله لنجد من ذلك قوة لنا على مواجهة التحديات في محاولة اقامة

أساس وطيد للثقافة العربية ، ومن الحقائق التي لا سبيل الى تجاوزها ان الاسلام ليس دينا على مفهوم الاديان ، أو على مفهوم اصطلاح كلمة (دين) التي يعرفها الفكر الغربي بأنها تمثل اللاهوت ، أو العلاقة بين اللـه والانسان •

والاسلام ليس دينا بهذا المفهوم ، ولكنه دين ومنهج حياة ومجتمع وحضارة ، والثقافة العربية لا تنفصل عن الاسلام ، كما أن مفاهيم الاسلام مرتبطة بأصول الثقافة العربية ، وقد جاء الاسلام بنظام كامل ولم يقتصر على التوحيد والعبادات •

ومن الحقائق الهامة التي تفرق بين ثقافة المسلمين والعرب وبين ثقافات الشرق والغرب جميعا ، أن طريقتنا في النظر الى الامور وأسلوبنا في الفكر يختلف في مجال الادب والتاريخ ، فان النظرة العربية الاسلامية هي نظرة جامعة شاملة ، لا ينفصل فيها المجتمع عن العقيدة ، ولا السياسة عن الاخلاق ، ولا الروح عن المادة ولا القلب عن العقل ، ولا الدنيا عن الآخرة ، ومن هذا المنطلق يختلف طريقنا في النظر الى الامور عن أسلوب الغرب القائم على الفصل بين القيم ، مع اعلاء النظرة المادية الخالصة الى التاريخ والانسان والحياة •

وعندنا أن الالتزام الاخلاقي هو القاسم المشترك الاعظم لمختلف القيم والمقومات ، يستمد وجوده من التوحيد ولا ينفصل عنه وهذا عامل آخر يوسع شقة الخلاف والنظر بين الفكر الغربي ، والفكر العربي •

وليس في الثقافة العربية كلمة لغة دينية ، او نظرة دينية ، أو حركة دينية ، فالنظرة الاسلامية تتسم بالشمول بين ما هو ديني وبين ما هو دنيوي ولاتنفك عنه •

ويقوم الفكر في الاسلام على الحرية ذات الضوابط ، ومن ناحية العقيدة فان الاسلام يقرر أن — لا اكراه في الدين — ولحرية الفكر والرأي مناطق لا يجوز اختراقها محافظة على كيان الامة ووجودها ، ومحافظة على الشخصية الانسانية وتماسكها .

٤ — ولعل أخطر ماواجه الفكر الاسلامي والثقافة العربية في ظل النفوذ الاستعماري الاقتباس والنظر في الثقافات والحضارات وانعدام فرصة الحرية الكاملة للاذاعة بـأيديولوجية الفكر الاسلامي ، وكشف جوهره ، وإبراز حقائقه ، ومدافعة الشبهات عنه ، أو تطبيقه ازاء مزاحمته وفرض الفكر الغربي والمناهج الغربية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، فقد كانت قوى التغريب في مراكز القوة والنفوذ وكانت قادرة على مهاجمة كل صيحة صدق غير أن تراخي الزمن قد كشف عن تراخي المعطيات الاستعمارية الغربية ، وعجزها عن العطاء الصادق للنفس العربية الاسلامية ، ثم رفض المزاج العربي الاسلامي لها ، والعودة الى التماس قيمه .

لقد حال التغريب والغزو دون قيام امتزاج فكري شامل تذوب فيه الخلافات ، ويلتقي العرب والمسلمون على وحدة فكر تقهر العناصر المختلفة ، وتعيدها الى فطرتها الصادقة النقية ، ولكن [illegible] جديدا يبدواليوم من وراء الافق يقرب انهدام الفواصل الفكرية والروحية وذلك في مواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية .

ان الطريق الوحيد امام العرب والمسلمين هو طريقهم الاصيل (وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

انه المنطلق الوحيد الذي عرفه العرب والمسلمون صادقا لهم كلما مروا بالازمات ومراحل الضعف ، وواجهوا التحديات والغزو ، لاطريق غيره ولا سبيل سواه .

اننا في الواقع لسنا في حاجة الى الفكر الغربي ، وليس من مصلحتنا أن نذوب فيه ، وأن نتمزق مع ألوانه وتياراته المختلفة ، وان علينا ان نستمد من قيمنا أساسا ، وتتيقظ لكل وسيلة ، والوسائل مواد خام تشكل وتسبك في قالب ذاتيتنا وشخصيتنا .

ولقد كان الفكر العربي الاسلامي ــ وما زال ــ ثابت الجوهر، متغير الصورة قابلاً لكل المعطيات التي تزيده قوة ، دون ان تفقده كيانه وقيمه الاساسية .

واذا كنا قد قطعنا مرحلة في طريق اليقظة الى النهضة ، فاذا أريد لها أن تستكمل الطريق وتؤتي ثمارها ، فلا بد من بناء الاساس على القواعد التي صمدت اربعة عشر قرنا دون ان تهتز للاحداث والازمات .

ان الفكر الاسلامي هو الذي صنع هذا المجتمع العربي الاسلامي وبدأه من نقطة أولية ، ولذلك فقد كان امتزاج الروح والمادة فيه من نسيج البناء ، الذي لا سبيل الى عزله الا اذا أعيد البناء من جديد ، وهذا اكبرعامل من عوامل التباين بين الفكر العربي الاسلامي وبين الثقافات جميعا ، سواء أكانت شرقية أم غربية .

تحرير القيم

في طريق مسيرة الفكر الإسلامي والثقافة العربية الطويلة عبر القرون،وبالاحتكاك مع الثقافات المختلفة،فإنه قد برز عديد من المذاهب والدعوات التي حاولت أن تنحرف بالفكر الإسلامي عن مفاهيمه وقيمه.

وقد عادت هذه الشبهات والأخطاء ، فتجمعت مرة أخرى في السنوات المائة الاخيرة مجددة كل التحديات والافتراءات التي تبثها الباطنية والمجوسية والفلسفات الوثنية ، ودعوات التحلل والانحراف والزندقة والاباحة التي عرفتها عصور ما قبل الاسلام ، جمعها الاستعمار والصهيونية العالمية تحت اسم (التغريب والغزو الثقافي) وجند لها قوى متعددة ، منها : التبشير والاستشراق والشعوبية ومعاهد الارساليات وكثير من الصحف والدعاة والاسماء اللامعة .

ولقد استشرت في السنوات الاخيرة هذه الشبهات والاخطاء، وأصبحت ـ نتيجة لترديدها المتصل ولتسربها الى مناهج الدراسة والى أصول الثقافة ، والى مصادر التاريخ ، وخاصة تلك النظريات الوافدة التي فرضها التغريب في مجالي الادب والأجناس ، ومقارنة الاديان وعلم النفس ، وفلسفات الاجتماع والاقتصاد والتربية والقانون ، نقول : ان هذه الشبهات قد اصبحت تبدو وكأنها حقائق يجري التسليم بها دون مراجعة او تعمق ، وتبدو الحقائق التي علاها ركام الاحداث وطمرتها الغزوة التغريبية وكأنها شيء غريب ، وقد جرى ذلك كله في ظل الغفلة عن الاهداف الماكرة التي تختفي وراءها هذه الشبهات .

والعجيب أن كثيراً من هذه الشبهات قد وقع فيها ولا يزال يقع كثير من أصحاب الاقلام اللامعة من غير قصد ، نتيجة لاستشراء الخطأ المتداول ، ومن هذه الاخطاء كلمات نحتها المستعمرون وروجوها لتمزيق وحدة العالم الإسلامي ، وإثارة الشبهات حول حقائق تاريخية أريد لها أن تدفن وتختفي .

والحق أننا اليوم في أشد الحاجة إلى العمل لتحرير الفكر الإسلامي والثقافة العربية من دخائل التبشير والتغريب والشعوبية ، والكشف عن الأخطاء الشائعة ، وتصحيح المفاهيم، وتطبيق قانون الجرح والتعديل على الكتاب الذين عرفوا بالخصومة لفكر العرب والمسلمين ، والذين لايتركون فرصة تمر دون النيل من قيمة فكرنا وذاتية أمتنا وكياننا .

وليست هذه المحاولة التي ندعو إليها بدعاً من تاريخ الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، ولكنها تبدو متواضعة إزاء محاولات ضخمة في هذا المجال ، منها : رد ابن تيمية على المناطقة، ورد الغزالي على الباطنية، ورد ابن حزم على الفرق ، وكتاب تلبيس إبليس لابن الجوزي ، وكتاب « العواصم من القواصم » للقاضي ابن العربي وكتب أخرى ظهرت في العصر الحديث أيضاً ، منها «الرد على الدهريين» لجمال الدين الافغاني، و « الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية » للشيخ محمد عبده ، و « شبهات النصارى وحجج الإسلام » للسيد رشيد رضا .

ومن الحق أن يقال : إنه قد أصبحت هناك ضرورة ملحة لقيام علم يطلق عليه (علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم) .

يقوم على أساس تحرير قضايا الفكر ودراسة المصطلحات السارية المتداولة وكشف وجهة نظر الإسلام فيها ، وإبراز مفهوم الإسلام للقيم المختلفة ، وهو مفهوم يختلف قطعاً عن مفاهيم الفكر الغربي والفكر الشرقي لهذه القيم .

ولا شك أن الدعوة إلى تصحيح المفاهيم هي عمل كبير الأهمية في هذه المرحلة من حياة الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وهو يتطلب إلقاء نظرة واسعة على الأخطاء الكثيرة التي ترددت في العصر الحديث ، وتضمنتها كثير من الأبحاث والمؤلفات والكتب الدراسية المقررة ، والمناهج التعليمية المختلفة التي حاول النفوذ الأجنبي ، والاستعمار الفكري فرضها ودعمها وتعميقها وصقلها وتجديدها كلما بليت ، وإعطاءها صورة الحقائق الأساسية التي لاتقبل الشك ، بينما هي زائفة ليس لها أصل علمي تعتمد عليه أو سند تاريخي يضمن الثقة بها ، وكل ما هنالك هو سقوط فكرنا فيما يسمونه غفلة التقليد والترديد الببغائي دون وعي حصيف ، أو تقليب واع حذر يقظ لكل ما يقوله خصوم هذه الأمة وهذا الفكر .

ونحن لا نطالب بخصومة كل ما يقال ، ولكن نطالب بالحذر واليقظة حتى لانخدع ، ولا يدلس علينا بالزائف من القول الذي ينتقص حقنا وحقائقنا .

ولقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعات متعددة من الشبهات والأخطاء ، منها شبهات التبشير ، وشبهات الاستشراق ، وشبهات بروتوكولات صهيون والاسرائيليات الجديدة ، وشبهات المذاهب والدعوات المادية الاباحية الوثنية التي صيغت في قوالب علمية براقة خادعة ، لاتستطيع أن تصمد أمام ضوء الحقائق الكاشف الذي يعريها ويفضح خبيئتها .

ولقد كان الفكر الإسلامي — ولا يزال — استمداداً من مصادره الإسلامية القرآنية — على المحجة البيضاء ، ولكنه أصيب بالانحراف والاضطراب حين انصرف أهله عن أصوله القائمة على التوحيد والعدل والترابط المادي والمعنوي معاً .

ولقد واجه الفكر الإسلامي عملية الغزو الفكري والثقافي منذ القديم ، واستطاع في معركته الأولى أن يتحرر من كل هذه الزيوف ، وأن يستعيد طابعه وذاتيته بعد حرب عنيفة مع الوثنيات اليونانية والمجوسية والهندية القديمة .

وهو اليوم قادر — أيضا — على أداء هذه الرسالة ، يقظ لكل ما يراد به ، متفتح الآفاق لكل الثقافات والمفاهيم ، يأخذ منها ويدع وفق قاعدته الأساسية العميقة الجذور ، وهو بقوته الذاتية المستمدة من (القرآن) قادر على كشف الزيف ، ورفض الخطأ ، ودحض الشبهة ، وتأكيد الحق .

ولقد كان على طلائع اليقظة العربية الاسلامية في العصر الحديث أن تعرف هدف حركة التغريب من بث هذه الشبهات والأخطاء ، وهو هدف واضح يرمي إلى توهين القيم الاسلامية وتفتيت وحدة الفكر الإسلامي والثقافة العربية ، وإثارة الخلاف بين الشعوب الاسلامية والعربية ، ووضع إسفين ضخم بين العرب والأمم الاسلامية ، وكذلك بعثرة القوى الوطنية .

ولقد كانت حركة اليقظة العربية الإسلامية منذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده على علم تام بأن هناك محاولة دائمة مستمرة لتحريف الفكر الإسلامي (أصوله وتعاليمه واحكامه) تارة بالنقص منها، وتارة بالزيادة فيها ، وثالثة بتأويلها على غير وجهها .

وكان هدف التبشير والاستشراق دائما هو محاولة الحط من شأن العرب والمسلمين من أنفسهم ، وتشجيع العاميات جرياً وراء تفكيك عروة وحدة الفكر .

ولقد جرت محاولات كثيرة لفصل الادب العربي المعاصر ، والفكر

العربي المعاصر عن أصولها الإسلامية ومصادرها الأصيلة وروحها العربية ، ثم بدا أن هذا العمل عسير ومستحيل .

كما جرت المحاولات لتدمير الشخصيات النابغة في فكرنا وتاريخنا وخاصة تدمير الغزالي والمتنبي وابن خلدون ، كما جرت لإعلاء شأن أبي نواس ، وبشار والحلاج ، وعمدت الشبهات إلى اتهام الفكر الإسلامي بانتقاص الحرية ، وعرضت حياة ابن رشد والسهروردي أمثلة على ذلك ، واتصلت الشبهات بمختلف ميادين الفكر : سياسية واجتماعية ، كما ظهرت عشرات الكتب تحاول أن تفرض مفهوماً زائفاً وخاطئاً في سبيل خدمة هدف التبشير والاستشراق لحساب الغزو الثقافي والاستعمار والصهيونية .

وجرى البحث لإعلاء شأن كتب المحاضرات والنوادر والأساطير التي ترددها الرواة ، وأريد أن تكون هذه الكتب مصادر علمية يعتمد عليها في استخراج صورة للمجتمع الاسلامي .

وقد نسقت هذه الشبهات في موسوعات ودوائر معارف، أنيقة أصبحت في أيدي الباحثين يلجؤون إليها في كل وقت ، دون معاناة ، غير آبهين بمدى الخطر الذي يحيط بها ، والهدف البعيد المدى الذي يراد من وراء نشر هذه الشبهات الزائفة ووضعها في قالب علمي براق .

ولقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك ، أن هذه الشبهات والأخطاء إنما يراد بها القضاء على ذاتية العرب والمسلمين وإخراجهم من قيمهم ومزاجهم النفسي ، وإثارة اليأس في نفوسهم وتشكيكهم في مقدراتهم وتشويه معالم فكرهم وأدبهم ، وما تزال هذه الحملات مستمرة لم تتوقف بصورها المتعددة ومصادرها الكثيرة،وهي تدور حول جزئيات منفصلة ، من هنا وهناك ، وترتفع وتخفت ، وتغير أثوابها بين حين

وآخر ، وتغير اساليبها دون أن تغير من أهدافها وغاياتها الكبرى وهي في مجموعها محاولة للتأثير في النفس العربية الإسلامية وإفساد ثقتها بقيمها ودفعها إلى طرق اليأس والشك ، والنظر بعين الانتقاص إلى مقوماتها التي هي مصدر قوتها ، والتي هي الطريق الوحيد الذي يجب أن تسلكه في سبيل دحر عدوها ، ورد عدوانه في مختلف مجالات الفكر والسياسة والحرب ، وإن المنطلق الوحيد للقوة والنصر والحرية ، هو تصحيح المفاهيم وتحريرها من الزيوف والشبهات ، والتماس المنابع الأولى والمصادر الأصيلة ، وهي نفسها القوى التي اتخذها المسلمون والعرب كلما ادلهمت أمامهم الأحداث ، ووقعوا في الأزمات والأخطار .

ومن أبرز التحوطات ضد الشبهات والأخطاء تصنيف الكتّاب، وأخطر الكتاب هم أصحاب الولاء الأجنبي ، هؤلاء الذين لا يؤمنون بقيمنا ولا بأمتنا ، والذين يكشفون أنفسهم عندما يعادون التراث والقيم والدين ، وحيث لا يجرؤون على مهاجمة القيم العربية الإسلامية صراحة ، فإنهم يتحدثون عن العقل والنقل ، والسلفية والتراث ، والماضي والقديم،وينسون أنهم يكشفون أنفسهم فهم يريدون الإسلام، ويعجزون عن إعلان اسمه،ولعلهم يعلمون جيداً أن هناك فوارق بعيدةبين حملة الغرب على الدين باسم القديم والتراث ، وبين موقفنا من الإسلام الذي ليس تراثاً ، ولكنه قيم حية متجددة نابضة بقوة ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الأساطير التي يريدون تجديدها ونظريات الإباحة والمادية والوثنية التي يروجون لها .

التماس الأصالة المتجددة

إن حركـة الأصالة الوسطى المتجددة قد نمت شجرتها وثبتت جذورها من جديد في أرض العرب والمسلمين ، هذه الأصالة التـي تفهم منهجها فهما قرآنيا لا فلسفيا ولا وجدانياً ، إنهـا ثمرة المدرستين المحافظة والوافدة ، وعصارة ذلك النضال الطويل بين الولاء للتقليـد القديم والولاء للتقليد الغربي •

١ ــ إن حركة الأصالة التي هي المرحلة الأخيرة من حركـة اليقظة العربية الإسلامية ، لاتؤمن بما كانت تقول به المدارس التي سبقتهـا على الطريق : من المزج بين الشرق والغرب ، أو بين القديم والجديد ، أو بين الماضي والحاضر ، ولكنها تؤمن بأن لها أسساً أصيلة من منهج القرآن ترسم الطريق في عالم الفكر ، وفي ميدان الحضارة ، وفي مجال المجتمـع •

وهي وفق هذه الأسس تواجه النظريات والمـذاهب والمناهج ، وتحاكمها في ضوء الإسلام •

إن لنا أصولاً ومفاهيم في النفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ والاقتصاد والقانون ، ولنا قيماً في الـدين واللغة والأدب والعقائـد والتربية ، ولنا مفهوماً أساسياً يربط العلم بالحضارة ، ويربط المعرفـة بالتوحيد ، ويربط الفكر بالإيمان ، إن سبق الغرب لنا وسيطرته علينـا إنما جاءت نتيجة تقدمه في ميدان العلم التجريبي ، وهو ضالتنا التـي

راوغ دونها ، ليحول بيننا وبينها عشرات السنين ، ولا بـد أن نحصل عليها بأغلى التضحيات .

أما فيما عدا ذلك ، فلسنا في حاجة إليه ، لأن لنا قيمنا التي هي أكثر تقدماً وأصالة وصلاحية في مجال الإنسانية والعالمية والحضارة .

إننا نربط العلم والسياسة والاقتصاد والتربية بالأخلاق ، وبذلك يقضى على كل الازمات التي يكون مصدرها انشطار القيم وانفصالها ، هذا الانفصال بين القيم هو مصدر أزمة الإنسان المعاصر ، وهي التي خلقت تحديات القلق والضياع في حياة الفرد ، كمـا خلقت التفرقـة العنصرية والظلم الاجتماعي في حياة المجتمع .

لقد أرسى الإسلام نهجاً كاملا شاملاً مترابطاً قوامـه التكامـل والمواءمة بين قيم الروح وقيم المادة في نطاق الانسان الجامع في تركيبـه بين القلب والجسم والروح والمادة .

٢ ــ ليس التمسك بالقديم وحده هو وجه الحقيقة ، وليس التعصب للوافد هو الحق ، إن هناك ضوءاً كاشفاً أمام القديم والوافد معاً هـو منهج القرآن : منطلقاً من أكبر شاراته وهي التوحيد ، إن بين الجديد والقديم صلة التاريخ والنماء والتكامل ، فلا سبيل إلى الفصل بينهما .

أما الوافد ، فإن الفكر الإسلامي كان قادراً على استقبال كـل الوافد والأخذ منه والرفض ، في ضوء الطابع والمزاج والقيم الأساسية .

إن المحافظة المطلقة دون التجدد تحول دون سير الزمن .

والاقتصار على الوافد وحده خروج عن الذات والأصالة .

والربط بين القاعدة والجديد عمل له مقوماتـه وأصوله ، ولـه ضوابطه حتى لا يطغى الوافد على القيم الأساسية ، أو ينحرف بها .

٣ — ان بين الماضي والحاضر والمستقبل في مفهوم الإسلام ترابطاً وتكاملاً لا سبيل إلى تجزئته ، أو فصل مرحلة منه عن الأخرى ، هذا على مستوى الأطوال ، أما على مستوى الأعماق ، فإن بين الاجتماع والسياسة والتربية والقانون تكاملاً واتصالاً لا سبيل إلى فصل قطاع منه عن الآخر ، فهي في مجموعها حلقات في وحدة،أو عناصر في كل جامع .

وإن أصدق نظرة للانسان هي نظرة الإسلام .

فبينما يقول الفكر الغربي ونظريته المادية : إن الانسان حيوان . وان تجارب الحشرات والأنعام تنطبق عليه ، وبينما تقول بعض النحل إنه مجبور التناسخ ، أو أنه آثم بحكم ولادته ، يقول الإسلام : إنه مستخلف في الأرض ، وان كل ما في الكون معد له،وان عليه أن يستخرج هذه الكنوز ، وأن يبني الحياة بالحق والعدل .

ومن هنا كان الإسلام هو القادر على حل المعادلة الصعبة بين الجماعية والفردية التي كانت موضع صراع البشرية منذ قديم .

فالاجتماعية تؤله المجتمع ، والفردية تؤله الفرد ، ويجمع الإسلام بين الفرد والمجتمع في انساق عجيب ، فالفرد للمجتمع والمجتمع للفرد .

وحيث تحاول الأولى أن تحمل راية العدل لتضحي بالحرية ، وحيث تحاول الأخرى أن تحمل راية الحرية لتضحي بالعدل ، يجمع الإسلام بينهما في مزاج فريد يعطي أصفى ما فيهما ، ويترك أسوأ ما عندهما ، ويجعل الفرد والمجتمع كله لله .

أما مفهوم التقدم في الإسلام ، فهو مفهوم متكامل أساسه إنساني جامع بين الماديات والمعنويات ، فالتقدم المادي وحده ليس في نظر الإسلام تقدماً كاملاً والإسلام دعوة إلى التقدم الشامل (مادة وروحاً) في نطاق الأخلاق والإيمان بالله ، والإيمان بالبعث والجزاء .

٤ ـ ميدان النفوس والانسانيات لاتخضع للمقاييس المادية التي تسيطر على العلوم ، ولا ريب أن محاولة إخضاع الاجتماع والأخلاق والنفس لمقاييس المناهج المادية أو التجريبية مما لايقره الفكر الإسلامي ، ولا يراه صالحاً أو سليماً .

ولا ريب أن التفسير المادي للتاريخ قد أهمل جانب المعنويات والقوى الذاتية والأديان ، وكل ماليس مادياً وهي جميعاً بعيدة الأثر في مقدرات التاريخ والمجتمعات ، وسيظل الدين عنصراً هاماً من عناصر تشكيل الذاتية وخاصة في عالم الإسلام وان القائلين بأن الدين ليس مصدراً من مصادر التوجيه ، أو ليس عاملا من عوامل بناء الحضارات والتاريخ إنما يتجاهلون شطراً كبيراً من طبائع الأشياء والنفوس .

٥ ـ إن تخلف المسلمين قضية منفصلة عن الإسلام ذاته كمنهج حياة ، إنها قضية التطبيق ، ولا ريب أن القيم الإسلامية في تقدميتها ونصاعتها ليست مسؤولة عن وجود هذا التخلف ، بل هي ضحية هذا التخلف .

وصدق إقبال حين قال : « لا خطأ في الإسلام ، وإنما الخطأ الخطأ كله ، في طريقة إسلامنا ، ولقد كان الإسلام مصدر العزة بشهادة خصومه وأعدائه .

يقول (ولفرد كانتول سمث) : إنه ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدينين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وإن العربي لايفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطنا ، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بتفكيره .

٦ ـ والحقيقة الواضحة أن الفكر الإسلامي لم يستسلم للنظريات الوافدة ، ولم يقبلها ، أو يسلم لها تسليما مطلقا ، بل كان معها حاسما

وكريما في نفس الوقت ، فهــو لم يرفض كل ما قــدم إليه ، ولكنــه استصفى منه ما أضافه إلى كيانه ، وتخلص مما يتعارض مــع أصوله الأصيلة .

ولقد ظل الفكر الاسلامي جيلا بعد جيل يواجه النظريات الوافدة ، ويوضح وجهــة نظره ، ولا يتوقف عن المعارضــة ، وعن الاحتفــاظ بذاتيته ، والانتفاع بالأساليب والمناهج والأطر الجديدة دون أن يفقــد مقوماتــه .

٧ ــ لاريب أن هناك حقيقة ثابتة هي أننا إذا كنا نتعثر اليوم أو تقصر بنا الوسائل دون بسط مفاهيم الفكر الإسلامي أو تنميته أو تطبيقه كنظام للحياة ، فإن السر في ذلك لا يرجع إلى قصور ذاتي في هذا الفكر ، وإنما يرجع إلى مدى الضغط الذي يواجهه من قبل العوامل المسيطرة الكاتمة للأنفاس من قوى الشعوبية والتغريب ، والتي تقف بالمرصــاد أمام كل حركة من حركاتنا ، وتحول دون تقدمنا .

وهي لا تحول دون حرية انطلاقنا فحسب ، ولكنها لا تتوقف عن غزو فكرنا بما يثير الشبهات فيه ، ويؤثر على قيمه الأساسية .

إن قوى التغريب تحاول أن تقف أمام مسيرتنا إلى اليقظة والحضارة الأصيلة ، فضلاً عن محاولات منع قيام الامتزاج الفكري ، والتكامل العضوي من وحدة الأمة والفكر ، وتذويب الخلافات ، وصهر العناصر ، والقضاء على الخلافات .

ولكن قوة الأصالة التي انبعثت خلف النكسة سوف تمضي على الطريق ، لأنه طريق الحق الذي لا سبيل غيره .

الباب الرابع

إعادة بناء الفكر الإسلامي

بعد تحرير المصطلحات ، وتصحيح المفاهيم ، وغربلة الحصيلة تجدنا على اهبة العمل في سبيل إعادة بناء فكرنا وامتنا . وعلينا في هذه المرحلة أن نسال عن الإطار الذي نتحرك فيه ، وعن الأمانة التي في أعناقنا ، وعن مسؤوليتنا إزاء هذه الأمانة ، ومن ذلك كله نصل إلى حقيقة أساسية هي أن الإسلام هو وحده القادر علـى بناء الثقـة ، ودفع الياس في النفس العربية المسلمة .

الإطار الذي نتحرك فيه

علينا أن نسأل دائماً : ما هو الإطار الذي نتحرك فيه ؟ حتى يكون خطونا صحيحاً ، وحركتنا إلى أمام ، وإلى فوق ، فإن علينا دوماً أن نتحرك داخل إطار ، ومن وجهة ، وإلى غاية ، وأن لا ننسلخ قضية من قضايا الفكر أو الأدب أو الاجتماع أو السياسة ، أو التربية عن هذا الإطار . وليس هذا الإطار ضيقاً ، وليس سجناً ، وليس قيداً ، ولكنه غاية ، وهدف ومصدر قوة ، وضابط للحركة ، ومعين عليها حتى لا نتحرك في فراغ .

ولقد أعطانا الإسلام إطاراً واسعاً مرناً مليئاً بالحيوية ، معيناً على الحركة والتغيير ، قابلاً لكل قوانين التطور والمواءمة والتوازن ، بحيث يدفع إلى الانطلاق الواضح ، والطموح المليء بالحيوية والصدق القائم على دعائم الواقع البعيد عن الخيال ، والإسراف والتخبط .

ولقد غاب المسلمون طويلاً عن إطارهم ، وتحركوا خلال سنوات طويلة خارج دائرة فكرهم ، فقد أخرجهم الاستعمار منها ، وأدارهم في « دائرة صماء » رسمها لهم ، وأعد لهم خططها ، وهي خطط لا تتلاءم مع طبيعتهم ، ولا مع مزاجهم النفسي ، ولا مع ميراثهم ، ولا قيمهم . وقد قصد بها أن يحطمهم ، لا أن يحييهم ، وأن يذيبهم في بوتقته ، لا أن يدفعهم إلى تقدم أو قوة أو حياة ، وأن يحتويهم في فكره **المعارض في** كثير من تفسيراته لمفاهيم المسلمين التي التمسوها من القرآن ، وهي من وحي الفطرة ، قائمة في ظلال العقل لا تعارض العلم ولا الحق الواضح الصريح الذي هو جبلة البشرية وضميرها .

ولقد تململ المسلمون طويلا في ظل هذا الإطار المفروض ، والدائرة الصماء ، ولقد كانوا كلما تحركوا نحو المقاومة ، أو الدفاع عن أنفسهم ، أو ردّ الضربات الموجهة إليهم ، باؤوا بالفشل ، لأنهم لم يتحركوا من إطارهم ، ولم يلتمسوا قيمهم ومفاهيمهم .

ولقد كانت هناك صيحات عوقت المسيرة إلى التماس الأصالة والمنهج الصحيح ، منها القول بالجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب ، والربط بين التراث والمعاصرة ، وبناء تركيب من القديم والجديد على غير هدى من قاعدة أصيلة ، أو إطار سليم .

ولقد أثبتت هذه النظرة فشلها، وبالتجربة لم تحقق إلا مزيداً من التأخر والاحتواء. وتوالت الضربات لتوقظ المسلمين والعرب إلى حقيقة الخطأ الذي يترددون فيه ، والوجهة التي يتجهون عليها تحركاً من داخل دائرة غريبة عن دائرة فكرهم ، لذلك ، فقد تعالت الأصوات الصادقة من أصالة الفكر الإسلامي،والإيمان والفطرة إلى أن يلتمس المسلمون والعرب إطارهم الأصيل ليتحركوا من داخله ويتصرفوا من خلال قيمه ومقدراته ، وذلك حتى تصدق الرؤية ، وتتكشف الآفاق ، وتجري الأمور من خلال الفطرة التي أقامها لهم الإسلام أربعة عشر قرناً نبراساً على الخطو في كل أمر من أمور الحياة .

ذلك في تقديري هو ما يطلق عليه : (النظرية الثالثة) التي تستمد وجودها من أمة وفكر أمة متصل بالسماء ، قائم على الحق ، مواز للمزاج النفسي ، الذي عاشه المسلمون خلال تاريخهم الطويل ، يهديهم إلى النصر إذا هزموا ، وإلى الحق إذا ضلوا ، وفيه إجابة إلى كل تساؤلاتهم ، ورد لكل مايواجههم من التحدي ، وضوء كاشف لكل ما يعتري طريقهم من ظلام أو قتام .

فإذا التمسوا إطارهم وتحركوا فيه من خلال التشريع والتربيــة ، وإقامة قواعد المجتمع ، استطاعوا أن يتصدوا للأخطار التي تواجه الأمم بعد أن يعزلها أعداؤها من أصولها وجذورها .

ولا ريب أن أمام ذلك الاتجاه الأصيل عقبات ومشاق ، ولكنها كلها تمضي إلى الحل ، وتتساقط واحدة بعد واحدة إذا ما بدأ العمــل من الواقع الموجود تصحيحاً للمفاهيم التي انحرفت ، أو تحريراً للقيم التي اضطربت ، فعلى المصلحين أن ينطلقوا من أرض الواقع الصلبة في مواجهة الأوضاع التي تحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر من أجل دفع مسيرة اليقظة العربيــة الإسلامية ، في مرحلتها الجديــدة والمتجــددة إلى الطريــق الصحيــح .

أما التقدم والتجمع والبناء والتسلح بالقــوى المادية ، فكل ذلك يجب أن يجري في إطار عقيدة أصيلة مستمدة من الإسلام نفسه محررة من النظريات والمذاهب الفلسفية المادية الأصل ، التي تطرح نفسها على الفكر العربي الإسلامي اليوم بقوة ، وتجد من يدافع عنها ، وينقلها من عالم الفكر إلى عالم الواقع في مجريات أمور المجتمع من أزياء وأسلوب كلام وأخلاق ، وسلوك يعتري الأجيال الجديدة بأخطار تجعلهم غرباء عن أصالة أمتهم ثائرين ممزقين ثمرة للوجودية ، والفرويدية ، والهيبية من أجل إيجاد ثغرة في قوة الأمــم على المقاومة والصمود في وجه الغــزو الزاحــف .

إن طبيعة الإسلام كدين ونظام مجتمع معاً ، وكعبادة ومنهج حياة معاً ، إنه يفتح الطريق إلى النهضة والتقدم ، وفتوحات العلم ، غير أنه لا ينطوي في مجاري الحضارة حين تنحرف عن الخلق والدين ، ولا يجد مبرراً لمسايرتها ، بل يعارضها بأن يصحح طريقه ، ويأخــذ الأصول ،

ويصهرها في بيئته ، ويحررها وفق قيمه ، ومن داخل إطاره ، ولا يعتنق حضارة الغرب على نحو ما هي قائمة في بلادها بما فيها من تصدع وشك وتمزق وصراع ٠

إن الاسلام يقدر القيم والمنجزات ، ولكنه يصهرهـا في بوتقته ، ويعترف بفوارق البيئات والأمزجة والعقائد والعصور ، ويجعل هنـاك تحفظاً قائماً لا يتنازل عنه ، ولا ينفك منه ، وهو أن تظل الشخصية العربية الإسلامية قادرة دوماً على الاحتفاظ بكيانها ومقوماتها وطابعها دون أن تذوب ، أو تنصهر ، أو تحتويها شخصية أخرى وحضارة أخرى ٠

ذلك أن فكرنا وأصول حضارتنا ما تزال قائمة متفاعلة لم تنقطع ولم تتوقف ، وإن اعترى مسيرتها بعض الوهن الذي يصيب كل الأمم نتيجة دورات الحضارة ، ولكن أصالة فكرنا وعمق جذوره تجعله قـادراً على مواجهة كل تيار ، وملاقاة كل تطور دون أن يمضي معه الى نهايته ، أو يقبله قبولاً كاملاً ، ولكنه يقبل منه ما يتفق مع طبيعته وما يزيده قوة ، ويرفض منه أيضاً ما يتعارض مع قيمه وأصالته ٠

فالفكر الإسلامي يقول : « نعم ولكن » « نعم » للحقائق والقيم الأصيلة التي كان هو مصدراً من مصادرها ، في مجال العلم التجريبي ، ومفاهيم المدنية والإنسانية ، وتحرير الأمـم والشعوب من العبودية ، وتحرير العقول والقلوب من الوثنية ، ففي هذا المجال يتصل الطريـق « ولكن » يقف أمام التحريف ، أمام الانشطارية في الفكر الغربي ، وأمام المادية ، وأمام الوثنية ، وأمام استعلاء الجنس واللون ، وأمام العنصرية، وأمام إعـلاء الاقتصاد ، أو إقامة تفسير مادي للتاريخ ، أو إعلاء أمـر الجنس على مقدرات النفس البشريـة ، أو ممارضـة الفطرة في الاسرة والمجتمع ، ويرفض إقامة فكرة التطور مطلقـة عن إطارها من الثوابت والركائز ، ويرفض أيضاً نسبية الأخـلاق ، ومحاولة ربطهـا بالعصور والبيئات ، بينما هي مرتبطة بالإنسان نفسه ٠

نحن نقــول : نعم ولكن : نعم لمستحدثات الحضارة ، ومقررات العلم ومكتشفاته ، وننقل ذلك إلى محيط اللغة العربية ، فيقيــم العلــم العربي في إطار الفكر الإسلامي ، ولا يقبل العلم بمفهومه الغربي : صراعاً وإبادة واستعلاءاً على الأمم الضعيفة والفقيرة ، واستعماراً وامتصاصاً لثروات الأمم ، نقول : نعم في مجال العلوم الطبيعية والرياضية بمفهوم العدل والسماحة ، والإخاء الإنساني ، ولكننا نقول : « ولكن » في مجال الثقافة والعقائد والنظريات الاجتماعية ، وشؤون النفس والأخلاق ، فهنا تتحفظ ، ونرى أن لكل أمة عقائدها وفكرها ، ولنا فكرنا وعقيدتنا الكاملة الشاملة في هذا المجال بما يتفق مع طبيعتنا وروحنا الإسلامي ، ومزاجنا النفسي ، فالعقائد والثقافات ذاتية وقائمة بأمسها مرتبطة بالجذور القديمة لا تنفك عنها ، فلا نقبل أن تفرض علينا مفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التي فشلت في بيئتها ، ولم تحقق إلا التمزق والصراع ، إن فكرنا الإسلامي قائم على التوحيد أصلاً ، وقد دعمته الفكرة القرآنية بالتكامل واتساع الأفق والسماحة والإخاء البشري ، والمــواءمــة بين النفس والجسم ، والعقل والقلب ، والمادة والروح ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة ، في حدود هذا الاطار تتحرك في مرحلة جديدة من مراحل اليقظة نكتشف فيها أنفسنا ، ونلتمس مفاهيمنا وقيمنا ، ونحاول أن ننتقل من اليقظة إلى النهضة بإذن الله ...

أمانة الموروث الإسلامي

إن في أعناق الأجيال الحاضرة « أمانة » تسلموها من الأجيال الماضية ، وعليهم أن يسلموها إلى الأجيال القادمة بعد أن يؤدوا دورهم ومسؤوليتهم إزاءها حتى تصل إلى من بعدهم ، وقد زادوها وعمقوها ، وقدموها إلى أهل العصر ، وإلى الأمم العاطشة إلى الحق والنور .

لقد قام أسلافنا ــ أعزهم الله وأحسن إليهم ــ على هــذه الأمانة بالحماية ، وذادوا عنها كل غاز ، وحفظوها من كل دخيل ، ودحضوا كل زيف وجه إليها على قدر استطاعتهم ، وفي حدود تحديات عصرهم ، وهذه الأمانة اليوم بين أيدي هذا الجيل الذي يواجه مسؤوليات أشد خطورة وأكثر عمقا مع تعقد حركة الغزو ، وتضافرها مع حركات أخرى متعددة منها الاستشراق والتبشير والشعوبية والتلمودية والمادية والإباحية وكلها تعارض الأمانة معارضة واسعة ، وتحاول أن تجد فيها ثغرة تستطيع أن تنفذ منها إلى الناس لتقطع ذلك الخيط المتصل الذي استمر وامتد منذ نزل الوحي بالإسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنذ اختتمت آيات القرآن الكريم شرعة الله وأماناته إلى المسلمين يحفظونه ، ويدافعون عنه ، وينشرونه في العالمين ، ويهدون إليه الأمم ، ويكشفون عن عظمته وأمجاده ومعطياته في عالم مأزوم محتاج إلى الضياء والنور والهدى في أجيال يكاد يقتلها الظلام والشك والقلق والتمزق والضياع .

تلك أمانة الموروث الإسلامي في أيدي قومنا ومثقفينا ، فهم مطالبون أولاً بفهمها ، ثم تبيينها للناس ، وهم لكي يفهموها لا بد لهم مــن أن

يبدؤوا من منابع الإسلام نفسه، وأن يلتمسوا لها جوهر المعرفة الإسلامية، وهم لن يستطيعوا أن يحموها أو يدفعوها، أو يقدموها للبشرية إلا إذا كانوا هم أنفسهم قد صدروا عن العقل الاسلامي، والنفس الاسلامية، والمزاج الإسلامي.

أما إذا حاولوا ذلك عن طريق أسلوب الفلسفة، أو أسلوب المنطق، أو أسلوب العلم، أو أسلوب الإشراق أو غير ذلك من الأساليب المنتشرة المفردة الجزئية القاصرة، فإن ذلك سوف لا يحقق لهم الوصول إلى أعماق الفهم الصحيح.

إن للإسلام منهجه الأصيل في المعرفة، وأسلوبه الخاص في الفهم: ذلك هو الأسلوب القرآني، ومن الحق لقد دافع كثيرون عن الإسلام، وكتبوا دراسات هامة نافعة، وقد اصطنعوا أسلوب الفلسفة الغربي، أو أسلوب المنطق الأرسطي، أو أسلوب الوجدان والقلب والإشراق، ولكنهم فعلوا ذلك في مرحلة وفي بيئة، فلما عدا زمنهم وبيئتهم لم يستطع دفاعهم أن يكون مسلماً أو معطيا، بل أصبح تاريخياً محضاً، ذلك لأنهم التمسوا مناهج في المعرفة غير منهج القرآن الخالد المستفيض الناشر ألويته على البشرية كلها بأجيالها وبيئاتها.

ولقد يعجز طلاب الحقيقة في الإسلام أن يصلوا إليها عن طريق مناهج علمية أو فلسفية غير منهج القرآن لأنهم سوف يكونون أسارى للجزئية التي يمثلها العلم أو الفلسفة. أما الإسلام، فإنه منهج متكامل شامل، إنه منهج يجري على الأبعاد المختلفة للفكر، ويعطي طرائق العقل والقلب، والنظر والمشاهد والاستدلال. وقد استوعب القرآن طرق المعرفة جميعاً ووسائلها كلها بحيث أتيح له أن يصل إلى مختلف الناس دون أن يفقد منهم أحداً.

لقد وضــع القرآن أساس المعرفة « على أساس الكم والكيف ، والمادة والروح ، والغاية والسبب ، وربط القرآن بين الحواس والعقل والوجدان ، ووضع أهم القواعد التي تحفظ العقل من الزيغ ، وهو عدم تجاوز الحد ، كما دعا إلى التقدير والتقرير ، وعدم التعجل في الحصول على النتائــج قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء ، ودعــا إلى التخصص قبل البحث ، وعدم المكابرة والعناد ، ودعــا إلى المراجعــة والمعاودة والاستمساك بالحــق ، والبعد عن الغرور ، والجهر بالحــق والدفاع عنه » (١) .

يقول الحكيم الترمذي : إنا وجدنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان : على الحق والعدل والصدق ، فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول ، فإذا افتقد الحق من عمل ، خلفه الباطــل ، وإذا افتقد العدل خلفــه الجور ، وإذا افتقد الصدق ، خلفه الكذب ، فعلى ضوء منهج الإسلام في المعرفة نستطيع أن نصل إلى أعماق الفهم ، ومن ثم نكون قادرين على بيانها للناس .

فلنقدم للعالم **الإسلام** الذي أنزله الله على حقيقته ومن خــلال منهجه ، وليس الإسلام الذي فهمناه من خلال مناهج الغرب فكان مصدر الهزيمة والنكسة .

إن الإسلام في جوهره الأصيل أداة القوة والنصر ، والأمن والسيادة لأهله ومعتنقيه ، ولكن فهمه وتفسيره وتعليمه من خلال إطارات غربية من شأنهــا أن تحول دون ظهوره في صورته الأصيلة أو تجعله قــادراً على العطاء الصحيح .

ولو نظرنا الآن لوجدنا أننا ندرس اللغة العربية والتاريخ والثقافة

---

(١) من بحث للأستاذ سيد أبو المجد .

كلها من خلال مناهج وافدة . اللغة العربية تتحكم فيها المذاهب الغربية للغة وعلومها ، وهي مذاهب صيغت من خلال اللغة اللاتينية واللغات الأوربية ، ومن خلال تحديات اللغة التي تحتاج كل ثلاثمائة سنة أن تلغي القديم ، وتبدأ من العاميات ، ولذلك فهي مذاهب لا تصلح للغة العربية التي امتدت منذ نزل بها القرآن ثلاثة عشر قرناً .

وفي مجال التاريخ تتحكم فينا مناهج وافدة ، ترمي الى تصوير تاريخنا الإسلامي العظيم على أنه تاريخ اقتتال وصراع بين الملوك والأمراء ، وتحاول أن تفصل تاريخ كل قطر وشعب ، وتحاول أن تفصل عصرنا الحديث عن الامتداد الطبيعي مع الإسلام .

وفي مجال الثقافة ترى مثل هذه التحديات : كل العلوم المستحدثة لها أصول في فكرنا الإسلامي سواء أكانت علوماً طبيعية ، أم رياضية ، أم فلكاً أم طباً ، ولكننا ندرس ذلك كله منفصلا عن جذوره .

كل القيم الإنسانية في الأخلاق والنفس والاجتماع ، والتربية مستمدة من الإسلام ، ولكننا ندرس هذه المفاهيم منفصلة ، وكأن الإسلام لم يكن له مناهج في هذه العلوم ، وهكذا تراثا وقد عشنا حاضراً ليس له شهادة ميلاد ، وكأننا نحن عالة على علوم الغرب ، وكأن لم يكن لنا رصيد ولا ميراث .

أما مواريثنا الإسلامية ، فإننا لم نستطع بعد أن نكشف عنها للناس ، أو نعلن عنها للبشرية ، لدينا الشريعة الإسلامية الزاخرة بكل القيم التي تبني المجتمعات الكريمة العظيمة ، وقد شهدت لها مؤتمرات غربية متعددة وعرف أعلام القانون في العالم فضلها . لماذا يقف منها المسلمون موقف الجمود ، فلا يطبقونها ، ولا يكشفون للناس عن عظمتها .

لدينا مناهج التربية التي لن تجد البشرية أعمق منها أثراً في بنـاء الإنسان ، فلماذا لا تأخذ مجالها إلى التطبيق ، ولماذا تعلو عليها مناهـج ديوي وغيره •

لدينا مفاهيم بناء المجتمع القوي : صاغها الإسلام ، وأعطانا ناموس الحضارات والمجتمعـات والأمم ، ولكنهـا مجمـدة ، بينما المسلمون يلتمسون أيدلـوجيـات غريبة عنهـم ، لم تستطع أن تحقق لأصحابها وصناعها شيئاً ••

والأمم اليوم في العالم كله تواجه ظاهرة واضحة صريحة لاخفاء فيها ما تزال تلـح على البشرية تلك هي : أزمة الحضارة ، وأزمـة الإنسان المعاصر ، وتلك خاتمة سلسلة طويلة من الصراع بين الحضارة والدين ، من حيث وقع الخلاف في تفسيره ، ومن حيث واجهت أوربا مفهوماً معيناً ، ومن حيث تحاول الصهيونية التلمودية احتواء الغرب وفكره جميعا ، ومن حيث ارتبطت الحضارة الغربيـة بالاستعمار ، واستقلت بالعنصريـة ، واتخذت من المادية أسلوباً للحياة ، فإذا النفس الإنسانية تحس بالجزع ، وتمتلىء بالخوف ويداخلها الاضطراب والقلق ، لأنها بعدت عن تكامل الإنسان روحاً ومادة ، وتكامل الحياة دنيا وآخرة •

ولقد ذهبت في سبيل علاج أزمتها كل سبيل ، وحاولت عن طريق الوجودية والسوريالية ، والتفسير المادي للتاريخ والليبرالية ما حاولت دون أن تصل إلى شيء يهدي ويرشد ، فلما عجزت في أفق الفكر الغربي ، التمست الفكر الهندي والبوذي والغنوصي فلم يمنحها شيئاً ، بل زاد اضطرابها ، وهي الآن — وليس أمامها إلا أن تجرب الإسلام — تجد الحوائل تحول من ناحيتين : من ناحية موجهيها والذين احتووا فكرها من دعاة بروتوكولات صهيون الذين يريدون أن يسيطروا على العالم كله ، ومن ناحية عدم مطابقة حياة المسلمين لدينهم على النحو الذي يسكن لهذا الدين

بالقدوة أن يسود ، وأن يتلناه الناس ، فما زال المسلمون مضيعين بالمذاهب الحديثة وبالتقليد والتبعية لم يتحرروا بعد •

واليوم يواجه المسلمون تحدياً أشد خطراً مما تواجهه الحضارة الغربية ، ذلك هو تحدي الغزو الصهيوني الاستعماري المادي الذي يسيطر على جزء من القلب الإسلامي النابض في بيت المقدس ، وليس لهم سبيل إلا أن يحددوا موقفهم من الموروث الإسلامي تطبيقاً ، وأن يجدوا فيه حل مشكلتهم أولا، فإذا تحقق لهم ذلك ،وهو متحقق بإذن الله، كان ذلك منطلقهم إلى نشر الإسلام ودعوته وإهدائه للبشرية الحائرة ، وتجديد الحضارة الإسلامية ان موروث المسلمين هو القرآن : منهجا لحياتهم وهو الأمانة التي قاتل من أجلها السابقون ، وقتلوا واستشهدوا حتى يحفظوها من عادية التتار والصليبيين والفرنجة ، وكل غاصب دخيل ، وهم اليوم مسؤولون عن المحافظة عليها بأن يجعلوها نظاماً لا أن يحفظوها سجلا ، وعليهم أن يقدموا حياتهم وأنفسهم خالصة لله في سبيل حماية البيضة ، وحفاظاً على الأمانة حتى يسلموها إلى الأجيال القادمة ، وعليهم أن يعدوا هذه الأجيال إعداداً صالحاً حتى تكون قادرة على حمل الأمانة وحمايتها جيلا بعد جيل •

فأمانة الموروث الإسلامي تحتاج اليوم إلى تطبيق الشريعة ، وإقامة منهج التربية الإسلامية القادر على فهم الإسلام فهماً أصيلاً ، فهماً قرآنياً خالصاً لا فلسفياً ولا علمياً ولا منطقياً ، ثم تلقي هذه الأمانة وهي نظام مجتمع ومنهج حياة ، والسعي بها إلى الآفاق لتبليغها إلى العالمين ، ولسوف يسأل قومي عن هذه الأمانة بين يدي الله ، ولسوف يحاسبون عنها حساباً شديداً ، من حيث إنهم قصروا عن حمايتها وتبليغها وتقديمها إلى البشرية •

ولا ريب أن أخطر ما يواجه العالم اليوم كله أن تنزوي الأمانة وهو العمل الذي تحاول حركات التغريب والغزو الثقافي معـــززة بمدارس الإرساليات ومعاهدها وجامعاتها وبالصحافة أن تعمل له ، حتى لا يجد العالم الحائر هداية ، أو لا يعرف الطريق إلى النور الذي أنزل الله ، فتظل الحضارة الأوربية حائرة والعالم معها دون أن يجد من نفسه القدرة على التماس هذا النور الإسلامي القرآني الرباني ، وأهله غافلون عنـــه ، أو معرضون أو مقصرون ، أو عاجزون عن أداء حقه .

إن أمانة الموروث الإسلامي تدعونا إلى أن نواجه الخطر ، خطـــر الغزو الغالب على أرض الإسلام والقائم في بيت المقدس وما حولها ، وأن ندفع الرسالة الإسلامية إلى مكانها الصحيح ، منهج حياة لأمة كانت خير أمة أخرجت للناس حتى نجعل من الشريعة الإسلامية مطبقة في مجتمعنا نبراساً للعالمـــين ، وحتى يجـــد الناس الإسلام حياً قائماً ، وليس كتاباً محفوظـــاً .

مسؤوليتنا إزاء الأمانة

على جيلنا أن يؤدي واجبه إزاء الأجيال الجديدة التي تتاهب اليوم لحمل أمانة هذه الأمة ، ومسؤوليتها الكبرى ، وميراثها الحي .

وأخشى أن نكون قد قصرنا في وضع هذا الالتزام في أعناق أبنائنا على النحو الذي يجعلهم في موضع الإحساس بالتبعة الضخمة الخطيرة ، وإن نظرة واحدة إلى جيلنا وإلى الأجيال الجديدة يكاد يقنعنا بالعجز الواضح عن مهمة السابق مع اللاحق في نقل التكليف ، وتسليم الأمانة ، وتحديد المهمة .

ماتزال الأهواء المطروحة في طريق الأجيال تكاد تقصرها على الحاضر واليوم واللحظة والمتعة العاجلة الدائرة في حدود المطامع الماديةوحدها ، والتهافت على الرغبة ، والعيش في حدود الفلسفات المادية المطروحة التي تلخص الحياة في حدود فلسفات الجنس والطعام (فرويد وماركس) مع حجب الأشواق الروحية ، ومطالب النفس والعقل والوجدان، وهي الجانب الآخر من الإنسان ، وهو الجانب الأكثر فاعلية وأصالة ، والذي تكون الرغبة والعيش بالنسبة له أدوات ووسائل وليست غايات ومتطلبات .

إننا في حاجة إلى أن نذكر ، وأحداث العالم ومخاطر التحديات تحيط بنا من كل جانب أن نذكر ماهي مسؤوليتنا إزاء الأمانة الكبرى ،

وما هي تلك الأمانة التي نيطت بالمسلم في كل عصر ومصر ، والتي هي اليوم : التحدي الخطير الذي يواجهه .

لنذكر دائما أن علينا مسؤولية كبرى إزاء ميثاق معقود مع الإنسان هو أمانته إزاء رسالة الحق والتوحيد وإعلاء كلمة الله وتأكيدها وتطبيقها والدفاع عنها ، إننا مطالبون بالدفاع عن هذه الرسالة وهي اليوم في موضع التحدي الخطير الذي يستلزم تفريغ كل جهد ، والتجرد الكامل لمقاومة المحاولات الخطيرة المتجمعة للوقوف في وجهها دون أن تستمر في انطلاقها ، ودون أن تقول كلمتها بالحق ، ودون أن تجد في أرضها مكانها الآمن الذي تنطلق منه إلى العالمين .

لقد سلمنا آباؤنا وأجدادنا ذلك«الميراث»الضخم الحافل،وقد حافظوا عليه ، وافتدوه بالأرواح وقدموا أنفسهم شهداء في سبيل حمايته ، وأخشى أن نكون نحن في موقف القصور أو العجز عن الاستمساك به وحمايته والدفاع عنه على النحو الذي نحن مطالبون به ، إنه ميراث التوحيد والحق والعدل : الذي تكفل الله بحمايته على أي حال ، ولكنا نحن الذين سنكون موضع المساءلة عن دورنا ومهمتنا وموقعنا . وقد عرفنا كيف يزحف الخطر ، وكيف يجب أن نواجه الخطر ، وأن نموت دونه ، ولا نستسلم له ، وأنه إذا عز السلاح ، فلنقم من أجسادنا جداراً يقاوم ولنتراص كالبنيان ، ونثبت أمام الخطر ، حتى نموت كراماً أو يتحقق لنا نصر الله .

إن الخطر الصهيوني الزاحف ، والقائم في قلب الأمة العربية ، إنما يمثل لنا مدى ما بلغه الأمر بعد ربع قرن من الزمان وهو إنما يطوي في أعماقه كل أخطار الاستعمار والمادية والإباحة والدعوات المضللة التي تحاول أن تزيف حقيقة التاريخ من أجل إقرار مفهوم زائف ومبطل يحاول أن يبرر السيطرة المفروضة على بيت المقدس وماحوله من أرض العرب والإسلام .

إن الحملة الخطيرة التي تواجه الفكر الإسلامي إنما تمثل محاولة إسقاط العقل الإسلامي واحتواءه كخطة أساسية لفرض البقاء الصهيوني والاستعمار في قلب عالم العرب والإسلام ، وإن نظرة إلى هذه الحملة في انطلاقها بالتزييف في مختلف آفاق الفكر الإسلامي لتكشف الهدف الواضح الخطير الذي اتجه إليه الغرب بقواه المختلفة استعمارية ومادية وصهيونية خلال السنوات المائة الأخيرة من أجل إسقاط النفس الإسلامية في براثن الاحتواء العالمي والأممي ، وقد تركزت أهدافها في المرحلة الأولى على الفصل بين الدين والدولة ، ومحاولة تحريف الإسلام ، فيصوره ديناً لاهوتيا خالصاً حتى تسقط جوانب التشريع والاجتماع والنظم الاقتصادية والتربوية فيه وتحل محلها مناهج الغرب على النحو الذي أشار إليه هاملتون جب في بحثه (وجهة الإسلام) حين أشار في الثلاثينات أن الغزو الفكري والتغريب قد استطاع أن يعزل الإسلام عن مكانته الاجتماعية والقانونية ، وأن يصبح دين عبادة وصلاة وصيام فحسب .

وهذا أخطر ماحققته حركة الاحتواء والغزو ، ثم كانت المرحلة الثانية وهي سيطرة المذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وجاءت الصهيونية أخيراً تحمل لواء العمل على تدمير مقومات العرب كأمة والإسلام كحضارة ، ونحن ننظر الآن فنجد هذه الحملات مازالت تعمل في مختلف ميادينها دون توقف .

أولا — الحملة على الأديان :

وتستهدف الحملة على الإسلام ، وتقوم على ماأطلق عليه علم مقارنات الأديان وهي تحاول أن تصور العالم وقد بدأ وثنياً ، ثم عرف التوحيد بعد ذلك على نقيض منهوم القرآن الذي يؤكد ، وقد ظاهرته كل الدلائل التاريخية والأثرية على أن البشرية عرفت التوحيد منذ يومها الأول ، وأنها عاشت في صراع بين التوحيد والوثنية .

ثانياً ــ الحملة على وحدة الجنس البشري :

وذلك بإثارة علوم الأجناس ومفاهيم العنصرية والأعراق والدماء ، وما استطارت إليه عشرات الأبحاث وما ظهرت من دعوات الجنس السامي والجنس الآري ، وما اتصل بهــا من دعوات الجنس الأبيض صانــع الحضارة ، والجنس التيوتوني ، وشعب الله المختار ، والجنس الجرماني وما إلى ذلك من دعوات ضالة مضللة تحاول أن تدمر وحــدة الجنس البشري الذي قدمها القرآن للإنسانية ، والتي هي الحق الذي رجع إليه العلماء المنصفون أخيراً وإن كانت الصهيونية لا تزال من وراء دعوات العنصريــة .

ثالثاً ــ الحملــة على التاريــخ والحضارة بالدعــوة ــ إلى عشرات المفاهيم لتفسير التاريخ منها :

التغيير الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي والبيولوجي والسياسي والعنصري والمناخي والمــادي والنفسي والجنسي والتقني والبطولــة الفردية والاثباتي (نظرية المراحل الثلاث الروحية والطبيعية والعلمية) والتغيير الدوري ، كلها محاولات متضاربة جزئية تعجز عن فهم التغــير الأصيل للتاريخ ، وهو التفسير الذي قدمــه القرآن قائمــا على إرادة الإنسان ومسؤوليته ، والتزاماته التي هي موضع المسؤولية والجزاء ، وهي إرادة جزئية تتحرك داخل إرادة الله القادرة .

ولقد كان الاتجاه إلى تدمير البطولة الفردية مستهدفاً في الحق انتقاص دور الأنبياء والمرسلين ، وإعــلاء مفهوم الجبرية التاريخية والحتميــة الاجتماعية ، وكلها محاولات زائفة تقوم على مفهوم الخطيئة الأولــى وتحاول أن تجعل الإنسان شاهداً فحسب وليس مشاركا في الحركة ولا مسؤولا .

وفي مجال الحضارة حاولت حركة التغريب أن تطرح مفهوم الحضارة الواحدة التي تبدأ بالهلينية وتنتهي بالحضارة الحديثة مروراً بالرومان والعرب ، وفي هذه النظرية مافيها من الزيف ، حين تحاول أن تعتبر الحضارة الإسلامية حلقة من حلقاتها ، بينما تمثل الحضارة الإسلامية عالماً متميزاً واضحاً مختلفاً تمام الاختلاف عن حضارة الوثنية الفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية القائمة على العبودية والتعدد والإباحية (راجع كتابنا : الاسلام والعالم المعاصر)

رابعا ــ الحملة على الأخلاق :

وتلك من أخطر ماطرحته الفلسفات المادية من دعوات تستهدف ربط الأخلاق بالعصور والأمم ، وهي بهذا تعارض مفهوم القرآن الذي يربط الأخلاق بالإنسان ، وتقيم مفهوماً أخلاقياً ثابتاً على مدى العصور والأزمان (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) بينما تحاول مدرسة العلوم الاجتماعية وقادتها اليهود : ليفي بريل ودور كايم الادعاء بنسبية الأخلاق وانكسار فطرية الدين والأسرة من خلال هذا المفهوم ينطلق تبرير الإباحة والفصل بين الملابس والزينة من جهة ، وبين العقيدة من جهة أخرى .

خامسا ــ الحملة على القيم :

وذلك بالدعوة إلى التطور والعقلانية والعلم في إطار التجزئة والانشطارية على النحو الذي يجعل التطور مذهباً لاسبيل إلى معارضته، بينما يقيم الإسلام منهجه في المعرفة على أساس الثوابت والمتغيرات دون أن يجعل للتطور منطلقا مطلقا ، وإنما يقرر أن حركة التغيير دائماً تجري في إطار ثابت ، وعلى قاعدة قائمة وحول محور ومدار محدد .

أما العقلانية فهي مفهوم صحيح ، ولكنه ليس منفرداً بالنظـر ، ولكنه شطر مفهوم متكامل يقوم على العقل والروح ، والعلم والدين ، والعقل جهاز كاشف ، ولكنه يسير في ضوء الوحي ، وليست له القدرة على أن يجاوز مهمته ، وكذلك نظرة الإسلام للعلم ، حيث يقيمه في إطار المفهوم الإسلامي لاخارجه ، ويقيم له ضوابطه من الوحي من ناحية فيما يتعلق بعالم الغيب ، وبالأخلاق مـن ناحيـة فيما يتعلق بعالم الغيب ، وبالأخلاق من ناحية فيما يتعلق بحركتـه واستثماره (راجـع كتابنا : سقوط العلمانية) .

سادساً ــ الحملة على الأعلام والأبطال :

ونحن نجد هذا واضحاً في تلك الشبهات المثارة حول سيـدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل وأوليتهما في بناء الإسلام والملة الحنيفية ، وكذلك مايثار حول الرسل والنبي صلى الله عليه وسلـم ، ومايثار حول الغزالي والمتنبي وابن تيمية ومايطرح من محاولات إعلاء أسماء أقل بطولة كالحلاج وأبي نواس وابن الراوندي وغيرهم .

سابعاً ــ الحملة على العروبة الإسلامية :

الجذور والمفهوم والدعوة إلـى مفهوم الاقليميات والقوميات الوافدة ، والأممية العالمية ، والعروبة في مفهوم الفكر الإسلامي حلقة من حلقات الإسلام ارتبطت بالقرآن واللغة العربية ، والدور الذي قام به العرب في نشر الإسلام وحمله إلى العالمين ، والعرب بالإسلام كل شيء وتاريخهم مرتبط بتاريخ الإسلام لاينفك عنه ، ولكن الحملة الزائفـة تحاول أن تقيم للعروبة مفهوماً وافداً غريباً عليها من ناحية ارتباطهـا بالإسلام ، وارتباط العرب بالمسلمين ، والتفافهم على الأمم الإسلامية وتكاملهم بهـا .

ثامناً — الحملة على مفاهيم التربية والتعليم واللغة والادب :

وتحريفها وطرح تفسيرات تغريبية خطيرة تفرغ التربية من مفهومها الديني ، والتعليم من مفهومه الخلقي ، واللغة من ترابطها القرآني . والأدب من إنسانيته وروحانيته ، وطابعه الإسلامي الجامع الذي يجعله جزءاً من الفكر مترابطاً بـه .

في ضوء هذه المحاولات نستطيع أن نكشف مسئوليتنا الحاسمة إزاء الأمانة الكبرى ، والضرورة الحاسمة التي تفرض عملية « الرباط » على ثغور الإسلام ، وحمل القلم سلاحاً بتاراً في مواجهة الشبهات والزيوف والتحديات التي تتجدد يوماً بعد يوم ، ويتسع نطاقها من خلال مطامع الاستعمار والصهيونية والمادية ، وعن طريق مذاهب علم الاجتماع والتحليل النفسي وعشرات الزيوف التي تتصل بكل فروع الفكر البشري في محاولة لإلقاء ظل مظلم على مفاهيم الإسلام الجامعة المتكاملة في مختلف هذه المجالات .

وإن أول مايدعونا إليه التحدي ، ورد الفعل هو الانطلاق من مفهوم الأصالة ، فلنعرف أنفسنا وفكرنا ومفاهيمنا التي ما تزال حية نابضة ، وما تزال البشرية في حيرتها العالمية وأزمتها العصرية تتطلع إلى ضوء واحد يهديها ويسدد طريقها ، حيث تدور وراء مادية الغرب وتتصل بأفكار الشرق مارة في طريق الذهاب والعودة بأرض الفطرة ، وفكر التوحيد ، وعقيدة الحق دون أن تجد ضوء العين لترى ، أو مصدر الأذن لتسمع ، وان علينا اليوم أن ندعو البشرية إلى هذا النور الكاشف . والضوء الساطع شريطة أن نؤمن به نحن ، ونمارسه ، وننطلق منه إلى حيث تتحطم كل هذه الأصنام فتعود البشرية إلى الحق والعدل والتوحيد .

الإسلام هو القادر على بناء الثقة ودفع اليأس

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : (أما الإسلام فقد وضع على أساس طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة والعلم ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بهـا صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورةمن كتابها المنزل يحكم حكما لاريبة فيه بأن المعتقدين بها لا بـد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الأمم إلـى اختراع الآلات الحربية ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعية والكيمياء وحمل الأثقال والهندسة ٠

ومن تأمل آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ، أيقن أن من صنع هذا الدين ، فقد صبغه بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل لـه سبيلها) ا هـ ٠

ومن الحق أن يقال : إن الإسلام حين فرض الجهاد إنما جعله حماية ووقاية ، وجعل يقظة المسلمين لحماية أوطانهم وثغورهم والمحافظة علـى أسلحتهم في أيديهم مصدر رهبة للعدو ، فلا يفكر في اجتيـاح بلادهم ، وهذا هو أخطر مغمز قصر فيه المسلمون حين نمت قوة الغرب الحربية والبحرية وتحولت من حال إلى حال دون أن يتطوروا هم ، وبقيت سفنهم القائمة على الشراع ، ووسائلهم الأولى التي غلبوا بها الأمم يوم أن لم تكن تملك هذه الأمم غير هذه الأسلحة ، وكانت تلك غلطتهم الكبرى حين لم يجددوا ويتقدموا مع تقدم الأسلحة والبخار ، وجمدوا علـى

قديمهم ، فسبقهم الفرنجة ، وكانت الوقائع الأخيرة في أواخر القرن التاسع عشر الفاصلة كلها هزائم للمسلمين .

وكان ذلك مخالفة صريحة لقاعدة أساسية من دعائم الإسلام ، وهي الإعداد لإرهاب العدو وحماية الثغور ، والرباط الدائم في سبيل الله .

فإذا نظرنا إلى وقائع الحروب الصليبية ، وهزائم الفرنجة فيها وانكسارهم بعد معركة حطين الفاصلة خلال أكثر من مائة عام متوالية وعودتهم بعد مائتي عام من بدء حملتهم مهزومين ٦٩٠ هجرية — ١٢٩١ ميلادية ، ولم يكن هذا ليمر دون تدبير خطير ، وتفهم عميق لمصدر الهزيمة .

لقد كان الرأي السائد أن المسلمين لن يهزموا ماداموا متمسكين بمقومات عقيدتهم وفكرهم ، ذلك أن حركة التجديد البارعة التي قام بها نور الدين ، ثم صلاح الدين من بعده بإعادة بناء الركيزة الخلقية والروحية في الأمة وصدورها عن الإيمان بمصادر الإسلام في النصر كان هو الفاعل الأعظم والأقوى الذي دفع المسلمين إلى الاستشهاد وافتداء أوطانهم وأممهم وأرضهم وتقديم أرواحهم في سبيل الله . إن المستشرقين جميعاً وفي مقدمتهم كبيرهم «هاملتون جب» يذكرون هذا العمل الفكري العظيم وكأنه دعامة النصر ، هذا العمل هو ما أطلق عليه عبارة « إعادة التسلح الخلقي » وإنشاء المدرسة الإسلامية الفكرية التي تستمد مقوماتها العقلية والروحية من الإسلام وتلتمس النموذج الخالد للبطولة في « محمد والذين معه » وتصبغ الحياة كلها بلون الدم : لون الجهاد في سبيل الله .

ولقد عقدت قوى الاستعمار المُصِرّ على العودة والزحف مرة أخرى رأيها على أن مصدر الهزيمة هو مقومات الإسلام نفسه ، ومن هنا بدأت تلك الخطة التي دعت إلى العمل على تدمير هذه المقومات حتى تعجز

النفس العربية الإسلامية أن تجد ركيزتها القوية إلى النضال والتحرر من سلطان الغزو . ومن هنا نشأت حركات التغريب والغزو الثقافي في محاولة إلى تغيير معالم الإسلام وتحويله إلى دين لاهوتي يقوم على أساس العبادات ، ويقصر في مجال الاجتماع وبناء الأمم أخلاقيا وعمليا .

٢ ــ ووضع للهدف الخطير اسم كبير : هو القضاء على الشخصية العربية الإسلامية ، وتذويبها في فكر الأمم وحضارات الشعوب باسم الدعوة إلى الثقافة العالمية ، وتوحيد الفكر البشري وما إلى ذلك من دعوات لها طابع براق وهي تخفي في أعماقها هدفاً خطيراً هو « احتواء الإسلام » وتذويب ثقافته وفكره في البوتقة الأممية الواسعة .

لقد جعل الإسلام سلماًللقيم وأولويات وحصصاً، وجعل ترتيب القيم حسب أهميتها ، لقد جعل الجهاد في مقدمة سلم القيم ، ولقد عمدت برامج التعليم التي فرضها الاستعمار في العالم الإسلامي كله إلى حذف باب الجهاد من دراسات القرآن والفقه ومناهج الدراسة، وقامت نحل تدعو إلى الإسلام تحاول تأويل الجهاد بمعنىً أو بآخر في محاولة خطيرة لصرف المسلمين عن حقهم الأكبر في مواجهة القوى الغازية التي لاتتوقف عن مواجهة هذه الأمة وهذه الأرض الإسلامية .

ومن هنا فقد توقف المسلمون في أواخر عهد الدولةالعثمانية عن التقدم في مجال المقاومة وإعداد العدة على النحو الذي يقابل تطور العصر ، فكان ذلك باباً خطيراً من أبواب الهزيمة .

لقد كان الغربيون يعلمون مدى صلابة المسلمين ، ولم يكونوا بعد قد اكتشفوا تخلفهم عن القاعدة الأساسية .

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ويصور هذا المعنى المؤرخ أرنولد توينبي في كتابه « العالم والغرب » فيقول : « بعد فشل الأتراك أمام

أبواب فيينا عام ١٦٨٣ كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربي على العالم الإسلامي في يوم أو في آخر ، ولكنه تأخر في الظهور بسبب الصورة التي كانت في مخيلة الغربيين عن شجاعة الأتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية ، وقد أجاب العالم العربي على استيلاء الأتراك على المسيحية والأرثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع والخامس عشر بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الإسلامية عوضاً عن مقابلتها وجهاً لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية التي كانت نتائجها وخيمة عليه، وفي طوافهم حول إفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطىء الغربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هناك المغول آخر موجة من موجات الإسلام التوسعية ، هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر .

ثم يقول : وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الإسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد ،حتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين،وتشد عزائم المسلمين أنفسهم ، لتجعلهم واثقين من أنفسهم ، وهذه الثقة المتينة قضي عليها شيئا فشيئا على أثر الفشل المتتالي الذي منيت به الأمبراطورية العثمانية وباقي الدول الإسلامية ، وقد كبدهم إياه خصم مجهز بأسلحة غربية يملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة » .

وهذه هي النقطة الحاسمة في الموقف كله : في الحروب الصليبية وصل المسلمون إلى مستوى الأحداث من ناحيتي بناء شخصيتهم الإسلامية وبناء قوتهم الحربية ، وفي عصر الاستعمار كانوا قد فقدوا الأولى حين انصرفوا عن التمسك بالأخيرة .

ومن ثم بدأ مخطط الغزو الفكري كمقدمة للسيطرة الاستعمارية،

لا المؤقتة بل الدائمة عن طريق تغيير الشخصية الإسلامية تغييراً كاملا وتزييف قيمها، وتفسير الأصول العامة والركائز الإسلامية تفسيراً يحول بين المسلمين وبين حقيقة مفهوم التبعية .

ولقد دعا الإسلام معتنقيه إلى معارضة التقليد الأجنبي ، وتحرير الشخصية الإسلامية من كل مايزيفها ، وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه متميزة ، وأعلن لذلك حرباً لا هوادة فيها على التقليد وعلى التبعية ، وحكم على من تشبه بقوم بأنه انفصل عن أهله ، وأصبح من أهل القوم الآخرين ، ودعا إلى إعلان التمييز بين الأمم من حيث العادات والتقاليد .

وكشف الفكر الإسلامي للمسلمين عن مدى أثر التقليد في فقدان الشخصية ، وأثر التبعية في عبودية الفكر والعقل ، ولقد أكد المؤرخون بأن التقليد في مراحل الضعف إنما يكون في جوانب الهدم والانحلال ، ذلك أن أصحاب الأسرار العلمية من المستعمرين لا يعطون الشعوب المحتلة غير فتات الموائد وبريق الرغبات مما يعمل على تحطيم المقومات ، وتدمير الأصول الثابتة للنفس البشرية .

وحين عمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الأجنبي بكل أنواعه ، دعا إلى اليقظة من الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الأصيلة للعقيدة والفكر والثقافة والمزاج النفسي للأمم .

ولا ريب أن الأمم العريقة — وفي مقدمتها أمة الإسلام — لاتكون في حاجة إلى مناهج وافدة ، فإذا نظرت فيها ، فمن أجل أن تعرف أسلوبها وأهدافها وهي في نفس الوقت تعرف حقيقة ما في أيديها من منهج متكامل جامع رباني يستقطب النفس الإنسانية من جميع أبعادها ، وتعرف ما يعرض عليها من منهج جزئي انشطاري بشري عاجز عن تحقيق الخير

لأهله فما بال الآخرين ، ولا ريب ان المسلمين يعرفون أن من أخطر الأخطار اتخاذ الأسلوب الوافد ليكون بديلا للأسلوب الأصيل •

والقاعدة العامة في هذا كله : أن هناك أموراً عالمية مشتركة بين الأمم البشرية جميعا ، وأن هناك أموراً خاصة بكل أمة •

الأمور العامة : هي العلم والمعرفة وهي ملك للجميع ، وقد ساهم المسلمون في بناء منهجها التجريبي وكان لهم الدور الواضح الحاسم في بناء قاعدتها الأولى الأساسية • أما الأمور الخاصة ، فهي الموقوفة على كل أمة ، والمرتبطة بخصائص الإنسان وجذوره التي بناها على أساس عقيدته وفكره هي الأخلاق والقيم التي تشكل ذوق كل أمة وروحها ومزاجها •

ولقد نقل الغرب في الماضي علوم المسلمين دون أن يعتنق دينهم أو فكرهم أو عقيدتهم ، واحتفظ بقيمه دون مساس بها ، كذلك فعل المسلمون عندما ترجموا العلوم في القرن الرابع الهجري ، ولذا فنحن في سبيل تحقيق الذات ، والمحافظة على الكيان مطالبون بتحرير الشخصية وحمايتها ورد هذه المحاولة بعد فهم هدفها الخطير •

لا ريب أن هدف المحاولة هي إزالة الذاتية كمقدمة لإخفاء الوجود البشري •

٣ — إن محاولة تدمير الشخصية العربية الإسلامية لاتقف عند تزييف القيم ، ولكنها تحمل أيضا لواء بث الهزيمة واليأس والشك والتشاؤم في النفس والعقل الإسلاميين ، وذلك عن طريق تلك المذاهب والنظريات التي تطرح بقوة في أفق الفكر الإسلامي منذ النكسة إلى الآن ، وكلها محاولات تدعو المسلمين والعرب إلى اتخاذ غير طريق القرآن في فهم أمور ثلاثة : في فهم الصبر وفي فهم الأصالة ، وفي فهم القضاء والقدر •

إن المسلم في حقيقة دينه وفكره لا يعرف معنى اليأس ، وليس في دينه وفكره من جذور قديمة تفرض مفهومها للتشاؤم أو التحلل ، ولقد قرر الإسلام أن الإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل وتحول دون اليأس وتبعث الثقة المتجددة وتحرض على المعاودة في حالة الإخفاق •

إن الإسلام يعمل على بناء الإنسان والمجتمع علمياً وتكنولوجيا من خلال الأخلاق ، وفي إطار العقيدة والإيمان بالله ولا يفصلهما •

والتقدم في الإسلام ليس تقدماً مادياً خالصا ، ولكنه تقدم جامع بين المادي والمعنوي ، ولا بد أن يكون التقدم أخلاقيا ، والإسلام يجعل من قيمه الثابتة أساسا لبناء كل نهضة وكل يقظة وكل حركة من حركات التحرر واستعادة الكيان •

وثبات الإسلام أمام قيم الأخلاق والمسؤولية الفردية وفريضة الجهاد كركائز للنصر لايتطرق إليه الشك أو الريب •

وسوف لا يجد المسلمون أمامهم طريقاً إلا طريق الإسلام ، ولا منهجاً إلا منهج القرآن مهما اختلفت بهم السبل ، أو حاول بعض الناس أن يقدموا إليهم منهجاً من المناهج ، أو نظرية من النظريات . وصدق الله العظيم إذ يقول : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) •

إن أي منهج وافد سيلقى في أفق الإسلام خيبة وفشلا ، وسيعجز عن أن يقدم للمسلمين ما يملأ أفئدتهم باليقين ، أو قلوبهم بالثقة (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) •

الباب الخامس
جوهر الفكر الإسلامي

ان المنطلق الاصيل في مواجهـة الغزو الثقافي ، ومواجهة التغريب هو التماس مفهوم الإسلام وتبين طابـع الإسلام في الفكر المقارن ، سواء بالنسبة إلى الفكر الغربي الحديث ، أم إلى الفكر الاغريقي القـديـم ، الـذي يتجدد ، وعلينا ان نواجه مـوقف الإسلام مـن قيـد الاغريقية ، ونرى كيف حطمـه لنواجه على ضوئـه قيد التغريب الحديث ، ومن هنا نستطيع ان نصل إلى القيم ، فنعرف مفاهيمها الاصيلة النـابعـة مـن الاصالـة ، ومفاهيمها الوافدة ، وان نعرف ما هي القيم الحقيقية ، والقيم المستعارة. واذا كنا نؤمن باننابلغنا مرحلةالرشد الفكري، فإنذلك يدعونا إلى التعرف على المعادلـة الإسلامية التي تحقق البناء والنصر ، وتقيم النهضة الحقة ، وسنجد ان هناك قانوناً للمفاصلة يكشف لنا وجه الحق في هـذا الصراع بين اصالة الإسلام ، وبين التغريب والغزو الثقافي ، ثـم يصل بنا هـذا كله إلى « تكامل الاسلام » على النحـو الذي يضعنا في مكانتـا كامة متميزة من العالم كله .

التماس مفهوم الإسلام

لاريب أن التماس مفهوم الإسلام هو المنطلق الأصيل للفكر الإسلامي ، وان أي منطلق غيره ليس مأموناً في أن يهدي إلى الحق ، أو يصل بالنفس والعقل الإسلاميين إلى جوهر مضامين التوحيد والحق والإيمان بالله •

١ ـ ولقد سبقت الإسلام مناهج فكر ، وأساليب معرفة خلطت نفسها بحقائق الدين الذي أنزله الله سبحانه مع أنبيائه ورسله ، فجمعت بين الحق والباطل ، ولم نجد من الضوابط والأطر الثابتة ما يحول بينها وبين التجاوز والاضطراب مما أدى بها إلى الفساد ، وإلى غلبة الرغبات والأهواء والمطامع ، فانحرفت عن مفهوم الفكر الإنساني الرباني المصدر الذي بدأت به البشرية مسيرتها منذ خلق الله آدم ـ عليه السلام ـ وأنزل إليه آية التوحيد ، ثم جاءت الرسل والأنبياء بالحق من عند ربها ، ومعها الكتب والآيات •

ذلك أن البشرية لم تقف عند حدود معطيات الدين الرباني ، وذهبت تبحث من خلال العقل تارة ، ومن خلال الوجدان تارة أخرى عن تفسير للقضايا الأربعة الكبرى وهي : الألوهية ، والانسان ، والكون ، والحياة وعن علاقة الانسان بها •

٢ ـ وقد جاءت الرسالات السماوية كاشفة عن الكلمة الأصدق في هذه القضايا، دافعة الانسان إلى وجهة العمل والبحث عن علوم الحياة بعد أن منحته سلام النفس وأمن القلب تجاه علاقته بالله والكون والحياة •

لقد أعطي الانسان أمانة الحياة ، وأعطي العقل والقلب، ولـــم يكن عقله إلا جهازاً له وظيفته في حدود المعطيات والقوى المختلفــة ، ولم يعط هذا العقل القدرة الكاملة على كشف كل شيء ، أو الوصول إلى كنه الوجود وأعماق الغيب •

ولكنه أعطي مفاتيح الحقائق عن طريق الوحي أو العلم ، فأصبح له طريقه الواضح من خلال هذه المعطيات المتاحة فإذا مضى في هـذا الطريق ، أضاء وأعطى ، أما إذا أراد أن يمضي بالعقل وحده ليكشف كل شيء ، لم يجد الطريق واضحا ، وعجز عن ان يصل إلى الحقيقة •

ومن هنا كان خطر القول بقداسة العقل ، أو سلطان العلم ، هذه الدعوى التي حملتها الفلسفات ، ورفـع لواءهـــا الفكر البشري في محاولة للاستقلال أو التحرر عن (مفاتيح) المعرفة الاصيلة التي القاها الحق تبارك وتعالى لخلقه عن طريق رسالات الأنبياء والكتب المنزلـة •

٣ ــ هذه هي القضية الكبرى التي تحاول أن تواجـــه الفكر الإسلامي بالتحدي مرة بعد مرة ، ومـن خـلال العصـــور والقرون لتخرجه عن طوابعه وعقائده ، وعن مفاهيمه وقيمه •

لقد جاء الاسلام خاتماً للاديان، وجاء القرآن خاتماً لكتب السماء، من ثم ، فقـد أعطى الاسلام بالقرآن تفسيرا واضحا حاسمـا لهـذه القضية الكبرى •

لقد أعطى القرآن للمسلمين منهجاً كاملا لقضية الألوهية والوجود والكون والانسان في وضوح كامل ، وأرسى قاعدة نقية وحاسمة تجد فيها الفطرة الانسانية سلامها وطمأنينتها ، وامنها ، فلا تحتاج بعـــدها الى مزيد من اليقين ، ولا تنفتح معها للعقل أو النفس البشرية أي شبهة أو شك أو حيرة أو تمزق •

ومن ثم يصبح من حق الانسان أن ينطلق للعمل في الميدان الوحيد الذي دعي العقل للعمل فيه وهو ميدان العلوم والصنائع والعمران والكشف عن كنوز الأرض والبحر والجبال ، وإقامة الحياة القادرة ، وبناء الحضارة التي تجمع بين العلم والايمان ، وتجعل من التوحيد والإيمان بالله وبالغيب وبالآخرة خلقا عاليا رفيعا يصرف امر الحياة ، ويدفع الحضارة إلى وجهتها الصحيحة تحقيقاً لإرادة الله في الأرض ، ووصولا إلى حتمية التاريخ بإقامة المجتمع الرباني الأصيل .

٤ — هذا هو موقف الاسلام ازاء « الفلسفة » ، والفكر البشري المختلط المضطرب ، فيه الزيف والدر ، وفيه الباطل والحق ، فيه عقل الانسان وكلمة الحق .

لقد جاء الإسلام للبشرية كلها وللعالمين جميعاً ليقر كلمة الحق ومفهوم التوحيد ، ومنهج الله وبرهانه ، ليفصل فصلا واضحاً بين الفكر البشري المختلط ، وبين الفكر الرباني الأصيل ، ومن هنا فقد كان القرآن في الحقيقة نبراساً على هذه الحقيقة ، كاشفاً عن جميع شبهات الفكر البشري من وثنية وإلحاد وثنائية وتعدد وإنكار للآخرة وشرك .

٥ — وقد واجه القرآن هذه المفاهيم التي احتضنها الفكر البشري بقوة وحق ، ودحض شبهاتها ، وأظهر فسادها ، وكشف عن اضطرابها وأوهامها ، وقدم للإنسانية المنهج الأصيل الصادق القائم على التوحيد والإيمان بالغيب والآخرة والجزاء ، المتفق مع الفطرة المعترف بالانسان روحاً وجسداً وعقلا ، المقيم الضوابط لحماية الفرد من أن تدمره الغرائز وحماية المجتمع من أن يدمره الانحلال .

لم يقم منهج القرآن على العقل وحده أو الوجدان وحده ، وإنما قام على كل الوسائط التي تتصل بالإنسان عقلا وروحاً وتاريخاً وعبرة ، وخاطب فيه كل جوانب الإحساس والمشاعر ، وقدم له عبرة

الماضي وقصص الامم السابقة ، وأهدى اليه قانون المجتمعات والحضارات القائم على الاعتراف بنواميس الله وقوانينه في إقامة الأمم وسقوطها ، ودله على كتاب الكون ، وفتح له الطريق للنظر في السماوات والأرض ، ورقى به عن الإيمان بالتقليد والمتابعة لما اعتقده الآباء ، ودعاه للتحرر من كل ألوان العبودية لغير الله ، وطالبه بالبرهان في كل ما يعتقده أو يؤمن به ، ودعاه إلى استخدام العقل في وظيفته الحقة ، ومكانه الصحيح .

٦ ــ ومن هنا فقد دمر « القرآن » حصاد الفكر البشري الوثني المضطر بالمليء بالثغرات والاهواء ، هذا الفكر الذي تمثل في الفكر الهليني الغربي ، والفكر الغنوصي الشرقي ، حيث يقوم الاول على مفاهيم العبودية والرق ، وعبادة الأبطال ، وعبادة الأجساد ، وترقية الأبطال إلى آلهة وأنصاف آلهة وعبادة آلهة متعددة ، وهي آلهة تتضارب وتتقاتل وتقوم بالإباحة والفساد ، وتحاول أن تجعل من المجتمعات منطلقاً إلى إعلاء السادة ، وإذلال العبيد ، وقد دافع عن هذه المفاهيم أرسطو وأفلاطون ودعا سقراط إلى تحرير النفوس من كل القيود ، وفتح الطريق إلى الحرية الأخلاقية والإباحة .

أما الفلسفة الغنوصية ، فقد دعت إلى لون آخر من الشرك والإلحاد فجعلت للكون إلهين ، إله الظلمة وإله النور ، ودعت إلى وحدة الوجود بالقول بأن الكون هو الله ، ودعت إلى الحلول والاتحاد ومفاهيم كثيرة منها تعدد الآلهة .

وعرفت الوثنية العربية الشرك وعبادة الأصنام والأوثان واتخاذها وسيطا إلى الله سبحانه وتعالى .

٧ ــ وقد كانت هذه المذاهب كلها إنما ترمي الى إنكار البعث والجزاء ، وإباحة الشهوات ، وتحطيم مقومات الأخلاق ، ووصايا الرحمة

والخير والعفاف ، فجاء الإسلام محقا للحق ، مقرا للتوحيد ، نافيا كـل أنواع التعدد ، مجدداً دعوة الله الحق ، مقيماً منهج الشريعة والأخلاق بين الناس ، مقررا مسؤولية الفرد عن عمله ، والمسؤولية الأخـلاقية بالبعث والجزاء •

وقد ركز القرآن على هذه القيم الثلاث تركيزاً كبيراً :

وحدة الله ــ سبحانه وتعالى ــ ، الأخلاق ، البعث والجزاء •

٨ ــ وقـد حدد القرآن ما أُطلِقَ عليه من بعد (الميتافيزيقـ الإسلامية) تحديدا واضحا ، ودعا الى البحث في الكون وآفاقه دون البحث في الجوهر الذي لا يستطاع الوصول الى حقيقته « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » هذه الميتافيزيقا التي « لم يدع للعقل البشري مجالا للاجتهاد فيها ، وحدد معالمها تحديداً كاملا ، ونهى أشد النهي عن تجاوز تلك المعالم » على حد تعبير الدكتـور علـي سـامي النشار •

٩ ــ ولقد واجه المفكرون المسلمون : الفكر البشري عندما ترجم تحت عنوان الفلسفة اليونانية ، أو الفلسفة الشرقية (مجوسية وهندية) ولم يقبلوه ، وحاول البعض صبه في قوالب الإسلام ، وعارضه الآخرون، وكانت قدرة الأولين محدودة ، أما الآخرون فقد أعلنوا أن هذه الفلسفات إنما تمثل خصائص عقليات امم أخرى تباين العقلية الإسلامية ، وذلك انطلاق من القاعدة التي تقرر أن لكل ثقافة خصائصها الذاتية المستمدة من قيمها وذاتيتها ومزاجها النفسي ، وقد قامت الحضارة الإسلاميـة على قاعدة تعارض أو تخالف الحضارة اليونانية ، تلك هي قاعـدة المساواة بين الناس •

وأكد ابن تيمية أن التسليم بمنطق اليونان باعتباره منهج ثقافتهم

يقوض أساس الحضارة الاسلامية ، أو يستلزم ذلك قيام أحكام عامة تهدم ما بناه المسلمون من احكام ولا سيما في نطاق الالهيات .

وقد استمد ابن تيمية مفهومه القائل (العقل في ضوء الوحي) من القرآن نفسه ويقول: إن صريح المعقول لا يمكن أن يكون مخالفاً لصحيح المنقول .

وبالجملة فان الفكر الإسلامي قد رفض المنطق الأرسطي الذي يقوم على القياس والاستدلال ، وأقام منطقاً جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو « المنهج التجريبي » .

١٠ ــ ولم يزد علماء المسلمين أن اعتبروا (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) مجرد شراح وقد حقق ذلك دارسو الفلسفة في العصر الحديث (وعلى رأسهم الشيخ مصطفى عبد الرزاق وتابعه بتوسع وإفاضة الدكتور علي سامي النشار) هذا الأمر ، فأعلنوا أن الفلسفة الإسلامية الاصيلة ليست هي مترجمات اليونان أو محاولات ابن سينا وغيره ، وانما تتمثل هذه الفلسفة في أصالة الأصوليين والفقهاء وعلماء الكيمياء والطبيعة ، وفي مقدمة هؤلاء جميعا الإمام الشافعي الذي وضع (علم أصول الفقه) وقال : إن للعربية منهجاً يختلف عن منهج اللغة اليونانية .

١١ ــ ولقد وضع المسلمون المنهج التجريبي مخالفاً لمنطق اليونان ، ومستمدا من القرآن أساسا ، وقد تنبه العالم التجريبي (روجر بيكون) الى هذا ، وهو منطلق المسلمين وحضارتهم الى علوم الفلك والطب وعلوم الرياضيات من حساب وجبر وهندسة ومختلف العلوم القديمة التي أخذوها من فارس ويونان في درجاتها الاولى وفي سذاجتها ، فأعطوها من إيمانهم وعلمهم بما جعلها علوماً أصيلة .

١٢ ــ ومن هنا فان الصيحة الباطلة التي استشرت في أوائل العصر

الحديث بالقول بأن المسلمين خضعوا لمنطق أرسطو، وفلسفة اليونان هو قول باطل ، فقد كان محاولة خطرة للوصول إلى القــول بأنه إذا كان المسلمون الأولون خضعوا لمنطق اليونان ، فان على أحفادهم اليوم أن يخضعوا لمنطق الغرب الحديث الذي جاء ثمرة الفلسفة اليونانية •

والحقيقة الأولى : أن المسلمين والعرب لم يخضعوا لمنطق اليونان وإنما انشؤوا منطقهم ومنهجهم العلمي التجريبي •

والحقيقة الثانية : أن الحضارة الغربية والعلوم الحديثة كلها إنمــا قامت على منهج المسلمين العلمي التجريبي أساساً وإن لم تعترف بهــذا الدور اعترافا كاملا إلا في السنوات الأخيرة ، ومن هنا فإن للمسلمين الفضل في بناء الطابق الأول من هذه الحضارة •

١٣ ــ وقد كذب الذين قالوا باتفاق فلسفة أرسطو مع الفكــر الإسلامي ، أو بخضوع المسلمين للفلسفة اليونانية ، فان ذلك لم يقــع بشهادة التاريخ نفسه ولم يكن يقع في ضوء أدنى معرفة لقوانين الحضارات ومنطلقاتها فان الحضارة الإسلامية التي انطلقت من التوحيد ، وأقامت أساس المساواة بين الناس،وجعلت الاخلاق قاعدة الفكر والمجتمع جميعاً، ووضعت الضوابط الاجتماعية والنفسية لأمتها لم تكن تستطيع أن تلتمس منهجاً فلسفياً غريباً يقوم على تعدد الآلهة والإباحة والعبودية وبينهمــا خلاف التعارض والتناقض •

١٤ ــ كذلك انكر الإسلام القول بأن شرح العقائــد بالفلسفة وسيلة من وسائل تقويتها ، وأن الذين قالوا بالربط بين الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية هم دعاة الباطنية من إخوان الصفا وغيرهم من دعاة المجوسية القديمــة •

ومن هنا فقد أخطأ الذين ظنوا أن الفلسفة يمكن أن تكون منطلقاً إلى فهم الإسلام أو شرحه ، ذلك لأن الإسلام له (منهجه القرآني الخالص) الذي يختلف مع منهج الفلسفة ، بل يتعارض معها . وإذا أراد المسلمون أن يجدوا طريقهم الأصيل الحق ، فإن عليهم أن يتلمسوا (منهج القرآن وحده) في فهم العقائد والشريعة والأخلاق جميعاً ، وفي فهم الاجتماع والسياسة والاقتصاد أيضاً . ولقد جاء الإسلام فاصلاً وقاطعاً بين عهد وعهد ، وفكر وفكر ، وحضارة وحضارة ، تلك بجماعها إغريقية وفرعونية ورومانية وفارسية ، فقد جاء بمنهج جديد ، هو المنهج القرآني الرباني الذي تسقط أمام عظمته وأصالته مختلف المناهج والأساليب .

●●●

طابع الإسلام في الفقه المقارن

لقد جرت محاولات لدراسة الأدب المقارن ، ودراسة الأديان المقارنة، ولقد كان من الضروري أن ينشأ منهج لدراسة الفكر المقارن يكشف جوانب الالتقاء والاختلاف بين الفكر الإسلامي من ناحية ، وبين الفكر الغربي بجوانبه المختلفة :

ولقد جاء الوقت الذي أصبح من المحتم فيه أن يظهر هذا المنهج ، وأن يبرز هذا العمل المنهجي من المقارنة الواضحة بين الفكر الإسلامي الذي تستمد منه الثقافة العربية أصولها ومقوماتها ، وبين الفكر الغربي الذي يغزونا غزواً شديداً وفيه جوانب صالحة ، وأساليب نافعة ،لاسبيل الى الانتفاع بها إلا إذا هضمها فكرنا ، وأدخلها في كيانه ، وأساغها بعد أن يتحقق له أنها لا تتعارض مع قيمه الأصيلة ، ومنه جوانب أخرى غريبة عنا كل الغرابة ، ومن المستحيل أن تتلاقى مع المزاج الاسلامي أو مع ذاتية فكرنا •

— ١ —

ومن الحق أن يقال : لنا فكرنا الأصيل الثابت الذي إليه يرد كل وافد ، في ضوء حقيقة كلية هي أن الإسلام ليس دينا فحسب ، ولكنه منهج حياة ، ونظام مجتمع •

— ٢ —

من الواضح أن مصطلحات القيم الانسانية هي من الأمور العامة المتفق عليها بين مختلف الأمم والثقافات كالحرية والعدل والسلام والحرب والأخلاق والمعرفة •

ولكن مفاهيم هذه القيم تختلف بين حضارة وحضارة ، وفكر وفكر ، وأمة وأمة ، وفي عناصر الفكر الإسلامي المتكامل من اجتماع وسياسة وقانون واقتصاد وتربية يظهر بوضوح أن هناك طوابع خاصة ومفاهيم ذاتية تختلف في جوهرها وفي أهدافها وفي منطلقها عنها في منازع الفكر الغربي الذي ليس هو فكراً واحداً ، وإن كان مصدره مشتركاً ، وأساسه يقوم على النظرية المادية .

ولقد يقال : إن هناك التقاء بين الفكر الفرنسي ، والفكر الألماني ، والفكر الانجليزي ، أو بين الفكر الجرماني ، والفكر اللاتيني ، والفكر السكسوني ، وقد يدعى الفكر الإسلامي الى مثل هذا اللقاء وهو غريب عليه ، ذلك أن هذه الثقافات ذات أصول واحدة في الأغلب (أساسها الفكر المسيحي والفلسفة اليونانية والنظرية المادية الحديثة) أما الفكر الاسلامي ، فهو نسيج مختلف له طابع ذاتي ، شكلته عناصر مختلفة أساسها القرآن والتوحيد والايمان بالغيب والاخلاق المرتبطة بالدين ارتباطاً عضوياً ، والمفهوم القائم على تكامل عناصر الفكر والتقائها في وحدة واحدة ، أساسها الانسان روحا ومادة ، ودنيا وآخرة ، وعقلاً وقلباً ، والتي لا تقر مفهوم التطور المطلق وتؤمن بالتطور في دائرة الثبات ، والتي لاتقر نسبية الأخلاق ، وتؤمن بثبات الأخلاق ، وكلها فوارق بعيدة المدى عميقة الجذور تجعل الدعوة إلى وحدة الفكر العالمي من الأمور العسيرة ، لان الالتقاء عليها من شأنه أن يخضع الفكر الإسلامي للفكر الذي يسيطر بحكم النفوذ الاستعماري ، وذلك ماينحاماه المسلمون ولا يرضونه وهو الذي دافعوا عنه بالأرواح والدماء حتى لاينطووا ولا يذوبوا في أتون الأممية ولا تحتويهم المذاهب العالمية .

— ٣ —

لقد عجز الفكر الغربي في خلال مرحلة الاحتلال والاستعمار والسيطرة السياسية عن تحقيق هدف « احتواء » الفكر الاسلامي ، أو

تذويبه في بوتقة الفكر الغربي ، أو تدمير قيمه وأسسه ، أو صبغ مناهجه بصبغة التغريب ، وإن كان قد استطاع أن يصيبه بصدع ، استطاع الفكر الإسلامي أن يستعلي عن جرحه ، وأن يستعيد مكانه •

ذلك أن الفكر الإسلامي ، له ذاتيته الخاصة المستمدة من القرآن ، والتي تحمل أساساً طابع التوحيد ، وتقوم على أساس الحق والعدل ، ولذلك فقد أصبح من العسير الصعب « انصهار » الفكر وذوبانه في بوتقة الفكر الغربي الذي يقوم أساساً على قيم ومفاهيم تختلف اختلافا واضحاً وعميقاً •

— ٤ —

وإنه ليمكن القول بوضوح كامل : إن الإسلام إنما بنى في البشرية شخصية جديدة ، مختلفة كل الاختلاف عن الشخصية التي صاغتها الفلسفات العنصرية والوثنية ، وذلك بإنشاء الأمة المختارة المصطفاة بالإيمان والتوحيد ، التي تقف على طرف نقيض مع الشخصية الربوية التي تحرص على الدنيا ، وتحب الحياة ، وتنكر ما بعد الموت •

ولقد عارض الإسلام شخصية : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) ودعا الى شخصيةأخرى: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً) •

ولقد استشرت في العصر الحديث الشخصية الربوية التي تقيم الحياة على أساس نسبية الأخلاق ، وإنكار البعث ، والقول بالتطور المطلق •

ومن هنا نستطيع أن نكتشف أن عطاء القرآن ليس قاصراً على القديم وحده ، وأن دعوة القرآن الى التقدم ليست قاصرة على التقدم المادي وحده •

ومن هنا نعرف خطر القول بالتلقيح الثقافي للفكر الإسلامي .
ذلك أن للإسلام ذاتية لها طابعها الفرد الذي لا يلقح ، ولكنه يلتقي بكل آثار خيرة من أي حضارة أو فكر أو مفهوم أو مذهب .

ومن هنا نرى خطر الاتجاه الفكري الذي يحاول إخضاع نصوص القرآن والشريعة لأنماط الغرب وتحويل كلمات اللغة العربية ومصطلحاتها عن أصولها ومصادرها الفكرية التي تحددت لها أصلاً إلى غيرها مما يدخل في باب « التأويل » .

ولقد كان « القرآن » معطياً للمسلمين على مدى تاريخهم وسيظل ، وإن أعظم معضلات العصر وأزمة الانسان المعاصر ، وأزمة الحضارة ، وقضايا الغربة والقلق والتمزق ، إلى جوار قضايا العنصرية والظلم الاجتماعي كلها قد وضع لها الإسلام حلولاً مرنة صالحة لكل عصر .

ولقد صدق (ارنست رينان) حين قال : « في عقيدتي أنه لا نجاح للمسلمين اليوم إلا باتباع نفس السبيل التي سلكها محمد (صلى الله عليه وسلم) وصحبه » .

وما يزال الفكر الإسلامي قادراً على العطاء من مصادره الأصيلة .

وما يزال الفكر الاسلامي — أيضا — يقاوم دون ان يستسلم ، فهو آخر الحصون الصامدة في وجه الغزو بعد أن ضعفت حصون المجتمع .

إن قيم الإسلام ما تزال حية تناضل وتقاوم .. ولن تستسلم .

كيف حطم الإسلام قيد الإغريقية

إن هذه الدعاوى التي ما تزال تتردد عن صلة الفكر الإسلامي بالاغريقية أو الهلينية في حاجة إلى أن تواجه دائما بالحقيقة القاطعة التي تكشف موقف الإسلام من الاغريق ، وكيف حطم هذا القيد وحرر الفكر الاسلامي من آثاره وآثامه •

لقد وجه المستشرقون والمبشرون الغربيون همهم دون توقف ، ودون يأس حول هذا المدخل الى الاسلام في محاولة تصوير الفكر الإسلامي وهو من صناعة الفكر اليوناني الإغريقي ، أو إلقاء ظل التبعية الكاملة عليه ، كأنما لم يكن للمسلمين فكر قبل القرن الثالث الهجري منذ نزل كتابهم ، وجاء رسولهم، وتشكلت أمتهم ودولتهم ، وتكون فكرهم خلال مائتي عام كاملة ، استوفى فيها الفكر الاسلامي كيانه ووجوده قبل أن يلتقي بالفكر اليوناني ، وفيه تشكلت كل الركائز العلمية من تحقيق السنة ، وانشاء النحو ، وبناء الشريعة واللغة ، وكتابة التاريخ ، وانطلاق شرارات العلم والبحث ، وبناء المنهج الاسلامي للمعرفة المستمد من القرآن الكريم ، لقد تم كل ذلك قبل أن يلتقي المسلمون بالهلينية ، لقد تكونت ركائز الفكر الاسلامي ، وتشكلت ، وثبتت قبل هذا اللقاء ، فلما جاء الفكر اليوناني المترجم ، نظر المسلمون فيه ، وأخذوا منه ، ورفضوا •

ولقد كان المسلمون في تطلعهم الى التراث اليوناني إنما يقصدون العلوم الطبيعية ، والعلوم الرياضية ، ولم يكونوا في حاجة الى الفكر اللاهوتي الذي يسمونه الفلسفة الإلهية ، فقد كانت هي مما استغنى عنه

المسلمون بالإسلام ، ولكن موجة الترجمة ما لبثت أن خرجت عن قواعدها التي رسمت لها ، وسيطر عليها بعض النساطرة الذين تدافعوا إلى ترجمة هذه الآثار فأحدثوا ذلك الأثر الخطير من البلبلة والاضطراب الذي تدافع المفكرون المسلمون حوله في محاولتين ؛ الأولى : الملاءمة بينه وبين التوحيد ، وهي محاولة فاشلة قام بها الكندي والفارابي وابن سينا ، لأنها لم تحقق شيئاً ، ولأنها حين قامت لم تكن النصوص التي في أيدي أصحابها هي الأصول الحقيقية للفكر اليوناني • أما المحاولة الثانية : فهي محاولة رد هذا الفكر اليوناني في مجال الإلهيات رداً كاملا ، ورفضه والتماس منطق للفكر الاسلامي من القرآن الكريم على النحو الذي استطاعه الإمام الجليل ابن تيمية •

ومن الحق أن يقال : إن النساطرة والسريان كانوا مزيفين ومضللين ، وانهم لم يكونوا خالصي الوجهة للعلم ، فقد ثبت « أن الفكر الذي نقل إلى المسلمين من اليونان والاغريق لم يكن صحيح الأصول . بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف الى خدمة مفاهيم دينية ، ومن هنا كان فسادها في أن تعطي الفكر الاسلامي شيئاً » ، وان هذه المترجمات « كانت تكسباً للمال لا حباً للعلم ، بالإضافة إلى استغلال الترجمة في الدعوة الى نحلتهم ونصرة مذاهبهم » •

ومن هنا وقع الخطر ، خطر نسبة بعض الكتب الى أرسطو وهي لغيره ، أو لافلاطون وهي ليست له ، ومن هنا فقد فسدت الدراسات التي حاول بها الفارابي وأمثاله المواءمة بين فكر ليس هو في الأصل لصاحبه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن النساطرة واليعاقبة كانوا يحرفون الأصول التي بين أيديهم فيما يرونه مخالفاً لدينهم ، وأن بعضهم الآخر كان يتصرف بالزيادة والنقص في النصوص ، يبدلون فيها ميلاً مع

أهوائهم أو نصرة لمذهبهم ، عرفنا الى أي حد كانت قيمة ذلك التراث المترجـم •

— ٢ —

ولقد كان أرسطو هو قمة هذا التراث ، وهو الذي أحيط بهالـة ضخمة من الاهتمام ، هذا الاهتمام الذي جدده (الهلينيون الجدد) في العصر الحديث •

ولقد كان هناك قول أصبح من المسلمات : ان منطق أرسطو هو قمة ما أخذ الفكر الاسلامي من اليونان ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن منطق أرسطو مستمد من المجتمع اليوناني الذي يختلف اختلافـاً كبيراً عن المجتمع الإسلامي ، ولذلك كان منطقه لايطابق مجتمع الإسلام، بل يتعارض معه •

« ان منطق أرسطو يعبر تعبيراً دقيقا عن المجتمع اليوناني العبودي المنقسم الى سادة يتأملون وعبيد يعملون : السادة هم الصورة والعبيد هم المـادة » •

ولكن المجتمع الإسلامي كان يختلف عن المجتمع اليوناني اختلافا كبيراً ، دولة تقوم على الأخوة والمساواة ، وينطلق من نقطـة النظر في السماوات والأرض والعمل والتجريب ومن هنا اختلف منهج المجتمـع الإسلامي عن مجتمع اليونان من جملة جوانب ، أهمها التوحيد ، وإلغاء العبودية ، والممارسة في مجال العلم ، وبذلك بدا ذلك التعارض الواضح ، والتباين العميق بين مجتمع ومجتمع ، وفكر وفكر •

خرج الفكر الإسلامي عن النظرية الأرسطية التي ترى أن العـلم لايكون الا بالكلي ، أما العلـم الجزئي ، فليس علماً ، فتقدم الفكـر

الإسلامي ، فحطم هذه القاعدة ، وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات ، وبذلك خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطي للحد والتعريف ، واستطاع رجال الأصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الأرسطي الى الحصول على نتائج عملية، وأصبح طابع الفكر العلمي الإسلامي هو طابع التجريب ، ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون : إنه قياس ذهني ، أما المسلمون ، فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان ، وخطوا أخطر خطوة في تاريخ البشرية ، وهي قاعدة العلم الحديث نفسه تلك هي التوحيد بين التأمل والممارسة العملية .

وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلية بين الأشياء ، وعلى هذه الرابطة بين الأشياء قامت التجارب ، وعلى هذه الرابطة العلية (البحث عن العلة) أقام البيروني والرازي وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم العلمية ، وفي نفس الوقت قام المنهج العلمي في الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقات البشرية[1] .

« وبهذه النظرة المتطورة للكون والانسان : اختلف الفكر الاسلامي العربي اختلافاً كبيراً عن الفكر اليوناني المترجم ، وتناقض معه في مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ، ونظرة الى الانسان ، ولم يكن هذا الاختلاف عابراً أو طارئاً ، وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعي للدولة العربية وللحضارة اليونانية » .

وبذلك ظهر الفكر الإسلامي في جوهره فكراً تجريبياً ، تجاوز منطق أرسطو ، وأطل على التجربة العلمية رابطاً بين التأمل النظري ، والممارسة

---

(١) راجع : د . علي سامي النشار ، ومحمود امين ، وعبد الرحمن مرحبا ، وتوفيق الطويل في دراساتهم عن العلم عند المسلمين .

العملية ، وخرج بذلك على الفلسفة الأرسطية والافلاطونية : خرج بالعقل التجريبي والمنهج العلمي الأصيل » [1] .

ولقد صور كثير من الباحثين أثر منهج أرسطو ، فوصفه الدكتور قاسم بأنه : « كان منهجاً عقيماً وأنه ضلل كثيراً من مفكري العرب ، ثم وقف حائلاً دون ازدهار الحضارة العربية ، ويرجع عقمه إلى أنه كان خلواً من الخيال وإلى أنه كان أكثر اهتماماً بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا وتواضعها بتاريخ النهضة الأوربية ، فإنها لم تتحرر من الجمود الذي فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت مناهج العرب من العلم والفلسفة ، ولنا أن نستشهد برينان نفسه ذلك أنه يصف (روجر بيكون) بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر ، ويجب أن تعلم كيف جاءته إمارة الفكر ، اذ ليس في هذا المجال خلق من عدم ، ومن اليسير أن نكتشف سر أصالته ، إذا نحن بينا أنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطي طاليسي في أوربا ، ودعا إلى اصطناع نهج العرب ، فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعناتهم على الرياضة مع أنه من الممكن أن يبرهن بالرياضة على كل ما هو ضروري لفهم الطبيعة ، ولولا الرياضة ، لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة ، تعود علينا بالنفع في الأمور الإنسانية والأمور الدينية أيضاً ، كذلك يؤخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لاتكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا الى القوانين الكلية» .

وهكذا انتصر المنهج الإسلامي على المنهج الأرسطي ، وحطمه في عقر داره بعد أن حطمه في مجال الفكر الإسلامي نفسه ، فضلا عن ذلك

(1) انظر : معارك فكرية وعلي سامي النشار .

فان هناك التناقض الواسع العميق بين الإسلام والفلسفة اليونانية ، لقد احتقر اليوناني التجريب والتجربة ، وجاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان ، ولم يشتغل المسلمون بالجوهر والماهية والتصورات التي شغلت بها الفلسفة اليونانيــة ، وانمــا اشتغلوا « بالخواص » وإدراج الخواص في نسق منهجي متكامل ، ومع ذلك فما زال هنــاك من أهــل التبعية الفكرية الغربية من يقول : إن الاغريق أول من أوجد التفكــير العلمي ؛ وهو كلام براق غير علمي .

إن الإسلام هو الذي وجه تيار الفكر نحو الخواص ، ونحو التجريب وعبارة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في هذا الصدد بعيدة الأثر والمدى « تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا » .

ومع ذلك فان الاسلام هو الذي حفظ الفلسفة اليونانية من الضياع، فإن النصرانية لمــا دخلت اليونان ، خافت على الــدين ، فمنعت تدريس الفلسفــة ، ودفنت كتبها في دهاليز في باطن الأرض حتى كشف عنهــا المسلمون .

ولقد صحح المسلمون أخطاء جالينوس في الطب اليوناني ، وأخطاء بطليموس وأبقراط وأقليدس في الرياضيات ، وعارضوا أخطاء أرسطو في المنطق ، وبالرغم من أثر الإغريق في النتاج الفلسفي إلا أنه لم يستطع أن يحدث تغييراً في مفهــوم الإسلام للإنسان ، ورفض المسلمــون رأي أرسطو ومفهومه في الألوهية ممــا وصل إليه من زيف ، واعتبر الكندي والفارابي ، وابن سينا ــ في مجال الفلسفة ــ بالرغم من الجهــد الجبار الذي بذلوه لاقرار مفهــوم التوحيد والتنزيه وإقرار النبوة ــ اعتبروا بالرغم من ذلك كله مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي .

واعتبر الباحثون أن الفلسفة الإسلامية قد نبعت من صميم البيئة الإسلامية ، وأنه بعد معاناة علوم القرآن والحديث نشأ علم إسلامــي

أصيل هو علم أصول الفقه الذي أقامه الإمام الشافعي — أول معارض لتيار الهلينية ، وأول من نبه الى هذا الخطر حين قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس •

ولقد قـدم الإمام الشافعي « مباحث الأصول » لأول مرة كعلـم متسق الأجزاء ، له منهج عام يحدد للفقه الطرائق التي يسلكها لاستنباط الاحكام •

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق صاحب هذا الفهم لأصالة الفلسفة الإسلامية : إن هذا الاتجاه من الشافعي هو اتجاه العقل العلمي الذي لايعنى بالجزئيات والفروع ، بل يعنى بضبط الاستدلالات التفصيليـة بأصول تجمعها ، لقد دعـا كل ذلك الى اعتبار (الشافعي) في العالـم الإسلامي ، وفي الدراسات الإسلامية مقابلاً لأرسطو في العالم الهليني والدراسات اليونانية •

« كان الشافعي يعرف اليونانية ، وقد هاجم المنهج الأرسطي مهاجمة شديدة ، لا من الجانب السلبي فقط بل ايجابيا بوضع منهجه في الأصول الذي كان أساساً للمنهج الاستقرائي والتجريبي ، الذي تميزت به الثقافة الاسلامية وحضارتها ، والذي لولاه لسقط العلم في العالم الإسلامي ، ولتأخرت نهضة أوروبا العلمية الجديدة » •

« كان الشافعي يرى فكـر (الدين) في اللغـة العربية وفكـر (الفلسفة) في اللغة اليونانية ، كما يرى أن المنطق الأرسطي الذي يستند الى اللغة اليونانية مخالف للمنطق الذي كشف عنه علم الأصول الذي يستند الى اللغة العربية وخصائصها •

ولقد تبين له أن تطبيق منطق اللغة اليونانية على منطق اللغةالعربية يؤدي الى كثير من التناقض ، ولذلك هاجم المنطق الأرسطيالذي أخذ به

بعض علماء المسلمين كالفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد الى حد التحريم ، وتابعه في ذلك فريق كبير من فقهاء المسلمين على رأسهم ابن تيمية[1] .

ومن هنا فإن المنهج الاستقرائي (العلمي والتجريبي) على حد قول الدكتور النشار — هو المعبر عن طبيعة الإسلام ، والإسلام في آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل ، هذا المنهج بما فيه من روح الاسلام ونظرته قد أدخله العرب الى العالم الأوربي وبذلك فإن المسلمين هم مصدر هذه الحضارة القائمة على المنهج التجريبي » .

— ٤ —

جاء الإمام ابن تيمية خاتمة هذا الخط الواضح القوي : الذي ظل المفكرون المسلمون يعملون له دون توقف في سبيل تحرير الفكر الإسلامي من هيمنة الفلسفة الهلينية ، لقد كان شغل المسلمين الشاغل هو الرفض بالسماح لشخصية الإسلام الحضارية أن تذوب ، أو تتلاشى في شخصية حضارية أخرى ، وهـو ما مكن المسلمين من الصمود في وجـه القوة الغازيـة .

ولقد وصل ابن تيمية إلى أعلى قمة من القمم في هذا المجال في كتابه « الرد على المنطقين » ويعتبر ابن تيمية في رده على مناطقة اليونان أكبر ممثل لروح الإسلام تجاه الهلينية ، فنقد المنطق الارسطاطاليسي ولـم يقف عند هذا بل استخلص للاسلام منطقاً يعبر عن خصائصه العقلية ، ويحمل طابع حضارته .

---

(1) الدكتور النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام .

ويعد الباحثون ابن تيمية الرائد الأكبر لكل الاتجاهات الحديثة والغربية في نقد (منطق أرسطو) من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقة الوضعية ، وقد تتبع ابن تيمية المنهج الإسلامي الاستقرائي منذ نشأته على يد المسلمين حتى أوج نضجه ، ثم أضاف إلى عناصر هذا المنهج الإسلامي مناهج جديدة استحدثها هو مستنداً على روح القرآن والسنة، وكشف عن عقم عملية التلفيق التي قام بها الفارابي وابن سينا ، ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الإسلام من الداخل، وهاجم المتكلمين واتهمهم بمخالفة الكتاب والسنة ، وكشف عن ضعف أدلتهم التي أرادوا بها مناظرة المخالفين وأهل البدع ، ووصل إلى نتيجة صريحة هي أن صريح العقل لايمكن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل ، ويرفض رأي الرازي والغزالي القائل بتقديم العقل على النقل إذا تعارضا ، ويرى أن في ذلك خروجاً على أصل من أصول الإسلام ، ويرى أن مهمة العقل هي تفسير الوحي ، والتعبير عنه •

(وبعد ••)

فإن الحقيقة الواضحة الصريحة : أن الفلسفة اليونانية قد استطاعت أن تسيطر على اليهودية والمسيحية ، ولكنها عجزت عن أن تفعل ذلك بالنسبة للإسلام ، وان منهج اليونان مخالف لمنهج المسلمين ، وان اليونان اقتصروا على التأمل ، أما المسلمون ، فقد اقتحموا مجال التجربة ، وان القرآن هو الذي هداهم إلى بناء المنهج العلمي التجريبي •

ومن هذا فقد كان على الأصوات التي تدعي أن للهلينية في الفكر الإسلامي مكاناً أن تخرس وأن تتوقف بعد أن تكشفت الحقيقةعلىأيدي الباحثين في الفلسفة أنفسهم ، ان خصومنا يحملون اسم الفلسفة على أنه معلم من معالم الحرية ، ولكنهم في الحق انما يريدون تحطيم مفهوم الإسلام الصريح القائم على الفطرة والتوحيد ، والذي ليس في حاجة إلى سلاح الفلسفة إلا على النحو الذي فهمه الإمام ابن تيمية •

القيم ومفاهيمها الوافدة

ان أهم أهداف الفكر الإسلامي في العصر الحاضر وكبرى تحدياته هي : تصحيح المصطلحات ، وتحرير القيم من مفاهيم وافدة أو زائفة تريد أن تحل محل المفاهيم الأصيلة ، وتلك سنة جارية في مخططات التغريب ترمي إلى إحلال مفاهيم دخيلة بدلاً من المفاهيم الأصيلة التي يراد إبعادها في مجال الحياة والفكر .

ذلك أن أولى مهام الغزو الثقافي تزييف الحقائق وتسويهها وإفساد مضامينها .

ولذلك كانت صيحة حركة اليقظة منذ أكثر من مائة عام هي المناداة بالتماس الأصول والمنابع ، وأن لانستص أي شيء قبل عرضه على مقاييس فكرنا .

ولقد كان المسلمون على مدى التاريخ ، وكلما تشتد لهتم الأحداث وتحيط بهم أزمات الغزو الخارجي يتنادون بالعودة إلى المنابع ، فالتماس المنابع هو الأصالة ، وهو الضوء الحقيقي الهادي إلى الطريق ، دون شك أو ريب ، ودون خوف أو تردد .

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكم بهما : كتاب الله وسنتي » .

لقد طرحت في السنوات الأخيرة مفاهيم جديدة وافدة لقيم عالمية ، وجرت المحاولات لتصويرهذه المفاهيم بصورةعلمية لهابريق متوهجوطابع لامع، وذلك في محاولة لإحلالها في مكان مفاهيمنا الأصيلة لتلك القيم ،

ولقد بدا بعد وقت ليس بالقصير « عدم تقبل » الذاتية العربية الإسلامية، والمزاج النفسي للعرب والمسلمين لهذه المفاهيم الوافدة مهما بدا من بريقها وازدهارها ، وقد اتصلت هذه المفاهيم بكثير من قضايا الفكر ، وخاصة منها نظريات التطور والحرية والعقلانية ، ومفهوم القيم والتقدم والتجديد ، والأصالة ، وعلاقة مناهج العلوم بالانسانيات والمجتمع كما اتصل ذلك بمفاهيم البطولة والنبوة ، ومفاهيم المأساة والتراجيديا والفن ، واتجه أكثر الحديث نحو الشباب فيما يتصل بلقاء الأجيال أو صراعها ، وفيما يتعلق بالأساطير والأدب ومفهوم الحضارة وامتد إلى مايتصل بالترجمة بالمصطلحات المتعددة كالضمير والنرفانا وغيرها •

وتشكل هذه المجموعة من المفاهيم قضية واحدة ، تتفرع الى قضايا، ويمكن أن يطلق عليها جميعها قضية تصحيح المفاهيم ، وتحرير القيم والكشف عن أخطاء المصطلحات •

ونحن أمام هذه المفاهيم على رأي واحد محدد •

هو أن لكل قيمة من القيم مفاهيم مختلفة ، ونظريات متعددة تختلف باختلاف الأمم والشعوب التي تستمد مفاهيمها من تراث طويل قوامه عقائد وتاريخ ولغة ومزاج نفسي •

هذا فضلاً عن أن ما يقدم لنا ليس حقيقة علمية أو مفهوماً عالمياً مقرراً يمكن تطبيقه على النفس الانسانية عامة أو على المجتمعات قاطبة •

وما من قضية تطرح في مختلف مجالات الفكر والعقائد والثقافة إلا ولنا نحن المسلمين نظرة أصيلة لها ومفهوم شامل ، ومنهج متكامل ، وما من جديد يمكن أن يقال إلا ويجب النظر فيه في ضوء مقاييسنا وقيمنا •

ولقد كانت النظرة الإسلامية هادية للبشرية كلها ، منذ أن فجرت طاقاتها قبل خمسة عشر قرناً ، لأنها استمدت مفهوم قيمتها من مصدر

واحد هو الفطرة الانسانية القائمة على التوحيد والإيمان بالله ، والتي اتخذت من الالتزام الخلقي قاعدة لحركتها .

لقد قدم الإسلام للبشرية منهجاً متكاملاً للفكر والحياة والمجتمع والحضارة ، وهو منهج تطبيقي عملي ، وليس منهجاً نظرياً أو مثالياً ، هو منهج القرآن القائم على الأصالة والربانية والحق .

فنحن في كل مجال يتحتم علينا أن نقف ونسأل عن مفهومنا لكل ماتطرحه النظريات المختلفة .

إن النظريات الوافدة دوماً هي من صنع قوم آخرين ، أقاموها على مقياس مجتمعهم وابتدعوها في ظل تحدياتهم الواقعية والتاريخية جميعاً .

وهذ التحديات التي ربما دفعتهم إلى الانفصال عن مناهج الأديان والتماس الحلول من الفلسفات ، أما نحن فإن الأمر لدينا يختلف .

لقد جاءت تبعية المسلمين والعرب للفكر الوافد نتيجة للاستعمار ، وقامت عن طريق إرادة مقيدة في ظل سيطرة النفوذ الأجنبي على التعليم والصحافة والثقافة ، ولم تكن هذه التبعية اتجاهاً طبيعياً ولا رغبة أصيلة .

ولقد كان الفكر الإسلامي دائما — ولا يزال — متفتحاً لثمرات الفكر البشري ، ولكنه كان قادراً — حتى في أشد مراحل الضعف والتخلف — على المحافظة على ذاتيته والحيلولة دون انصهاره في الفكر العالمي .

ونستطيع هنا أن نضع واحدة من الوثائق الكبيرة التي تكشف هدف الحملة على الإسلام ، وهي مانشرته جريدة التيمس إذ قالت :

« كان الاعتقاد قديماً أن الإسلام دين شعوب الصحراء ، وقد

يتقدم إلى الحضر ، وما كان أحد يصدق أنه يستطيع أن يخترق المناطق الاستوائية وأن يصل الى جنوب أفريقيا » .

وقالت أيضا : « .. ويختلف الغربيون في اتجاههم الفكري نحو مستقبل الإسلام في افريقيا،فمن قائل:إن تقدم الإسلام لن يضربالمصالح الاستعمارية مادام يسير (أي الاسلام) في الخطوط التي رسمها له الاستعمار ، بينما يرى آخرون ضرورة (الحد من تقدم الإسلام) عن طريق نشر البدع والخرافات (أي نشر البدع المخالفة لأصل الإسلام لإفساده وإزالة حقيقة الاسلام عنه مع بقاء اسم الاسلام عنواناً له) حتى يكون ذلك بمثابة حائل يقف أمام ضغط الإسلام المتزايد » .

●●●

القيم الحقيقية والقيم المستعارة

هناك قاعدة جلية في الفكر الإسلامي هي التفرقة بين الأساسي والفرعي ، وبين الضروري والكمالي ، وذلك حتى لانقع في شباك الخطر الذي قد يجرّف الفكر إلى الفرعيات والكماليات ويصرفه عن الأساسي والضروري •

ولقد وضع الإسلام قاعدة الكليات ذات الإطار الواسع الأفق الرحب ، وهي الثوابت التي تقوم عليها دعائمه هذه ، والدعائم التي تمثل الإطار الواسع المرن،ثم جاء السماح بعد ذلك بالحركة والتغيير والاجتهاد في الفروع المتجددة والمسائل المتغيرة بتغير الزمان والمكان •

ولا بد لكل دراسة في الأدب أو الاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع أو النفس أو الأخلاق أن تبدأ من نقطة الأصول الثابتة ، ثم تتفرع دون أن تفقد ارتباطها بالمحور الأصلي ، ولا بد لكل محاولة في مجال الاجتهاد أو التغيير أن تبدأ من نقطة أساسية ، وتتحرك ضمن محور ثابت ، ولا يوجد بحث في أمر من هذه الأمور يمكن أن يوصف بأنه مطلق منفصل عن أصول الفكر أو جذور القيم الأساسية •

وقد جاء الإسلام بترتيب القيم الأساسية للفكر والمجتمع ، حيث يضع التوحيد والايمان والأخلاق في مقدمة سلم القيم ، فلا سبيل للفكر الإسلامي أن يتجاوز هذه القاعدة، أو أن يضع فيها أخرى في الصدارة وخاصة القيم المادية أو مسائل اللذات والأهواء والرغبات التي أتاح لها الإسلام أن تتحقق في إطار الضوابط التي تحول بينها وبين الانحراف •

وقاعدة الأساس في الإسلام كله أن الحركة كلها لله ، وفي سبيل الله، ومن أجل تحقيق رسالته في تعمير الكون ، وإقامة المجتمع الانساني على الوجه الرباني المصدر .

فالإنسان هو المستخلف في الأرض ، ولكنه لا يعمل لحسابه أو لحساب الأهواء والغايات وإنما يتحرك في إطار العمل لله ، وهو ثابت الجوهر ، ولذلك فقد ارتبطت به القيم الأخلاقية وثبتت ، ومن هنا فالإسلام لا يقر نسبية الأخلاق ، ومن حيث هو حر الإرادة في التصرف بعد أن أضيء له الطريق ليعرف كيف يسلكه وإلى أي غاية يقصد ؟ ، فإن عليه مسؤولية أخلاقية وفردية هي مناط الجزاء الذي يقوم بعد البعث .

والاسلام لا يؤمن بالانشطارية ، ولا يجعل هذا لله وهذا لقيصر ، وإنما يجعل القيم كلها لله ، فالعقل والقلم ، والدنيا والآخرة ، والروح والمادة كلها تتلاقى ولا تتفرق ، ومن هنا فقد تحرر الفكر الاسلامي والإنسان المسلم من خطر الانشطارية .

وتحرر من فكرة الخطيئة الأولى وما يتصل بها من مغفرة ، فالانسان حر لا إصر عليه من معصية أحد ، وسيدنا آدم قد غفر له الله خطيئته وقرر — سبحانه وتعالى — (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) فليس لاحد سبيل على أحد .

ومهمة الانسان في الحياة إقامة المجتمع الرباني على الحق والخلق والعدل بعيداً عن الظلم والخيانة والانانية .

ومن هنا فالفكر الاسلامي يكشف عن القيم الأصيلة والقيم الزائفة، أن آفة فكرنا في مواجهة التحديات وأزمة التغريب التي حاصرته هي « التقليد » ولقد فرض علينا سلطان النفوذ الاستعماري أن تتقبل قيمه ،

وأن نقتبسها لما لها من بريق ، ولسقوط إرادتنا تحت قيد النفوذالأجنبي، وهي مرحلة كان لا بد منها ، ولكننا نعتقد اليوم بعد الضربات المتلاحقة التي واجهتنا ، وأخطرها مهاجمة النفوذ الأجنبي لقلب العالم الإسلامي والسيطرة عليه في بيت المقدس ، على نحو يحمل نية تدمير مركز القوة فتتحطم الأطراف وتنهار ، هذا الخطر المواجـه لقلب العالم الإسلامي والقريب من موقع القوة والسيادة ، من شأنه أن يلفت النظر الى ضرورة التحرر السريع والاستعلاء على الضعف والاتجاه نحو الرشد الفكري القادر على التمييز الواضح والرفض الصريـح لكل ما يخالف جوهـر الأصالة العربية الإسلامية والمتعارض مع مزاجها النفسي والاجتماعي .

وأخطر ما في عملية التقليد : التبعية وعدمالقدرة على تحرير الإرادة في القبول والرفض ، ولقد كان الغرب في مواجهة الحضارة الاسلاميـة وتقليدها حراً بدون تبعية عليه ، فاختار ما يريد ، وكان ازاء حضارة لها جوانبها الواسعة العريضة من علمية ومادية ، ومن فكرية وعقائدية فاختار منها ما أراد ، وقد اختار منها المنهـاج العلمي ونماه ، وترك العقائد .

أما نحن ، فإننا إزاء حضارة لها جانب واحد ، ولها طابع واحد هو الطابع المادي ، وهي على حد تعبير أحد الباحثين « ذات صبغة ماديةبعيدة عـن النزعـة الروحية والأخلاقية تمجد وترفع من قدر القوة المادية » .

ومن هنا فقد اصطبغ الفكر المتكامل الجامع بين الروح والمادة من تأثير هذا الاتصال بطابع مادي خالص أفقده خصيصة التكامل ، وجرده من روحه الأصيل ، وجعله في موضع الخطر والأزمـة التي واجهت الفكر الغربي نفسه .

فالغر باليوم ، وفي هذا العصر الذي كان من سوء الصدف أن يلقي ظله على الإسلام يمثل النفعية والماديـة والوثنية حتى يقول محمد

إقبال : « ان أوروبا اليوم هـي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسانية » .

ويقول جود : « انه لم يزل سائداً في عقلية انجلترا منذ قرون شره المال والتملك » .

ويقول جون جبينتز : « إن الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام في الاسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » .

وقد أكد غير واحد أن الفلسفة الخلقية التي ازدهرت في جو من الانحلال الديني ، وراجت في حياة أهل الغرب فعلا إنما كانت فلسفة (المنفعة)

وقد كانت نتيجة ذلك أن انهارت القيم الأخلاقية للحضارة الغربية تحت سيطرة الاتجاه المادي الوثني ، ذلك أن مذهب النفعية من شأنه أن يضحي بكل شيء في سبيل الهدف ، أما الفكر الإسلامي ، فإنه يجعل أول القيم العدالة المطلقة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

فالعدل للجميع وليس للجنس الابيض وحده .

وليس هناك طبقة مستعبدة إلى الأبد ، بأجيالها وأهلها لاتتحرر مطلقا . وليس هناك من يقام عليه القانون ، وهناك من يشفع له أصله أو نسبه أو جاهه ، ليس لأبيض على أسود فضل ، الناس كأسنان المشط ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وليس هناك جنس ممدن له حق استعباد الأجناس المستضعفة .

وليس هناك فتح واستعباد ، ولكن هناك امتزاج وانصهار هذه هي القيم التي قامت عليها حضارة الإسلام وفكره ، وتلك هي القيم التي قامت عليها حضارة الغرب وفكره .

والمادية لن تكون بأي حال أساساً لبناء المجتمع البشري .
والعنصرية لن تكون أساساً لبناء الأمم .
وكذلك لن تكون الزهادة أو الروحية الخالصة أساساً .

وكل حضارة تبدأ من نقطة التحرر والانفلات من الضوابط والقيم الأخلاقية لا بد أن تنهار وتتمزق ، وقد سقطت حضارات كثيرة قبل هذه الحضارة نتيجة لهذا المبدأ الخطير : الاباحة والترف وفي نفس الوقت العبودية والعنصرية ، ولقد قدم « القرآن » للمسلمين سنن المجتمعات ورسم لهم قانون الحضارات ، كما رسم لهم نواميس الكون والحياة .

وعقلية الاسلام عقلية متكاملة جامعة بين الروح والمادة ، تتخذ من فهم المعرفة المنوع الشامل أسلوباً للحياة ، وعقلية الغرب عقلية جزئية تقوم على لون واحد ، ونوع واحد ، على الانشطارية ، على التجزئة بين القيم وعلى الفصل بين الدين والمجتمع ، والأخلاق والسياسة ، والدنيا والآخرة ، والعقل والقلب .

ومن هنا كانت وجهة الخلاف ، فالقيم الأصيلة ليست هي قيم الإسلام بحكم أنها كذلك من وجهة نظرنا ، ولنا أن نتمسك بقيمنا ولكنها كذلك بحكم النظرة العلمية الصادقة ، وبحكم الفطرة ، والعقل والتركيب النفسي الاجتماعي للانسان الجامع في كيانه بين الروح والمادة .

والقيم الزائفة ليست هي قيم الحضارة الغربية فحسب ،ولكنها كل قيم تعتمد على جانب واحد من جوانب الإنسان ومفهوم واحد من مفاهيم الفكر ، فتؤمن بالروحية والقلب والعاطفة ، أو تؤمن بالمادية والعقل والنفعية .

يقول ارنولد توينبي في كتابيه « الحضارة والغرب » ، « والحضارة في محنة » : « إن الحضارة الغربية تمر الآن في طور من التدهور

والانحلال الذي مرت به الحضارات من قبل ، من أجل هذا كانت فنون الصناعة والاقتصاد وغيرها من المعارف غير كافية لتوفير الاستقرار والسعادة للمجتمع الإنساني ذلك أن الروابط الروحية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بناؤه » •

ويصور بعض الباحثين تمزق الفكر الغربي والمجتمع الغربي نتيجة إعلاء جانب واحد هو الجانب المادي فيقول :

« ظاهرة من ظواهر المجتمع الغربي حيث تنقسم الحياة الفكرية قسمين متباعدين : هناك قطبان:واحد يدور حوله المفكرون الأوربيون ، والآخر المفكرون العلميون ، وبين الاثنين هوة سحيقة أساسها عدم القدرة على الفهم المتبادل ، إن كل مجموعة تحتفظ بداخلها بصورة مشوهةللمجموعة الأخرى ، موقف العلميين تجاه التجربة الفرديةوموقفهم تجاه التجربة الاجتماعية ، الانفصال القطبي بين الثقافتين ضار للشعوب وللمجتمع،والسبب عدم وجود قاعدة أساسية شاملة وعدم وجود أساس للتفاهم » •

هذا الصراع بين العلوم والفنون ، مظهر من مظاهر الصراع بين المادية والروحية القائم بجذور بعيدة الغور في الفكر والمجتمع الغربي وهو مصدر القيم التي يطرحها على عالم الاسلام ، والتي تخلب لب الكثيرين، والتي تخلق ظاهرة التقليد وأزمة التبعية •

وأين هذا من الفكر الإسلامي السوي المتكامل المترابط الجامع ، الذي يوائم بين العلم والفن ، وبين الأخلاق والمجتمع ، وبين الدين والدولة ، وبين الدنيا والآخرة ، وينطلق من منطلق واحد إلى غاية واحدة تسلك في عقدها كل القيم ، فتجعل مصدر العلم من الدين ، وتجعل الأخلاق قاسماً مشتركاً على السياسة والاجتماع والتربية والاقتصاد ، مي قاعدة : « أنا لله » •

ولقد أشار الباحثون والمفكرون منذ وقت بعيد إلى أزمة الفكـر الغربي وأزمة الإنسان الغربي وأزمة المجتمع الغربي ، وهي أزمة ما تزال تزداد قساوة واشتعالاً تحت سيطرة الفلسفات المادية ومدرسة علم النفس الفرويدي ، والاجتماع الدوركايسي ، وقد كانت من قبل في ظل الفلسفة الغربية المسيحية (الفلسفة المثالية) ، أقل خطراً مما هي الآن بعـد أن اجتاحتها الفلسفة المادية الوضعية ، ولقد وقع اليوم فعلاً ما كان يخشى منه : التمـزق واختلال التوازن بين الحضارة والثقافـة ، وبين نفس الانسان وعقله .

لقـد طرح على الفكر الغربي بعـد أن أسقط الدين أيدلوجيات مختلفة : ديمقراطية ليبرالية وماركسية ووجودية ونفعية ونازية وفرويدية وهيبية وما يزال يتلقى الموجات واحدة بعد واحدة ، وقد عجز الفلاسفة عن الوصول إلى الضوء ، لأنهم تجاهلوا النفس الانسانيـة والوحـي والتوحيد والإيمان بالبعث والجزاء .

إن القيم الأصيلة التي يقدمها الإسلام هي قيم الفطرة والعقل والعلم في إطار متكامل ، وإن القيم التي يقدمها الفكر الغربي هي قيم جزئيـة قوامها المادة والنفعية والوثنية ، وللانسانية أن تعرف أين الخير والحق الذي تمضي اليه .

الإسلام والرشد الفكري

إن التحديات التي تواجه الإسلام اليوم كفكر إنساني عالمي يعيش في رحابه مبعمائة مليون من سكان هذا الكوكب ، تتجمع كلها من خلف قوى الاستعمار والصهيونية والإلحاد ، هذه القوى التي ترى أن وجودها واستمراره وبقاءه لا يستقر ولا يثبت إلا إذا عمل على تزييف هذا الفكر حتى يخرج من مقرراته ومفاهيمه ، وينصهر في ثقافات الأمم والشعوب الغالبة والغازية •

ولما كان « الإسلام » هو مصدر الفكر الإسلامي ، ولما كان الفكر الإسلامي هو مصدر « الثقافات العربية والفارسية والتركية وكل ثقافات المسلمين في شرق الأرض وغربها » ، فإن المحاولة الأساسية إنما توجه إليه • بقصد إخراجه عن مضامينه وذاتيته التي هي بطبيعتها تختلف اختلافا واضحاً عن الثقافات المختلفة في بعض المصادر الأساسية : كالتوحيد والإيمان بالغيب ، ورباط الأخلاق المسيطر على مختلف ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية •

ولما كان المسلمون والعرب يؤمنون أن منطلق نهضتهم ومبعث يقظتهم إنما يتحقق ويتقرر من هذا الارتباط الوثيق العريق بالفكر الإسلامي في مختلف معطياته الاجتماعية والنفسية والعقلية ، فإن أي محاولة لتحطيم هذه الصلة الممتدة تاريخياً وفكرياً ، أو فصمها أو عزل الحاضر فيها عن الماضي ، إنما هي أخطر التحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين اليوم ، وأقوى الامتحانات التي يتقدمون لها من تاريخهم كله •

ولقد كشف العرب والمسلمون عن يقظتهم إزاء هذه المحاولةالخطيرة وهـذا التحدي الكبير حـين قرروا رداً على نكسة عـام ١٩٦٧ أنهـم سيلتمسون وسائل النصر بالتمسك بأصول فكرهم واتخاذ التشريـع الاسلامي مصدراً للقانون ، وفي الربط بين الدين والمجتمع ، وفي الجمع بين العلم والإيمان •

فهذا هو « الضوء الكاشف » على « الطريق الصحيح » لمواجهة أخطر التحديات في السنوات الأخيرة منذ القرن الرابع عشر الهجري ، وهذاهو المنطق الطبيعيللموقف أمام الغزوة الصهيونية العاتيةالتيليست بالحدث الصغير أو الأمر الذي يعالج في وقت قصير ، ذلك اننا الآن بإزاء أخطر التحديات التي تواجه الأرض والوطن والعروبة كما تواجه بأخطر من ذلك جذورنا وعقائدنا بالفكر الاسلامي والثقافة العربية •

ذلك أن مطامع الغزاة إلى السيطرة إنما تلتمس لها أخطر طريق وهو طريق الغزو الفكري ، والحرب النفسية ، وهي تقصد أول ما تقصد :

إلى « العقيدة واللغة والتاريخ ، والحضارة » •

وإلى « المفهـوم الأصيل القائم على الإيمـان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر » •

ولقد تخصصت فلسفات ومذاهب ونظرياتكثيرةفيمحاولة هدم هذه القيم وتدميرها،وكلها ترمي إلى تمزيق الوحدة الفكرية بالفصل بين العروبة والإسلام وتمزيق الأسرة الإسلامية بالدعوة إلى هدم مقومات الشباب والمرأة ، وروابط الجماعة ، وهدم « العقيدة » بإذاعة أسباب الإلحـاد والمادية ، والتشكيك في البعث والجزاء ، ودحر مقومات الأخلاق بإذاعة أسباب الإباحة ، وتدمير الرجولة والأنوثة معاً وخلطهما ، وإذابة الفوارق بينهما ، ومحاولة خلق أجيال يشيع فيها الانحلال ، وتختلط فيها المعالم ،

ولا تقوى على الحفاظ على الميراث والمسؤولية والأمانة التي يسلمها كل جيل إلى ما بعده من أجيال •

ومن هنا ، فإن التحديات التي يواجهها الإسلام والفكر الإسلامي واللغة والتراث والتاريخ لا تلبث أن تنتقل الى المجتمع نفسه ، وهنا « نقطة الخطر » التي لا بد أن تجد وعياً ويقظة حتى تعاد إلى أصولها الأصيلة ، التي عرفتها أمة الأخلاق والإيمان والتوحيد ، وكانت مثلاً عالياً ونموذجاً صامداً لها على مختلف العصور والأزمان ، وإعادتها تكون بالنظر في مناهج التربية والتعليم والثقافة والصحافة •

ذلك أننا لن نمكن التغريب والاستعمار والصهيونية من تحقيق أهدافهم في تقويض المجتمع والأسرة بنشر الإباحة ، أو هزيمة العقل العربي الإسلامي بإذاعة الإلحاد •

ولن يتحقق للصهيونية والاستعمار مطامعها في إخراجنا من مقوماتنا الذاتية ، أو عقيدتنا أو شخصيتنا ، ذلك لأننا نؤمن بأن هذه الذاتية الأصيلة ، وهذه القيم التي آمنا بها وعشنا لها ، هي منطلقنا الحقيقي إلى كل مواجهة ومقاومة وتحرير للأرض وإجلاء للغاصب وأنها مصدر كل نصر نرتجيه •

لقد آن لنا أن نقول : بأن أمتنا قد اعتبرت نكسة ١٩٦٧ هي بمثابة المنطلق الصحيح للتحرر من التبعية ، ومنطلق الرشد الفكري ، ذلك الأمر الذي ظلت أمتنا ترتقبه طويلاً منذ أوائل هذا القرن ، وهي تمر بمراحل النقل والاقتباس والتماس مناهج الغرب وأساليبه في مجال الاجتماع أو السياسة ، أو الاقتصاد أو التربية وإننا بعد هذه الممارسة الطويلة قد تحققنا من أن استعادة إيماننا بذاتنا ، وتأكيد ملامح شخصيتنا ، وتقرير أصالة فكرنا هي وحدها قاعدتنا الأساسية لكل التقاء مع المفاهيم والنظريات التي يقدمها إلينا الفكر العالمي ، فنحن نتقبل كل ضوء جديد ،

ولكنا لاتتحول به عن قيمنا الأصيلة ، بل نجعل مــن كل جديد مصلاً دافقاً يزيدنا قوة وحياة .

وان إصرارنا الدائم على تأكيد ذاتنا وأصالة مقدراتنا هــو منطلقنا الحقيقي إلى الأمرين معاً : إلى البناء والنماء وإلى المقاومة والمواجهة ، وبذلك نكون قد أوقفنا آخر موجة من موجات مرحلة الانتقال التي بدأت منذ أكثر من سبعين عاماً ، وكانت أمورنا فيها أميل إلى الممارسة والتجريب مع شتى النظريات والمذاهب الفكرية والأدبية والتربوية ، هذه المذاهب التي أثبتت جميعاً أنها غير قادرة بحال على أن تعطينا حاجتنا الحقيقية ، هذه الحاجة التي لن نجدها إلا في أعماقنا ومن داخل قيمنا ومقدراتنا .

ولقــد كانت تلك « مرحلة » لا بد أن تمر بها الأمــم في ظروف الاحتلال والاستعمار والغزو والمحاصرة الاقتصاديــة والعسكرية التي دامت طويلا والتي لم تتحرر منها الأمة العربية إلا منــذ قليل ، باستثناء الاحتلال الصهيوني لفلسطين وبعض أجزاء الأمة العربية .

لقد استطاعت أمتنا في خلال هذه السنوات أن تسترد كيانها ، وأن تحقق نضوجها واكتمالها حين أعلنت صادقة في مواجهة أخطر النكسات أن هذه هي ساعة التحرر من كل تبعية فكرية ، وأن فجراً من الرشد والأصالة قد بزغ ، وأن الأمة العربية وهي بسبيلها إلى استعادة مكانها في العالم ودورها في التاريخ ، واستئناف عطائها للحضارة الانسانية تستطيع أن تقول إنها : « بدأت مرحلة الأصالة الحقة ، الأصالة المتجددة » في مجال التقدم العلمي وانها قد انطلقت من منطلق أصيل هو عقيدتها وقيمها ومضامينها وذاتيتها التي تقوم أساساً على التوحيد والإيمان والاخلاق .

هذه المقومات المتجددة ــ ولا أقول الجديدة ــ التي تقوم أساساً لبناء « وحدة الفكر » كمقدمة لوحدة شاملة ، هي في ذاتها القومــات

الأساسية التي قام عليها هذا الفكر العربي الإسلامي منذ فجر وجوده •

ولقد عاشت أمتنا فترة طويلة تواجه فكراً وافداً ، تجعله أسلوبها في الحياة ، ثم لا تلبث أن تجده قد أخفق في أن يحقق لها ما تتطلع إليه ، فقد كان كله مشوباً بروح الاستعمار أو الوثنية أو متعارضاً مع طوابع هذه الأمة ومزاجها النفسي الذي صاغه القرآن منذ أربعة عشر قرنا على أساس التوحيد الخالص •

ومن هنا بدأت دعوة التبصرة الى خطر المتابعة والولاء ، ولقد تكونت لدينا بمرور الأيام مناعة وقدرة على الامتصاص والاقتباس دون أن نخضع أو نتحول ، فقد كانت مفاهيمنا الأساسية واضحة وقائمة ، ويقظة تغربل وتبلور وتنفي الزيف وتقبل الصحيح ، ولكنها لاتذروه ، بل تسيغه ، وتحوله في معدتها إلى شيء مهضوم من جنس ذاتها •

ولقد عرف فكرنا منذ مطالع فجر الإسلام كل معالم الحرية والعدل الاجتماعي والمساواة ، والأخوة الإنسانية ، وعرف الأخلاق والإيمان والتوحيد ، ورسم منهجاً للمجتمع وللانسان في مختلف علاقاته بالله والكون والحياة وفي علاقة الانسان بالمجتمع على نحو مرن حكيم مليء بالسماحة واليسر بالإضافة الى موقفه من حرية الفكر حيث لا إكراه في الدين ، وحيث لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وهو في هذا قريب من الفطرة ملتمس طوابع الانسان ودوافعه مهذب لها ومتسام وواضع لها الحواجز التي تحول بينها وبين الجمود والتهور وبين الترف والزهادة ، في توسط وتناسق وتكامل ، فكان بهذه المرونة والآفاق الواسعة قادراً على الحياة في مختلف البيئات والعصور ، مرناً على الأخذ والعطاء ، يحمل طابع الإيجابية والتقدم والحرية في مختلف أبعاده وتحركاته ، حيث لامصادمة بين الديني والدنيوي ، أو بين العقل والقلب ، أو بين المادة والروح ، فهو أشبه بالمجرى المتدفق حيث يتصل أوله بآخره في طريقه إلى

حتميته الأصيلة وهي تحرير الإنسان من ظلم الانسان وربط الانسان بالله، وتسيده في الكون تحت حكم الله .

ولقد استطاع الفكر العربي الإسلامي أن يبلور هـذه المفاهيم ، فيبدو واضح الملامح ، والخصائص ، والتصور والذاتية ، إزاء الفلسفات والمناهج والدعوات المختلفة (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

وهذا هو سر ما يواجه به الاسلام وفكـره من حملات التغريب والغزو الثقافي ومجادلات الاستعمار والصهيونية التي تستهدف تزييف مقوماته ، ومحاصرته واحتواءه بالفلسفات والمذاهب والدعـوات التي تختلف مع جوهره وطابعه ومنطلقه الذي يحمل السر الحقيقي للصمود والنصر والترياق الأصيل للعزة والقوة ، والذي مهما التمس المسلمون من أساليب ومناهج فلن يجدوا سبيلا للنصر والصمود والحياة إلا في ظـل مقوماتهم التي صاغت شخصيتهم ووجودهـم ، فأصبحت مرتبطة بهـا ارتباطاً عضوياً ومتصلة بها اتصالا جذرياً لا سبيل الى انفصامه .

وهذا السر هو الحقيقة الكبرى التي اهتدى إليها العرب والمسلمون منذ وقعت نكسة ١٩٦٧ التي هي اليوم ــ بهذا الفهم وبهذا الاتجاه ــ : « المنطلق الحقيقي للطريق الصحيح » .

طريق المواجهة الصامدة للغزوة الصهيونية على مداهـا الطويل ، هذا الطريق عنوانه : « المعرفـة الذاتية والتماس الأصالة » واستئناف الجهاد من نقطة الضوء القرآنية الإسلامية الحقيقية ألا وهي : الشريعة الاسلامية مصدر القانون والاجتماع والفكر جميعاً ، وذلك هو النص الذي صاغه دستور اتحاد الجمهوريات العربية منطلقاً إلى وحدة الفكر ثم الى الوحدة الكبرى .

المعادلة الإسلامية

الإسلام منهج فكر أصيل : في ضوئه يسير المسلم ، ويحاكم الأمور ، ويصدر وجهة نظره في كل أمر ، هذا المنهج يكون قائماً دائماً في كل عقل وقلب وعلى ضوئه وفي نوره ، ومن خلال قيمه وأصوله وأصالته نستطيع أن نفحص كل ما يقدم لنا ، أو يعرض علينا ، فنحكم له أو عليه ، وقد جاءت هذه القيم المؤصلة ، والقواعد الأصيلة نبراساً لأمة لا تكون أبداً ريشة في مهب رياح المطامع ، ولا تكون ذاهبة مع الأهواء ، ولا بد أن تكون هذه الركائز واضحة تماما أمام شبابنا المسلم المثقف حتى لا تكون كتابات غيرهم من خصوم هذه الأمة لنا مرجعاً ، أو لفكرنا مصدراً • فما هي إذن هذه الركائز التي نحيل دائماً عليها :

١ ــ في مقدمة ذلك ولب الأمر وملاكه : « التوحيد » بمعنى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، والإيمان برسالة جميع الأنبياء والرسل والملائكة والكتب ، والإقرار بوحدة البشرية ووحدة الدين ، ووحدة الأخلاق ، وثباتها ، والإيمان بحرية الفكر والعقيدة : (لا إكراه في الدين) ، وإقرار مسؤولية الإنسان ، والتزامه الأخلاقي ، فقد ناط الإسلام بكل إنسان تبعة عمله وتصرفاته ، وأقام حرية الاختيار ، وقرر أن الأصل في الإنسان الخير •

كذلك ، فإن الجهاد ذروة سنام الإسلام ، وأعلى مقرراته وفرائضه ، والإيمان بالآخرة هو حجر الزاوية في عمل الانسان واتجاهه ، ويرتبط الإيمان بالآخرة كما يرتبط بالبعث والجزاء ، وكما أقام الإسلام المسؤولية الفردية أقام الالتزام الأخلاقي •

٢ ـ كذلك جمع الإسلام بين الثبات والتغير فأقر « ثوابت » هي بمثابة الدعائم ، وسمح بالتغير والتحول من داخلها وفي إطارها ، وجعل الشريعة الإسلامية شريعة إنسانية عالمية صالحة لكل زمان ومكان ، وهي أصول عامة ذات قواعد كلية ، وإطار مرن .

وللمعرفة جناحان : روح وعقل ، وقد دعا الإسلام الى المطالبة بالبرهان والدليل ، ونهى عن تحكيم الهوى أو العصبية في الكشف عن الحقيقة ، وفتح باب الاجتهاد ، ودعا إلى عدم الانخداع بالأوهام والاغترار بالظنون ، وأنكر القول بغير دليل ، وقرر عدم كتمان العلم ، وأطلق حرية البحث ، ودعا الى التحرر من التبعية والتقليد ، وأقر مبدأ الأصالة .

٣ ـ كذلك فرق الإسلام بين العقائد والمعارف ، وجعل العقائد خاصة ، وجعل المعارف عامة ، وفرق بين الأساسي والعارض ، وفرق بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية التي قد تكون أحياناً من لغو القول ، ودعا إلى النظر لما يقال لا إلى من قال ، ودعا إلى تكامل جوانب الفكر وفرق بين مقاييس العلوم المادية ومقاييس العلوم الانسانية ، كالنفس والأخلاق والانسان .

٤ ـ كذلك أقام الإسلام أصول الأخوة العالمية ، وهدم العبودية، وألغى فوارق اللون واللغة والجنس وجعل الفاصل الحقيقي هو العمل والتقوى ، واعترف بالرغائب البشرية ، وأباحها في إطار الضوابط الشرعية والأخلاقية حماية للكيان البشري من التدمير والانحلال ، ولم يكلف النفس إلا وسعها ، وقبل الاضطرار ، وأقر مبدأ المغفرة والعفو .

٥ ـ وأقام الإسلام قوانين المجتمعات والحضارات ، وأعلن أن للوجود الإنساني سنناً وقوانين ، وللطبيعة سنناً وقوانين ، لا تتبدل ولا تتغير ، وأن هذه تحكم الأمم وتلك تحكم الكون .

٦ ـ وأعلن أن التدين جزء من الطبيعة البشرية ، فلا يستطيع الانسان أن يعيش بغير دين ، وقد عجزت الايدلوجيات والمذاهب البشرية المختلفة أن تقدم له بديلا عن الدين يشفي روحه ، ويملأ حياته •

ولقد حررت الأديان الإنسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد وعلمته أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة •

٧ ـ وقرر الإسلام أن يكون عمل الإنسان من أجل الله ، ولحساب الله ، وأن يكون العمل لله بالوسائل التي أرادها الله ، وفي الحدود التي حددها ، وفي الإطار الذي قرره ، وعلى الطريق الذي سار عليه الأبرار والمجاهدون والمخلصون والصادقون في كل زمان • وعلينا أن نؤمن بقوة خالقة عليا من وراء المقاصد ، وأن الانسان مستخلف في الأرض ومسؤول وموقوف للحساب والجزاء •

٨ ـ ومن أبرز دعائم فكرنا وعقيدتنا : المطابقة بين الكلمة والسلوك : ذلك الارتباط العضوي بين العقيدة والعمل ، وقد أقام الإسلام قاعدة التوازن بين مختلف القوى في الإنسان : بين الروح والجسد ، والعقل والقلب ، ورفض التطرف مثلاً في الإباحية والرهبانية والترف والحرمان ، فحال بذلك دون خطري الكبت والانحلال ، فهو لايقر المادية الخالصة ولا الروحية المطلقة ، ويجمع بينهما في تناسق وتوازن من حيث هما متصلان بالانسان نفسه • كذلك يوازن بينه كفرد وبينه كعضو في المجتمع ، فالفرد جزء من المجتمع ، والمجتمع هو كل الأفراد • وبذلك تفادى الإسلام انحرافات الشطط والتطرف • وقضى على ما يسمى بالصراع ، أو التناقض أو الضياع ، وحفظ للإنسان وجوده بعيداً عن الانهيار والتدمير الذي يفرضه الانطلاق أو الجمود والتحجر الذي يفرضه الكبت والزهادة المطلقة •

وأعلن أن الرابطة أكيدة بين كل معطيات الحياة وبين الأخلاق ،

فأخلاقية الحياة من أكبر أسس الاسلام ، والتقوى قمة الأخلاق الاسلامية، وهي تحمل معنى الكظم والامتناع والارتفاع عن السيئات والدنايا .

٩ ــ أقر الاسلام مفهوم « التقدم » على أنه تقدم جامع : مادي ومعنوي معاً ، وليس تقدماً مادياً خالصاً ، وقرر الإسلام تضامن المجتمع في المسؤولية عن كل أفراده ، واستيعاب الضعفاء والفقراء ، وأقام العدل الاجتماعي على أساس التضامن والمساواة والأخوة . وفي الإسلام يلتقي الدين بالعلم ، والإسلام هو الذي دفع المسلمين الى الخروج عن دائرة المنهج اليوناني القياسي إلى إنشاء منهج التجريب ، فأنشأ المسلمون « المنهج العلمي التجريبي » . وقد دعا الإسلام إلى النظر في الكون والتأمل في الكائنات ، ومعرفة أسرار الوجود ، وجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وحث على العناية بتنمية العقل الإنساني ، وهو العلم على إطلاقه : علم الدنيا وعلم الدين .

كذلك أطلق الإسلام حرية البحث ، وحث على الاجتهاد ، وقرر أن للمجتهد أجراً إذا أخطأ وأجرين إذا أصاب .

١٠ ــ وأقام الإسلام الفطرة ، ودعا إلى نقائها ، وشدد بالنهي عن إفسادها بالتعاليم الضارة ، دعا الى التحري عن الحق ، وإلى أن يغير الباحث رأيه ، ولا يصر عليه إذا ظهر له وجه الصواب ، ولا يأنف المسلم من أن يأخذ الحقيقة ممن يأتيه بها ولو كان مخالفاً له في دينه ولغته ، وألا يتعصب لرأي تعصباً يحول بينه وبين النظر فيما عسى أن يكون فيه من خطأ ، كذلك دعا الإسلام إلى الإنصاف من النفس ، وإقرار الحق بالنسبة للقريب والبعيد ، العدو والصديق على السواء .

ومن هذا كله يمكن أن نستخلص مفهوم المعادلة الإسلامية : هذه المعادلة التي تحقق بناء المجتمع الناهض ، وتحقق النصر الدائم ، وتمكن لأمتنا في الأرض . تقوم هذه المعادلة على أساس التكامل بين الجانبين المادي والمعنوي ، الروح والمادة ، العقل والقلب ، الدنيا والآخرة .

قانون المفاصلة

في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي يأخذ الغزو الفكري المتمثل في إخراج المسلمين من قيمهم وأصول عقيدتهم وثقافتهم — يأخذ طابعاً جديداً في أساليبه ووسائله ومداخله بحيث يتمشى مع الظروف والأوضاع دون أن يخرج عن غايته **الأصيلة** ، ومنطلقه الأساسي ، ولكنه في كل ذلك مترابط حلقة بعد حلقة في هدف واحد ، هو إثارة الحرب ضد الإسلام وموالاة الغزو ، وخلق التيارات المناوئة حتى لا يجد المسلمون سبيلاً إلى الاندفاع إلى الأمام ، أو الإحساس بالطمأنينة والاستقرار ، بل ليكونوا دائماً في موقف الدفاع ، ورد الضربات المتلاحقة .

وإذا راجعنا تاريخ الإسلام منذ يومه الأول ، لاحظنا هذه الظاهرة واضحة قائمة ، وقد سجل القرآن الكريم المراحل الأولى لها ، وكشف عن الخطر الكامن المبيت ، ودعا المسلمين إلى اليقظة الدائمة والمواجهة الصامدة ، والوقوف في وجه الخطر بالإعداد (وأعدوا) وبالمصابرة (وصابروا) وبالمرابطة (ورابطوا) وأشار كيف أن هناك محاولة دائمة يترقبها العدو في أن يغفل المسلمون عن أسلحتهم وأمتعتهم ، فيميلون عليهم ميلة واحدة .

وعرض القرآن في وضوح قانون « المفاصلة » واضحاً صريحاً ، ودعا إليه المسلمين ، وكشف عن ضرورة تمسكهم بذاتيتهم وقيمهم ومعنوياتهم في حشد ضخم من العوامل التي توضح علامات الأمة القرآنية الإسلامية المحمدية التي تحمل بحق أمانة الاستخلاف في الأرض

مستمسكة بالقرآن لا تلتمس الهدى في غيره ، ولا تصدر إلا منه ، ولا تتصرف في أمر دون أن تعرضه عليه .

غير أن المسلمين لم يلبثوا أن غفلوا عن قانون المفاصلة ، ووقفوا من أعداء دينهم موقفاً بعيداً عن الحذر والحيطة والمرابطة ، فمال عليهم عدوهم ميلة واحدة .

فكان الغزو الفكري مقدمة للغزو العسكري وتدعيماً لـه ، وهو غزو التمس على مختلف مراحل التاريخ الإسلامي معارضة التوحيـد والأخلاق ، والإيمان بالجزاء والآخرة على صور مختلفـة من المذاهب والدعوات بين إلحادية وإباحية ومادية .

وقد صاحبت هذه التيارات تاريخياً منذ عهـد قديم ، وتنبه لهـا النابهون من رجا ل اليقظة ، ومصححي المفاهيم ، ومحرري القيم الذين عاشوا حياتهم في سبيل غاية واحدة ، هـي أن لا يسقط المسلمون تحت سلطان الاحتواء الخارجي ، والفكر الوافد أياً كان لونه ومصدره .

ولا ريب أن عملية الغزو الدائم للإسلام ولعالم الإسلام كانت هي أساس كل غزو عسكري ، أو سياسي ، وكان التحرر منها هو مصـدر القـوة التي ترد الغزو العسكري والسياسي ، وتحـرر منه الأمـم والأوطان .

كما كشف التاريخ عن أن أية محاولة للتحرر من الغزو السياسي والعسكري عن طريق القوة المادية وحدها لا يكفي ، ولا يحقق الغاية ، ذلك لأن مصدر الغزو كان فكرياً ، ومصدر التحرر منه لا بد أن يكون فكريا كذلك .

ولقد كان الغزاة على مدى التاريخ الإسلامي يعلمون القوة الذاتية والمعنوية والنفسية التي صنعها الإسلام في نفوس أبنائه ، وصاغها فـي

قلوبهم وأفئدتهم ، وكانوا يؤمنون بأنه لا سبيل إلى هزيمة المسلمين ، أو دحرهم إلا بالسيطرة عليهم (نفسياً وعقلياً وروحيا) أولا ، ثم تتم السيطرة عليهم بعد ذلك في كل ميدان •

كذلك كانت حركات الغزو الثلاث التي اجتاحت الإسلام في القرن الخامس والسادس والسابع الهجري . ممثلة في التتار والصليبيين في المشرق ، والفرنجة في المغرب •

إن دراسة هذه الحركات تكشف عن هذا المدخل الطبيعي ، مدخل الغزو الثقافي الفكري الذي يعمل على اجتياح (أصالة) الفكر الاسلامي وجذوره الأصيلة المتمثلة في التوحيد والأخلاقية والإيمان بالجزاء والآخرة •

وإن هذه الحركات إنما جاءت بعد أن أخذت روح الشعوبية والباطنية والفلسفات اليونانية والفارسية والهندية في الزحف على الفكر الإسلامي الأصيل ، وضربه في الصميم بعد أن تكونت قاعدته الصلبة متمثلة في مذهب أهل السنة والجماعة الذي صهر الفرق والحركات الفكرية كلها ، وشكل منها مفهوماً واحداً عميقا •

هنالك بدأت تلك الدعوات في الداخل تقودها قوى خارجية تحاول هدم الإسلام متخذة لبوس العلم تارة ، وحرية الفكر تارة ، والطرافة الساخرة تارات . فلما اهتزت القيم الداخلية سهل ضرب المجتمع الإسلامي في بغداد بالتتار ، وفي الشام بالصليبيين ، وفي الأندلس والمغرب بالفرنجة •

إن دراسة هذه الحركة تعيننا كثيراً على فهم حركة الغزو ، والمماثلة التي تواجهها الآن لأنها استمرار لها ، وامتداد منها •

لقد تصدت هذه الحركة لمختلف فروع الفكر الإسلامي ، فحاولت

التأثير فيه بالتزييف . أو إثارة الشبهات ، أو تغليب عنصر على عنصر .

لقد تمثلت هذه الحركة في دعوات أطلق عليها أسماء مختلفة متعددة، منها : الراوندية والخرمية والمقنعة ، والباطنية والقرامطة ، والزنادقة ، والملاحدة، فكل هذه الأسماء أطلقت على حلقاتها المختلفة التي تجمعت وراء هدف واحد . هو هدم الإسلام بمختلف الوسائل . منها : إثارة الشبهات وإثارة البلبلة والاضطراب .

وقد استمد هذا الفكر وجوده وقيمه ومعالمه من مفاهيم الأديان القديمة : المجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وأعادت صياغة هذا الفكر مخلوطاً بالإسلام . أو متحركا في أطره العامة . وتعرضت هذه الدعوات الوافدة إلى التوحيد ، وحاولت أن تدس التعدد والشرك والوثنية ، وعبادة النار وغير ذلك ، كما عمدت إلى إثارة مفاهيم الإباحة الكاملة للأموال والنساء ، وإسقاط الفرائض الدينية .

وكانت أخطر الدعوات : دعوى القول بأن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن البواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر ، وكانت المحاولة ترمي إلى قطع الصلة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها للوصول إلى القول بأن الظواهر هي تكليفات الشرع ، وأن من ارتقى إلى علم الباطن ، سقط عنه التكليف .

وقد جرى هذا الزيف في مجالات كثيرة في مجال إعلاء العقل على النحو الذي وصل إليه المعتزلة متخطين مفهوم الإسلام الجامع بين العقل والقلب ، وفي مجال إعلاء المفهوم الصادر عن القلب والوجدان والحدس . وهو مادعت إليه بعض الفرق الصوفية الفلسفية ، وهو أيضاً مغاير ومناقض لمفهوم الإسلام منحرف عنه . وفيما بين هذين كانت الباطنية تدعو إلى الإباحية والتحلل من الفروض والتكاليف والحدود جميعاً .

وقد تمثلت ثمار هذه الدعوات في حركات عرفها تاريخ الإسلام في مقدمتها القرامطة والزنج ، وقد تبين عمق الرابطة بين هـذه الحركات ، وبين الدول المعادية للإسلام ، وانكشفت خطوط المؤامرة السياسية التي تستهدف هدم الدولة الاسلامية .

يقول الشهرستاني عن حركة القرامطة : إنه كانت لهم دعوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان . وقال البغدادي : إن الذين وضعـوا أساس دين الباطنية كانوا أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولا نجد على ظهر الأرض مجوسياً إلا وهو موال لهم .

وكانت إلى جوار هذا كله طائفة الزنادقة : الذين تمثلت في إثارة الشك والريبة والدعوة إلى الخمر والشهوات الحسية والخلاعة كما ظهرت عصبة المجان (حماد عجرد) حماد الراوية ، حمـاد بن الزبرقان (وكانوا دعاة إشاعة الفساد الخلقي) وقد أثاروا الجدل حول المحرمات المقطوع بها ، وذلك حتى يفتحوا ثغرات الشك والريبة أمام ضعاف النفوس ، وعمدوا إلى تفسير أحكام الفقه بما يوافق هذه الأهواء ، ودسوا الأحكام الزائفة وخاصة في المعاملات والحيل والتأويل ، وظهر منهم من هاجم الأديان كلها للنيل من الإسلام من طريق غير مباشر ، وأنكر بعضهم الوحي ، واستهدفوا هدم مكانة الأنبياء ورسالاتهم ، ودعا بعضهم إلى زيف القول بأن العقل هو الوحي ، وأنه لا إيمان إلا بما يراه الإنسان ويعاينه .

ولا ريب أن هذه الصورة القديمة تكاد تكون شبيهة بصور تجددت في العصور الأخيرة كأنما كانت تنقل منها نقلاً كاملاً .

وقد استهدف ذلك في الماضي ــ كما استهدف في العصر الحديث ــ « إعداد طبقة من الدعاة الحاقدين وتزويدهم بالمعلومات العامة في شتى المعارف المعنوية دون أن يتعمقوا فيها ، حتى تؤدي بهم التربية الناقصـة

إلى الغرور مع التبريز في الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع الى موضوع مبالغة في خداع الناس واتهامهم بالعلم الغزير » .

ولكن الفكر الإسلامي الأصيل لم يقف أمام ذلك كله صامتاً أو مستسلماً ، ولكنه ذهب في المواجهة الى أقصى مدى .

فظهر في مواجهة التحلل والانحراف : الحسن البصري ، وفي الرد على الزنادقة : العلاف والنظام ، وفي التحرر من التقليد : ابن حزم ، وفي الرد على قضية خلق القرآن أحمد بن حنبل ، وفي الرد على الشعوبية : الجاحظ ، وفي الرد على انحراف مفهوم التوحيد : الأشعري ، وفي مقاومة انحراف التصوف : ابن تيمية .

وبذلك صحح الإسلام مفاهيمه ، وأقام حجته إزاء هذه الحملة الضخمة التي تمثلت في طوفان الدعوات والمذاهب المضادة ، وبذلك استجاب مفكرو الاسلام لقانون المفاصلة الذي شرعه الله للمسلمين منذ اليوم الأول لدعوتهم .

تكامل الفكر الإسلامي

إن الخطر كل الخطر هو في العجز عن تأصيل المصادر التي يقرؤها المتفهمون للإسلام ، والقاعدة الأساسية هي أن تحسن النية أولا ، وأن تكون موجهة للعلم الخالص ، ولقبول الحق إذا تبين ، أما أن تكون النية هي امتحان النصوص بروح الاستعلاء ، أو الاحتقار ، أو المقصد الكامن في النوايا الذي يبحث عن نصوص يؤكد بها الشبهات والشكوك ، أو الاتجاه نحو مصادر غير أصيلة .. كل هــذا من شأنه أن يكشف زيف الدعوى التي تحاول أن تقترب من الإسلام ، وهي لا تتم إلا على محاولة تآمر تلبس ثوبا زائفا من العلم ومنهجيته التي لا تتحرر من الأهواء .

ومثال ذلك كثير من الكتاب الذين كتبوا عن التراث ، وعن التفسير ، وعن التاريخ ، وغاية هؤلاء هي مراجعة كتب الخرافات والخوارق التي كتبت في عصور الضعف ، ومنها يحاولون وصف العقلية الاسلامية بأنها عقلية دراويش بالوراثة ، ولكن ينقض هذا أن هناك مجموعة أخرى من الكتب تحاول أن تصور الفكر الاسلامي بأنه عقلاني صرف ، أو فلسفي خالص ، أو باطني غنوصي ممن قرأ كتب الباطنية أو الشعوبية .

كل هذا زيف في مجال البحث ، وعجز عن الاستيعاب ، وقصور عن الحقيقة التي تحتاج معرفتها الى الوصول إلى أبعاد الفكر الإسلامي وتطوراته في مراحل مختلفة انتهت بتشكله في صورته الكاملة . ولقد حاول المستشرقون وأتباعهم الوقوف عند الفرق الضالة ، وعند الكتب المشبوهة ، ومنها يحاولون أن يلتقطوا كلمات ، ثم يعملون على وضعها في

صورة ظواهر . ويشكلون منها نتائج غير صحيحة . ونحن في مجـال الأصالة والبحث المنصف نعتمد على دعامات ثلاث :

أولا ــ إن القرآن هو مصدر العلوم والفكر والمناهج ، وإن كـل مايتعارض معه ، فهو ليس فكراً إسلامياً أصلاً ، وان منهج الإسلام تكامل قبل أن يختار رسول الله الرفيق الأعلى ومنذ أنزلت (اليوم أكملت لكم دينكم) لم يدخل عليه أي إضافة أو تغيير . هذا من ناحية الأصـول الثابتـة .

ثانيا ــ إن الشريعة الإسلامية غير الفقه . وإن العقيدة الاسلامية غير التاريـخ .

ثالثا ــ إن هناك ثوابت ومتغيرات ، وان هناك إطاراً ثابتاً ، وتجري الحركة من داخله ، وان القيم الثابتة تتعلق بالعقائد والأخلاق ، ولا تتغير مع الزمن ، أما أسلوب التطبيق فيتغير مع الزمن واختـلاف البيئات . كذلك علينا أن ننظر إلى مختلف النزعات الإسلامية : على أنها مراحـل زمنية للفكر تطور من خلالها حتى استقر على صورته الكاملة بعـد أن تجاوز الفلسفات واستوعب عصـارة ما في الفكر البشري كلـه مـن أساليب ، ذلك أن ترجمة الفكر الوافد (اليوناني ــ الفارسي ــ الهندي) قد طرح في أفق الفكر الإسلامي نظريات جديدة تمثلت في عصارات الفكر البشري التي حاولت أن تفرض نفسها ..

أولا ــ في محاولـة تصوير الإسلام بأنه فكر عقلاني . وهـو مادعا إليه المعتزلة .

ثانيا ــ في محاولـة تصوير الإسلام بأنه فكر حدسي وجداني ، وهو ما دعا إليه التصوف الفلسفي .

ثالثا — في محاولة تصوير الإسلام بأنه فكر فلسفي ، وهو ما دعا إليه الكندي والفارابي •

« كانت مختلف النظرات والمذاهب والأفكار — التي تجري في مجرى مفهوم الإسلام وتلتمس مصادرها من القرآن — بمثابة محاولات جزئية تحاول أن تشق طريقها منفصلة عن مفهوم التكامل والوسطية • ثم لا تلبث أن تهذب على أيدي من يحملها من بعد ، ويعيدها مرة أخرى إلى المجرى الواسع الذي تصب فيه وهو مجرى « السلف من أهل السنة والجماعة » •

فالمعتزلة بدأت أساساً نابعة من مفهوم قائم على المصدر الأساسي وهو القرآن واستهدفت « الدفاع عن الإسلام » في مواجهة حملات الأديان والفلسفات ، ثم انحرفت ، فجاء الأشعري مصححاً لها •

وبالنسبة للشريعة والفقه ظهر مذهبان هما : مذهب أهل الحديث ، ومذهب أهل الرأي ، حتى جاء الشافعي ، فدمج الحديث والرأي ، وأنشأ (علم أصول الفقه) •

وعندما انحرف علم الكلام وغرق في الفلسفة اليونانية كان لابد أن يتحرر ، فكانت صيحة الأشعري ، ثم وقفة ابن حنبل الصامدة التي رجحت كفة السنة ، وعندما غلب التقليد كانت صيحة ابن حزم دعوة الى الاتصال بالمجرى الكبير ، ومن قبل كانت حركة تحقيق الحديث اتصالاً بمجرى السنة وحماية له من الانحراف إلى الشبهات الشعوبية بإضافاتهم وتزييفهم •

وعندما تصارعت الفلسفة الإلهية مع العقيدة الإسلامية وغلبت الباطنية لتنحرف بالفكر الإسلامي انبعثت صيحة الغزالي لترد مفهوم الفكر الاسلامي الى مجرى أهل السنة والجماعة ، فاستطاع الغزالي أن

يقضي على صراع الفقهاء والصوفية ، وأن يصب الفقه والتصوف في إناء واحد .

فلما انحرف التصوف عن مفهومه ، وغابت نظرة وحدة الوجود والحلول والاتحاد محاولة تدمير مفهوم التوحيد ، كان ابن تيمية هو صاحب الدعوة إلى تصحيح المفاهيم اتجاهاً إلى مفهوم السلف والجماعة.

وهكذا عجزت الفلسفة اليونانية بمختلف مذاهب العقلانية ، ووحدة الوجود أن تغزو الفكر الإسلامي وتسيطر عليه إزاء قدرة الفكر الإسلامي وسلامة جوهره حتى سقطت هذه الدعوات جميعاً ، واتجه الفكر الإسلامي في قوة إلى بناء منهج التجريب ومنهج المعرفة الجامع بين العقل والقلب بناء على دعوة القرآن .

وقد تمثل مفهوم أهل السنة والجماعة في ثلاثة مظاهر :

* الوسطية في مواجهة الانحراف .
* التكامل في مواجهة التجزئة .
* الحركة في مواجهة الجمود .

ونستطيع من خلال هذا الاستعراض الموجز إلى إقرار نظرة شاملة تقوم على حقيقة أساسية : هي أنه ليس هناك مذاهب أو فرق مستقلة ، وإنما هي مواقف ووجهات نظر ارتبطت الى حد كبير بتحديات عصرها وبيئتها ، وقد كانت هذه النظرات جزئية وجانبية . وكانت في إبانها رداً لعادية شبهة، أو استكمالا لجانب غامض.. غير أن هذه النظرات لم تلبث أن تمثلت في حركات ومذاهب ، ثم حاولت أن تستقل بنفسها ، وأن تجد لها حقاً في السيطرة على الجوانب الأخرى ، ومن هنا كان تخلفها عن إطار التكامل ، فلم تكن عقليات الكلام أو فلسفات الفلاسفة ، أو روحانيات

الصوفية ، أو نظرات الأدباء ، أو مناهـج العلماء التجريبيين ممكنة أن ينفصل أحدها ويستعلي كأنه وحده مفهوم الإسلام •

ولذلك كان لا بد أن تنصب الروافد كلها في بوتقة واحدة ،وتنصهر فيها لتشكل مفهوم الإسلام الجامع • وأمكن أن تتعادل كفتـا الميزان ، وتتكامل في توازن دون أن يكون هناك صراع ما • وتلك مزية الإسلام التي تختلف عن طابـع الفكر الغربي القائم على الانشطارية ، والفصـل بين القيم •

وصدق الشعبي في عبارته الحكيمة : أحب أهل بيت النبي ولا تكن (رافضيا) واعمل بالقرآن ولا تكن (حروريا) ، واعلم أن ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، ولا تكن (قدريا) وقف عند الشبهات ولا تكن (مرجئا) •

نحن والعالم

نحن العرب والمسلمين في هذه الأمة الوسطى بين المشرق والمغرب ، وفي أعقاب أحداث ضخام ، وفي مواجهة أخطار كبرى : هي الصهيونية العالمية والاستعمار والتغريب ، ومن خلال محاولات ضخمة تجري الآن في مجال الفكر حتى نضع أنفسنا في الموقف المناسب للتحديات التي تواجهنا : ما هو موقفنا ؟ :

إن هناك تلك الأصوات التي ما تزال تدعونا إلى أن نخرج من قيمنا ومقوماتنا وتاريخنا ، ولغتنا ، لنكون بذلك أهلاً لمواجهة الأخطار . وما تزال هذه الصيحة تنسب إلى الإسلام وإلى قيمنا كل عوامل الهزيمة ، أو الضعف ، أو التخلف الذي يواجهه المسلمون والعرب اليوم . وترى هذه الدعوة أن علينا أن نلقي بأنفسنا في أتون العالمية أو الأممية ، فنصبح « ذوباً » لا لون له ولا طعم ولا رائحة .

ومن عجب أن يصدق هؤلاء الدعاة أن ذلك يمكن أن يحدث حتى لو أراده المخذلون والغواة ، أو يغرى به الدعاة والمغربون ، وهو دليل أكبر دليل على هجر هؤلاء الخصوم — في ظل أحقادهم التي تتسلط بالهوى ، وتحجب العقل والحقيقة — على الغفلة عن فهم أمة المسلمين والعرب ، فهماً حقيقياً قائماً على استقراء أصول الإسلام ، أو وقائع التاريخ .

ذلك أن أمة صاغها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً في نطاق إطار صياغته الأديان السماوية المنزلة ، وصبغت أهله منذ أرسل الله إبراهيم أبا الأنبياء

عليه السلام ، أرسله بالحنيفية السمحة التي صنعت هذا الروح الإسلامي القائم على التوحيد والإنسانية والإيمان بالغيب ، وإقامة الأخلاق برهاناً لكل أمور المجتمع والحياة . هذا الروح الذي بلوره الإسلام في صورته الحاسمة المثلى ، ظاهراً على الدين كله من ناحية ومهيمنا عليه من ناحية أخرى . هذه الأمة حاملة الرسالة إلى العالمين ، وهذه الرسالة دعوة الحق المبين من العسير أن تنطوي أو ينطوي أهلها في حضارة عالمية ، أو ثقافة عالمية ، أو في إطار أي فكر أو منهج يتقاصر عن منهجها إنسانية وعدلا وسلاماً وإيماناً بالله الواحد .

إنه من العسير أن يتصور أكثر خصوم الإسلام والعرب حقداً ان هذه الصفحة سوف تطوى أو تزول . وقد واجهت من الأحداث في مسيرتها أخطر مما تواجه الآن ، وقد ثبتت على الحق الذي تؤمن به ، وقاومت وصدقت الله ، وقدمت شهداءها وأبرارها ، وتقدم فرسانها ليحققوا حتمية انتصار الحق والتوحيد . إن الأعاصير التي تواجه المسلمين والعرب اليوم إنما تواجههم من خلال عجزهم عن امتلاك إرادتهم ، ومعرفة طريقهم ، وهم إذا عرفوا طريقهم « وهو طريق واحد هو طريق القرآن » . فإن قدرتهم على التماسه وإقامته هو أخطر ما يواجهون اليوم .

ذلك أن النفوذ الأجنبي قد أخرجهم من دائرة فكرهم منذ مائة عام إلى دائرة فكر مقفلة صماء ليست مفتوحة على أي ضياء ، إنهم أشبه بالقافلة التائهة في الصحراء ، ولو كانت هذه الدائرة الفكرية التي فرضها عليهم خصومهم تستطيع أن تصل بهم إلى أن يكونوا غربيين ، لكان في ذلك ضوء من النور يوحي بأنهم سوف يكونون شيئاً ، ولكن هذه الدائرة قد رسخت على نحو يفقد الإنسان كل قيم الإنسان ، بل العلم والحضارة والحق .

ذلك أن النفوذ الأجنبي لم يكن يهدينا الى منطق الحضارة الذي

وصل إليه من علم ، ونحن الذين أعطيناه مفاتيح العلوم ، وأهديناه المنهج العلمي التجريبي ، ولكن الآن يحبس عنا هــذا العلم ، ويجعله سراً من أسراره • وحين يهدينا ، فإنما يقدم لنا ذلك الركام من المذاهب والدعوات والفلسفات والنحل المتضاربة التي تقوم على الوثنية فكراً والمادية عملاً والتي لا تحقق إلا مزيداً من الدوران حول الدائرة الصماء •

ومن المؤسف أننا عرفنا الحضارة الغربية في أشد أوقاتها اضطراباً وعجزاً ، وفي أشد حالات الأزمة والتحلل والتفسخ ، وأن الغرب قد طرح علينا قضاياه في مراحل الاضطراب ، ولم يهدنا الى انتصاراته التي تحقق التقدم ، وذلك وفق منهج مرسوم ومخطط واضح ، هو أن يبقينا في دائرة التخلف ، وفي دائرة الحاجة إليه ، وفي الدائرة الصماء تدور ، ثم تدور •

إن الغرب اليوم «بشقيه» وبشهادة علمائه وكتابه يمر بأقسى مراحل الأزمة : أزمة الإنسان الحديث ، وهي أزمة روحية وعقلية ونفسية، فقد عجز عطاء الحضارة عن أن يقدم له السعادة أو الهناء ، بل زادت شقاءً و غربة وتمزقاً ، ذلك لأنه انفصل عن عطاء النفس والروح والقلب واتجه إلى اللذات والتحلل والأهواء ، وأصبحت الأيدلوجية التلمودية هــي القابضة على أنفاسه ، وهي التي تحتويه احتواءاً كاملا لتدفــع به إلى « امبراطورية الربا » ولتدمره تدميراً قبل أن تسيطر على العالم وفــق ماجاء في البروتوكولات •

وهناك الى ذلك حقيقتان مظلمتان بالنسبة لحضارة الغرب تمهــد للافول السريع والقريب بالاضافة الى التحلل الملكي والفساد الاجتماعي• ذلك هو نقص المواليد ، ونضوب البطون ، وهذه ظاهــرة يواجههــا الغرب اليوم في اسى عميق في نفس الوقت الذي تتزايد فيه نسب المواليد في عالم العرب والاسلام وتتضاعف ، وتعمل القوى كلها علــى ضغط هذه النسب واعلاء تلك دون جدوى •

والحقيقة الاخرى هي ان اوربا تعتقد أن حضارتها لن تستمر أكثر من اربعين عاما . لان المواد الخام التي تعتمد عليها سوف تستهلك في هذه السنين . وبذلك تتوقف طاقتها . ويجرى البحث الآن عن تقدم تكنولوجي جديد يواجه هذا التحدي •

ذلك ان الاتجاه بالحضارة الى الترف والى المتعة والى الزينة قد استهلك كل المقدرات من الخامات التي كان يمكن ان تكفي العالم مئات السنين . وتلك ايضا هي مخططات اليهودية الصهيونية التي تقوم على عمليات الربا واغراق الاسواق بأدوات الترف •

ولا ريب ان المسلمين والعرب بالرغم من حجب ادوات القوم وأسرار العلم عنهم سوف يستطيعون ان يشقوا طريقهم الى المستقبل الذي ينتظرهم ليحملوا رسالتهم الى العالمين •

الباب السادس

مواجهة شبهات التغريب

لابد ان نصل الى عــدد مــن قضايا التغريب المثارة لنعرف موقف الاسلام منها ومن شبهات التغريب وفي مقدمتهـا : قصـــة روح العصر ، وقضايا التفسير المادي لتاريخ الاسلام ولحياة الرسول ، وما يرى الاسلام في مواجهة موجة العنف والجنس ، ثم نمضي فنستعرض ابرز الشبهات التي لا تستطيع ان تثبت امام اضواء الاسلام الباهرة ، وخاصة ما يتصل بزرع فكرة الياس والقنوط وما يتصل بانكار الوحي والنبوة ، وما يتصل بروح الغرب نفسه إزاء الاسلام ٠

مواجهة الشبهات

هناك تحديات كثيرة تواجه الفكر الاسلامي ازاء عشرات من مفاهيم القيم يختلف فيها الفكر الاسلامي عن الفكر الغربي •

أولا : أبرز هذه التحديات — فكرة الثبات والمتغيرات —

فالفكر الاسلامي يؤمن بالتحرك في دائرة من الثبات ، ولايقر نظرية التغير المطلق وفي الاسلام اشياء ثابتة لاتقبل التغير والتبديل **والتحول** ، وإنما **تظل** دائماً ثابتة : أهمها :

١ — العقيدة في الله وفي وحدانيته •

٢ — العقيدة في اليوم الآخر ، والايمان بحياة ثانية بعد الموت

٣ — العقيدة في المسؤولية الفردية ، والإرادة الحرة وما يستتبعه من ثواب وعقاب •

٤ — ثبات الاخلاق وشمولها وارتباطها بالقيم المختلفة وارتباطها بالانسان •

ثانيا : الفكر هو مصدر تغيير الانسان وتحويله وبنائه ، وليس العنصر أو الدم،وان العقيدة الاسلامية هي التي حولت هذه الشخصيات البارزة (ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وحمزة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم) هذه العقيدة التي اعادت صياغة هذه النفوس وهذه القلوب من جديد في ضوء التوحيد ، وهي التي أخرجتهم من شخصياتهم القديمة ، ويظهر ذلك جليا في موقف الخنساء قبل إسلامها ثم بعد أن أسلمت •

ثالثا : الترابط بين توحيد الله بالعبادة ، وبين قيـــام كرامـــة الانسان التي لا تخشى أحداً ، ولا شيئا غير الله تعالى ، فالايمان بالله وحده هو العامل الوحيد الذي يحرر الانسان من العبودية للانسان ، او لأي من المعبودات ، كالمال أو الحضارة أو أي سلطان كان ، فقد ابطل الاسلام عبادة غير الله من الاشخاص والاقوام والاشياء ، وكشف عن ان هذه العبادة فيها امتهان للعقل ومعارضة للفطرة .

رابعا : فساد الشبهة التي تقول : بان الروح والجسد متعارضان ، ولذلك فهما متصارعان ، وان النظرة العميقة القائمة على الفطرة الصافية تدحض ذلك وتنكره ، بل هما متكاملان يقيمان التوازن بين شطري الانسان ، وهما مرتبطان في الانسان في اتجاه واحد ، فليس الجســد سجنا للروح ، وليست الرغبات هدما لها .

لقد حرر الاسلام مفهوم الرغبات التي يطلبها الجسد والاشواق التي تطلبها الروح ، وربط بينهما وأقام قاعدة لقاء ثابتة ، فان كل رغبة من رغبات النفس يمكن ان تكون قربى الى الله مضافة الى اشـــواق الروح اذا وجهت في سبيل الله ، والتمس بها القوة على طاعته ، فكل رغبات الرجل مع المرأة ، ورغبات الطعام والملبس والنوم يمكن ان تكون كلها من استجابـات الروح اذا وهبت لله ، واذا ألم الانسان بمفاتيـــح الحقيقة في وجوده ، فهم أصل الرسالة التي يحملها والأمانة الموكولــة إليـــه .

إن الذين ذهبوا مع الروح إلى آخر المدى شقوا شقاءاً لاحد له ، فقد عزلوا انفسهم عن الحياة ، واعتكفوا في الصوامع ، فلم يقارنـــوا مجاهدات الدنيا ولا أزماتها التي هي جزء اصيل من رسالة الحيـــاة ، وإن الذين ذهبوا مع المادة والجسد الى آخر المدى ، أحسوا بالشقـاء

والتمزق والتشاؤم والشقوة والمرارة ، لانهم عزلوا أنفسهم عـن شطر التكوين الطبيعي للانسان •

خامسا : ان كل محاولة للخروج عن الفطرة انما يؤدي الى زلزلة الكيان البشري ، والفطرة هي سلك المزاوجة الطبيعية بين الاشياء ، واهمها بين الرجل والمرأة ، فالاسرة فطرة وهي مقدمة بناء كيان الامة . وجماع الامة فكر واحد ، مصدره الايمان ، والالتقاء على مباحـاتـه والامتناع عن محرماته والاقامة في حدود الضوابط والقيم والحدود التي أقامها الدين لحماية الانسان وحماية الجماعة •

ولذلك فان الدعوة التي تعمل على ان تجعل من كل انسان كيانا خاصا في فكره وتصرفه وعمله منفصلا عن القيم الاجتماعية الاساسية الجامعة ، هذه الدعوة التي هي احدى محاولات الفكر التلمودي لتمزيق الكيان الجامع ، واقامة الانسان في نهج مختلف ، حيث يمضي في كل طريق•ومن ثم تنحل عقدة الفكر الجامع للأمة والجماعة،وتحطم مقومات الاسرة والقيم الاخلاقية الضابطة لها •

ومن هنا فان دعوة كل انسان حر في أن يفعل ما يشاء ليست مـن فكر الإسلام ، وانما هي من دعوات التلمودية الممزقة لكيـان الامم الى عشرات من المذاهب والنحل •

ان الاسلام يحمل في مقدمة قيمه الجامعة الضابطة قيمة كبرى هي: الامر بالمعروف ،والنهي عن المنكر ، وان يخلص كل مسلم النصح لأخيه، فيرده عن الشر ، ويدله على الخير ، ويقيم معه رابطة الجماعة والوحدة والاخاء ثم ينشر ذلك على البشرية كلها •

سادسا : ان قدرة الانسان التي أتاحها له العلم الحديث في اكتشاف قوانين الاشياء لاتنفي وجود صاحب القوانين ومنشئها ، بل هي تستتبع

الاعتراف به ، ولذلك فان المسلمين يجب ان يؤمنوا بأن هذه القوانين وهي حقائق علمية من ورائها منشيء القوانين وصانعها الذي كشف عنها لعقل الانسان ، وانه وحده القادر على ان ينقض هذه القوانين .

سابعا : ان من اكبر الاخطاء التي يرددها أهل العصر الحديث ، ويجب ان نكون قادرين على ان لاتتابعهم فيها من قولهم : ان الانسان قد بلغ رشده ، وانه يستطيع أن يتصرف دون وصاية من رسالة أو دين أو وحي . أما الإنسان قدبلغ رشده فيهذا العصر ،فماهي علامات ذلك؟ هل هي القدرة المادية ؟ إن هذه القدرة المادية قد باعدت بين الانســان وبين معرفة المصادر والجذور ، وانها لم تهده الى ان يعرف اصل الوجود، بل لقد اقامت الفلسفــة المادية عداء مصطنعا بين الخالق والخلق ، لــم يعرفه العلم التجريبي الذي يقرر الآن ان وراء هذا الكون خالقا وعالما غيبياً خطيرا .

ثامنا : ان الذين يقولون : إن الانسان ظاهرة من الظواهر العامة يمكن محاكمته إلى قوانين المادة مخطئون ، وان الذين يحاولون محاكمة الانسان الى تجارب الحيوان مخطئون أيضا ، ذلك أن الانسان كيان آخر متميز عن المادة والحيوان ، به إضافة أخرى تجعل محاكمتــه أو دراسته على أساس هذه القوانين لايحقق الوصول الى فهم الحقيقة .

إن الانسان له قوانين خاصة يمكن أن يدرس على أساسها نتيجة للروح التي يزداد بها عقلاً وأمانة ومسؤولية،وقدرة على الحركةوالتعمير والاختراع عن سائر المخلوقات . ولقد تعجز الفلسفة المادية عن هذا الفهم وتقصر عنه ، ولكن منهجا صحيحا واحدا هو القادر على دراســةالانسان وفهمه بسطامحه وأشواقه ومطامعه فهماً صحيحا هو منهج القرآن .

تاسعا : ان ما تقدمه الدوائر الاستعمارية ومعاهد الارساليات ليس

صحيحا في جملته ، فهو مصبوغ بصبغة معينة يراد بها القضاء على القيم الأساسية للامة ، وإثارة الشبهات في حقائق العقيدة ، والفكر الاسلامي • ولقد سقط الكثيرون صرعى هذه الفلسفات والشبهات ، ثم تكشف من بعد مدى الخطر الذي وقعوا فيه، فعادوا يصححون موقفهم ، فعلينا ان نحترز من السقوط ، وان نتسلح باليقظة أصلاً ، فلا ننظر الى هذا الفكر إلا في حذر شديد ، ولا ريب أن الهدف من طرح هذه المفاهيم والشبهات هو إغراق العرب والمسلمين في دعوات متضاربة متعددة حتى لاتقوم لهم وحدة فكر جامعة ، وحتى يضيع منهم خطهم الأصيل بين عشرات الخطوط البراقة الضالة •

روح العصر في ضوء الإسلام

شاعت في السنوات الاخيرة كلمة ــ روح العصر ــ وربط بعض الكتاب بين الاسلام وبينها ، وترددت على ألسنة البعض كلمات عريضة عن موقف الاسلام من تحديات العصر ، ومدى استجابته لروح العصر ، واتصل هذا بالحديث عما أسموه تطور الاسلام أو تطـويـر الفكـر الاسلامي ، وخاصة فيما يتعلق باستثمار الأموال والفائـدة ، وموقف المرأة ، والاخلاق في المجتمع الصناعي .

ويعني هذا كله القول بأن أصول الشريعة الاسلامية لاتستطيع ان تواجه المجتمع في هذه المرحلة دون ان تعيد النظر في امور كثيرة في مقدمتها موقفها من الربا ، ومن الحدود ، ومن وظيفة المرأة في المجتمـع ، ومن القيم الاخلاقية الثابتة فيما يتعلق بالاختلاط والزواج والعرض والزي والزينـة .

وتطلق كلمة روح العصر كسلاح له خطره وبريقه في محاولـــة لخلق أسلوب من التأويل من شأنه أن يفسر النصوص الشرعية الثابتة تفسيراً يسوغ أوضاع المجتمعات العصرية القائمة ، ويقر وضعها القائم ، ومن هنا تأتي كلمة التطور والتطوير وهي كلمات ترتبط دائما بالمذاهب الفلسفية والايدلوجيات والاديان الارضية التي وضعها البشر في ظروف معينة ولبيئات معينة ، ومن ثم فهي لاتلبث أن تحتاج الى مزيد مـــن الملاءمة لهذه البيئات كلما تقادم بها الزمن .

والقضية في مجموعها منقولة من الفكر الغربي تماما ، وليس لها أصل في الفكر الاسلامي الذي يؤمن إيمانا صادقا بأن أصول الشريعة ثابتة ، وان التغيير والتطور لايكون الا في الفروع وفي المسائل التي لم يرد فيها نص ، والتي يعيش فيها المشرع المجتهد الحاضر على السابق في اطار الاصول الثابتة •

أما في الغرب ، فان الامر يختلف ، ذلك لأن الدين الغربي هو دين عقيدة وعبادة فحسب ، ولا صلة له بالمجتمع ، وليس فيه شريعة خاصة لها حدودها وعقوباتها ، والاخلاق فيها عبارة عن وصايا • ومن هنا ، فان من حق الفكر الغربي أن ينشيء له ايدلوجيات ومناهج حياة ، وان يطورها مع الازمان والبيئات ، وان يراعى فيها روح العصر وتحديات العصر • أما الاسلام فان أمره يختلف : ذلك انه ليس نظرية بشرية ، ولكنه منهج حياة كامل يربط العقيدة بالشريعة بالاخلاق في كل متناسق ، وهو وحي رباني المصدر انساني الطابع جاء موافقاً للفطرة وملتقياً مع النفس الإنسانية والعقل والعلم ، وقد صيغ صياغة محكمة في أصول عامة وأطر واسعة مرنة ، متقبلة لكل تطورات المجتمعات وتقدم الحضارات ، وهو في اصوله العامة الثابتة لايفرض أنموذجا معينا ولا صورة واحدة ، وانما يقرر الحقائق ، ويضع القواعد ، ويرسم الحدود ، ويرسي الضوابط بما يحفظ للانسان كيانه الفردي ، ويحفظ العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ويدعم نظام الاسرة • وهو في اصوله العامة لايقبل تغييراً ، بل يفرض على المجتمعات والحضارة أن تتحرك في اطاره ، وان توائم بينها وبينه ، ولما كانت الحضارة الغربية الحاضرة : هي حضارة غير اسلامية ، لانها قامت في جو غربي تحكمه ثقافات اليونان وقوانين الرومان ، واطار من المسيحية الغربية بتفسيراتها التي قدمها القديس بولس ، وليس أصولها الاصيلة التي أنزلت على السيد المسيح ، فانها

من اجل هذا قد صاغت مناهج حياتها التي وضعها الاسلام للامـــم والمجتمعات والحضارات . ومن ثم فان المجتمع الاسلامي اليوم حين تغزوه هذه الحضارة وتفرض عليه ، فانه يكون مضطرا الى ممارستهـا والتحرك من داخلها دون اعتناقها ، والايمان بها ، ومن ثم فهو يقف من اشياء كثيرة منها موقفاً فكرياً معارضاً ، وان كانت الظروف التي فرضت الحضارة الغربية عليه ــ ومنها الاستعمار والاحتلال ــ قد اضطرته الى قبول بعض الانظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون أن يقبلها الاسلام أو يقرها .

وفي حدود انظمة المصارف والربا ، واوضاع استثمار الامــوال والفائدة ، واوضاع المرأة والاختلاط في العمل ، وتأثر الاسرة بذلك ، وفي مسائل الزي والزينة والملابس أي في مسائل الاقتصاد والسياسة والاجتماع والاخلاق . فان الاسلام يقف موقف المعارض ، ولا يتزحزح عن موقفه في الاصول الثابتة قيد أنملة أما فيما عدا ذلك من امـــور تفرضها الحضارة ، وتمثل روح العصر كاصطناع الأساليب المختلفـة والمخترعات المتعددة في شؤون المواصلات والإذاعة والتلفـزة وأدوات الزراعة والصناعة والعمل المختلفة ، فذلك كله مما يقره الاســلام ولا يعارضه،ويصل فيه إلى غاية الغايات التي تتفق مع روح العصر،والحضارة هنا لاتتعارض مع مفهوم الاسلام ، ومفهومها في الإسلام واضح ، فهي عطاء الله عن طريق عقل الانسان وعمله ، ومعرفة الانسان القوانـين الطبيعية والرياضية هي من آيات الله التي علمها للانســـان ، وكان للاسلام دوره الهام الخطير في وضع اللبنات الاساسية فيها ، فهو الذي قدم المنهج العلمي التجريبي غير أن الإسلام يعارض الحضارة الغربية ، ليس في منجزاتها ، ولكن في مفهومها وفي تطبيقها .

أما من ناحية مفهومها ، فان الاسلام يؤمن بأن معرفة قوانـــين

الطبيعة والرياضة ونواميس المجتمعات لايغني عن معرفة صاحب هذه القوانين وخالقها ، والذي انزلها لاول مرة في القرآن وعلمها الانسان ، والمعروف ان القرآن نزل بهذه القوانين والنواميس قبل ان تعرفهـــا الحضارة الاوربية بأكثر من الف عام •

أما من ناحية تطبيقها ، فان الحضارة عطاء الهي للبشرية لاسعادها لا لشقائها ، فهي محاولة لتوفير الحياة الطيبة لاهـــل الارض جميعـا لا لطائفة منهم ، وليس معه شك في أن هذه المنجزات ملك البشرية كلها ، وانها مصدر لسعادتهم ، وليس كما هي اليوم مصدر شقاء لهم وتهديد دائم بالذرة والحروب التكنولوجية،فضلا عن استعلاء اصحاب الحضارة على الأجناس الأخرى بالسيطرة السياسية والاقتصادية •

وناحية أخرى يفرق فيها الإسلام بين الحضارة وبين روح العصر ذلك هو الفرق بين معامل البحث العلمي والجامعات ، والمنجزات المختلفة في مجال الصناعة والزراعة ، وبين المسارح والملاهي ، وتوجيه التصوير والفن والسينما توجيهاً منحرفاً ، فالاسلام يقبل مـــن الحضارة علمها ومنجزاتها ، ولكنه لايقبل تفسيرها للعلم ، ولا تطبيقها له •

ويرى ان الحضارة القائمة قد جاوزت الحد في الاستعلاء بالعلم والعقل ، بينما عجزت عن ارضاء النفس واسعاد الضمير ، وبســـط السكينة النفسية على الامم والشعوب ، وأنها أطلقت العلم من نطاق الاخـــلاق ، فأصبح شرا مستطيرا وخطرا ماحقا يهدد الأمم بالحروب الذرية والفناء ، ومن هذا التحدي تقوم في الغرب فلسفـــات الصراع والتمزق والرفض •

ولقد ارتبطت مقاييس الحضارة بفلسفات مادية بعيدة المدى في تدمير الانسان وهو في أرقى ذروة الغنى والكفاية المادية، ومن ثم نشأت أزمة الحضارة وأزمة الانسان الحديث التي تقوم على اساس نمو العقل

وضمور الوجدان،نمو الماديات وضمور الروحيات،ولقد كشفت الابحاث والإحصائيات عن اخطار لاحد لها في المجتمعات التي وصلت أعلى درجات الاكتفاء حيث الانتحار والموت البطيء والامراض الخطيرة والعجز عن العمل قبل موعد السن القانوني ، وتبين ان ارتفاع ميــــزان التـــرف والرفاهية هو اخطر الاخطاء على بنية الفرد وبنية المجتمع ، وان الحضارة الغربية تعاني ازمة انهيار اخلاقي واجتماعي نتيجة التضخم المــــادي والفقر الروحي .

لماذا نجد وجهة النظر التي تسمى بالعلمانية في الغرب ، معاديـــة للدين عداءاً شديداً ، لماذا تكون دائما قاصرة على جانب واحـــد هـــو المادة ، ولماذا نجد الدعوة الى الحرية أو العدل الاجتماعي مشوبة بالغاء ارادة الله وانكار وجوده ، ولماذا تضع هذه المذاهب « الانسان » في درجة الحيوان والمادة .

في هذا كله من مفهوم الحضارة يختلف الاسلام ويختلف ويتعارض من حيث نظرته الشاملة الجامعة بين الروح والمادة ، ومن تكريم الانسان ومن الايمان بارادة الله التي من وراء كل امر وارادة ، ومن حيث الايمان بالفرد والمجتمع معا وبالفكر والمادة معا .

ان الدعوة الى روح العصر لاتفرض على المسلمين تجاوز ركائز دينهم واصوله وحدوده وضوابطه من اجل قبول الحضارة الغربيـــــة قبولا كاملا : خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، مايحمد فيها وما يعاب ،انهم يدعون دائما الى الاستمتاع بعظمة الحضارة والعلم .

ومنجزات الحضارة والعلم والمادية أدوات مجردة لاتفرض معهـــا مفهوما ولا اتجاها ، فليوجهها الغرب كما يشاء وفق اخلاقياته وقيمـــه، ولنا أن نواجهها نحن وفق قيمنا ومفاهيمنا .

نحن نؤمن بأن التحضر لايتعارض مع التدين فاذا تعارض،فالدين اولى بالاستجابة ، واذا كان استعلاء دعاة الحضارة بالقول بأن العلم والحضارة قدمت مايسعد الانسان،فاننا نفهم انذلك صحيح بالنسبة للجانب المادي وحده ، واذا ماوصفت روح العصر بالتقدم ، فاننا نفهم التقدم فهما مخالفا لفهم الغرب ، فهو في الاسلام تقدم مادي وروحي معا • فاذا كان التقدم المادي من شأنه ان يقضي على قيم الانسانية والاخوة البشرية والرحمة والعدل واخلاقيات المجتمع ، فاننا نرد هذا التقدم •

واذا قالوا : إن الحضارة قد جعلت الانسان راشداًليس في حاجة إلى وصاية الدين ، قلنا : ماهي المنجزات التي قدمتها الحضارة للانسان حتى سما في روحه وعقله الى الحد الذي يجعله مستغنيا عن توجيه الوحي والدين ، وان الانسان بطبيعته لايستطيع ان يمارس الحق الا اذا كان ذلك الحق في اطار الامر الذي يفرضه الدين ، ذلك لانه بطبيعته يميل الى هواه ومطامحه ، ولا يرده الى الحق الا رادع من ايمان او خوف من مسؤولية وحساب •

ان هناك خطين للحضارة : هما العلم والفلسفة ، أما العلم ، فانه يعتمد على مقايسات المعامل ويعرف حدوده ، انه يدرس الظواهر ولا يستطيع ان يصل الى تلك الاشياء ، اما الفلسفة فهي تحاول ان تتجاوز العلوم بالفروض ، وتمضي الى غير غاية • ومن هنا تتمزق الحضارة بين خطيها : خط العلم المؤدي الى الله ، وخط الفلسفة المؤدي الى الانحلال والاباحة ، ولذلك ، فان موقف الاسلام بضوابطه وحدوده في وجه الحضارة لا ينتقص من جوانبها التقدمية ، وانما يحول دون أخطارها وتجاوزاتها ، والاسلام لايقف في وجه الحضارة الغربية والفكر المادي معارضاً الا قيم الثبات•ثبات الاسلام ازاء تحريم الربا والحدود في الخمر

والقتــل والميسر والزنى ، وثبــات الاسلام إزاء الالتزام الأخــلاقي والمسؤولية الفردية وثباته ازاء الاخوة البشريــة ، والعــدل الاجتماعي والجهــاد .

وفي اطار هذا المنهج الثابت نجد الاسلام قادراً دوماً على الاستجابة لروح العصر ، ووضع الحلول المتجــددة لتحــديات العصر ، ذلك أن الاسلام لم يحتقر الامور الدنيوية ، ولكنه جعلها تتحرك في اطار مثل اعلى بعيد عن النفعية ، وسرف المنحلين ، وبخل الاشحاء ، وجعل في مال الغني حقا للفقير ، ودفع المجتمع الى التكامل ، يحمل الاقوياء فيــــه الضعفاء ، وركزعلى اليتامى والضعفاء والمرضى والمساكــين ، وذوي الحاجة والمزمنين ، وجعل امر حمايتهم ورعايتهم حقا مفروضا علــــى المجتمع كله ، وبذلك عارض مفهوم الانتخاب الطبيعي وعبودية الانسان والدعوة الى ابادة الضعفاء ، وتعقيم الفقراء مما تدين به الحضــــارة الغربية .

وكرم الاسلام الانسان على اساس العمل والسلوك ، ولم يجعــل للعنصر ، او العرق أو الدين واللون مصدرا للتفاضل .

وقرر أن الانسان مستخلف في الارض ، فهو سيد الكائنات ، ونظر إليه من حيث هو جامع بين الروح والجسم ، والعقل والقلب ، وانــــه ثابت الجوهر متغير الصورة .وقد اقر برغباته المادية كلها ، وأباحهــا وجعل سعيه في الحياة الدنيا مرتبطاً بالآخرة،ووضع له ضوابط وحدوداً حتى يحميه من الانهيار والتدمير ، وحتى يكون قادرا على اداء رسالتـــه ومواجهة تحدياته دون ان يضعف أو يتحطم .

ولقد حرر الإسلام الانسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه الى الله وحده ، ولقد نظم الاسلام صلة الانسان بربه ، وصلة الانسان بالبشر ، وأقر نظام الاسرة بالزواج ، وأعلن حقوق الاسرة ، ورفع مكانة

المرأة ، وابطل الرهبنة ، واعلن الزكاة وجعلها حقا للفقراء ، وجعل الامر شورى ، وحث على العلم ، واقام نهجا عجيبا اساسه العدل والمساواة بين القوي والضعيف ، والزهد في وسط مغريات الحياة ، والكرامة والإباء عند الفقر والعوز ، والتسامح حتى من خلال الحروب ، ولا ريب أن هذا المنهج الرائع الذي أدهش علماء الاجتماع ومؤرخي الحضارات قد حد كثيرا من أخطار التحديات التي تواجه مجتمعات الغرب ، وجعل المسلم منطلقا إلى غاياته العليا جامعا بين رغباته المادية وأشواقه الروحية في نماء مطرد ومن هنا قلت فيه الازمات والتحديات الخطيرة التي تواجه مجتمع الغرب بالانقسام والتمزق وتهدده بالحرب النووية في كل آن •

ومن هنا نفهم مدى أبعاد هذه الدعوة التي تتردد دائما على ألسنة دعاة التغريب عن روح العصر وتطوير الاسلام •

واعتقد أن هذه من أخطر المحاولات التي تحتاج الى الانتباه الوافر، والتي يراد بها وضع الاسلام موضع تبرير القيم باسم مايسمى سماحة الاسلام وانفتاحه وقابليته للاجتهاد أما الاجتهاد ، فقائم وله اصوله ، أما الاصول العامة في مسائل الربا والمرأة والحدود والبيوع ، فليس فيها اجتهاد ، ولا بد ان تصاغ أوضاع المجتمعات وفقها ، لا أن تأول الشريعة بما يسوغها •

ولقد عقدت في السنوات الاخيرة مؤتمرات للاستشراق حاولت ان تستدرج بعض علماء المسلمين لتسويغ الربا والتأمين وغيرهما في اطار مايسمونه رعاية المصلحة العامة ، بينما يقف حماة الفكر الإسلامي موقفاً صلباً يفهمون فيه أن التشريع الرباني محقق للمصلحة العامة وحاجات الناس بما حدده وقرره لا بما يرون هم ، أو يفرض عليهم •

نحن نعرف ان الحضارة الغربية تمر بأقسى أزماتها ، وبالمراحل الخطيرة من مفاهيمها المادية الاباحية ، وليس الفكر الاسلامي مستعدا أن يتابعها في هذه المرحلة ، وهو يستمد كيانه من عنصر الثبات القائم في اصله الذي لايأتيه الباطل من بين يديه : القرآن الكريم .

* * *

تاريخ الإسلام والتفسير المادي

ان المحاولة التي جرت منذ وقت بعيد في سبيل تفسير الاسلام ـ حركته ودعوته ـ تفسيراً مادياً صرفاً لاريب تعجز أشد العجز عن أن تقول الكلمة الفاصلة ، لأنها تعجز عن ان تستوفي الابعاد المختلفة والجوانب المتعددة حين تضع بينها وبين الحقيقة حجاباً ، هذه الحقيقة المثلة في العوامل النفسية والمعنوية والروحية والفكرية وهي عوامل أشد أهمية ، وأبعد عمقا من الجانب المادي الواحد الذي هو أحد جوانب التفسير لا محالة ، ولكنه ليس واحدها وليس أكبر أهمية •

ان التفسير المادي أو الاقتصادي للتاريخ الاسلامي انما يحاول أن يواجه البحر باناء من ماء ، أو الجنة الفيحاء بفسيلة من حطب •

لقد حاولت كتابات كثيرة في السنوات الاخيرة ان تتمثل الاسلام وكأنه ثورة الفقراء ضد الاغنياء فحسب ، والحق أن الاسلام ليس ثورة موقوتة ، ولكنه حركة شاملة من حيث الزمن ، ومن حيث المضامين لتغيير أشياء كثيرة تغيير المجتمع ، وتغيير النفس ، وتغيير الاخلاق ، وتغيير الاقتصاد •

ومن هنا فان الاسلام ليس هو التفسير الاقتصادي ، وليس محمد صلى الله عليه وسلم هو المصلح الاجتماعي ، أو رسول الحرية ، وليس يكفي حين يذكر أن تورد شطر الآية الكريمة (قل إنما أنا بشر) فهذا تزييف ، فان الآية تقول (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما إلهكم إله واحد)•

لقد جاءت كتابات التفسير الاقتصادي ، ثم المادي متباينة حذرة في (هامش السيرة وفي الفتنة الكبرى) ثم اتسعت بعد ذلك في (محمد رسول الحرية) ونست شبهاتها حتى لقد حرص الكثيرون على ان يربطوا بين هذه الآثار على ما بينهما من زمن واختلاف في المصادر والموارد في ادعاء كاذب بأن مثل هذه الكتابات حاولت أن تعتمد على الوقائع لا على الخوارق ، وقد ظن أصحابها ان المعجزات يمكن ان تسلك فيما يوصف في الغرب بأنه أساطير ، ولاريب ان لرسول الله معجزات غير القرآن ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يجد الطريق سهلا الى رسالته، ولم يجد العرب مستعدين للنهضة ، فنهض بهم — كما يردد بعضهم — ومن هنا ، فانه في نظرهم لم يكن في حاجة الى معجزات أو خوارق •

ولا ريب أن هذا الادعاء باطل ، وأن وقائع حياة رسول الله بعد بعثته إلى هجرته خلال ثلاثة عشر عاماً تكشف في وضوح المعاناة والظلم والاضطهاد في عشرات الصور والمواقف مما يدهش معه أي باحث كيف تواجه قريش والعرب دعوة التوحيد وتقاومها •

ومن هنا تعجب من قول أحدهم حين قال : (ومحمد بهذا ليس في حاجة إلى خارقة تعينه على إقناع الناس بما يقول لأنه بما يقول إنما يستجيب لآمال الناس وأحلامهم) ولقد تردد هذا القول قديما في (النثر الفني) وفي بعض كتابات (الشعر الجاهلي) وغيره وهو من زيف المستشرقين الذين يهدفون به إلى التقليل من عظمة الرسالة الإسلامية موقف جديد بالنسبة للقيم الكبرى : الحرب والعلم والكرم ، فهي ليست موجهة • ولقد واجه العلامة فريد وجدي مثل هذه الشبهة حين قال : « إن قريشا وهي أرقى القبائل لغة وفهماً ومكانة لم تقبل دعوة النبي إلا

رجالاً ونساءً لا يزيد عددهم على بضع عشرات. ولو كانت قريش أقرب العرب إلى الحضارة ، لقابلت دعوة محمد بصدر رحب ، وأحلتها المكان اللائق بها ، ونهضت تحت قيادته لجمع كلمة القبائل وإبطال دينهم » .

إن أتباع النبي الأولين اضطهدوا اضطهاداً شديداً حتى هاجروا إلى بلاد الحبشة، وإن الجاهلين كانوا يهزؤون بالدعوة للدين، وبالداعي إليه ، وان النبي لبث على هذا الحال من الاضطهاد ثلاثة عشر سنة ، ولما أنست قريش من النبي الهجرة قررت قتله ، وأرصدت له ، ولما علم أهل مكة بإفلاته اقتفوا أثره . كل هذا ينطق بلسان فصيح أن قريشا وهي مظنة النجابة والفهم من العرب في ذلك العهد لم تكن (قد استعدت للملك بعد تطورات عديدة) فإن المجتمع الذي يقاتل الداعي للتجديد والنهـوض بهذا النفور ، ويصبر عليه ثلاثاً وعشرين سنة لا يزداد بعدها إلا عناداً وتشدداً لا يمكن أن يوصف بأنه مجتمع كان مستعداً للنهوض ، وأنـه سرعان ما نهض مع النبي ، كذلك فان قريشا لم ترفض الإسلام ، لأنـه يقضي على نفوذها الاقتصادي وحده ، ولكنها كانت تعلم أنه قضاء على كيانها الفكري والاجتماعي والديني جميعا .

ومن هنا كان خطأ القائلين بالتفسير الاقتصادي ، ذلك ان الاديان السماوية إنما تغير المجتمع كلية ، ومن الأساس ، وهي حين تقصد أول ما تقصد ، فإنما تبني النفس الإنسانية ، وتشكلها تشكيلاً جديداً فيـه صمود وصبر وقدرة على مواجهة الاضطهاد واحتمال البلاء وتهيئها لعمل كبير توهب فيه الارواح والنفس ، ويجلُّ عن المعاني المادية .

ومن هنا كانت دهشة المستشرقين وغيرهم لعظمة الفتـح الإسلامي الذي صنعه هؤلاء الذين بناهم محمد في خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة ، وغير بهم الدنيا كلها ، وليس جزيرة العرب وحدها ، لقد نظروا إلى هذا الفتح الذي تم في خلال بضعة وسبعين سنة على أنـه معجزة لم تفسر

نعم كانت تعرف قريش أن معارضة محمد لهم لن تفقدهم نفوذهم الاقتصادي ، ولكنها ستلغي كيانهم إلغاء كاملا بكل فكره وماضيه ومواقفه الاجتماعية والأدبية . إنه تغيير جذري ليس الاقتصاد إلا جانباً منه تغيير في نظام المؤودة وزواج الأخت ، وفي العلاقة بين الأهل ، وفي القضاء (ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) كان القوي إذا أذنب ، تركوه ، وإذا أذنب الضعيف ، أقاموا عليه الحد ، الله هو المشرع ، تجريد الفرد من سلطانه ، ومن الخضوع لمقاييس الهوى ، مقاييس جديدة ربانية لكل الأمور ، للظهور أو الاستعلاء أو الجاه ، ولكنها موجهة لله وحده شعار لا إله إلا الله يغير المجتمع كله ، ويغير النفس الانسانية على مختلف المستويات الدينية والاجتماعية والفكرية والنفسية والأخلاقية ليست حركة طبقة ضد طبقة ، ولا ثورة الفقراء على الأغنياء ، فقد اشتركت فيها الطبقات ، واشترك فيها الأغنياء والفقراء ، وخرج الأغنياء عن مالهم، وخرج الأبناء عن آبائهم ، وأنكروا ترفهم وفجورهم .

ويبدو ذلك واضحاً في لقاء المشركين للنبي : إن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً . وتكون إجابة الرسول هي منطلق تفسير الإسلام « والله ياعم : لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ماتركته » .

ولم يكن موقف الرسول موقف المزايدة ، أو المواءمة ، أو الالتقاء في منتصف الطريق ، بل كان حاسماً ، وكان رفضه لقيم المجتمع القديم صريحا ، أما ما أقره الاسلام من قيم الجاهلية ، فكان من أصفاها ، وتلك هي بقايا دين إبراهيم مما لا يتعارض مع التوحيد .

وكان من أبرز ما في الإسلام بناء الرجال على الصمود والصبر

والجلد ، وعزلهم عن مجتمع الجاهلية بمختلف ألوان فجوره ، فيجري الإسلام تغييرهم من أعلى الرأس إلى أخمص القدم (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

كانت دعوة الاسلام مفاصلة بين الله وبين الأهل والولد ومتاع الحياة كله ، ولذلك فإن عدد الداخلين فيها كان قليلاً ، وكانت المحن تتوالى لتصفية هذا القليل ودعم صلابة عوده . كان الإسلام يستهدف بناء إنسان في سبيل فكره ليس له في الدنيا نهمة ولا مطمع إلا أن يقدم روحه خالصة لله .

ومن هنا تعجز مقاييس التفسير المادي للتاريخ ، أو التفسير الاقتصادي للتاريخ أن تحيط بذلك كله ، وأن تعرف الفرق بين هذه القيم المعنوية التي لا تقاس بالمقاييس المحسوسة . وإذا كانت هذه القيم المعنوية لا تقاس ، لأنها ليست مادية محسوسة ، فإنها تستطيع أن تكشف عن نفسها بآثارها ، إن آثارها التي انتجتها والتي يقف أمامها أصحاب المنهج المادي واجمين عاجزين هو الدليل عليها . « ليس من المنهج العلمي الحق أن ينكر وجود القيم المعنوية أو الروحية أو النفسية لمجرد أنه لا يمكن أن يلمسها أو يراها ، كما تلمس أو ترى الأشياء المادية ، فإن الأثر الذي تحدثه ينهض دليلا محسوساً على وجوده » .

إن المقاييس المادية والاقتصادية لتعجز أن تفسر كيف يبكي العائدون من الغزوات ، لأنهم لم يستشهدوا ولا الذين لقوا آباءهم في صفوف الكفار فقتلوهم ، ولا الذين هاجروا وتركوا أموالهم وأولادهم ، واستأنفوا حياتهم في المدينة بدينار اقترضوه ، ولا يستطيعون أن يفسروا كيف تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم بن النبي ، ثم يقف النبي ، فيعلن « ان الشمس لاتنكسف لموت أحد » ، أو أن يقف النبي في حجة

الوداع ، فيقول :«إنه يلغي كل الربا ويضعه ، وأول ربا يضعه تحت قدميه هو ربا عمه العباس بن عبد المطلب » أو أن يقول : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطع محمد يدها » أو أن توضع الحجارة المحماة على صدر بلال ، فلا يزيده ذلك إلا أن يقول : أحد أحد . كل هذا يعجز عن تفسيره المذهب المادي ، والمذهب الاقتصادي .

لقد كانت دعوة الاسلام شاملة تعجزعنها تفسيرات مذاهب الماديين ويصدق في هذا نموذجان من القول : اما أحدهما ، فقول فيليب حتي : « لم يسجل التاريخ أن رجلاً واحداً سوى النبي محمد كان صاحب رسالة ، وباني أمة ، ومؤسس دولة ، هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت إلى حد ما متوافقة يشد بعضها أزر بعض ، وكان الدين من بينها على مدى التاريخ القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمنا حتى إذا رحت تعد الناس في العالم اليوم ، وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلماً » .

أما النص الثاني ، فهو قول الاستاذ تريتون في كتابه « الاسلام عقيدة وعبادة» : « إذا صح في العقول أن التفسير المادي يمكن أن يكون صالحاً في تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادي يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب في أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم ، واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا في العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فيرى أنها تقع في هذا الشيء الجديد : ألا وهو الإسلام ».

ويقول الفريد كانتول سميث في موقف الأمم المختلفة من تفسير

التاريخ : « الرجل الهندي لا يأبه التاريخ، ولا يحس بوجوده ، فالهندي مشغول بعالم الروح ، ومن ثم ، فكل شيء في عالم الفناء المحدود لاقيمة له عنده ولا وزن . أما المسيحي ، فيعيش بشخصيـة مزدوجة ، أو في عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، فالمثل الأعلى عنـده غير قابـل للتطبيق ، والواقع البشري المطبق في الأرض منقطع عن المثل الأعلى .

أما الماركسي ، فهو قوي الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كـل خطوة تؤدي إلى الخطوة التالية ، فهو لا يؤمن إلا بهذا العالم المحسوس، بل لا يؤمن إلا بالمذهب الماركسي ، وكل ماعداه باطل ، والماركسي يتتبع عجلة التاريخ ، ولكنه لا يوجهها .

أما المسلم ، فإنه يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، إنه يؤمـن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً واقعياً عمليا يسير في الأرض على مقتضاه ، ويحاول دائما أن يصوغ واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم ، فهو يعيش كل عمل فردي أو جماعي ، وكل شعـور فردي أو جماعي بمقدار قربـه أو بعده من واقـع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق » .

* * *

حياة الرسول والتفسير المادي

هناك محاولة مستمرة منذ أربعين عاماً تحاول أن تفسر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الإسلام تفسيراً اقتصادياً أو مادياً ، وهي ترمي من ذلك إلى أن تجعل من حياة الرسول بطولة عربية ، أو بطولة إقليمية أو بطولة أمة ، أو عبقرية فكر ، أو دعوة إلى الحرية •

بدأت هذه المحاولات بكتابات عن حياة الرسول مجردة من المعجزات ، محاولة أن تفسر جوانب الوحي وما يتصل بخرق نواميس الكون وقوانينه تفسيراً مجازياً أو منامياً ، أو غير ذلك ، ثم اتسع نطاق هذه المحاولات فوصفت حياة الرسول بأنها بطولة أو زعامة • ولا ريب أن الهدف من نفي النبوة هو مقدمة لنفي الألوهية ، وأن الهدف من نفي النبوة هو إنكار الوحي ، وبالتالي إنكار رسالة السماء جملة • ومن هنا جاءت المحاولات المتعددة لتوصيف البطولة الإنسانية ، ووضع مقوماتها على نحو مختلف كل الاختلافات عن النبوة التي يختار الله تبارك وتعالى من يشاء لها من عباده ، ويعده في الأصلاب والأرحام جيلاً من بعد جيل •

١ — فإذا تقرر في نظر الناس قوانين معينة للبطولة الفردية البشرية، أمكن الطعن في النبوة ، لأن هذه القوانين لا تتفق مع تقديرات الله التي تعلو على القوانين ، وتأخذ طابع المعجزات •

فالبطل في النظرية المادية لا بد أن يصدر عن أسرة موسرة ، وعن ثقافة عالية، وعن أبوة حكيمة مربية• أما بيئات الفقراء والأيتام والأميين،

فهي لا تصلح لإخراج البطل ، بينما تنقض النبوة هذه النظرية المادية نقضاً كاملاً ، وتكشف عن كذبها وتضليلها ، وتكشف عن قدرة الله في إغناء النبي بعد فقر ، وتعليمه وهدايته بعد أمية ، وإيوائه بعد يتم ، وفي هذا معنى المعجزة الإلهية التي تنكرها نظرية البطولة الغربية الوافدة .

٢ ــ والإسلام يقرر المعجزة ، وهي الأمر الخارق الذي يحصل على يد نبي مرسل إدلالاً بصدق نبوته . وليس في المعجزات منافاة للعلم المادي ، وإنما هناك قصور من أجهزة العقل والإدراك عن معرفة الأسباب التي انعقدت لها المعجزة فضلاً عن إيمان المسلم بأن الله تبارك وتعالى هو صانع السنن والنواميس والقوانين . وهو وحده القادر على خرقها على النحو الذي كشفت عنه الكثير من المواقف مع الأنبياء كالولادة لهم بعد سن الكبر للرجل ، واليأس للزوجة ، والولادة من غير أب ، كما حدث للسيد المسيح عيسى بن مريم ، وكتجريد النار من خاصية الإحراق كما حدث لسيدنا ابراهيم ، أو السكين من خاصية الذبح كما حدث لسيدنا إسماعيل ، وهكذا . وتعرف المعجزة في علم المصطلحات الإسلامية بأنها حقيقة تخالف القواعد العامة ، وتعارض المجرى العادي للحوادث ، وسببها فوق إدراك البشر ، وهي حقيقة تتحدى كل من يرتاب فيها .

وفي مقدمة المعجزات معجزة القرآن ، فهي معجزة قائمة أبد الدهر ، تمتاز عن معجزات الرسل والأنبياء بأنها باقية ، ومعجزة القرآن إنما تمثل في مطابقته الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل، وصدق تحدياته للبشر في عجزهم عن معارضته حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وفي الآيات التي أثبتها وما تزال قائمة تعجز الملوك والدول والأمم عن مواجهتها .

٣ ـ ومن ناحية أخرى ، فإن النبوة ضرورة أساسية للحياة البشرية ، وبناء الإنسان الفكري والاجتماعي ، فهي التي تحسم عشرات القضايا المصيرية التي تبقى بلا جواب عندما تقوم الريبة والشك في حقيقة الوحي . إن الوحي هو الذي يضع النقاط على الحروف في تلك الشبهات التي تثير عوامل القلق والتمزق والصراع النفسي الذي يواجه الآن مجموعة الامم التي ألحدت ، وفصلت مابينها وبين نور الله .

٤ ـ إن عجز العقل عن فهم الغيبيات وما يتصل بأن يكشف عن ضرورة الوحي والنبوة ، فالعقل غير كاف وحده ، وغير قادر وحده ، « والوحي يعاضد العقل ، ويؤكد حكمه ، ويجعله موثوقا فيما يصل العقل الى معرفته ، فيكونا دليلين على مدلول واحد يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد ، ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا يدرك العقل حسنها وقبحها » .

وقد التقى الوحي والعقل في القرآن لأول مرة في الفكر الإنساني ، والاسلام واهله يؤمنون بأن المعرفة الإنسانية ليست قاصرة على معطيات الحس ، وعلى حد تعبير الشيخ محمد عبده وقد نقلناه عنه « قد يعرض الدين شيئا يتجاوز حدود الفهم ، ولكن لايعرض شيئا يتجاوز حدود الإدراك مطلقاً » .

٥ ـ ولقد امتدت النظرية المادية الوافدة في البطولة والوحي إلى القول بأن القرآن انطباع في نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ليس كذلك أبداً ، فهناك فارق واضح وعميق بين كلام النبي محمد ، ونظم القرآن الكريم يعرفه أهل البيان واللغة ، ويعرفون أبعاده ومداه .

وليس صحيحاً أن القرآن فيض من العقل الباطن في محاولة دعوى الإشادة بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه ، ولا ريب أن لمحمد كل

صفات السمو النفسي ، ولكن وصفه بالنبي نسبة الى الوحي الالهي هو أكبر معطياته .

ومثل هذا القول إنما يرمي إلى محاولة خادعة لقطع الصلة بين المسلمين والقرآن ، فإنه إن كان كلام محمد ، كان من عمل البشر ، وبذلك يفقد معناه الأسمى وجلاله الأعظم ، ويفقد « ثباته » الذي يعطيه تلك القدرة الضخمة على أن يكون الأساس الذي يرتبط به كل فكر ، والقاعدة التي يمتد عليها كل بناء ، والإطار الذي تجري فيه كل حركة . وهناك أدلة كثيرة تدحض هذه الدعوة وأبسطها « أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فمن الذي أطلعه على أن ما في القرآن مصدق لما في التوراة » . « وكان علمه بشؤون قومه لا يزيد على علم غيره » فمن الذي أطلعه على تاريخ الأمم وقصص الأولين . (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون) .

٦ ـ ولقد جلى الباحثون المسلمون ظاهرة الوحي ، وأكدوا « أنها ليست ظاهرة نفسية داخلية تنبعث من كيانه صلى الله عليه وسلم . وإنما هي حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحي ومشاهد أخرى » [1] .

« وإنما رأى محترفو الغزو الفكري في (ظاهرة الوحي) : المنبع الأول للحقائق الدينية والكليات الاعتقادية ، ورأوا أنهم إن تأتى لهم ، تكدير صفاء هذا المعين الأول ، أمكنهم تكدير صفاء كل ما يتفرع عنه ، واقتحام أسباب الدس والتشويش عليه » .

من أجل هذا زعم بعضهم أن الوحي في حياته صلى الله عليه وسلم إنما كان نوعاً من الإلهام الخفي ، وزعم آخرون أن ذلك كان إشراقاً روحياً

---

(١) راجع كتاب فقه السيرة الجزء الاول محمد سعيد رمضان البوطي

معيناً . وأصرت جماعة أخرى على أنه كان يصاب بالصرع . والعجيب الرائع حقاً في حياته صلى الله عليه وسلم أن أمر الوحي له قام على أسس وحقائق تصفع هذه الأوهام صفعات تلقيها في متاهات الحمق والجنون .

٧ ــ ولقد تواجه الفلسفات الغربية حقيقة النبوة وظاهرة الوحي وتصفها بأنها وصاية على الإنسان الذي بلغ رشده وأصبح في غير حاجة إلى وصاية ما . وذلك قول من الزيف المسرف في إحسان الظن بالبشرية فهل استطاعت البشرية حقاً بعد هذا الزمن الطويل الذي قطعته [١] أن تكون راشدة . والواقع الذي تثبته وقائع التاريخ وأحداث الزمن أن البشرية مازالت عاجزة عن حماية نفسها من المطامع والأهواء ، والحروب والمذابح والمظالم ، بل لعلها قد بلغت بفضل تقدم العلم قدراً أكبر ، فهي التي تمضي في تهديد الأمم الضعيفة بقوى الذرة والتكنولوجيا ، ولم يستطع تقدمها العلمي أن يرد إليها شيئاً من الإيمان أو العدل أو السماحة أو الارتفاع فوق الأهواء ، ولذلك فهي لازالت في حاجة إلى رعاية رسالات السماء ، وفي أشد الحاجة إلى الوحي والنبوة . لقد تقدم الإنسان في مضمار السبق العلمي ، ولكنه عجز عن فهم نفسه ، وحماية كيانه من المطامع ، وما تزال أهواؤه تحول بينه وبين توجيه هذه المعطيات لخير الإنسان .

ومن الحق أن يقال : إن الإنسان لم يزل بعد عاجزاً عن أن يكون أميناً على نفسه أو جنسه ، ولن يستطيع ذلك إلا إذا آمن بالوحي والنبوة .

---

(١) بتصرف عن بحث للاستاذ محمد المجذوب .

٨ ـ في ضوء هذا كله ننظر إلى تلك المحاولات التي جرت في تزييف سيرة الرسول •

أولا : بإضافة الأساطير القديمة في (هامش السيرة) •

ثانيا : بإنكار أن الإسراء كان بالروح والجسد في (حياة محمد)•

ثالثاً : إنكار النبوة والوحي في (محمد رسول الحرية) •

رابعا : وصف النبي بالعبقرية دون الرسالة في (عبقرية محمد) •

ولا ريب أن أبلغ أخطاء وصف النبوة بالعبقرية إنما هو في تعميم هذه الصفة على شخصيات أخرى لم تنفرد بالنبوة مما تجعلها تبدو كأنما هي محاولة إلى فرض مفهوم البشرية على الرسول الذي تفرد بالعصمة والوحي ، وامتاز بهما عن سائر صحابته •

ولا ريب أن العبقريات وقعت تحت سلطان الفكر الغربي الذي تشكل الكاتب في أحضانه . ثم نفذ منه إلى دراسة الإسلام دون أن يقدر مدى الفارق الدقيق والعميق بين ذاتية الإسلام في مفاهيمه ومناهجه ، والعوامل التي شكلت أهله ، ولم يلتفت أيضاً إلى تمييز النبوة الوافر • فالنبي في عبقرية محمد إنسان له مواهب وملكات منفصلة تماماً عن وحي السماء . وحين تجري مقارنته بنابليون أو غيره لا يلتفت تماماً إلى اختلاف النوع وانعدام الصلة حتى ليبدو إغفال الوحي إغفالاً كاملاً في دراسته . ولم يرد إعجاب المسلمين بالرسول وحبهم له دون حدود إلى الإسلام نفسه،وإنما رده إلى شخصيةالرسول•

يقول غازي التوبة في دراسته عن العبقريات : « فلو اقتصر دخول المسلمين على إعجابهم بشخص الرسول . وحبهم له . وافتتانهم به . لانتهت الدعوة الإسلامية بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو بعد

وفاته ريثما يزول سحر الافتتان . ولكن الدعوة الإسلامية استمرت قرونا طويلة وما ذلك إلا لملاءمة الإسلام للفطرة البشرية التي انجذبت إليه في زمن الرسول ، ثم استمر الانجذاب في الأزمان التالية ».

٩ — وغاية القول أن اعتماد كتابنا العرب والمسلمين في النظرة إلى النبوة والبطولة في ضوء تفاسير غربية . إنما يحجب عنهم شيئاً كثيراً من الحق . ذلك أن الغربيين عن طريق مفاهيم عقائدهم وفكرهم لا يفرقون بين الألوهية والنبوة بينما نحن نفرق بينهما تماماً . كذلك فهو يريد أن الكتب المقدسة كتبها الرسل . ونحن نؤمن بأن الكتاب المنزل هو وحي من الله ، وليس من عمل النبي .

كذلك فهم يعيشون في إطار مفهوم الوثنية اليونانية القائمة على عبادة البطولة ، ورفع الفرد إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة ، بينما يقصر المسلمون العظمة كلها والعبودية كلها لله سبحانه وتعالى . كذلك فهم يجسدون البطولة في تماثيل . بينما لا يؤمن الإسلام بتجسيد البطولة ، ويركز مفهوم تقديرها في توجيه العمل البطولي نفسه خالصة لله .

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قيل من أن الشمس كسفت لموت ابنه . واتخذ عمر من الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامي . ولم يجعله شبيها بالأديان الأخرى حين اتخذوا مولد أنبيائهم .

١٠ — ان أخطر ما استدرج اليه الكتاب المسلمون والعرب من التبعية للمناهج الغربية في تقدير البطولة أو تفسيرها ذلك الاتجاه نحو الوراثة والطبائع الفردية . بينما يقوم منهج تفسير البطولة الإسلامي في ظل الأثر الخطير الذي تحدثه التربية والعقيدة في توجيه الإنسان وتحويله من حال إلى حال . ومن هنا يبدو خطأ الاعتماد على رأي لومبروزو

ومدرسته في تكوين البطل ، أو العبقري ، ومن التعسف البالغ رد عظمة أبي بكر وعمر إلى ملكاتهم دون تقدير أثر الإسلام في تغيير النفوس ، وإعادة تشكيلها مرة أخرى ٠

لا ريب أن العقيدة الإسلامية هي التي حولت هذه الشخصيات ، وأعادت صياغتها من جديد في ضوء التوحيد ، وأخرجتها من شخصيتها القديمة ، وان أية مقارنة بين حياة عمر قبل الإسلام وبعده تكشف عن ذلك بوضوح ، كذلك يبدو هذا في نماذج أقل بطولة : يظهر ذلك في تحول الخنساء مثلاً ٠ ومن الحق أن يقال : إن هذا الزيف في فرض منهج أو مذهب في تفسير النبوة على أنها بطولة أو عبقرية ، أو دعوة إلى حرية ، إنما هو من أعمال الأيدلوجية التلمودية التي تهدف إلى تدمير قيم الوحي ورسالات السماء ٠

* * *

مَوجَةُ العُنفِ وَالجِنسِ

إن « بناء النفس البشرية » في ضوء الإسلام هو المنطلق الوحيد في هذا العصر لتجاوز أخطاره التي أخذت تزحف زحفاً شديداً حتى كادت تسيطر على كل ما تصل إليه العين والأذن من قراءات في الصحف والمجلات أو الإذاعة . أو مرئيات السينما والمسرح والشاشة الصغيرة .

ذلك لأنه من الضروري أن ينطلق الشباب أساساً من نقطة واضحة جلية هي معرفة الأخطار المحيطة بأمتهم وفكرهم . وتحصين أنفسهم بفكر واضح مشرق دون الجراثيم المتوقع هجومها في كل خطوة يخطوها أبناؤنا وبناتنا . هذه الوسائل الحديثة العصرية من صحافة وطباعة واذاعات ومرئيات . إنما هي أجهزة قادرة على نقل أي شيء يلقى إليها . ويمكن أن يلقى إليها شيء كثير يبني الأمم والعقول . ويدفع الأجيال إلى الطريق المضيء المشرق : طريق الفطرة السليمة . فإذا تركت هذه الأجهزة الحديثة حريتها لم تنقل إلا « الفكر الوافد » من أفلام الغرب ورواياته ومسارحه وصوره العارية ، وقضاياه وأبطاله .

ومن ثم تطرح هذه القضايا (التي لاتتصل بأنفسنا ولا بقيمنا ولا بمجتمعنا) في محيط فكرنا دون أن نكون قد قدمنا « الأساس » الذي نبني عليه ، و « الميزان » الذي نقيس عليه ، ومن أخطر ما يطرحه الفكر الغربي الوافد اليوم في محيط الفكر الإسلامي موجة الجنس والعنف التي هي إحدى ظواهر الفكر الغربي الآن ، وإحدى مراحله في

أزمته الممتدة التي تنتقل من حال إلى حال بحثاً عن مخرج أو عـلاج ، وهي بالقطع ليست إحدى الأزمات التي تتصـل بالفكر الإسلامي مـن قريب أو بعيد ، ولربما يلتقي فكران في قضية إنسانية ما ، ولكـن من العسير أن يلتقي الفكر الإسلامي القرآني الجذور مـع الفكر الغربي الوثني الجذور في قضية الجنس والعنف ، وفيما يتصل بآثارها علـى المجتمع والشباب •

وإن ماقد نراه في بعض أنحاء العالم الإسلامي من آثار لأفـلام الجنس والعنف أو قصصه أو ما يتصل به إنما هـو « قشرة » وافدة لا تصل إلى أعماق النفس الإنسانية الإسلامية المحصنة دون ذلك والتي أعطاهـا الإسلام « مفتاح » تحررهـا مـن هـذه الأزمات حين أعلن اعترافه بالرغبات البشرية المختلفة ، وأكد حق الإنسان في ممارستها على النحو الصحيح الذي يحقق الرغبة ، ويحفظ كيان الإنسان من التدمير ، وفي إطار ضوابطه الواضحة ، وحدوده السمحة •

إن الغرب يطرح أوشاله وأوهامه المختلفة التي صاغها في إطار لـه بريق علمي في أفق الإسلام بغرض ماكر، وهدف مضلل ، ذلك أن الغرب حين انتزع نفسه من إطار التفسيرات الغربية للدين لم يجد أمامه غـير طريق واحد هو أن يوجد لنفسه أيدلوجية يرسم على أساسها حياتـه ومجتمعه ، ولقد حق له ذلك حتى في وجود الدين نفسه ، فقـد كـان الدين « لاهوتا خالصا » أي : أنه كـان مخلصاً بالعبـادة وحـدها ، وبالعلاقة بين الله والإنسان •

ومن هنا كـان سعيه في سبيل عشرات المناهـج التي تضـاربت وتعارضت ولم تحقق شيئا ذا بال • وفي نفس الوقت الذي تفشل هذه المناهج والمذاهب والنظريات في أفق الغرب نفسه — وهي من أعمـاق

فكره وتحدياته — فإنها بالأولى أن تفشل في أفق الإسلام الذي تختلف اختلافاً واضحاً في أصوله وفي قضاياه .

إن منطلق أزمة الفكر الغربي هي مفهومه في التطور المطلق ، ونسبية الأخلاق ، وجبرية التاريخ ، والحتمية الاجتماعية ، وهي جميعها مما تتعارض مع مفهوم الإسلام القائم على الاعتراف بإرادة الإنسان الحرة ، ومسؤوليته الكاملة ، والتزامه الأخلاقي ، وقيام التطور في دائرة الثبات .

أما الضوابط الأخلاقية ، فهي قاسم مشترك على مختلف جوانب الحياة والمجتمع والحضارة ، وعنصر أساسي في بنائها وتشكيلها : أخلاقية الأدب ، وأخلاقية السياسة ، وأخلاقية الاقتصاد ، وأخلاقية الفن ، والاجتماع .

والأخلاق مرتبطة بالعقيدة تابعة منها ، متصلة بها ، وهي قائمة على البذل والفداء ، وتقديم النفس خالصة في سبيل الحق ، ومن حيث إن المسلم لا يحس أبداً بذلك القيد الغليظ الذي تفرضه مفاهيم « الخطيئة » الأولى ، ومن حيث إن المسلم لا يرى في الروابط بين الرجل والمرأة إلا أمراً طبيعيا حراً مباحاً يتم إذا تحققت أسبابه ، ويمكن تأجيله إذا تعذرت أدواته وظروفه ، فإن المسلم لا يحس مطلقا بأن هناك تحدياً معيناً إزاء الجنس يجعل من تأجيله أو تأخيره مرضاً أو عصابا أو غير ذلك ، كذلك فالمسلم يؤمن بالحياة كاملة متكاملة ، وليس الجنس إلا جزءاً منها والإحالة واحدة من عشرات الحالات التي يواجهها ، وليس الطعام والجنس لدى المسلم غاية ، وليست قضية كبرى في عالم يسر فيه الله الرزق ، وبسطه لعباده ، وإنما يعرف المسلم الحياة متكاملة رغائب الطعام والجنس إلى جانب أشواق النفس والروح في منطق رسالة

ان المنجزات التي حققها رواد العلم العربي الإسلامي على أساس المشاهدة والتجربة هي التي حددت الحركة الأولية لتحرر الفكر الغربي عن طريق روجر بيكون والبير الكبير » .

ونكتفي بهذا القدر من النصوص في هـذا السبيل وقـد أوردنا الكثير منها في كتابنا (الإسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني) [1] .

ولقد كان التوسع الإسلامي هو مصدر النهضة للعالم كله ولأوربا بالذات ، فقد حمل إلى الأندلس أدق معدات العلم ، وآخر ماوصل إليه جابر بن حيان ، وثابت بن قره ، وابن الهيثـم ، والرازي ، والفرغاني ، والبناني ، والقزويني،وابن يونس ، والبيروني، والخوارزمي وعشرات.

ولقد شهد الغربيون بالأثر الذي أوقف المد الإسلامي في معركـة بواتيه ، فقد تساءل أناتول فرانس في كتابه (فوق الحجر الابيض) :

ماهو أتعس يوم في تاريخ فرنسا ؟

وأجاب : هو عام (٧٣٢) أي : العام الـذي نشبت فيه معركـة بواتيه ، ففي هذا العام تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الأوربية ، ولقد أعطت الحضارة الإسلامية الفكر الغربي الكثير بالاضافـة إلـى المنهـج العلمي التجريبي : أعطتـهم الفروسية ومفهوم كلمـة الحريـة وتفسيرات ابن خلدون للتاريخ والاقتصاد والعمران .

ولكن : من أين جاء المسلمون بالمنهج العلمي ؟

لقد جاؤوا به من القرآن نفسه ، ومـن دعـوة الله إليهـم أن : (انظروا ماذا في السماوات والأرض) ومن إنزال سورة كاملة اسمهـا

---

(١) اصدار المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

ووضعنا أيدينا على المصادر التي تريد أن تدمر أمتنا ومجتمعنا ونفسيتنا الإسلامية الموحدة القائمة على الإيمان بالله • والمعرفة هي شرط التصحيح ومقدماته،فليس يصلح من أمر هذه الأمة إلا أن تلتمس طريقها الأصيل: (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) •

* * *

فكرة اليأس والقنوط

إن هناك محاولة متجددة لا تكف ولا تتوقف عن زرع فكرة اليأس والقنوط في النفس العربية الإسلامية ، وقد كانت هذه المحاولة قائمة منذ وقت بعيد ، ولكنها تحاول في السنوات الأخيرة أن تستغل تحديات النكسة وتجدد أساليبها ودعوتها ••• ومن واجب المسلمين والعرب أن يضعوا تحديات النكسة نصب أعينهم ، فلا ينسونها • ولا ريب أن الداعين إلى تجاهل النكسة ونسيانها والإغضاء عنها ليسوا مخلصين في دعواهم ، وليسوا صادقين في محاولاتهم ، إذ كيف يمكن تجاوز الواقع القائم بكل آثاره في الأرض والمجتمع والنفس •

إن إشاعة فكرة اليأس والقنوط لاتقل خطراً عن الدعوة إلى نسيان النكسة وتجاهلها ، ذلك أن النكسات والأحداث ما هي إلا العوامل الخطيرة المؤثرة التي تشحذ الهمم ، وتقيم الإرادة مرة أخرى لإعادة بناء الحياة على نحو أفضل •

ولا ريب أن المسلمين والعرب لايستطيعون أن يتجاوزوا الأحداث دون أن يتخذوا منها منطلقاً إلى تغيير واقعهم • ولقد كانت أحداث التاريخ المعاصر وتحدياته كلها عوامل مجددة لبناء الذاتية العربية الإسلامية على النحو الذي يحقق لها حسن اتصالها بجوهرها وأصولها وتراثها وقيمها التي تشكلت عليها ، والتي لم تهزم إلا حين خالفت عنها وفارقت • ومازالت الأحداث تدفع إلى تصحيح بعد تصحيح ، فقد ظن العرب والمسلمون أول الأمر أن (تقليد الغرب) هو الطريقة المثلى

للتساوي به ، وللتحرر من نفوذه ، وكان هناك دعاة لا يصدقون أمتهم الحق هم الذين حملوا لواء هذه الدعـوة ، وقـد كشفت الأيام زيف دعوتهم ، وتبين للعرب والمسلمين أن عملية التقليد والتبعية لم تحقـق أكثر من إحداث إطار مزخرف وهمي لصورة العواصف والأحـداث ، بل سرعان ما تحطم ، ذلك أن تقدير الدعاة إلى الاتجاه نحو الغـرب لم يكن صادقاً ، ولم يكن واقعياً ، فقد نسوا الفوارق العميقة بين الغرب والشرق ، وبين أوربا والعرب ، وبين الفكر الإسلامي والفكر الغربي ، وعجزوا عن فهم المعادلة الصعبة التي تحاول أن تنقل فكر مجتمـع الى مجتمع آخر ، أو تعليم منهج حياة في مجتمع له طابـعه وروحه وتراثـه منقولة من مجتمع آخر .

ومرت خمسون عاماً على التجربة دون أن تحقق شيئا ، وتبين أن الأمر محتاج إلى قارعة ، توقظ النفوس والقلوب ، وتجـدد العزائم ، وتدعو المفكرين والباحثين إلى إعادة النظر ، ولذلك فإن « النكسة » عامل هام من عوامل التحدي ، يمكن أن يصحح لنا الطريق ، ويمكن أن يعطينا عبرة التجربة مع التقليد ، فيردنا إلى الأصالة : ومن الحـق أن هذه العبرة قد بدأت تأخذ طريقاً صحيحا بعد أن تعالت الأصوات بمزيد من الشبهات حين دعا الداعون إلى الاستسلام الكامل إلى فكر الغرب ، وإلى مناهج الغرب ، وحصروا أسباب الهزيمة في الجوانب المادية وحدها ، غير أن الحقيقة لم تلبث أن تصاعـدت ، وأبطلت الباطـل ، وتأكد في غيرشبهة أن الأزمة التي يمر بها العرب والمسلمون إنمـا هي أزمة إيمان والعلم جزء منها ، وأن المسلمين والعرب في حاجة إلـى أن يتسلموا العبرة والتجربة هذه المرة من واقعهم ومن تراثهم ومن قيمهم التي هي وحدها التي تستطيع أن تعطيهم الضوء على الأحداث وهـي القادرة في نفس الوقت أن تعطيهم الخطة الكاملة نحو المواجهة والصمود

في وجه العدو ، فليست الدعوة إلى بناء القوى العلمية والتكنولوجية جديدة على العرب والمسلمين حيث يلتمسون فهمه من خارج دائرة فكرهم ، ولكنها قديمة ، وقد أشار إليها قرآنهم : « وأعدوا » وليس جديداً عليهم أن يطلبوا العلم المادي ، وأن يطبعوه داخل دائرة فكرهم ووفق مفاهيم الإسلام الذي يجعل العلم منطلقاً إلى رفع الظلم أو الطغيان.

ولقد علمتنا أصول فكرنا أن ننتفع بالأحداث والتحديات في تجديد حياتنا وبناء مقاومتها واستعادة مكانتنا وحقنا .

ومن هنا فإن الدعوة الى تجاوز النكسة لاتكون بنسيانها أو تجاهلها ، وإنما بالعمل في سبيل تحقيق أسلوب وخطة ومنطلق لبناء العصر الجديد للعرب والمسلمين .

أما محاولة زرع فكرة اليأس والقنوط في المسلمين والعرب ، فإنها دعوة لا تجد لها مكاناً إلا في النفوس التي أفرغت من قيم الدين والإيمان والخلق التي بنتها الأديان ، ورسم لها الإسلام أرقى صورة ومنهج . فالمسلمون والعرب الذين يؤمنون بقيمهم لا ينهزمون ، ولا يدخل اليأس في قلوبهم ، فهم متطلعون دائماً إلى إشراقة الشمس وضوء النهار ، يملأ نفوسهم الأمل الصادق القائم على تصحيح الاتجاه حتى يصبح قائماً على الحقيقة الأصيلة البعيدة عن خداع المضالين ، أو هدم الهدامين . إن المسلمين لاينهزمون من داخلهم أبداً إلا إذا تجاوزوا الإسلام ، وهم لا ينهزمون من خارجهم إلا إذا التمسوا منطلقاً غير منطلق الإسلام ، فهزيمتهم ليست هزيمة فكرهم الأصيل ، ولكنها هزيمة الانحراف عنه ، وعقوبة التماس مناهج الآخرين وأساليبهم ، بينما الآخرون أنفسهم عند ماجددوا حياتهم ، كانوا أكثر حذراً ، فلم

يأخذوا إلا المناهج والأساليب والأفكار العامة ، ثم قبلوا منها مايتفق مع شخصيتهم ، وأعادوا صياغتها من خلال إطار حياتهم . ونحن في أعماق أعماق فكرنا أكثر الناس إيماناً بكياننا الخاص وذاتيتنا الخاصة التي لاتقبل الاندماج أو الانصهار في أي ذاتية أخرى إلا إذا محيت ذاتيتها تماماً ، وهذا هو مصدر التمزق .

ومن الحق أن نقول : إننا لو كنا مستمسكين بقيمنا وذاتيتنا ومناهجنا وأصالتنا لما هزمنا أحد ، إن وجودنا خلال فترة الاستعمار وما بعدها كان في إطار الأصالة اسماً ، ولكنه لم يكن تطبيقاً ولا نظاماً .

إن حملة اليأس والقنوط قد تستطيع أن تدخل إلى النفوس الضالة مزيداً من الاضطراب والتمزق ، ولكنها لن تستطيع أن تؤثر شيئاً في النفوس المؤمنة التي تثق تماماً بأنها على الحق ، والتي يمدها الإيمان بالثقة في الله ، والتماس الطريق الصحيح .

إن علينا أن نقاوم حملة اليأس في النفوس الضعيفة ، ونثق بأن أسلوب النصر هو أن تدخل فريضة الجهاد مرة أخرى إلى حياة المسلمين ، وأن تأخذ مكانها الصحيح ، وأن يؤمن المسلمون والعرب بصناعة الموت ، وأن يجيدوها ، وأن يتقدموا مؤمنين بأن من طلب الموت توهب له الحياة .

إنه لا بد من بناء الأجيال الجديدة على الإيمان بالله ، والإيمان بالقدرة على مواجهة التحدي والخطر ، هذه الأجيال لابد أن تنطم عن الشهوات والأهواء والتحلل حتى تكون قادرة على أن تحمل الأمانة .

إن مذاهب الفكر الهدامة التي تحاول أن تفرض مفاهيم الترف والإباحة والتحلل من شأنها أن تحول كثيراً دون تحقيق عملية بناء الأجيال ، وهي تفتح الطريق واسعاً أمام تقبل النفس العربية الإسلامية لحملة اليأس والقنوط التي تريد أن تقول : بأن المسلمين والعرب قد انتهوا ، وأن قيمهم وتراثهم ومفاهيمهم قد دمرت، وأنهم بسبيل الدخول في مجال الإذابة **والانصهار** •

إن هناك في أعماق النفس العربية الإسلامية « منطقة فراغ » عجزت المناهج التربوية الوافدة عن أن تعطي لصاحبها اليقين **والإيمان** والتوحيد ، وغرس قوائم الصلابة والقدرة على المواجهة والمقاومة والتضحية في سبيل الله ، والاستشهاد في سبيل **الحق** •

هذه المنطقة الفراغ ، إن لم تملأها قيم الإسلام بعقيدته وأخلاقه وشريعته ، فإنها سوف تمتلىء بالمذاهب الجديدة الهدامة المبثوثة في كل مكان ، والتي أسقطت كثيراً من خيرة الشباب في براثنها فتهاووا إلى الغربة وإلى القلق والتمزق ، ومن ثم **أصبحوا** مؤهلين لتقبل دعوة اليأس والقنوط •

فلندفع عن أنفسنا هذا الخطر بكلمة الله الحق التي يجد الشباب نفسه في شوق إليها ، ويجد في نفسه الفراغ الذي يحتاج إلى أن يمتلىء **بالحق بدلا من أن يمتلىء بالقلق والتمزق** •

ولتكن النكسة تحدياً قائماً في أنفسنا لا يذهب ولا يغيب •

الـوحي والنبوة

تتردد هذه الايام كتابات جديدة عن الاسلام والفكر الاسلامي والثقافة العربية بأقلام كانت في الفترة الماضية من دعاة الوجودية أو المادية أو الوضعية المنطقية ، وليس هذا مستغربا ، فإن عددا من كتاب العصر الحديث أمثال : هيكل باشا وعباس العقاد وزكي مبارك ومنصور فهمي واسماعيل مظهر قد غيروا جلدهم في فترة الاربعينات ، واتخذوا مواقف جديدة مغايرة لمواقفهم في الثلاثينات ، وقد جرى تحليل هذا التحول ، وكشفت الايام خلفياته وأهدافه وحقائقه ، بل إن هناك من تحول من الشعر الجاهلي إلى هامش السيرة •

فليس غريبا أن نجد عددا من الذين عرفوا منذ مطالع حياتهم بطابع الفكر الغربي ، وقد تجددت أهدافهم أو أجروا محاولات جديدة إلى كسب جولات جديدة في محيط القراء والفكر •

فليس غريبا أن تهتدي النفس البشرية إلى طريق وطريق ، وأن تجد أنها كانت قد غفلت عن نهج ، أو عجزت عن ارتياد أفق ، ثم اتيحت لها الفرصة لارتياده ، أو جاءت مناسبة ما لزيارة بلد عربي أو إسلامي تحت أي ظرف ما ، ثم كان لهذا الجو النفسي والاجتماعي أثره الفكري وقديما غير زكي مبارك آراءه بزيارة الجزائر أو المغرب ، وغير محمود عزمي آراءه بزيارة فلسطين وغير هيكل باشا آراءه بزيارة دمشق ، وتحول دعاة المصرية والفرعونية والاقليمية إلى دعاة العروبة أو ماكانوا يسمونه (الأقطار الشرقية الشقيقة) فليس عجيبا إذاً أن يزور زائر مكة المكرمة ،

أو ينتدب جامعي في بلد عربي له طابعه الإسلامي ، ثم يكون من وراء ذلك رؤية جديدة للتراث ، أو فكرة جديدة عن التوحيد .

ولكن الملاحظ دائما أن العقل الذي تكون من خلال ثقافة الغرب أولا يحتاج إلى جهد كبير حتى يكون قادراً على استيعاب الفكر الإسلامي ، أو فهم الاسلام فهما صحيحا محررا من آثار المفهوم الغربي للعقائد ، وقد وجهت النقدات إلى كتابات الدكتور هيكل في حياة محمد ، وكتابات العقاد في العبقريات ، وكتابات طه حسين عن هامش السيرة وعثمان وعلي حول منهج الكتابة ومنطلقها .وقد اعتمدت كتاباتهم جميعا على مناهج الغرب في تحليل الشخصيات ، وفي مفهوم البطولة بما يختلف ، بل بما يتعارض مع مفهوم الاسلام .

وكذلك نجد هذا المنهج وقد أخذ طريقه إلى كتابات الأجيال الجديدة ، حيث يوصف الرسول بأنه بطل ومصلح ورسول الحرية ، وداعية الثورة وإلى غير ذلك من صفات تختلف تماما مع حقيقة الرسول النبي محمد بن عبد الله رسول الإسلام المؤيد بالوحي .

كذلك رأينا هؤلاء الكتاب الذين يقتحمون مجال الدراسات الإسلامية وهم يلتمسون في الفكر الإسلامي مفهوما مختلفا عن مفهوم المسلمين أنفسهم ، حيث يقف بعضهم عند التفكير الصوفي أو تفكير المعتزلة ، أو فكر الباطنية ، ثم يتمثل لنفسه أنه إنما يعبر عن مفهوم الإسلام .

والواقع أن هناك قضية أساسية في هذا المجال هي أن الفكر الإسلامي نما وتطور من خلال اقتحامه آفاقاً مختلفة ، منها الاعتزال والتصوف والفلسفة ، ولكنه انتهى إلى أن شكل نفسه تشكيلا واضحا استقلاليا

جامعا استقطب عصارة ما في هذه المذاهب من قيم واستوعبها في إطـار مفهومه الأصيل القائم على التوحيد والإيمان بالله •

فإذا جاء واحد من هؤلاء الباحثين ، فقصر نفسه على قطاع معـين من هذا الفكر ، أوعلى مرحلة معينة من تطور هذا الفكر قبل اكتماله في صورته النهائية **بوصفه « السنة الجامعة » فإنه يخطىء خطأ كبيرا حينما يرى أنه على الطريق الصحيح •**

والواقع أن الفكر الإسلامي قد صفى منذ وقت طويل خلافات الأحزاب السياسية التي تمثلت وراء هذه المذاهب الفكرية ، وامتص عصارتها ، وحررها من أطرها المرتبطة بعصر معين ، أو جيل معين ، واستصنعها فكرا إسلاميا خالصا يستوعب قضايا المجتمعات والعصور دون أن يكون موضع احتواء الفلسفات اليونانية والفارسية أو الهندية التي وفدت مذاهبهـا إلى أفق التصوف والكلام والعقائد ومن هنا فإن الداخلين الجدد في مجال الفكر الإسلامي بدعوى الاعتزال ، والقول بأنه يمثل الفكر الإسلامي ضالون ومضللون ، فالاعتزال وفكره مرحلة سياسية وفكرية قد انقضت وانطوت وجاء بعد ذلك جزرها **مدّ المفهوم** الإسلامي كما كشف عنـه الاشعري ، ثم ابن تيمية وهكذا•وليس الإسلام إذن دعوة عقلانيـة كما خيل لمجدد الفكر العربي **كما أنه** ليس مفهوما باطنيا أوصوفيا كما خيـل لمجدد تفسير القرآن ، وإنما الإسلام فكر رباني في طابعه إنساني في منطلقه يجمع بين العقل والقلب ، ويحرر نفسه بالتوحيد من كل سلطان غيرسلطان الواحد الأحد ، ولقد ينخدع بعض القراء حينما يرون باحثا اشتهر بالمادية أو بالوضعية قد أخذ يرد موارد الإسلام ، ولكنهم يجب أن يحذروا كل الحذر من أي فكر متلبس بالإسلام دون أن يكون على شروطه وأصوله، وبيننا وبينهم : النبوة والوحي •

ذلك أن الجولة الجديدة للاستشراق إنما تتميز بطابعها الصهيوني التلمودي وهو طابع يختلف عن الاستشراق الغربي سواء منه الكنسي الطابع ، أو الاستعماري الاتجاه .

هـذا الاستشراق يتكلـم كثيراً عن التوحيد ، وعـن دور الأديان ومهمتها ، وعن الدور الذي مضى وانقضى حين قام الإسلام برسالته في مرحلة سابقة ، فأدى للبشرية خدمـة كبرى ، كأنما كان الإسلام مرحلة انقضت ، وكأنما ليس هو الرسالة الخالدة الباقية إلى يوم الدين وأبرز مظاهر هذا الطابع الحديث من الاستشراق التشكيك في الوحي والنبوة ومحاولة تصوير الأنبياء والرسل على أنهم أبطال ومصلحون استوعبـوا فكر أمتهم ، واستطاعوا صياغة التراث القديم في صور لجديدة إلى غيرهذا من دعوة مبطلة مضللة .

ولاريب أن أصحاب مثل هذه الدعوى ممن يوضع فكرهم في دائرة التغريب والتبشير والغزو الثقافي،ويعاملون معاملة المبشرين والمستشرقين.

وأخطر مايقول هؤلاء « إن القرآن انطباع في نفس محمد نشأ عنه تأثير البيئة التي عاش فيها ، أو أن القرآن فيض من العقل الباطن وليس وحيا إلهيا اعتمادا على القول بعبقرية محمد وألمعيته وصفاء نفسه .

ولا ريب أن هدف إثارة هذه الشبهة محاولة قطع الصلةبين المسلمين وبين القرآن « فإنه ان كان من كلام محمد كان من عمل البشر ، وبذلك فقد معناه الأسمى ، وتفرق المسلمون ، وانتهى أمر الاجتماع عليه » .

ونحن نعرف أن هناك فرقا واضحا بين كلام محمد وكلام القرآن في النسق والنظم . ولقد كان محمد — صلى الله عليه وسلم — أميا لا يقرأ ولايكتب ، وتلك حجة تدحض قـول القائلين بأنه عـرف مافي الكتب السابقة ، ولقد كان علمه بشؤون قومه لايزيد على علم غيره ، فمن الذي اطلعه على قصص الأولين .

ولاريب أن الوحي ليس ظاهرة نفسية داخلية تبعث من كيانه صلى الله عليه وسلم . وإنما هي حقيقة خارجة عن ذاته استقبلها من خارج كيانه كما ينطق بذلك حديث بدء الوحي .

ولما كان الوحي هو حجر الرحى في النبوة ، وفي الدين كله . فقد ركز عليه دعاة التغريب ، وأثاروا حوله الشبهات ، وزعموا أنه نوع من الإلهام الخفي . وزعم آخرون أنه كان إشراقا روحيا . ووصفه آخرون بأنه نوع من الصرع .

ونحن المسلمين نؤمن بالوحي إيمانا كاملا كجزء من إيماننا بالغيب والنبوة ، ونرى أن معارضيه أو المشككين فيه ليسوا من جماعة المسلمين، وأن زيفهم مهما وضع في قوالب براقة ، فإنه لايخدع النفس المسلمة .

وقضية الوحي والنبوة هي كبرى الركائز في بناء المجتمعات والحضارات . والتماس منهج القرآن وشريعة الإسلام ، والتشكيك فيها محاولة لقطع الصلة بين المسلمين وبين القرآن الذي هو الأثر الوحيد الباقي على الأرض من رسالة السماء وهو الهدي الممتد بالضوء إلى النفس البشرية والامم والمجتمعات إلى يوم الدين .

ولا ريب أن محاولة النظريات المادية المستحدثة في معارضة الوحي والنبوة والغيب كله هي معارضة حققت أسباب فشلها في واقع الأمم والمجتمعات التي اعتنقت هذه النظريات .

فقد تأكد بالبحث أن العقل غير كاف وحده في فهم كل شيء ، وأن العلم قد عجز عن أن يقدم إجابات عن الأشياء . وإنما يقف بهيمانه عند حدود « ظواهر الأشياء » وأن المجتمعات التي صنعت شرائعها وقوانينها وأيدلوجياتها قد فشلت وعجزت عن أن تحقق المجتمع الصحيح ، أو أن ترد للنفس الإنسانية سكينتها وطمأنينتها .

ومن هنا كانت البشرية دوما في حاجة إلى نبي والى وحي ، هـذا النبي وهذا الوحي لايعارضان العقل ، بل يلتقيان معه في طريق الفطـرة الإنسانيـة .

ومن ثم يؤكد العقل دليل الوحي ، فالنبي يرشد العقل ، ويهديـه فيما لايستقل بمعرفته مثل الغيب والمعاد والآخرة والجزاء ، ويكشف عن وجوه الأشياء التي لاتدرك بالعقل ، حسنها وقبيحها ، ومن هنا كـانت ضرورة النبوة والوحي للبشرية .

ولقد ثبت زيف دعوى العلوم الاجتماعية والأخلاقية والنفسية في دعوتها الباطلة بوصاية الأديان على الإنسان بعد أن بلغت البشرية رشدها ذلك أن البشريةلم تبلغ رشدها بعد وهي تقف على أهبة الصراع الذري ، وهوله يهزها من الأعماق ، فليس هناك سبيل إزاء التقدم المادي إلا الدين والوحي هاديا ومرشدا ، ومن الحق أن يقال : إن البشرية على الرغم من هذا الزمن الطويل الذي يقدر بملايين السنين مازالتعاجزة علىحد تعبير الأستاذ محمد المجذوب ــ عن حماية نفسها من المطامع والحروبوالمذابح ولن يحميها من ذلك إلا الوحي والنبوة .

وجملة القول ان بيننا وبين الداخلين إلى ساحة الإسلام : الوحي والنبـوة .

الإسلام وروح الغرب

إن المقارنات الفكرية والتاريخية تؤكد بوضوح تلك الذاتية الإسلامية التي تحمل طابعها المفرد ، في مواجهة كل العقائد والتحديات ، والقضايا التي يطرحها الغرب عليها ، وهي فيما عدا الطابع الإنساني العام الذي يجمع البشر جميعا على مسلمة فكرية واحدة ، فإن الثقافات والعقائد تختلف في مواجهة الأحداث والأمور كلها بعد ذلك .

ولقد كان الناس أمة واحدة ، كما أشار القرآن ، ولكن اختلفوا عندما جاءهم العلم بغيا بينهم . فآثر قوم منهج الوحي الرباني الذي جاءت به الأديان ، وعزف قوم آخرون عنه ، واختاروا التجربة الخاصة القائمة على الأدوات التي لم تستكمل نموها كالعقل ، أو حصانتها من الخطأ كالهوى والرأي .

ولقد كان المسلمون ينبهرون أمام حضارة أوربا المادية ، وأمام تلك المعطيات البراقة الزاهية التي تتمثل في ضخامة المباني ، وسرعة الانتقال والإضاءة ، والترف ، والملاعب ، والأزياء وغيرها من الجوانب المادية ، فظنوا أنها هي علامات التقدم والرقي ، ثم انكشف لهم بعدقليل أن الغرب يقدم لهم جوانب الاستهلاك والترف ، ويخفي عنهم جوانب العلم وأسرار التكنولوجيا ، وهو مايحتاجون إليه ، وماكانوا قد سبقوا إلى تقديم أسسه ودعائمه . عندما وضع أجدادهم المنهج العلمي التجريبي ، وجعلوه إنسانيا عاما ، وقدموه للبشرية كلها ، ولم يقصروه على أنفسهم ، ولم يجعلوه من الأسرار الخفية ، فقد كان المسلمون يؤمنون بالاندماج في

الأجناس والأمم لاينفصلون عنها ، وكانوا يجعلون العلم مشاعا للناس جميعــا •

أما الغرب فعندما علا موجة القوة ، وأقام على وصاية الحضارة ، فإنه جعلها كما جعل القانون والحرية وكل شيء خاصا بالجنس الأبيض وحده ، وجعل الدنيا كلها من بعده عبيدا لايستحقون العدالة ولا الحرية ولا العلم ، فإذا قدم لهم شيئا ، فإنما يقدم لهـم حصاد الهشيم ، يقــدم لهم المذاهب الفلسفية المتضاربة الملحدة الإباحية ، ويقدم لهم مــذاهب الشك والهوى والتحلل ، ويقدم لهم مــن الجوانب المادية كــل مايتعلق بتدمير نفوسهم ، وضياع ثرواتهم ، فضلا عن اغتصابه لمصادر الثروات أصلا من نفط وذهب ومنجنيز وكوبالت وغيره •

ولقد مضى الغرب في منهجه الذي اقتفى منه أثر العبودية اليونانية الرومانية ، وحمل لواء الاستعبــاد للشعوب ، واصطنــع أساليب سفك الدماء والإذلال ، مما هو معارض تماما للعقيدة المسيحية التي آمن بها ، والتي جاءته من الشرق ، فسرعان ما أنكــر معطيات حضارة الإسلام ، وتجاوز عن طابع الرحمة الذي جاءته به المسيحية ، وعاد إلــى الوثنيــة الهلينية ، والعبودية الرومانية ، وأقام حياته الاجتماعية عــلى التــرف والتحلل والإباحة ، وأنشأ حضارة الربا ، وعبد الذهب والمصارف ، وأقام المسارح في مكان الكنائس ودور العبادة • وبذلك خرج عــن مضمون الدين والخلق جميعا ، وكان لليهودية التلمودية أثرها الكبير في هــذا التحول : التحول بالحضارة إلى الترف ، وبالفكر إلى المادية ، وبذلــك سقط في أزمة التمزق والقلــق ، والانهيــار النفسي والروحي الــذي لاسبيل إلى التخلص منه •

لقد شاء الغرب أن يقيم لنفسه منهج حيــاة ، وحين عارض طابــع الدين كما وصل إليه من المسيحية وجد الطريق مسدودا أمامه ليصل إلى

حقيقة الدين كما جاء به الإسلام ، وبذلك سقط صريع خصومة الـدين كله ، وعجزت الفلسفة في مذاهبها المختلفة وأيدلوجيتها المتعددة من مادية ووجودية وليبرالية واشتراكية أن تعيد إليه طمأنينـة النفس وسكينـة القلـب .

يقول « ليوبولد فايس » : إن روح الغرب يتمثل في جحودالغربيين لوجود نفس مفارقة للمادة ، منفصلة عنها ، ومخالفة لهـا ، وإن المدنيـة الغربية الحديثة لاتقر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيـات اقتصاديـة أو اجتماعية أو قومية ، إن معبودها الحقيقي ليس من نـوع روحاني ، ولكنه الرفاهية ، وإن فلسفتها الحقيقية المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها عن طريق الرغبة في القوة ، وكلا هـذين مـوروث عن المدنيـة الرومانية القديمة .

وعلى هذا النحو من الاضطراب الشامل ، والتمزق والعجز عـن تحقيق رسالة مجتمع سليم ، ومن خلال فلسفات متضاربة كلها تنكر الله والحق والأخلاق ، يجري المسلمون ويلهثون مقلدين تابعين تحت وهج الصورة البراقة من طابع الحضارة المترفة الذي يأخذ بألبابهم ، ولوعلموا لعرفوا أن الإسلام يعطيهم أول ما يعطيهم : العلم التجريبي الذي ينشىء الحضارة ، ولكنه يضعها في إطار الإيمان والقوة والعدل ، فلاتكون ظالمة للبشرية ، ولا متسلطة عليها ، ولا مفرقة بين الأجناس ، ولا معلية للعنصر، ولا مندفعة وراء الشهوات والترف والإباحة والتحلل،ولكنها تقيم الحياة على ميزان الحق والعدل . حيث يرى الإسلام الجمع بين المادة والروح ، والعقل والقلب ، ويقرر أن الرقي والتقدم ليس هو تقدما ماديا فيالحقيقة ولكنه تقدم روحي ومادي .

وإن أي تجاوز بالحضارة ، أو العلم ، أو التكنولوجيا إلـى الإفساد في

الأرض ، أو الشر ، أو الظلم أو الإباحة ، إنما يشجبه الإسلام ويرفضه ، والرقي مادي وروحي في دائرة الخير والحق والعدل .

وقد حاول بعض المفكرين عندما اضطربت حضارة أوربا أن يتجهوا إلى عنصر روحي يطعمون به الحضارة المادية ، ودعا بعض فلاسفتهم من أمثال (هرمان دي كاليرنج ، ودينيه جيبون ، وحان كان ، وموريس ماتركنك) إلى تحرير الحضارة والفكر الغربي من المادية الصارخة ، ولكنهم مع الأسف ضلوا الطريق وتخطوا الإسلام وهو أمامهم إلى دراسة آداب الهند ، والبحث في البرهمة والبوذية ، فسقطوا في خطر جديد ، هو أشد خطرا من المادية الخادعة . فإن اجتمع إليها كان شراً مستطيرا ، فقد كانت « النيوصوفية » الشرقية بعيدة كل البعد أن تمد الحضارة الغربية المادية، والفكر الأوربي — المنقسم على نفسه بين الليبرالية والماركسية — زيتا يضيء النفس الإنسانية ، أو يحل أزمة الإنسان الغربي أو الفكر الغربي .

ذلك أن هذه الفلسفات قد نضب زيتها ، ولم تعد قادرة على أن تمد أحداً بشيء ما . فهي في ذاتها منحرفة تؤله الانسان ، وتدعو إلى عبودية الفرد ، وإلى التناسخ والحلول والاتحاد وكلها مذاهب مغرقة في الضلال .

ولم يعد غير الإسلام وحده هو القادر على العطاء ، ولكن أوربا ومن ورائها اليهودية التلمودية تحاذر ذلك تمام المحاذرة ، وتصد عنه صدودا .

أما البوذية والبرهمية ، فإنها تلتقي مع الوثنية اليونانية القديمة في أصول كثيرة ، وفي الفكر الغربي المسيحي تشابه وتقابل وصلات قديمة . أما الإسلام ، فإنه يتميز بالذاتية الخاصة ، والطابع المنفرد القائم

على التوحيد الخالص الذي ينكر كل زيوف التعـدد والتثنية والشرك والإباحة والإلحاد .

وإلى الذين مازال الفكر الغربي يبهرهم يقدم التاريـخ صـورا لاتقبل النقض ، ويقدم الواقع يوما بعد يوم مواقف تكشف عن تخلخل هذه الحضارة وفسادها واضطراب كيانها ، فهي تحمل في أعمق أعماقها طابع البعد عـن الانصاف في النظرة إلـى الغير ، والاستعلاء بالجنس ، واعتبار الغرب مصدرا والعالم كله متلقيا ، فالتاريخ يبدأ مـن الغرب ، وينتهي في الغرب ، وليس للعالم كله حساب ، والحضارة هي حضـارة الغرب بدأها في « اليونان وروما نيا » ثم عادت بعد ألف سنة إلى أوربا وحدها ، وهناك دعوى أمانة الحضارة ورسالة الجنس الأبيض .

وكل وقائع التاريخ تثبت بطلان هذه الدعاوى وزيفها ، فلم يزل الغرب يصطرع بين الطبقات والدعوات ، وبين الفردية والجماعية ، ولقد كان يعيش في نظام الاقطاع ، ونظام الأرقاء ، ثم تحول إلـى محاكـم التفتيش ، وهو الذي أصر على ألا يبقى في أوربا عربي أو مسلم واحد ، وهو الذي شن الحروب الصليبية على الشرق ، وحروب الفرنجة علـى الأندلس ، وحروب الفتح على إفريقيا ، وطوق العالم الإسلامي كلـه في سبيل السيطرة عليه ، وهو الـذي عايش صراع القوميات بعـد صراع المذاهب الدينية ، ثم لم يلبث أن واجه صراع الأيدلوجيات بعـد صراع القوميات ، وهو الذي وقع تحت سيطرة الآلة وأخطار الحرب العالمية والذرة بعد أن عجزت الأيدلوجيات أن تقيم مجتمعا ناجحا ، وعجز العلم عن أن يقدم الرحمة والإخاء .

أين هذا من الإسلام الذي حرر الإنسان من الوثنيـة ، وحـرر البشرية من العبودية ، وأقام مجتمع الإخاء الإنساني ، وربط بين الناس جميعا بدعوة وحدة الجنس البشري : «الناس كلهم لآدم وآدم من تراب،

لافضل لأبيض على أحمر ، ولا لأحمر على أبيض إلا بالتقوى » وهو الغرب الذي سقط في دوامة امبراطورية الربا اليهودية التلمودية ، وسقط في أحضان الإباحة والتحلل ، حتى كتب : « رومان رولان » بعد سقوط فرنسا تحت سنابك جحافل النازية في الحرب العالمية الثانية ، يقول : «إن الأمم الضعيفة الأخلاق، الماجنة التفكير في أدبها وحياتها يتسرب اليها الخمول والاستسلام تسرب الانحلال في الشجرة النخرة ، فإذا لم تتلاف الأمم هذا الداء الوبيل قاضية على جراثيمه الفتاكة سارت إلى الانقراض على ما يذكر التاريخ . وإن الضعف الأخلاقي والأدب الماجن المستهتر والانغماس في أقذار الدعارة كان السبب الأهم في انهيار صولتها وانطفاء نورها وانطواء أعلامها في ساحة الجهاد .

ولقد خطت أوربا والغرب خطوات أشد عنفا في مجال الإباحة والانحلال بعد الحرب العالمية ، تحت ألوية الوجودية ، وشعارات الفكر الحر .

وسيطر الطابع المادي في مجال الإنسانيات والنفس والأخلاق والاجتماع وأصبحت النظرة إلى الإنسان على أنه حيوان تنطبق عليه التجارب التي تجرى على الحيوان ، وقد كبر العقل ، وجمد القلب ، وخفت الضمير ، وغاضت الروح ، وتدافعت ثورات الشباب وكلها غاضبة رافضة لمجتمعات الشرق والغرب جميعا ، مندفعة إلى فلسفة الهيبية بعد فلسفة الوجودية من سيء إلى أسوأ ومن أسوأ إلى أشد سوءا .

ومازال قوى الشر تتلاعب بالبشرية وتحاول أن تحطم مقومات الإنسان فيها لتردها إلى الحيوانية وإلى الغابة وإلى العصور الحجرية .

وأسوأ ما تكشف عنه الإحصائيات : انتشار الخمر ، وانتشار المكيفات وأسوؤها المرجوانا ، وأشد منه دلالة على الانحلال : سقوط الغيرة عن الرجل تجاه زوجته ، وتلاشي العاطفة الرحيمة بين الرجل

وأهله ،وأمه وأبيه . وتحطم العلاقة الاجتماعية في الأسرة والمجتمع ، وقيام فكرة الرأي الحر ، وعدم الوصاية على الأبناء وكراهية الأب ، والاندفاع نحو القول بأن الأسرة ليست هي الفطرة ، وأن الجريمة هي الفطرة على ماتقول فلسفات : « دوركايم » و « ليفي بريل » . وهدف هذا كله هو تمزيق كيان المجتمع المتكامل نحو هدف واحد، والقائم على وحدة فكر ، وخلق اتجاهات فكرية متعددة بعدد أفراد المجتمع حتى تتلاشى القيم والمقدسات والأخلاق والروابط جميعاً .

أما الإسلام ، وأما الفكر الإسلامي ، فإنه يمثل نقطة النور الباقية في العالم كله في اطار الظلام الحالك ، ومنه سينطلق الضوء مرة أخرى للبشرية ليردها إلى الحق ، ولن تنتصر أحلام الصهيونية في السيطرة على العالم ، لأنها تتحرك ضد تيار الإيمان والعدل والفطرة والعلم جميعا . وسوف تنهار دعواها تحت سنابك خيل الله .

١ ـ حرر الإسلام العقل والنفس الإنسانية من الوثنيات وعبادة غير الله كما حرم التفاضل بالأجناس والأنساب ، وأنكر العصبية ، ورفض استعلاء الوجدانيين أو العقلانيين ، وقرر أن أبرز مفاهيمه هي المطابقة بين العقيدة والعمل والكلمة والسلوك .

٢ ـ اعترف الإسلام بميول وعواطف الإنسان ، فقرر أن في الإنسان ميولا وعواطف مختلفة ، وكلها فيه غريزية طبيعية أودعها فطرته لتكمل في شخصه ونوعه .

ولقد كانت الدعوة إلى الحرمان ووقف تيار هذه الميول بالرياضات قبل الإسلام سببا في تعطيل قوى النفس الإنسانية .

أنكر الإسلام طريقين آخرين لتحرير الانسان هما : التقشف والاباحة ووضع الإسلام طرائق لتطهير النفس كالعبادات والصوم ، وتهذيب النفس أصل من الأصول في الحضارة الإسلامية ، ذلك لأن على الإنسان أن يتحرر من ميول النفس ورغائبها وأهوائها وخضوعها لغير الله .

٣ ـ إن الإسلام لم يعرف روح النسك التي عرفتها بيئات الاديرة والصومع ، وإنما أباح للمسلم التمتع بزينة الحياة الدنيا والطيبات من الرزق الحلال المشروع : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) لم يستسلم المسلمون ولم يكن إيمانهم بالقضاء والقدر داعية استسلام ، بل داعية تحفز وعمل وتضحية بالنفس في سبيل الحق الذي آمنوا به واعتنقوه ، أما المناضلة ضد الغيب بمفهوم كشف أسرار المادة وما يكمن فيها من تفاعل ، فإنهم قد ذهبوا

في ذلك إلى أبعد شوط ، ولكنهم كانوا مؤمنين بالله ، فعفوا عن مثل ألفاظ مناضلة الغيب ، أو صراع القدر ، أو قهر الطبيعة ، وهذه كلها عبارات لايقرها الإسلام .

الإسلام يؤمن بتذليل الطبيعة لاتحدي الطبيعة .. ويؤمن أيضا بلقاء الأجيال لاصراع الأجيال ..

٤ ـ لايقر الإسلام تغير الأخلاق بتغير البيئات والعصور . ولا يقر نظرية التطور المطلق الذي يتحرك في فراغ ، ولايقر تقديس العقل وعبادة البطل . « إن مفهوم الأخلاق هو خلافنا الأساسي مع الفلسفات المادية ، وإن مفهوم التوحيد هو ميزنا الأصيل مع الفلسفات الوثنية » .

٥ ـ في الاسلام ليس الانسان شريرا على وجه الاطلاق ، وليست عليه مسؤولية خطيئة سابقة ، وليست الخطيئة متأصلة في كيانه . هذه وجهة النظر المتشائمة التي لايقرها الإسلام ، وليس الإنسان ذا طبيعة صالحة خيرة على إطلاق القول ، والإسلام يرى في الانسان طبيعة الخير والشر ، وإن إيمانه بالله هو الذي يرده عن الشر ، وليس الإنسان عبدا لمواريثه أو لبيئته ، بل إنه قادر بالفهم لمهمته أن يحرر نفسه من كل الأخطاء .

٦ ـ الأخلاق في مفهوم الإسلام قوانين أخلاقية ثابتة يميز بها الحسن والقبيح ، والحلال والحرام ، والخير والشر .

٧ ـ والمسلم يرى العدل حسنا حين يأمر به الله ، والمسلم يؤمن بأن إرادة الله وراء القوانين ، وهي تجعل الحسن حسنا ، والقبيح قبيحا .

وإن أبرز مفاهيم الإسلام أنه لا انفصال بين الدين والحياة ، وبين الدنيا والآخرة ، وبين الروح والجسم ، وبين الواقع والخيال ، فالإسلام يرفض تمزيق الجبهة الفكرية بين الاقتصاد والسياسة، والاجتماع والدين، ويؤكده التقاء كل الأنشطة في اتجاه واحد قوامه :

وبذلك يقضي على كثير من الأخطار التي تواجه العالم المعاصر ، والنفس الإنسانية والتي هي مصدر أزمة الإنسان الحديث ، إن أزمة القلق التي يعانيها المثقف المسلم اليوم ، إنما تعود إلى أصل واحد ، ومصدر واحد هو أنه ترك مقوماته الأساسية وقيمه في نفس الوقت الذي أخذ يواجه فيه النظريات والمذاهب العالمية ، ولو أنه التقى بالفكر الإسلامي ، وهو صادر عن قيمه ، ومقيم على قاعدته ، لما وقع في مثل هذا التمزق أو هذه الأزمة .

ولعل أبرز مقومات الفكر الإسلامي الأساسية هي تلك القدرة الدائمة على مقاومة كل عدوان ، وتأصل القوة المدخرة وبروزها على نحو مذهل إبان التحدي ، وذلك حتى في أشد فترات الضعف والقدرة الدائمة على مقاومة كل ما يضاد مفاهيمنا وقيمنا على مدى التاريخ كله، والإيمان بالذود عن مقوماتنا الأصيلة .

٨ — إن روح الإسلام ومنهجه الجامع بين الأخلاق والشريعة في ظل عقيدة التوحيد لا يعارض سير الحضارة ، أو يتعارض مع تقدم العالم بل هو يدفعها دفعا إلى الغايات العليا،ولكنه يتعارض مع التجاوزات الإباحية التي فرضها الإلحاد والتي ليست هي من مفهوم الحضارة بمعنى أنها دعوة إلى التقدم ، ومن هنا فإن القول بأن الدين بعامة والإسلام خاصة يعارض تقدم الحضارة هو قول مردود فالحقيقة أنه يعارض تقدم هذا الجانب من الإباحية والإلحاد والنظرة المادية وليست هذه هي الحضارة .

إن الحضارة بمفهوم العلم التكنولوجي والتقدم في أساليب الحياة

تجري مع الإسلام ، ولكن الخلاف هو في محاولة فرض منهج اجتماعي وأخلاقي على المجتمع لايقوم على أساس الضوابط التي قدمها الدين الحق ، وعلى أساس الأخلاق أصلا .

إن الخلاف حول نقطة أساسية : هل الأخلاق ثابتة أم متغيرة ، والإسلام يقول : إنها ثابتة ترتبط بالإنسان . وإن الإنسان روح ومادة ، وليس مادة خالصة .

فإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة ، فالإسلام يختلف فيه عن مفهوم الغرب ، ويرى أنه ليس المنهج الذي يدفع البشرية إلى التقدم بمعناه الحقيقي .

والإسلام يرى أن كل حضارة لاترتكز على الخير والعدل حضارة زائفة ، إن حضارة الإسلام تستهدف ترقية النفس الإنسانية ، وتحريرها من قيود الأهواء والشهوات بحيث تصبح « ربانية الهدف إنسانية الطابع » تعمل لله وتتجه بالخير إلى الناس جميعا .

وقد اعترف الإسلام بناموس الترقي ، واعتبر الإنسان مسوقا لغايات من المدنية لم ينلها إلى اليوم .

٩ — قرر الإسلام أن للوجود الإنساني سننا لاتتبدل ولاتتحول، ولاتزال عامة على مقتضى نطاقها المقرر لها .

١٠ — لايقر الإسلام إقصاء الدين عن منطقة الحياة الاجتماعية. بل يرى أنه إليها ، والإسلام جماع بين العقيدة والشريعة والأخلاق ، فهو ينظم العلاقة بين الله والإنسان ، كما نظم العلاقة بين الإنسان والمجتمع كله ، ومن هنا فقد أقام الإسلام منهجا متكاملا للخطوط العامة التي يقوم عليها سلوك الإنسان في الحياة إزاء نفسه ، وإزاء باقي الجماعة ، وهو

منهج مرن واسع ، تقوم السماحة بالعفو عن الاضطرار فيه كقاعدة أساسية ، وهدفه من ضوابطه وحدوده حماية الإنسان نفسه ، واحتفاظه بقواه وشخصيته ، وهو منهج متكامل جامع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب يعترف بغرائز الإنسان وحاجاته الطبيعية ، ويسمح له بممارستها في حدود المحافظة على كيانه ودون العدوان على حقوق الآخرين •

وليس مفهوم الإسلام في الترابط بين الدين والمجتمع كمفهوم العقائد التي تفصل بينهما •

١١ ــ من طبيعة الإسلام قدرته على التوفيق في براعة بين المتناقضات جميعا دون أن يميل إلى جانب أو يغلب كفة على أخرى ، فهو يدعم الجماعية والفردية ، كما أنه يربط بين الروحية والمادية ،ويستوعب النفس الإنسانية والعقل الإنساني في مختلف أبعادهما •

ومن طبيعة الاسلام الجمع بين الثبات والحركة ، وهو يقيم الحركة في إطار الثبات وعلى قاعدته ، وهو في نفس الوقت الذي لايقر فيه التعصب والتزمت ، ولا يقر الانطلاق والحرية غير المنضبطة ، وهو يفسح للرغبات والمطامع طريقها إلى التحقيق ، ولكنه يحيطه بالضوابط التي تحميه من الفساد والإباحة ، وهو يرفض الرهبانية والزهادة في نفس الوقت الذي يرفض فيه الترف والتحلل ، والإسلام يطالب المسلمين بالحركة ، ويعتبر وسائلهم وأساليب معيشتهم والاخذ من كل جديد في إطار حكمهم ومبادئهم ودون التضحية بها •

١٢ ــ لا بد من التفريق بين العقيدة في أصولها السمحة ، وبين عملية التطبيق في المجتمع الإسلامي ، وكذلك التفرقة بين مراحل القوة ، ومراحل الضعف •

إن المبادىء الأساسية للاسلام ستظل قابلة للتطبيق ، لأنها مثل أعلى

في الأصالة والواقعية والسماحة ، ومطابقة الفطرة والجري مع الطبيعة البشرية طرداً وعكساً .

ولا ريب أن توقفها وتغلب مذاهب أخرى عليها في هذا العصر ليس إلا عرضاً من أعراض ضعف المسلمين ، وعجزهم عن القيام على مناهجهم، وهو عرض زائل يسر بكل الأمم ، ثم تكون اليقظة عاملا على تجاوزه .

وفي المبادىء الإسلامية من المرونة والسماحة ما يصلح المجتمع البشري كله ، ويقدم له أصدق الحلول لمشاكله وقضاياه من خلال الإيمان بالله والأخلاق ، وقيام المسؤولية الفردية في ظل الإيمان بالبعث والجزاء .

ولا ريب تنكشف يوماً بعد يوم أخطار الانحراف الذي أصاب البشرية ، وما تزال الصيحات تعلو حول ما أسموه « أزمة الإنسان الحديث » فقد اعترفوا بالأزمة ، وعجزوا عن حلها ، وقدمت لهم طرائق جديدة هي في الواقع متاهات جديدة ، وسوف لا يجدون بعد الجهد الجهيد إلا أسلوب الإسلام : أسلوب الفطرة المنزل من عند الله .

١٣ — ولا ريب أن دعوى أن الإيمان بقضاء الله وقدره مدعاة للتواكل هي دعوى منقوضة من أساسها ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر كما جاءت به الأديان السماوية مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب ، فهم مطالبون بالأسباب مفروض عليهم السعي لها ، والأخذ بها ، ومطالبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم .

ومن هنا كانت عقيدة الايمان بالقضاء والقدر سر عظمة المسلمين الأولين ، لأنهم أخذوا في الأسباب ، وبذلوا جهدهم في استقصائها إنفاذاً لأمر الله ، ولم يتهيبوا النتائج الضارة المؤلمة رضى بقضاء الله ، ففازوا بالحسنيين ، وكان أحدهم حين يخرج للجهاد في سبيل الله لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

وما ابتلي الناس بهذا التواكل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً ، فأخذوا بها في الأسباب فلم يستعدوا ، ونسوها في النتائج فلم يرضوا[1] .

ولا ريب أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين إلى التقدم ، وجرأهم على المخاطر لتوسيع رقعة الإسلام ، والدفاع عن حوزته على مر الأيام .

والمعنى الحقيقي للإيمان بالقضاء والقدر هو أن يؤمن المرء بأن الله خلق عالماً يسير على وفق نظام دقيق ، وعلى المرء أن يعمل وفق طبيعة ذلك العالم ، فإنه على من يؤمن بالقضاء والقدر أن يقوم بعمله بهمة وإيمان ، ولا عليه من النتائج التي هي من قدر الله وقضائه .

١٤ ــ إن أثر الإسلام واضح في كل الثورات التي قامت على القيود التي تمنع العقل من التفكير ، أو تفرض حماية خاصة تحتفظ بالأسرار وإليها ترد الأمور ، ومن الاسلام انطلقت الدعوة الى تحرير الفكر البشري من الوثنية ، وانطلقت الدعوة الى حق كل مسلم أن يفهم كتاب الله دون وسيط ، وأن يتصل بالله دون وسيط ، وباسم الإسلام انطلقت الدعوة إلى التحرر من الطغيان والظلم ، وعدم الخضوع لجور المستبدين .

وباسم الإسلام انطلقت الدعوة الى النظر في الكون والبحث عن الدليل ، وإنكار التبعية ورفض التعلق بالباطل ، والتحرر من عقائد الآباء إذا لم تكن قائمة على الحق الواضح الذي يقره التوحيد .

ومن منطلق القرآن تجردت البشرية حضارياً من مفهوم العبودية الذي سيطر على كل الحضارات القديمة (فرعونية وفارسية ورومانية) ، وجعل البشر رقيقا لمجموعة قليلة من السادة .

---

١ ــ صاحب الشهاب .

ومن مفهـــوم القرآن والإسلام انتقلت البشرية من منهـــج التأمل النظري إلى منهج التجريب ، وإخضاع الأمور للبحث العلمي •

ومن مفهوم القرآن انطلقت الدعوة إلى مقاييس الإيمان بالله وإعلائها على مقاييس العصبية والعنصرية وخلق الجماعة التي تربطها رابطة الفكر والعقيدة بدلاً من رابطة الدم والعنصر •

ومن منطلق القرآن تحرر الإنسان من أخطار البحث عن الله والكون والموت والبعث ، فقد قدم له منهجاً متكاملاً موحى به يعجز العقل عن الوصول إليه ، ولكن لا يعجز عن إدراكه ، وبذلك حلت أعظم القضايا التي كانت مصدراً للخلاف قروناً طويلة •

١٥ ــ لا يمكن تفسير التاريخ الإسلامي بالظروف الماديــة ، أو بتحديات الاقتصاد وحده ، ذلك لأن هناك عوامل أخرى مختلفة تحكم تاريخ الأمم وبعضها غير مادي ، وتاريخ الإسلام تحكمه عوامل كثيرة ، منها عوامل نفسية وروحية •

١٦ ــ لقد عجز العلم عن تقديم تفسير نهائي لكل الأشياء ، وفي الإسلام ليس هناك تناقض بين الإيمان والعلم ، والمسلم لا يجد في منجزات العلم ما يتعارض مع الإيمان ، والفكر الغربي وحده هو الذي فرق بين النظرة الدينية والنظرة العقلية والعلمية •

١٧ ــ إن النضالات الوطنية قد انطلقت تحت رايــة الجهاد في سبيل الله قبل أن تنطلق تحت راية الجهاد في سبيل الوطن ، ولقــد كان الإسلام في أغلب هذه النضالات رمزاً للمقاومة الروحية ضد الاحتلال والاستعباد الاستعماري •

وقد كان الإسلام هو الضمان لاستمرار وحدة اللغة والثقافــة ، وكانت تتجســد فيه كل القيم المتغــيرة التي لم تكن متوفــرة في ظــل الاستعمــار •

١٨ ـ الحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، وليست حركة عشواء بلا ضابط ولا نظام ، ولما كان لكل كوكب فلك ومدار ومحور ، كذلك فالحياة البشرية لابد لها من محور ثابت ، ولا بد لها من فلك تدور فيه ، وإلا انتهت في أمرها إلى الفوضى .

١٩ ـ إن الفصل بين الدولة والدين هي نتاج وافد غريب ، وهي معطيات العقائد الأوربية في تشكيلها وصراعها خلال تاريخ طويل ، ولكنه ليس من معطيات الإسلام ، بل إن الإسلام في تكامله وترابط القيم فيه تقيم من الدين والدولة كلاً متكاملاً ، فالإسلام دين ومنهج حياة وشريعة وخلق .

وقد جاءت قضية الفصل بين الدين والدولة في الغرب هدفا عميقا من أهداف الأيدلوجية التلمودية التي كان الربط بين الكنيسة والحكومة حائلا بين اليهود ، وبين الاندماج في المجتمعات ، فلما انكسر هذا القيد سيطروا على الأنظمة ، وفرضوا نفوذهم عليها .

والمسيحية بطبيعتها منهج يقوم على العبادة والوصايا الأخلاقية ، وليست لها شريعة منفصلة لأنها لم تكن إلا إحدى رسالات بني إسرائيل مصدقة للتوراة ، جاءت مكملة للناموس ، وليست ناقضة إياه على حد تعبير السيد المسيح عليه السلام .

ولقد اعترف المفكرون الغربيون جميعا بحقيقة الاسلام نظاما كاملا ، وقدروا الفوارق العميقة بينه وبين الأديان والمعتقدات الأخرى .

وعبارة (هاملتون جب) في هذا واضحة وصريحة :

« ليس الاسلام دينا بالمعنى المجرد الخاص ، بل هو مجتمع بالغ تمام الكمال ، يقوم على أساس ديني ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية ، لأن ظروفه في أول الأمر أدت إلى ربط السياسة بالدين ، وقد أكد هذه النزعة

الأصيلة ماتلا ذلك من صوغ القانون الإسلامـي ، والنظام الاجتماعي . والحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات إنه أعظم من ذلك كثيرا ، فهو مدنية كاملة » .

وميزة الإسلام التي خصته بأن يكون نظاما كاملا هو أنهقدممبادىء عامة ، وأصولا ثابتة في مجال الشورى والعدالة والمساواة تصلح لإقامـة مجتمع متماسك ، وترك للبشرية في تطورها واختلاف عصورها وبيئاتهـا القدرة على تقرير الأسلوب المناسب في إطار هذه الاصول ، وهـــو مايحول دون الجمود ودون التعارض مع تطور المجتمعات ، غير أن هذه الاصول واجبة الإقرار ، وأن مقرراتها ثابتة لاتتعرض للتطور أو التحول او التعطيل أو النقض ، وهي لاتخضع أبدا لتغير المجتمعات ، ومن ذلك: حدود الله في الزنى والربا والخمر والسرقة . فتلك أصول أصيلة، وليست وصايا عامة ، أو نصائح أخلاقية .

٢٠ ــ الحرية في مفهوم الإنسان أن لايبقى عبدا لشهواته ، ولا عبدا لغير الله ، وأن لايخضع لسلطان غير سلطان الخالق ، ويأنف أن يكـون عبدا للانسان .

والحرية في الإسلام هي حرية جامعة شاملة تقوم على التحرر مـن قيود الجهل والخرافة والوثنية والتقليد الموروث ، والإسلام أول مـن دعا إلى هذه الحرية ، وقد علم الإسلام الانسان كيف تتفق حرية الن[illegible] مع استقامة الدين ، ولقد استطاع الإسلام بهذا المفهوم أن يطلق العقل البشري من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنـة فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة .

وإذا كانت صيحة أصحاب المذهب المادي إلى تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة ، فانها إنما كانت تعني ذلك (الركام) الذي عاشته أوربا خلال العصور الوسطى ، أما الإسلام ، فقد كان هو صاحب

الدعوة إلى مثل هذه الحرية ، وان ما جاء به يرتفع فوق الأساطيروالتقاليد لأنه الحق الصادق الذي تصدع بـه النفوس والعقول والفطر البشريـة السليمة ، وهو الذي ليس وراءه من حق أو قول : (فمـاذا بعد الحق إلا الضلال) •

ولقد عرف الإسلام « الحق » تعريفا عاما شاملا بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين ، بينما عرف الغرب الحق على أنه شيء في أوربا وشيء في المستعمرات يختلف عنه ، بل ويتعارض معه ، ومن هنا فقد كان موقف الفكر الغربي بالنسبة للمسلمين والعرب والإسلام موقف الخصومـة والعداء وتجاوز الحق ، وتجاهل كل ما ادعي أنه من المناهج العلميـة للبحث والاستقراء • ولقد كان المسلمون صادقين في تطبيق حرية الفكر على الناس جميعا ، وحافظوا على القاعدة الأساسية (لا إكراه في الدين)، ولم يسفكوا دم أحد عقابا له على أن قال رأيا يخالف رأي الإسلام إلا إذا اتصل أمر هذا القائل بالخيانة السياسية • وكما دعا الإسلام إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم ، فالإسلام هو الدين الذي جاء ناقضا للرق، هادما للنظام العبودي في امبراطوريات فارس والروم والفراعنة •

٢١ ــ إن أبرز معطيات الإسلام هي قدرته على معايشة الحضارات والثقافات المختلفة واستمراره في مختلف الأزمنة والبيئات ، فهو قادر على إجراء حركة التصحيح من داخله ، ورد الشبهات ومقاومتها والمحافظـة الدائمة على طابعه الإنساني وأصله الرباني وللاسلام إلى ذلك قدرتـه على التوسع والانفتاح على الآفاق ، واقتحام مناطق جديدة من الأرض لنشر كلمتـه •

إن ميزة الإسلام في شموله وتكامله أنه جمع بين الحريات والضوابط وبين الفردية والجماعية ، وبين العلم والدين ، وبين العقلانية والوجدانية ، وبين الروح والمادة ، وبين الوحي والعقل ، وبين الدنيا والآخرة ، وبـين

الغيب والشهادة ، وبين الثبات والتطور ، وبين الماضي والحاضر ، وبين المحافظة والتجدد ، وبين الإسلام والإيمان ، وتلك ميزة الاسلام وخاصيته التي تميز بها ، واختلف عن كل العقائد والأديان ، وتلك هي مصدر قدرته الفائقة على مواجهة كل التحديات والأخطار ، وعلة خلوده على الزمان .

●●●

الباب السابع

منهج المعرفة

للاسلام منهج للمعرفة له طابعه الجامع الرابط بين الروح والمادة، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، وللفكر الغربي منهج للمعرفة : لـه طابعه الجزئي الانشطاري المادي الوثني ، ماهو موقف الاسلام من محاولة التغريب في احتواء الفكر الاسلامي ، وتزييف منهجه لتسقط في براثن المنهج الغربي ، وماهو أثر ذلك على العقيدة الاسلامية القائمة على التوحيد الخالص ،وكيف يمكن تحريرها ؟ . ولماذا هذه الحملة الضارية على الامام الغزالي ؟ !.

منهج المعرفة الإسلامي

وضع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أعظم ركيزة لمناهج البحث العلمي وتحريره من كل الزيوف في قوله :

« ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان ، من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل ، ومن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ماليس له » .

إن هناك علما جديدا يولد في أفق الفكر الاسلامي الحديث هو علم المواجهة ، وكشف الشبهات ، وتصحيح المفاهيم ، وتحرير القيم ، يقول هذا العلم : قولوا لنا من الذي كتب أولا ، نحن لانعرف الحق بالرجال ولكن نعرف الحق ، فنعرف رجاله وأهله ، ومن حيث إننا لانستطيع أن نختار بإرادة حرة مايترجم إلى لغتنا ، ومن حيث إننا لابد أن نعرف ما يدور في الفكر البشري من حولنا ، فاننا لابد أن نعرف من الذي نقرأ له ، لقد عرف المسلمون قديما علم الجرح والتعديل ، فدرسوا الرجال الذين يأخذون عنهم العلم وصنوفهم،وعلينا أن نطبق منهجا مثل هذا على ماتزخر به الكتب والصحف ، فلا تبهرنا الأضواء المسلطة على بعض الأسماء اللامعة من الكتاب ، ولاتأخذ بألبابنا الأوراق الناعمة والصور البراقة .

إن فصل العلم عن صاحب العلم نظرية لايقرها الاسلام ، أما عن علوم الطبيعة والزراعة والصناعة ، فإننا ننقل ونأخذ ، أما بالنسبة للعقائد

ونظرة الانسان الى الوجود ، فان المسلم لايتلقى أصول فكره من غير القرآن .

من أجل بناء هذا العلم علينا أن نطرح الأصول التي نحاكم على أساسها الفكر الوافد .

أساس الفكر الاسلامي :

إن قواعد الفكر الإسلامي الأساسية قد بدأت ونمت في حياة الرسول — صلى الله عليه وسلم — مستمدةمن القرآن،وإن هذه القواعد لم تتغير من بعد ، ولم يضف إليها تاريخ الفكر أي جديدفيقيمها الاساسية وإنما جرت الحركة كلها من داخل الإطار الذي رسمه القرآن .

وان اتصال المسلمين بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية إنما كانت تجربة قاسية انتهت بانتصار الإسلام ، وهزيمة محاولاتسيطرة الفكر الوافد .

ويرجع ذلك في الأغلب إلى مدى إحكام الأسس التي قام عليها الفكر الاسلامي ذلك أن منهج المعرفة الإسلامي يقوم على أساس التحرر من الهوى والعصبية والحقد ، ويستمد مفاهيمه من مصادر أربعة : « الفطرة والعقل والقلب والوحي » ، وعلى العقل أن يتخذ من الوحي هاديا ومرشدا ، وإلا فإنه يعجز عن الوصول الى المعرفة الصحيحة لعالم الغيب وماوراء المادة ،فالفكر الاسلامي مركب ،والقيم عناصره(الأدب والتاريخ والاقتصاد والاجتماع والتربية .. الخ) .

والدين لاينفصل عن القيم كلها ، والأخلاق حزام النجاة الذي يطوق الفرد والمجتمع .

والفكر الإسلامي لايقر الرأي القائل بأن المعرفة الانسانية قاصرة على معطيات الحواس ، ، أو نتاج الفكر ، وإنما هو أوسع أفقا من ذلك، فهو يضم إلى ذلك وحي السماء الصادق المنزل الذي قدم للانسانية أصول الشريعة ، ومفهوم عالم الغيب ، وقدم للنفس الانسانيـة الطمأنينـة ، وحفظها من التمزق والضياع والغربة •

ويفرق الاسلام بين المعارف الجوهرية والمعارف غير الجوهرية ، التي ليست لها قيمة إلا للزينة فقط •

وأبرز مفاهيم الاسلام : النظر إلى ماوراء الطواهر ، ماوراء ظواهر الكون والحياة ، وماوراء النصوص والكلمات،ويفرق الاسلام ــ أيضا بين رؤية شاعر ، ورؤية فيلسوف والرؤية الجامعة •

وليس الاسلام في شريعته وبطولاته تصورا فلسفيا ولا تصورا ماديا ولاتصورا روحيا خالصا ،ولكن التصور الاسلامي تصور قرآني :إنساني الطابع رباني المصدر ، يقوم على التوحيد والأخلاق والايمان بالله واليوم الآخر •

والمفهوم الإسلامي يقرر أن لكل قيمـة وجهين : ماديـاً ومعنوياً لا انفصال بينهما ، والمنهج الإسلامي منهـج متكامل (مادة وروح) ، ومنهج جامع (دنيا وآخرة) ، أما المناهـج البشريـة ، فهي إما ماديـة خالصة ، أو روحية خالصة ، وكلاهما ممزق للنفس الإنسانية •

ويقرر الإسلام أنه لا سبيل إلى تفريـغ الإنسان مـن مضمونـه الاجتماعي والنفسي والروحي ، أو النظر إليه على أنه ذلك الهيكـل البشري خالياً من الروح والوجـدان ، ولا يقر الإسلام أن هناك صراعاً بين الجسم والروح ، بل هما متكاملان ، فقد قرر الإسلام التوازن بين الروح والجسد وكرمهما معا ، ودعا إلى الاهتمام بهما طهـارة ونظافـة وزينة من غير سرف ولا خيلاء •

التوحيد والوحدة :

وقد قرر الإسلام مفهوم الوحدة والتوحيد في ثلاثة أصول عامة:

أولا — قرر وحدة النفس البشرية ، فلا انفصال بين الدين والحياة، أو الدنيا والآخرة ، أو الروح والجسم ، أو الواقع والمثال .

ثانيا — قرر وحدةالجنس البشري ، فلا فرق بين أبيض وأسود ، أو عربي وعجمي إلا بالتقوى .

ثالثا — قرر الاسلاموحدةالدين (منذ نوح إلى محمد) توحيد الله وثبات الأخلاق ، والمسؤولية الفردية ، والبعث والجزاء .

وينطلق المفهوم العلمي الإسلامي من قاعدة ثابتة هي جماع الوحي والعقل ، بينما ينطلق المفهوم الغربي من الفروض التي تبدأ والتي تقوم على القرائن ، وليس على الحقائق .

خصائص العالمية الذاتية :

وفي منهج المعرفةتقومالقاعدة العامة على أنهناك أموراً عالميةمشتركة بين الأمم البشرية جميعا ، وأن هناك أموراً خاصة بكل أمة،الأمور العامة هي العلم والمعرفة ، وهي ملك الجميع ، أما الأمور الخاصة ، فهي الأخلاق والقيم التي تشكل ذوق كل أمة وروحها ومزاجها ، وهذه الأمور لاتنتقل ، لأنها مرتبطة بخصائص الانسان وجذوره التي بناها فكره وعقيدته منذ القرون البعيدة .

لقد نقل الغرب علومنا دون أن يعتنق ديننا أو ثقافتنا ، واحتفظ

بقيمه ، كذلك فعل العرب والمسلمون عندما نقلوا العلوم ، وترجموا الفلسفات .

ولقد دعا الإسلام معتنقيه إلى الاحتياط في النقل والتقليد حرصاً على أن تظل شخصية المسلم وفكره وخصائصه قوية ومتميزة ، وكشف الفكر الإسلامي عن مدى أثر التقليد في فقدان الشخصية ، كما أبان أثر التبعية في عبودية الفكر والعقل .

وان اقتباس العلم أو الآلة لا يستلزم بالقطع اقتباس طريقة العيش في الأسرة والمجتمع .

الثبات والتطور :

وتقوم دعوة الإسلام على أساس التغيير في إطار الثبات ، والتنوع في إطار الوحدة ، والحركة قانون من قوانين هذا الكون ، ولكنها ليست حركة مطلقة من كل قيد ، فهي حركة في فلك ومدار له محور ثابت .

والإسلام يقيم منهجه الاجتماعي والفكري على الحركة في إطار الثبات ، وللإسلام دعائم ثابتة لا يجوز تجاوزها ، وهي ثبات الاسلام إزاء الأخوة البشرية والعدل الاجتماعي ، وإزاء الجهاد ، وإزاء تحريم الربا ، وإزاء الالتزام الأخلاقي والمسؤولية الفردية وثبات الأخلاق ، وإزاء الحدود (الخمر والقتل والسرقة والزنى) .

ومن هنا فإن القول بأن كل دين قابل للتطور وملاءمة العصور لا ينطبق على الإسلام من حيث إن الاسلام ليس منهجاً بشرياً يطوره أهله ، أو إنه بفعل التغيير يبدو وكأنه مرحلة بعد مرحلة قاصراً عن مواجهة التغيير ، بل هو منهج رباني ، أقامه الخالق — عز وجل — في إحكام وتقدير ، موازياً لأبعاد المجتمعات والعصور ، لقد وضعه (الحق) (تبارك وتعالى) في أطر واسعة مرنة قابلة للحركة والتطور .

وإن القول بالتطور في مفاهيم العقائد والشرائع والأخلاق (بالنسبة للأصول العامة) يجعل منها مجموعة من المبادىء النسبية بينما هي حقائق مطلقة ، فإذا اعتبرت مبادىء نسبية ، فإنها سوف تتطور وتتطور إلى ما لانهاية ، وبذلك تفقد أخص خصائصها وهي ركيزة الثبات التي تدور حولها الحياة البشرية شمالاً ويميناً ثم تعود إليها •

ومن هنا كذلك ، فإن الإسلام له قواعد كلية لا سبيل إلى النزول عنها ، وخاصة في مسائل الربا والحدود وعلاقة الرجل والمرأة ، والأسرة والمجتمع ، وله أصوله الثابتة في المعاملات ، ومن هنا فإنه يعجز الذين يحاولون أن يضعوا الإسلام في موضع تبرير القيم الغربية ، أو القيم الحضارية العصرية باسم سماحة الإسلام وانفتاحه وقابليته للاجتهاد ، ومسايرته لظروف الإمم والحضارات ، ذلك أن الإسلام يحمل أسس الثبات ، وعناصر الحركة التي يجب أن تجري من داخلها •

ولقد أقام الإسلام أطراً واسعة مرنة تسمح بالحركة الدائمة والتغيير المستمر دون أن تمس الأصول العامة والقيم الأساسية •

ويقرر الإسلام أن مفهوم « التقدم » ليس مفهوماً مادياً ولكنه مفهوم جامع بين المادة والفكر ، ليس التقدم بالتفوق التكنولوجي وحده بل العبرة بإقامة الفكر والعقيدة إطارا يتحرك فيه ثمرات العلم فيتجه إلى البناء والتعمير وإثراء المجتمعات دون أن يمس ذلك النفس الانسانية بالحيرة والتمزق ، أو المجتمعات بالخطر والتحدي •

النفس الانسانية :

وأبرز مايتجه إليه منهج المعرفةالإسلاميهو حماية النفس الانسانية من الأخطار : أخطار الإلحاد والإباحة ، والإلحاد طارىء على النفس البشرية ، وليس من طبيعتها ولا متأصلاً فيها ، وهو مضاد للفطرة السليمة •

ولقد عمد الإسلام إلى بناء النفس الإنسانية على الإيمان بالله وقرر أن : « الايمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل ، وتحول دون اليأس ، وتبعث الثقة المتجددة ، وتحرص على المعاودة في حالة الإخفاق » .

وليس الإيمان مضاداً للمعرفة ، وليست المعرفة بديلاً للايمان ، فالإسلام يجمع بين مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة ، ومفهوم المعرفة القائم على الوحي ، وقد جعل الإسلام الايمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط المعرفة ، ويدعو الإسلام إلى التفكير والتأمل في خلق الله (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) ، ويقرر القرآن أن عدم التفكير ذنب، وأن البلادة الذهنية معصية (وقالوا: لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم ..)

ولا ريب أن ترتيب البعث على الموت ليس أمراً مستحيلاً ولا متناقضاً عقلياً ، بل إن شبهة افتراض أن الموت نهاية الحياة هي التي تبعث الريبة والشك في النفس ، فكيف ينتهي هذا العالم دون أن يفصل في أمره ، أو تكشف حقائقه ، ودون أن تجاب على أسئلته أو يجزى العاملون فيه ، كيف يمكن أن تنتهي الحياة الدنيا دون حياة أخرى تقدم للناس تفسيراً كاملا ، وجزاءً كاملاً ، وتقضي في عشرات المسائل التي أثارها أصحاب المنهج البشري في معارضة المنهج الرباني .

ومن هنا تأتي الأهمية للأساس الذي يقضي بالمسؤولية الفردية ، ويرتب عليه الحساب والجزاء ، فإقرار البعث بعد الموت مطابق للفطرة ، ولا يشكل تناقضاً عقلياً .

وليس فهم الحياة بوصفها معبراً إلى الآخرة بمنقص من هدف تحسينها وبنائها ، ولكنه عامل هام في جعلها أكثر أصالة وعمقاً ، لأنه يقوم أساساً على مفهوم المسؤولية الفردية ، والجزاء والعمل في اتجاه منهج الله عز وجل .

ولقد دعا الإسلام إلى العمل والاهتمام ، ثم الرضى بقضاء الله في النتائج ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فقد اعترف الإسلام بالرغبات الحسية ، وقرر أنها من طبيعة الإنسان ، ولكنه دعا إلى تأجيلها حتى تتوفر وسائلها المادية ، ودعا إلى ممارستها في إطار سليم صحياً وعقائدياً، ومن هنا فإن الإسلام بذلك يحول دون سقوط أهله في حمأة التمزق والصراع ، والغربة على النحو الذي يقع فيه الذين يلتمسون مفاهيمهم من نظريات الفلسفات والعلوم الاجتماعية الوافدة .

●●●

بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي

وجوه التباين والاختلاف بين المنهجين

يعتبر من الحقائق الأساسية أن هناك منهجين : إسلامي وغربي ، وأن لكل منهما مقوماته وأصوله وأسسه ، وأن بينهما وجوهاً كثيرة من التباين والاختلاف .

ولا ريب أننا في هذه المرحلة الفاصلة من تاريخنا نحتاج كثيراً إلى مراجعة هذه الفوارق والتعرف عليها حتى نكون على المحجة البيضاء ، فلا يخدعنا قول القائلين : بأن الثقافة عالمية ، أو أن الفكر البشري واحد في أصوله وفروعه ، ذلك أن الأصالة ــ وهي طابع العصر الآن ــ تقتضينا أن نعرف بوضوح إلى أي حد يمكن أن يلتقي الفكر الإسلامي بالفكر البشري وإلى أي حد يختلف ويفترق .

ومن هنا فإني أضع أمام القارىء هذه الخطوط العامة :

أولا : لا ريب أن الغرب له مثل وغايات في الحياة ، وقيم في الأخلاق ، ومقاييس في المجتمع ، وأهداف خاصة ، ومزاج نفسي منبعث من عقائدهم ومواريثهم ، كما أن للغرب أيضاً مشاكله وظروفه الخاصة .

وله تحديات في مواجهة العقائد ، وكذلك ، فإن للغرب مفهوماً خاصا للدين ،تكون من خلال ظروفه التاريخية من جهة ، ومن طبيعة دياناته من ناحية أخرى .

ثانيا : لا ريب أن هذه المذاهب الغربية موضوعة في أسلوب له

طابع علمي براق ليخفي ماوراءه من أهداف ، لقد بدلت هذه المذاهب من خلال تحديات مجتمعها ، ومرت بأطوار مختلفة ، واستجابت لظروف وأوضاع تتعلق ببيئتها ، وكانت هذه المذاهب في أول أمرها محاولات لتحل محل الاديان ، ثم أصبحت معارضة لها ، وقد ظهرت هذه المذاهب حين عجز الدين في الغرب عن العطاء ، وحين انفصلت الأخلاق عن الدين •

ثالثا : من أهم العوامل التي تؤثر في أصالة المنهج العلمي الغربي أنه يقوم على مسلمات أساسية تخالف مخالفة كاملة مفاهيم الفكر الإسلامي من ناحية ، والحقائق التاريخية ، وتتعارض مع التاريخ البشري عامة والتاريخ الإسلامي خاصة ، وتتجاوز ما يعتقده المسلمون والعرب بصفة خاصة •

رابعا : إن المناهج العلمية الوافدة متضاربة متعارضة ، فان كل منهج منها قد نشأ في بيئة معينة ، وحاول الاستجابة لتحدٍ معين ، وفيها مناهج طرحت في مواجهة الدعائم ، والأسس التي يقوم عليها الفكر الاسلامي ، كاللغة العربية والقرآن ، ونبوة الرسول ، ووحدة المسلمين ، وفي كل هذه القضايا لا تستطيع المناهج الوافدة أن تستوعب الأصول والحقائق ، حتى لو أرادت أن تحكم حكماً نزيهاً صادقاً ، ثم هي في نفس الوقت تعجز عن هذا الحكم لأمرين : لخضوعها لايدلوجيات لغاتها وفكرها ، ولمفهومها الموروث إزاء الشرق والغرب والأجناس من غير الجنس الأبيض •

خامسا : لاريب أن الغرب في السنوات المائة الماضية قد انتقل الى مرحلة حديثة من الفكر والفلسفة والنظرة الى الأدب والعلم والاقتصاد والاجتماع ، وهي مرحلة تختلف عن المرحلة السابقة لها ، والتي كان يطلق عليها : اسم الفلسفة المثالية وريثة الفكر الغربي المسيحي، أما المرحلة الجديدة ، فقد غلب عليها طابع العلمانية المتحررة •

سادساً : إن كل الابحاث والدراسات المنصفة العلمية تقـرر أن الفكر الغربي يخوض أزمة عنيفة ، وأن المجتمع الأوروبي يقاسي أزمة عنيفة ، وأن الحضارة الغربية في مواجهة أمواج عاصفة من القلق والتمزق والضياع وانفصام الشخصية ، ويردون ذلك كله إلى غلبة الطابع العقلي المادي الحسي على الطوابع النفسية والروحية والدينية ، وقد حدد الفكر الغربي موقفه تماما في هذه المرحلـة في كل القضايا على أساس التجزئة والانشطارية ، فاعترف بالعلم والعقل والمادة ، وأنكر ما سوى ذلك من مقدرات النفس البشرية الجامعة للمادة والروح والعقل والقلب .

سابعاً : إن أبرز طوابع الفهم العلمي الوافد : تتمثل في ذلك التغير الدائم الذي لا يستقر على رأي ، والذي ينقض نفسه بنفسه ، ذلك أن هذه المذاهب والنظريات التي توصف بأنها (علم) انما تبدأ في أول أمرها (فرضيات) وضعت تحت الاختبار ، ثم تحولت مع الزمن الى (نظرية) ولم تستطع نظرية واحدة حتى الآن مهما بلغ قدرهـا أن تثبت أكثر من جيل واحد في مواجهة المتغيرات ، وما من نظرية بدا أول الأمر أنها ذات بريق عبقري إلا وقد اجتاحتها عوامل الفساد ، فعدلت مرة بعد مرة في محاولة اسبقائها وقد تصدعت كبرى النظريات العالميـة المعاصرة وفـي مقدمتها الماركسية والفرويدية والوجودية .

ثامناً : أخطر ما يمثل المنهج العلمي الوافد هو عجزه عن التفرقة بين المفاهيم التي تتصل بالانسان والمفاهيم التي تتصل بالكون ، ففي مجال العلوم نجد (منهج التجريب) وهو منهج ثابت دقيق ، لأنه يقوم على معادلات مضبوطة ثابتة ، أما في مجال الانسان فان الأمر يختلف اختلافا كبيراً ، ولا بد من منهج آخر لدراسات الانسان غير منهج العلوم المادية ، بل وغير التجارب التي تجرى على الحيوان ، فاذا ما طبق المنهج التجريبي

منهج العلوم المادية على الانسان ، فانه يواجه في فكرنا الاسلامي اختلافاً كبيراً •

تاسعاً : إن منهج المعرفة في فكر ما يختلف عنه في فكر آخر اختلافاً جذرياً في جوانب عديدة نتيجة اختلاف الأمم والشعوب في العقائد ، والأخلاق والعادات والتقاليد والآداب حيث نجد أن الأذواق والأمزجة متباينة أحيانا لدرجة أن ما تعده أمة ما مقبولا عندها يكون مرفوضاً تماماً في أمم أخرى •

ذلك أن لكل أمة مقوماتها الاصيلة ، ومنابع الهامها التي تختلف باختلاف الدين والتاريخ ، وبالنسبة للفكر الاسلامي والمجتمع الاسلامي، فإن عوامل قوية عميقة الجذور في الاخلاق والعقائد واللغة ، تجعل من المستحيل تطبيق منهج علمي ، أو نظرية اجتماعية أو مذهب أدبي وافد عليها •

عاشراً : قام الفكر الإسلامي وفي أحضانه الثقافة العربية على أساس تأكيد الذاتية والأصالة ، فقد دعا الإسلام معتنقيه إلى معارضة التقليد للأجنبي ، وحذرهم من التشبه بغيرهم ، وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره وحضارته ومجتمعه مميزة ، ولذلك فقد أعلن حرباً شعواء على التقليد والتبعية معاً ، ودعا إلى إعلان التمييز في العادات والأخلاق ، وأعلن أن التقليد فقدان للشخصية ، والتبعية عبودية للفكر والعقل •

حادي عشر : إن العلم سوف يعجز عن القضاء على الدين ، بل سوف يؤكد وجود الدين ، وإن كان الدين الحق لا يفسر ظواهر الكون كالعلم فانه يضع الإطار الأخلاقي للحياة ، ويرسم منهج العلاقة بين الله والانسان والإسلام هو الذي أقام للعلم منهجه ومنطلقه من حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الديني ، وهو الذي مهد لظهور المنهج العلمي التجريبي،

وإن أي حديث عن الصراع بين العلم والدين ، فهو عن غير ديننا ، وغير تاريخنا .

والعلم أعجز من أن يقدم تفسيراً نهائياً لأشياء الوجود ، وغايته أن يقدم تفسيراً جزئياً لظواهر الأشياء .

ثاني عشر : يقرر الإسلام مكانة الإنسان في الأرض ، ويؤكد حق استخلافه ، وأمانته ومسؤوليته الفردية ، والتزامه الأخلاقي الذي يستتبع البعث والجزاء ، ويؤكد الإسلام أهمية الانسان كفرد وأهميته — أيضاً — كفرد في مجتمع ، ويؤكد حاجته الى التقدم المستمر ، ولذلك فهو يحرر طاقاته كلها (فكرية وخلقية وعملية) لتنطلق في سبيل خدمة المجتمع ككل وفق ضوابط خاصة وفي إطار حركته الخالصة لوجه الله تعالى .

ولقد وقف الاسلام إزاء الانسان موقفاً مخالفاً لموقف الفلسفات والعقائد، وأقام مفهومه على أساس تكريم الانسان بوصفه موضع الاستخلاف في الأرض ، والنظر اليه من خلال طبيعته الأصيلة الجامعة بين الروح والجسم، والعقل والقلب ، وبوصفه كياناً متكاملاً ، وبذلك أقر رغباته المادية كلها ، وأباحها له دون أن يقيدها إلا بضوابط قصد بها حماية الانسان نفسه من الانهيار والتدمير ، وحتى يكون قادراً على أداء رسالته ومواجهة تحدياته دون أن يضعف أو يتحطم ، وجعل سعيه في الحياة الدنيا مرتبطاً بالجزاء في الآخرة .

والإسلام لا يرفع الإنسان عن مستواه ولا يخفضه عن مكانته الصحيحة .

ثالث عشر : إن التدين جزء من الطبيعة البشرية ، ولا يستطيع الإنسان أن يعيش بغير دين ، ولقد عجزت الأيدلوجيات والمذاهب أن تقدم له بديلا عن الدين يشفي روحه ، ويملأ حياته ، ولقد حرر الدين

الإنسان من عبودية المجتمع وعبودية الفرد ليتجه الى الله وحـده ، لقد علم الدين الانسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه انسان ذو كرامة •

رابع عشر : قـد تختلط طوابـع الانجليز والفرنسيين والألمـان والأمريكيين (وهو ما زال يبدو عسيراً) لان هناك جامعاً يجمعهم مـن أصول دين وثقافة ولغة ، ولكن من العسير أن تختلط طوابع المسلمين والعرب معهم ، وقد تشكلت بمعزل عن هذه الأمم ، واستمدت أصولها من دين وفكر غير دينهم وفكرهم ، هذه الطوابع والقيم التي قادتهم في الحياة على المدى الطويل ، وحققت لهـم التمكن في الارض ، والقـوة والمهابة في نظر الأمم ، ولذلك فمن العسير التخلي عن هذه القيم ، وتقبل الاحتواء والإذابة من الأممية العالمية •

خامس عشر : حرر الإسلام الفكر من الظنون والفروض والأساطير والخرافات والأوهام والأهواء ، ودعا إلى التماس المنابع الأصيلـة وفي مقدمتها (القرآن) ومن هنا فإن تحرك الفكر الإسلامي إنما يجري أساساً في إطار القرآن ، فإذا خرج عنه وقع الحرج الذي لا يرفع ولا يدفع حتى يعود إلى القرآن •

ولقـد كان التأويل من أخطـر الأسلحـة التي استعملت لتفسير النصوص ، تفسيراً يخرج بها عن مدلولاتها الأصلية الى مدلولات منحرفة ومفاهيم مبتورة، ولقد هاجم الإسلام الخرافات والسحر والكهانة وأنكر العرافين ، وطارد الأوهام ، واعتبر السحر كفراً ، وحرص على أن يرتفع المسلم بإيمانه على الضعف البشري الذي كان من قبل يجعله ألعوبة في يد أوهام الطوالع ، وأضاليل العرافين •

سادس عشر : إن حاضر الفكر الإسلامي والأدب العربي والثقافـة العربية لا ينفصل عن ماضيها الممتد المتصل المتفاعل، خلال مراحل التاريخ المختلفة دون توقف ، وإن الفكر الاسلامي الحديث هـو ثمرة الفكـر

الإسلامي الذي بناه القرآن ، وان الثقافة العربية هي وليدة الفكر الإسلامي .

ولقد ولد الفكر الإسلامي في أحضان التوحيد الذي حرر النفس الانسانية ، والعقل البشري من الوثنية والخرافة والأسطورة ، وأقام منهج البرهان والعلم والتجربة .

سابع عشر : إن الحرية في مفهوم الإسلام هي تحرير العقل البشري من قيد الوثنية والجهل والخرافة والتقليد ، وتحرير الانسان من قيد العبودية وسلطان الاستبداد والطغيان .

ثامن عشر : إن مفهوم الأخلاق في الإسلام يقوم على أساس تلك القيم الثابتة الراسخة التي أثبتت أجيال البشر جيلا بعد جيل ، أنها مرتبطة بالانسان وليست خاصة بالمجتمعات والعصور . القاعدة : أن الحق واحد ، وأنه لا يتعدد ، وأن أساس الأخلاق هو التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، وان مفهوم الأخلاق في الإسلام يحرر الإنسان والمجتمع من عبادة الجسد ، وتقديس الشهوة ، وتأليه الأبطال .

تاسع عشر : إن أبرز مفاهيم الإسلام أنه وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها ولا تفتيتها ، أو الأخذ بفرع منها دون الآخر ، فكل عنصر منها متصل بباقي العناصر ، مؤثر فيها ، متأثر بها ، ومن هنا فقد تكاملت تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية .

عشرون : حرر الإسلام الفكر الإسلامي من دوامة البحث فيما وراء الطبيعة أو عالم الغيب ، فقدم له منهجاً كاملاً يرضي أشواقه النفسية ، وحاجاته الروحية ، وذلك حتى يفرغه لمهمته في بناء الحياة ، وتعمير الكون وتحقيق العدل والإخاء الإنساني .

واحد وعشرون : ربط الإسلام بين العقيدة والتطبيق ، وقرن العلم

بالعمل ، ورفض مبدأ العلم للعلم ، وقرر أن العلم إنما يطلب من أجـل العمل به ، والاستفادة منه في تحسين الحياة الانسانية وتقدمها ، وكشف عن أن الطبيعة البشرية مزودة بقدرتين مترابطتين : قدرة نظرية قادرة على تحصيل العلم ، وقدرة ــ أخرى ــ عملية قادرة على تقديم العمل ، ولابد من ترابط الاثنتين معاً •

ثاني وعشرون : فرق الإسلام بين العلم النافع ، والعلم الزائد عن الحاجة ، ودعا المسلمين إلى أن يأخذوا من كل علم بأحسنه ، هذا مـع الاهتمام بالاجتهاد ورفض التقليد ، والبحث عن البرهان ، وقبول الدليل وتغيير الرأي ــ دون حرج ــ متى تبين أن غيره أصح منه •
لقد قرر الإسلام أن هناك معارف جوهرية ومعارف غير جوهرية ، ودعا إلى الاهتمام بالأولى ، وتجاوز الأخرى •

ثالث وعشرون : لا يرى الإسلام في مفهـوم الايمان شيئاً مضاداً لمفهوم المعرفة ، ولا يقتصر الإسلام على مفهوم المعرفة القائم على الحس والتجربة ، بل يضيف اليه علم الوحي الذي جعل الإيمان بالغيب شرطاً أساسياً من شروط العلم ، والإيمان بالله قوة دافعة تعطي الأمل ، وتحول دون اليأس ، وتبعث الثقة ، وتتيجة لذلك فانه لاتوجد في الأدب الإسلامي ظاهرة التشاؤم واليأس والتمزق •
رابـع وعشرون : إن الإسلام بالنسبة للعـرب مصـدر كيانهـم ووجودهم ، فقد صاغ الإسلام العرب صياغة جديدة وأقام لهم الوحدة على أساس العقيدة والفكر ، وليس على أساس الجنس والعرق ، وكان لهم السور المنيع الذي رد عنهم العوادي ، وحطم الغزاة ، ولقـد انتقل العرب بالإسلام الى المجال الدولي ، ولذلك فان مـوقف العرب مـن الاسلام يختلف عن موقف القوميات الاوروبية من دينها وعقيدتها •

والإسلام معارض لموجة العنصرية ، وإعلاء السلالات إنما يدعو إلى الأخوة البشرية •

خامس وعشرون : إن تمجيد العقل وتقديسه واتخاذه سبيلا وحيداً للمعرفة ليس نظرية أصيلة في مفهوم الاسلام ، الذي يقيم منهج المعرفة على العقل والقلب معاً .

سادس وعشرون : تتفق الثقافات على أسماء القيم الإنسانية ، ولكنها تختلف في تفسيرها ، فالحرية والعدل والأخلاق والمعرفة والسلام والحرب : كل هذه القيم لها في كل فكر مفهوم متميز ، ونظرة الإسلام لهذه القيم نظرة متكاملة جامعة .

سابع وعشرون : أبرز مظاهر أصالة الفكر الإسلامي تتمثل في أنه يرفض كل عنصر غريب عليه ، ومن هنا تخطىء النظرية القائلة بتلقيح الفكر الإسلامي ، وللإسلام ذاتية لها من عوامل الثبات ما يكفل لها استمرار العطاء والتلقي على مدى العصور الامتصاص بما يزيدها قوة ولا يخرجها عن أصالتها .

تحرير العقيدة

من أخطر التحديات التي تواجه المسلمين اليوم : سلامة العقيدة وتحررها ، وبراءتها من الزيف الذي صبته الفلسفات والمذاهب والدعوات المختلفة ، خلال عهود طويلة ، بعد المسلمون فيها عن مصادرهم الأصيلة، وظنوا أنهم حين يقولون : (لا إله إلا الله) فإن ذلك يكفيهم ايمانا بالتوحيد لله •

ومن الحق أن الاسلام قد جعل تحرير العقيدة من كل زيف أو شبهة تحريرا كاملا هو الأساس الاول الذي يجب أن يظل حيا متجددا ،لاتجرفه السيول ، ولايطغى عليه الغبار ، ولايغشيه أي سحاب •

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لايهدي من هو كاذب كفار) •

فالأمر ليس أمر الالحاد في الله وإنكاره أو التعدد ، وهي أخطر عوامل الفساد في العقيدة ، ولكنها إلى ذلك كله أمر « الشرك » مع الله أحدا ما ، أياما كانت مكانته في الدنيا ، فلقد كان أهل مكة يؤمنون بأن الله هو خالق السماوات والارض ، ولكن ذلك لم يكن كافيا ، بل كان لابد من الاستغناء الكامل عمن سوى الله ،والإخلاص لله وحده لاشريك له ، وليس من دونه ولي ولانصير •

واليوم يعود المسلمون إلى مواجهة مثل هذا الخطر ، فهم في أشد الحاجة إلى تحرير العقيدة من كل زيف سواء أكان هذامن مفاهيم تقديس الاولياء ، أو إعلاء شأن الابطال ، أو اذاعة أي كلمة لاتستمد أصولها من القرآن الكريم •

فلاريب أن هناك أخطارا كثيرة ، وزيوفا — أيضا — كثيرة دخلت إلى تقاليدنا ، وأخذت صبغة العقائد ، واختلطت مع الحقائق ، فلم يعد التفريق بين الصحيح والفاسد منها يسيرا ، ولاشك أن هذه الاضافات التي استمدت أصولها من الوثنيات القديمة ، وإحياء العادات الباطلة ، قد استشرت في المجتمع الاسلامي من خلال عادات الأفراح والمآتم، والزواج وميلاد الاطفال ، وعشرات من التقاليد ، وإن هذه الوثنيات القديمة قد غلبت على طوابع العقائد حتى علت عليها ، وبدا منها طابع الشرك والخرافة والوهم ، وانتقاص الفهم لمفهوم التوحيد الخالص الذي يضع الامور كلها في يد الله سبحانه وتعالى ، ويتقبلها تقبلا كاملا ، ولايضيف اليها ، ولاينتقص منها شيئا ما •

ومن تلك الاخطار التي تواجه العقيدة السليمة ، ذلك الانزعاج الشديد الذي يواجهه المسلمون إزاء الموت ، وتلك العبارات الخطيرة التي يكتبها بعض الأدباء أو الشعراء عن هول الفجيعة ، أو عتاب الاقدار أو الاشارة إلى الخسارة التي لحقت أو تلحق نتيجة موت أحد ما، ولاريب أن هذا الفهم دخيل على المسلمين وزائف إزاء الفهم العميق والايمان الخالص لمعنى الموت ذلك أن الامر في أساسه أبسط من ذلك كله ، فكل إنسان في هذا الكون وديعة ، ولكل إنسان أجل ، وكتاب ، ونهاية غائبة عن الناس ولكنها محددة ، لاسبيل الى مدها أو تقصيرها • وليس المرض أو الإصابات — أيا كان مصدرها — ذات صلة مباشرة بالموت

ولكل إنسان مشروع حياة،ومهمة ودور،فإذا انتهى هذا الدور،فقد أذن له بأن يترك الساحة ، وأن يغيب عن مسرح الاحداث ، وتلك طبيعة الحياة والموت حادث يقع بين أيدينا كل يوم ، بل وكل ساعة ، فما كان له أن يزعجنا لو كنا نفهم الأمور فهما صحيحا ، إنه حقيقة مؤكدة ، لابد أن تبلغ في نفس الانسان مبلغ اليقين ، فيتقبلها في رضى ، وطمأنينة ، على أنها الحق الذي ليس بعده حق ، وقد تدمع العين ، وتحزن النفس ، ولكن ذلك لايقلل من شأن اليقين بالحقيقة الاساسية .

ولقد كان تهويل الموت والخوف منه والانزعاج له من الاضافات والدخائل التي دخلت على المسلمين ، وأفسدت حياتهم ، وأعلت من شأن الحياة إعلاء شديدا ، وقعدت بهم عن الجهاد ، وعن بذل النفوس رخيصة في سبيل الحق ، والغلو في الحرص والخوف والجبن والذلة بما اعجزهم عن مواجهة الموت في ميادين البطولة والجهاد ومن ثم قبلوا بالحياة ذليلة ، ولو علموا أنهم سيموتون في نفس اللحظة التي ينتهي فيها الاجل ، لما جزعوا مثل هذا الجزع ، ولما واجهوا الموت بمثل هذا الخوف، ولما هول شعراؤهم وكتابهم ، ووصفوا ضخامة الفجيعة ، أو الاثر الخطير المترتب على فقدان الفقيد .

ذلك أن الناس يمضون إلى الموت يوما بعد يوم ، صفوفا من علماء وأبطا لوأغنياء وعظماء ، بل عامة الناس ، دون أن ينقص ذلك شيئا من أمور الحياة ، ودون أن يضطرب الزمن وأمور الكون ، فالحياة أقوى ، والموت سنة من سننها التي لاتتخلف ، ولقد كره الموت أقوام ، وأثاروا حوله قضية كبرى ، بل لقد جرت المحاولات الفلسفية للبحث عن طريق للتحرر من الموت ، وذلك من الامور التي يستحيل على العلمأوالفلسفة أن يقول فيها كلمة ما ، ولذلك فإن المسلمين إذا فهموا الاسلام فهماحقيقيا فانهم يستطيعون تذليل هذه الحقيقة والانتفاع بها في بناء أنفسهم وبناء

الحياة ، بالجد والعمل النافــع ، والعطاء والانفاق في سبيـــل الله ، دون البخل والشح والانطواء ، وانبعثوا في مجالات الحياة يعملون لانفسهم ولأمتهـــم •

ومن الأخطار ــ التي ألقت ظلا على العقيدة الصحيحة ــ شبهة تروجها اليهودية التلمودية منذ الزمن القديم إلى اليوم ألا وهي (الدهريــة) : إن هي إلا الحياة الدنيا ، وليس بعدها شيء آخر ، وتلــك شبهة خطيرة عالجها القرآن الكريم فيعشرات المواضيع ، وعرض لها عرضا واضحــا صريحا حتى يرد المسلمين عن خطرها ، وهي من الامور المستحيلة عقلا ، إذ كيف يوجد الناس على هذه الارض يعملون ثم لاتكون هناكمسؤولية لأعمالهم ، أو التئام أخلاقي لسلوكهم ، يكون موضع المساءلة في حيــاة أخرى هي حياة البعث والجزاء •

ولقد تلقى أحدهم ، فيقول لك ساخرا : « هناك قابلني » ، وهي كلمة خطرة أخذت طابع التهكم والفكاهة ، بينما هي تقصد إلى أمر خطير وتدافع عن أكذوبة كبرى وضلال بعيد •

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لاترجعون) ، فالحياة أمانة من الله للانسان،ومسؤولية وجزاء،وتفقد الحياةمفهومها الصحيح إذا انصرف الذهن إلى أنها هي النهاية ، وليس هناك من شيء يمكن أن يبرر هذا الفهم القاصر الساذج إزاء هذا الكون الكبير،ووجود إنسانفيه وتمرسه بالعطاء والحرمان ، والحق والباطل ، والخير والشر ، وموقفــه من ذلك كله ، وتصرفه بالأخذ والعطاء •

من الأخطار التي تواجه « عقيدة التوحيد » هي : تأليه العلـــم أو العقل ، أو تأليه شركة التأمين ، فالعلم مهما بلغ من أمر منجزاته فانــه لن يستطيع أن يستكنه الاشياء ، وإنما هو تفسير لظواهرها ، ومازالعلم

الله هو الاكبر ، أما العقل ، فهو « أداة » المعرفة ، في نطاقه الذي يتحرك فيه ، ولذلك فإنه لايستطيع مهما بلغ من القدرة أن يصل إلى مرحلة التقديس أو الاعلاء .

وهذه صيحة سادت في فترة ما تحت وهج الكشوف العلمية ، ولكنها لم تلبث أن فترت بعد أن بلغت الكشوف أقصى مداها ، فوصلت الى تفتيت الذرة ، والوقوف عند المجهول الذي مازال من وراء الغيب لم يستكنه بعد ، عند ذلك أحنى العلم رأسه إلى قدرة عليا كبرى يعجز عن استكناهها ، أما الفلسفة ـ وخاصة المادية ـ ، فهي التي مضت تشق طريقا ضد التيار ، وضد الفطرة ، وضد طبائع الاشياء لتثبت أباطيل الالحاد والاباحة ، وتنكر عالم الغيب ، وتعارض الميتافيزيقيا .

إن الفلسفة ليست علما ، ولكنها فروض يفترضها بعض الباحثين ثم تجيء فروض أخرى مضادة وهكذا ، لاشيء يثبت للبحث أبدا ،لانه يفترض فروضه من خلال نظرة ناقصة أصلا ـ وهي النظرة الى الانسان على أنه جسد ومادة فحسب ، وعلى أن الكون كله مادة بينما تجيء الحقيقة التي تكمل العقل والمادة في ان للحياة والانسان والكون جانبين متكاملين : مادة وروح ، وعقل وقلب ، ودنيا وآخرة .
والانسان نفسه ليس مادة خالصة ، ولذلك فان تطبيق قوانين المادة عليه تكون ناقصة النتائج ، والانسان نفسه ليس حيوانا ، ولكنه يمتاز عنها ويختلف بأن له جانبا آخر .ولذلك فانقوانين الحيوان وتجارب الحشرات والبهائم لاتصلح للتطبيق عليه .

فإذا استشرى القول بأن الانسان سيد الكون، أو أنه حيوان ، وإذا ساد القول باعلاء العقل أو العلم ، كان ذلك من اكبر أخطار العقيدة ، وانتقاصاً لمفهوم التوحيد الخالص الذي يقوم على أساس قدرة الله

القادرة القائم بالحق ، وهذا الكون كله من جماد وحيوان ونبات وإنسان من صنعه ، وكذلك العقل والروح والمادة جميعا .

ومن أخطار العقيدة وتحدياتها تلك المحاولات الفلسفية التي تطرح فصل مفهوم الاخلاق عن الدين ، أو الدين عن المجتمع ، أو العبادة عن المعاملة ، فنحن نرى عددا من الصور التي لاتحاول فهم الاسلام فهما متكاملا ، وإنما تأخذ بقطاع منه ، وتتجاهل الباقي.

أولا : القول بأن الاسلام دين ، أي : عبادة وعقيدة ، وصلة بين الله والانسان .

ثانيا : القول بأن الاخلاق (من صدقة وبر وإحسان) تكفي دون الصلاة ، وأداء الفرائض .

ثالثا : الوصول إلى أرقى درجة الفهم والثقافة في أمور الدين دون تطبيقها عبادة .

رابعا : القيام بالعبادة الطويلة المرهقة دون الارتباط بالخلق السمح أو الصدقة والزكاة .

هذه كلها نماذج من المسلمين اليوم ، يقوم مفهومها على الفصل بين القيم الأساسية المتكاملة للمسلم في الاسلام ، ولابد لفهم الاسلام من أن يكون جامعا بين العقيدة والشريعة والاخلاق ، مطابقا بين الدين ومنهج الحياة .

ولابد من ربط العبادة بالخلق الحسن ، وبالصدقة والزكاة جميعا.

ومن هنا نجد أن نماذج كثيرة قد انحرف مفهوم العقيدة لديها أو نقص عن أصوله الشاملة الكاملة ، وقد جاء ذلك استمدادا من مفاهيم

بعض الأديان والعقائد التي تقوم على الفهم الفلسفي للدين وللايمان بالله، ولاتربطه بالعبادات ، أو التي تقوم على أساس العمل الخلقي (من إحسان وصدقة ومعاونة للناس) في مجـال الحيـاة دون الارتباط بالعبـادات والشريعة ، أو تقوم على أساس الصوم في رمضان ، أو الحج الى بيت الله دون مواصلة الصلاة ، بينما الصلاة هى المدخل الحقيقي للايمان ...
ولقد أكدت أصول الإسلام ذلك الترابط والتكامل بين الاسلام والايمان ونعى القرآن على الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، ومن الطبيعي أن يؤخـذ الاسلام كاملا ، وأن يؤمن به كمنهج حياة لاينقص ولايزيد ولايؤخذ منه أجزاء بينما تؤخذ أجزاء من فلسفات أو دعوات أخرى ، أو ينقص منه اجزاء ظنا أن ذلك المأخوذ وحده يكفي ..

الحملة على الإمام الغزالي

هناك محاولات متعددة تجري في العصر الحديث لمحاولة خلق « طقس » مشابه لمرحلة ترجمة الفلسفة اليونانية في الفكر الاسلامي .

هذه المحاولة تحمل علامات كثيرة : أبرزها الدعوة الملحة إلى ترجمة الفكر الغربي ، واطلاق هذه الترجمات دون تحفظات ، ودون النظر إلى محاذيرها الخطيرة ، والذين يدعون إلى هذا يريدون أن يغرقوا الفكر الاسلامي والثقافات العربية في بحار متلاطمة ، كأنه لايكفينا ماحمل إلينا من مذاهب وتيارات وعقائد متضاربة لاتستطيع أن تعطينا شيئا نافعا إلا إذا صفيت وغربلت ، وأبعد عنها كثير من الزيف والاضطراب .

ومن علامات هذه المحاولة : ذلك الاتهام الذي لايتوقف ترديده عن الامام الغزالي ، والدور الذي قام به في مواجهة الفلسفة اليونانية .

فالغزالي متهم عند هؤلاء دعاة إدخال الفلسفة الغربية الحديثة إلى الفكر الاسلامي والثقافة العربية — بأنه أغلق باب الفلسفة ، وانه بذلك « جمد الانطلاق الفكري والثقافي عند العرب » .

وتلك عبارة هؤلاء الذين يتهمونه .

والواقع أن الذين يكتبون هذا وأمثاله — وهم كثيرون — يخطئون في الفهم ، أو يتجاوزون في التعصب .

ذلك لان الغزالي لم يفعل إلا مايمليه عليه إيمانه بعقيدته وفكره .

وأصالة الدعوة التي حملت لواء التوحيد ، والتي لايستطيع الفكر الاسلامي أن يتحرك إلا في داخلها .

وكيف يراد بالفكر الاسلامي أن يتقبل الفلسفة الالهية اليونانية التي هي علم الأصنام عند اليونان ، والقائمة على الوثنية ، وتعدد الآلهة من ناحية العقيدة ، وعلى العبودية من ناحية الاجتماع ، ثم لايدفع الغزالي هذا الخطر الذي يتعارض تعارضا تاما مع قيم الاسلام ومفاهيمه؟

لقد كانت البشرية قبل الإسلام قد شكلت فلسفة استمدتها من أخلاط الفلسفات القديمة ، هندية وفارسية ويونانية ، مجوسية وثنائية ومثلثة ، وغنوصية ، بين وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، وبين النور والظلمة والإشراق والفيض ، بين عبادة الموتى وعبادة النار والحيوانات المقدسة ، وبين إنكار البعث والجزاء ، والجنة والنار ، وإلغاء مابين الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية من تمايز فضلا عن الدعوة إلى سقوط التكليف وإلغاء المسؤولية الفردية ، وإنكار الالتزام الأخلاقي ..

تلك كانت عصارة الفكر البشري قبل الإسلام ممثلاً في فلسفات هي أهواء وأحقاد ، ونزوات وغرائز ، وشهوات ونفوس ، ثم جاء الإسلام يسحق هذا الركام الضال المضل ، ويكشف عورته ، ويزيف دعوته ، ويدعو البشرية الى الحق والتوحيد ، وعلى هذه الدعائم يقوم المجتمع الإسلامي ، والفكر الإسلامي ، فإذا جاءت الترجمة من بعد ، وكانت مقصورة على ترجمة الطبيعيات والرياضيات فانحرفت في عصر المأمون ، فترجمت الفلسفة الإلهية ، ألا يكون من حق الإمام الغزالي أن يكشف هذا الزيف ؟ وهل يمكن أن يطلق على هذا الركام أنه فلسفة عقلية ، وأن ذلك فلسفة لاهوتية ؟ !

الواقع أن الاسلام لم يكن ديناً بمعنى اللاهوت أو العبادة ، فتلك مفاهيم قوم ينظرون إلى الإسلام من خلال منظار المبشرين والمستشرقين .

ذلك أن الإسلام لم يكن في حقيقته إلا منهج حياة ونظام مجتمع ، والعبادة جزء منه ، وأن هذا الحصاد الضخم الذي ألقاه للبشرية في مجال التشريع والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، وعلم النفس والتربية ، كان ضخماً ، وكان فائقاً حتى ليمكن القول : إن البشرية لم تستطع — وقد مضى عليه أربعة عشر قرناً — أن تستوعبه أو تنفتح إلا بأطراف قليلة منه، وأنها ما تزال مضللة وراء فكرها البشري .

إن بعض الباحثين — وهم ممن لم يرضعوا لبان الفكر الإسلامي ، ولذلك فهم عاجزون عن معرفة العبادة — يظـن أن الفلسفة تستطيـع تفسير الوجـود .

وإذا كانت الفلسفة تستطيع — وهي تعمل منذ أربعـة قرون قبل الميلاد — فما أعجزها حتى الآن أن تقول الكلمـة التي ترضي العقول والقلوب ، لماذا لم تستطع أن تصل الى شيء وتضاربت كلمتها ، وضاعت سفينتها في البحار المظلمة ؟

لماذا يجري المسلم وراء هذه الدوامات وقـد أغناه « القرآن » وكشف أمامه منهجاً متكاملاً للميتافيزيقيا الإسلامية وعالم الغيب ، كل على نحو واضح مشرق مضيء فيه غنى له عن الشك القاتل وهذا القلق البالـغ ؟ .

ان الإسلام قـد أراد أن يكشف للانسانية هـذه الصفحة حتى لاتشغل بها ، ولتشغل نفسها بما هو أهم منها ، والعقل وحـده أداة عظيمة ولكنها قاصرة ، وقوة كبيرة ولكنها ذات وظيفة محددة ، فهي اذا تركت دون حضانة « الوحي » ضاعت وضلت .

إن مهمة الإنسان في الكون هي العمران والتقدم وبناء الحياة،ولذلك فإن عمله ليس في هذا الميدان ، لقد أعطي سر هذا الميدان ، ليكف عنه ،

وليتجـه إلى ميدان الكشف في الأرض ، واستخراج كنـوز البحـار والجبـال .

تلك هي القضية ؛ فالغزالي قد أعطى أماته للإسلام كاملة حين كشف عن خطر الفلسفة الإلهية ، وهو في نفس الوقت لم ينكر الفلسفة عموماً ، ولكنه عارض هذا الجانب منها ، لأنه لا يتسق مع أكبر مقررات الإسلام وقاعدته الكبرى وهي التوحيد .

إذن فليس هناك تيار لاهوتي انتصر على تيار فلسفي عقلي ، وإنما هو قانون الفكر الإسلامي الذي لا يتخلف ، والذي لم يتخلف بالأمس ولن يتخلف اليوم وغداً ، إنه لا يقبل إلا ما يتفق مع طبيعته ، ثم يرد كل ما يلقى عليه مماسوى ذلك .

وهو واقف اليوم مثل موقف الغزالي تماماً من الفلسفة الحديثة التي تطرح عليه ، وسوف يعجز هذا الركام البشري الوثني المادي من أن ينال من جوهره الأصيل .

وسوف يوجد الغزالي مرة أخرى ليقول كلمته في مواجهة هـذه المحاولة الجديدة لاحتواء الفكر الإسلامي ، أو تذويبه في بوتقة غيره من الايدلوجيات التي تقصر عنه .

وإذا كان لنا أن ننظر إلى الترجمة من الفلسفة اليونانية في القديم ، وأن نفيد من هذه التجربة ، فإن لنا أن نقول :

أولا : إن هذه الترجمة كانت مضللة ، فقد خدعنا السريان ، ولم يقدموا لنا الفكر اليوناني ، وإنما قدموا فكرهم من خلال الترجمات ، وقد أثبت عشرات من الأبحاث ظاهرة فساد النقل « وأكدوا أن النقلة لم يكونوا فوق مستوى الشبهات » .

يقول محمد عبد الرحمن مرحبا : إن أكثر النقلـة لم تكن غايتهم

البحث عن الحقيقة ــ وجلهم من النصارى : النساطرة واليعاقبة ــ فقد كان أكبر همهم الدعوة إلى شيعتهم ، وتزيين أهوائهم الدينية ، ولذلك كانوا يغيرون ويبدلون في النصوص التي بين أيديهم خدمة لأغراضهم الدينية وعقائدهم بالزيادة والحذف تبعاً لأهوائهم » •

وقال ــ أيضاً ــ : « إن الترجمات كانت تكسباً للمال لا حباً للعلم ، وإن النقلة من السريان لهم أهواء دينية » •

وقال : « إن الانتحال كان بضاعة رائجة عند القدماء والقرون الوسطى ، وإن كتباً نقلت لأفلاطون وهي ليست له ، وكتباً نقلت لأرسطو وهي ــ أيضاً ــ ليست له ، وانه كان لذلك تأثير ضار كبير في الفكر الإسلامي » •

ثانياً : إن الفلسفة الإغريقية قدمت لنا مفاهيم تتعارض مع التوحيد الإسلامي في مقدمتها : القول بقدم العالم ، وأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يحيط بالجزئيات ، وإنكار بعث الأجساد ، وهذه القضايا الثلاثة الكبرى هي التي خالفهم الغزالي في أمرها ، ودحض فساد رأيهم فيها •

وإن ما عارضه الغزالي كان متصلا بالدهرية والزنادقة الذين قالوا بأن النفس لا تموت ولا تعود ، وأنكروا ثواب الآخرة وعقابها، والطبيعيين الذين قالوا : إن العالم لم يزل موجوداً •

وإن الغزالي أكد إرادة الله العليا التي هي أكبر من نظرية الارتباط بين الأسباب والمسببات ، وهو الذي قال : « إن الأمور تتم بإرادة الله لا بالأسباب الظاهرة » ، وأكد حدوث المعجزات •

ولا ريب أن الفكر الإسلامي في ضوء التوحيد يرفض تعدد الآلهة ورأي أرسطو في الله ، وقد كشف المسلمون هذه الأخطاء ودحضوا أخطاء فلاسفة اليونان في ضوء مفهومهم : إن الله هو الفاعل الأول والمحيط بكل

شيء علماً، وأنه الأول والآخر ، كما أصلح المسلمون نظام بطليموس في الفلك ، وفندوا أخطاء أبقراط وأقليدس ، وأبانوا بأن :

« روح الحضارة الإسلامية تختلف مع روح الحضارة اليونانية » •

ثالثاً : إن أعظم خلاف بين الفكر الإسلامي والفكر اليوناني هـو « العبودية » الرومانية وأصلها الاغريقي ، ودفاع ارسطو وافلاطون عنها، واعتبارها أساس المجتمع في الحضارة الرومانية اليونانية ، فقـد جـاء الإسلام بمفهوم الاخوة الانسانية ، وطبقها تطبيقاً دقيقاً ، وأقـام عليهـ أساس الحضارة الإسلامية ، كما أقام مفهوم الاخلاق على غير قاعـدة الفلسفة الاغريقية ، فأخـلاق اليونان تجـريدية ، وأخلاق الإسـلام تطبيقيـة •

وذلك يتضح من أن أخلاق اليونان أخلاق سعادة بينما أخـلاق الإسلام أخلاق تقوى •

ولقد عارض الإسلام نظرية أفلاطون في الجمهورية ومشاعية الملك والنساء والأولاد « فلا يختص أحدهم نفسه بامرأة معينة ، بل يجب أن تكون جميع النساء حقاً مشاعاً للحكام ، ويجب ألا يعرف والد ولده ، ولا مولود والده » حتى يقول ــ أفلاطون ــ : « إن السادة لا يجوز استرقاقهم » وقوله : « إن الحر حر رغم ما ينزل به من عنف ، والعبد عبد رغم ما يحققه من نصر » •

كل هذه المعاني يتعارض فيها الإسلام مع الفلسفة اليونانية تعارضاً جذرياً في أساس بناء المجتمع ، وأساس مكونات الفكر ، فكيف يمكن القول مع هذا : إن الفكر الإسلامي إنما تأسس على الفلسفة اليونانية ، كما يردد كل دعاة التغريب ويخدعون الناس به ؟

لقد تأسس الفكر الإسلامي وتشكل في صورته النهائية في نفس

اللحظة التي أنزلت فيها آية (اليوم أكملت لكم دينكم) ولم يزد بعـد ذلك شيئاً .

في ضوء هذا كله ، هل يمكن أن يقال : إن الغزالي أقام جداراً في وجه الفكر ، أو إنه جمد الفلسفة ؟.

وهل كان بالمسلمين حاجة إلى هذا اللون من الفكر ؟

لقد أخذ المسلمون « علوماً من الأقدمين وجددوهـا وصححوهـا وحولوها من منهج اليونان القائم على التجريد الفلسفي والمنطقي والتخيل الى منهج الانسانية الذي نما منذ ظهر على أيدي المسلمين الى اليـوم : منهج الواقع والتجريد .

لقد كان خطأ اليونان بالغاً حين كانوا يذهبون في تقديس العقل الى حد القول : بأنهم يرفضون مالا يتفق معه ولو أيده الحس ، فجاء الإسلام هادماً هذا المنهج الفاسد منشئاً للمنهج العلمي التجريبي الذي شهدت له البشرية كلها ، والتي حول منطلقها الى الكشف والاختراع .

وقد بدأ المسلمون مفهومهم من القرآن نفسه الذي حرضهم على ذلك حين دعاهم إلى البرهان (قل هاتوا برهانكم) وحين دعاهـم الى التجريد (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض) .

وبعد ...

فلقد وضعت الفلسفة منذ وقت بعيد في ميزان التقييم الصحيـح بعيداً عن دعاتها الجدد ؛ الذين يريدون أن يدخلوا الفكـر الإسلامـي الحديث في متاهات القدماء ، ولقد كشفوا عن حقيقتها .

ولقد أجاب أحد الباحثين منذ أكثر من ثلاثين عاماً عن الفوائد التي

جناها العرب من الفلسفة اليونانية فقال :

« لم يكن من خير في تناول العرب للفلسفة اليونانية وغيراليونانية ؛ بل كان تناولهم الفلسفة طالع شؤم ونذير سوء ، وإيذاناً لهم بزوال سلطانهم .

لم يأخذ العرب الفلسفة جدياً إلاحين انتهى إلى المأمون زمام الخلافة العباسية فشجع الفلسفة وعمل على ترويجها ، فشاع في زمنه الشك ، وراج الباطل ، وهبت الرياح الصفراء من وراء هذه الإباحة تحمل في طياتها جراثيم المذاهب المختلفة والنحل المتعارضة ، وظهرت الفرق التي تؤلف بآرائها وعقائدها أدياناً جديدة ، فكانت كل فئة تزاحم الأخرى ، فلم تلبث الدولة إلا قليلا حتى وجدت الكثير من أتباع هذه الفرق أعواناً للمغير على تحقيق تلك الغاية » .

ولعل دعاة الفلسفة في العصر الحديث كانوا يطمعون في أن يضعوا الفكر الإسلامي ، والمجتمع الإسلامي أمام أزمة جديدة نتيجة انفصال المسلمين عن فكرهم وجريهم مع تيارات الفلسفة البشرية ، وها نحن نرى .

★ ★ ★

الباب الثامن

مُعطيَات الإسلام

ما تزال حركة التغريب تنشر الزيف حول معطيات الاسلام للبشرية ، والفكر الإنساني ، وتصورها بصورة تختلف عن الحقيقة الواقعة ، لقد أعطى الإسلام البشرية قيماً عالية في بناء الفرد والمجتمع ، ومازال معطياته في الحضارة والإخاء تسعد الانسانية كلها ، وترد عنها عادية العنصرية ، وللإسلام أيضا معطياته في مجال الجهاد والشريعة الإسلامية ٠

مُعطيات الإسلام للبَشرية

تجري الأحاديث بين فترة وأخرى حول قدرة الإسلام على العطاء للحضارة البشرية ، والمجتمعات والأمم خلال العصور ، وعلى اختلاف البيئات ، وتحاول قوى الغزو الثقافي والتغريب أن تلقي ظلالا من الشبهات « حول عالمية الإسلام » واتساع آفاقه ، ومرونة أطره وقيمه ، وقدرتها على مواجهة الأزمات والتحديات والأحداث التي تمر بها البشرية على مدى تاريخها الطويل .

ولقد ألحت البشرية على الدعوة لالتماس مفاهيم الإسلام طويلا ، وفي أكثر من حدث تاريخي ، وما تزال دعوات المصلحين في العالم كله تتردد حول معطيات الإسلام ، وهي دعوة ما تزال تحجبها عوامل كثيرة عن أن تأخذ مداها ، وإن كثيراً من الباحثين المنصفين قد أثبتوا مقدرة الإسلام على إعطاء البشرية كمجتمع ، وإعطاء النفس البشرية ذاتها .

وقد كتب هؤلاء تجربتهم سواء منهم من آمن بالإسلام واعتنقه ـ أم من درسه دراسة إنصاف ، ومن هؤلاء :

جوستاف لوبون، وتوماس كارليل،وايتان دينيه، وليوبولدفايس، والدكتور خالد شلدريك ، واللورد هدلي ، والدكتورة هونكة ، وما تزال مؤلفات هؤلاء الباحثين المنصفين تسجل في إعزاز مدى ما يرون الإسلام قادراً على عطاء البشرية ، ودفعها الى طريق العدل والأخوة والتوحيد الخالص .

ولقد سبقت للاسلام تجربة ضخمة رائدة قدم فيها عصارة رائعة في مجال العلم التجريبي ، وفي مجال العلوم الانسانية ، ولن يستطيع أن ينسى تاريخ البشرية ولا تاريخ الحضارة أن الإسلام هو الذي قدم لها المنهج العلمي التجريبي الذي هو أساس التقدم العلمي والتكنولوجي الحاسم .

فضلا عن مقدمات البحث في الطب والاجتماع والتربية وهو الذي طرح منهج الترابط بين الأخلاق والعلم ، وجعل العلم والحضارة في حمى الخير والرحمة وذلل لهما العطاء الخالص البار للبشرية كلها بعيداً عن الدعوات العنصرية واستعلاء الأجناس ، وبعيداً عن الاباحة والتحلل ، وقريباً من الإيمان بالله والتوحيد .

ولقد كانت معطيات الإسلام التي انداحت من الفردوس الإسلامي في الأندلس إلى أوربا كلها ، هي ثمرة حركات الإصلاح التي قام بها لوثر وكالفن ، وثمرة نتائج العلم التي قام بها فرنسيس بيكون، وعصارة النظريات الاجتماعية التي قدمها آدم سميث وسبنسر وغيره .

وإذا كانت هذه المعطيات قد انفصلت عن الاسلام نفسه وارتبطت بالجذور الأوربية اليونانية والرومانية ، وتشكلت من جديد ، فإنها ما زالت في أصلها الأصيل قادرة على أن تعطي الانسانية مرة أخرى ، وهي في عطائها لعالمها الاسلامي أكثر قدرة وأعظم أثراً .

فلقد وجد رافع الطهطاوي في نظريات كثيرة نقلها من أوربا (منذ أول القرن الماضي) : جذور الإسلام والفكر الإسلامي ؛ ففي القانون وجد روح « الإمام مالك » وفي الاجتماع وجد روح « ابن خلدون » وفي التربية وجد روح « الإمام الغزالي » .

ولقد أخذ المسلمون والعرب كثيراً من الفكر القديم : اليوناني والفارسي والهندي ، ولكنهم صهروا ما صاغوه في فكرهم وشكلوه داخل

إطار التوحيد ، ورفضوا كل مايعارضه،ومن ثم فليست «تجربةالاسلام جديدة في العطاء لأهله وللبشرية جميعاً .

ومن ثم فإن قدرة الإسلام على أن يمنح البشرية حلولا لمعضلاتها ومشاكلها ، وقضاياها ما زال قائماً من تطلعات رواد الحق الأبرار .

ولا ريب ان الاسلام بثبات قيمه ، وسلامة مصادره ، ونصه الموثق ، مازال هو المرجع الاوفى ، وما زال الصخرة الصماء التي يعجز عنها دعاة الغزو الثقافي ، واصحاب الشبهات .

ومن أهم ما يجعل الاسلام قادرا على ان يعطي المجتمعات الحديثة، انما هي سماحته وانفتاحه مع الاديان جميعا ، ومع الثقافات قاطبة ، فهو البسيط اليسير الواضح الذي لايحوي سرا ولا يحتاج الى تفسير فلسفي ، ولا يجد فيه الباحث غموضا او اضطرابا ، فضلا عن ايمانه الكامل بكل رسالات السماء ، وبكل الانبياء والرسل ، وصدق اخلاصه لجميع المستظلين برايته في تكريم وسماحة ، دون ان يفرض رأيه أو عقيدته (لااكراه في الدين) ثم يترك للحوار وللدليل والبرهان سبيل الاقناع والاقتناع .

ومن هنا ، فان الاسلام يمنح مظلة واقية كريمة لكل من استظل بجواره ، ويكفل لهم حقوقهم ، بعيدا عن التعصب . ثم هو يفتح آفاقه للعناصر والاجناس والدماء جميعا ، ويرى أنهاكلها من خلق الله، فلا يعلي عنصرا ولا جنسا « الناس لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » .

ومن هنا تبدو سماحة الاسلام ازاء أخطر امرين هما « الاديان والاجناس » وفي مواجهة تلك الدعوات الكثيرة الى التفرقة العنصرية

والتعصب، نجد الاسلام يمد ظله الى الناس جميعا ، في مختلف اديانهم وأجناسهم في رحابة صدر ، وسماحة نفس ، واخوة كاملة ، وعدالة في كل مايتصل بأسباب الحياة .

أما عطاء الاسلام الثاني ، فهو بكامل نظرته الى الفرد والجماعة والى الحرية والعدل ، فهو لايعلي شأن الفرد على حساب الجماعة ، ولايجعلها هاضمة لحق الفرد ولا يجعل غايته الحرية دون العدل ، أو العدل دون الحرية ، بل يجمع بينهما في تنسيق رائع ومواءمة صادقة، فيجعل الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد .

ويقيم على هذا اساس نظامه الاجتماعي والاقتصادي من خلال بناء الاخلاق وربطها بالسياسة والتربية جميعا ، وتكوين الفرد على التضحية لامهم ومجتمعاتهم .

أما التشريع الاسلامي وهو من اعظم معطيات الاسلام فهو نظام كامل للحياة والمجتمع ، يقوم على اساس الاطر الواسعة، والقواعد السمحة ، ويرسم دائرة مرنة ، يجعلها موضع الثبات ، ثم يجعل الحركة من داخلها على قاعدة واضحة : اساسها ان الله لايكلف نفسا الا وسعها، وان الخطأ يرد ، وان المعصية تغفرها التوبة ، وان المضطر يسمح له، ثم تبقى في اساس البناء قيم لايغمرها التطور ، ولا حركة المجتمعات والحضارات : تلك هي حدود الله : في مجال الاقتصاد والنفس وبناء الشخصية الانسانية وهي حدود يراد بها حماية الفرد من الانحلال ، والمجتمع من الانهيار ، في دائرة وسط بعيدة عن الاباحة وعن الجمود ، وبعيدة عن الترف وعن الزهادة .

ولقد جعل الاسلام اعظم مداخله الى بناء مجتمعه بناء الفرد نفسه

بالتربية ، فالتربية هي قاعدة من القواعد واساس من الاسس ، ولقد امضى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة عشر عاما في مكة يبني رجاله ، ويربي اعوانه واصحابه وفق نظرية واضحة قوامها «التقوى» : اتقاء الخطر والشر ، وحماية النفس الانسانية من الاضطراب والفساد ، وابقائها قادرة على العمل ، مفطومة عن الشهوات ، موجهة الى الله وحده، تعمل في سبيله خالصة صادقة ، الدين لديها رسالة حق وخير في سبيل اقامة كلمة الله في الارض ، وبذل الجهد في سبيلها والجهاد من اجلها بالمال واللسان والكلم والسيف جميعا .

فعلى الذين يخطبون ود الاسلام في بناء المجتمعات ان يلتمسوا هذا المدخل اليه ، فهو مدخله الاول والاكبر .

واللغة العربية بعد ذلك هي لغة القرآن ، وهي لغة العرب ، ولغة المسلمين ، ولغة الفكر الاسلامي في عالم المسلمين كله ولا سبيل الى بناء امة قوية الا من خلال لغتها ، فالعلوم الحديثة كلها لاتصلح للعرب والمسلمين الا اذا دخلت في دائرة لغتهم وفكرهم ، وصيغت في قوالب قيمهم ، فاللغة هي الفكر من حيث هي أداته ، ومن حيث هي مزاجه النفسي وروحه .

والمسلمون في تجربتهم الرائدة الاولى ترجموا العلوم كلها الى لغاتهم ، ثم صاغوها من خلال قيم التوحيد والعدل والايمان بالله والغيب، ومن ثم استطاعوا ان ينشئوا « المذهب العلمي التجريبي » .

ولولا هذه القدرة على استيعاب العلوم القديمة باللغة العربية لما استطاع المسلمون والعرب بناء منهجهم الاصيل الذي قدموه للبشرية كلها ، والذي مازال الاساس الحقيقي للكشف العلمي كله .

والاسلام في الحق ليس نظرية مرحلية ، ولا دعوة عصر واحد أو بيئة ما ، ولكنه نظام كامل ، فيه من النظم والفلسفات والدعوات

بعض مافيها ، ولكنه يمتاز عنها جميعا بانه رائد النفس البشرية ، ومصمم فطرتها، وجوهر حقيقتها ، فقد التمس الانسان من حيث هو كل متكامل: روح ومادة ، نفس وجسد ، قلب وعقل ، والتمسه من حيث هو صاحب الحياة في مراحلها الثلاث :

حياته على الارض ، وحياته في باطن الارض ، وبعثه ونشوره في اليوم الآخر ، ثم حسابه وجزاؤه •

وقد قامت الشريعة الاسلامية على اساس المسؤولية الفردية ، وعلى أساس الالتزام الاخلاقي الذي يتحتم معه الجزاء بعد المحاسبة والمساءلة •

واذا كانت صيحة «العصر» او صيحة «العقل» ، أو صيحة «التقدم» تحاول ان تغض من قدر الاديان والعقائد ، فانها لا تستطيع ذلك بالنسبة للاسلام ، ذلك ان تركيبه الطبيعي انما جاء موائما للعقل والعصر والتقدم ، وجاء قادرا على العطاء لكل العصور والبيئات ، على اساس واحد هو انه لايسلم بأن التقدم مادي ومعنوي معا ، وهو موجه لخير البشرية والرحمة بها لا الى اذلالها والسيطرة عليها •

فالاسلام لايقبل تبرير الانماط العصرية كلها ، كما انه لايقرها جميعا •

وانما يقبل ماكان منها متجها الى الانسانية والخير والرحمة والتقدم ، ويرفض منها الالحاد والاباحة والتفرقة العنصرية ومختلف المفاهيم التي تقول بالتطور المطلق ، او بتغير الاخلاق باختلاف البيئات والازمنة ، أو ما يتصل منها بإذكاء الصراع بين الاجناس ، فالاسلام منهج لتكريم الانسان والسمو به ، عن هدم نفسه وهدم مجتمعه ، والعلم فيه للخير ، والمجتمع فيه للاخلاق ، والفرد فيه للجماعة ، ومن

هنا فان الاسلام يستطيع ان يعطي البشرية كلها ، ولكنه يدعوها قبل ذلك وبعده الى ضوابط اساسية في الاخلاق ، ومنهج واضح ، ومحوره ثابت واطرافه قابلة للحركة .

والاسلام يقف من « العروبة » اشرف موقف ، بعيدا عن القوميات الضيقة والاقليميات والاجناس والعنصريات ، فالعرب مادة الاسلام ، وهو لهم بعد الدين لاهله : ثقافة وحضارة وتراث ضخم وتاريخ موحد عريق مليء بصفحات المجد والفخر ، فهو انضر صفحاتها ، واكرم مجاليها وهو موقف يختلف عن موقف الامم والثقافات ، فيه كرامة الانسان ، وحرية العقيدة ، وكرامة الاخوة ، وليس فيه الظلم والغدر أو الشقاق او الصراع ، فيه طابع السماحة القائم على استمداد الاديان من اصلها الرباني الاصيل ، والتقائها على الخير والعدل ، ومعارضتها للشر والظلم، وتسلط الانسان على الانسان .

وليس الاسلام هو المسلمين ، وقد لاتعطي صورة المسلمين في مجتمعاتهم حقيقة الاسلام وجوهره الاصيل ، فلا يحاكم الاسلام على أوضاع الامم ، ولا على ظروف الضعف وعصور التخلف ، ولا يستمد منهجه من كتابات ما غير كتاب واحد هو القرآن وتطبيقه في حياة الرسول وسنته وحديثه الصحيح ، وما بعد ذلك يؤخذ منه ويترك ويقبل ويرد ، فلا يحكم على الاسلام كعقيدة ومنهج حياة الا من اصوله هذه الاصيلة .

* * *

تكامل القيم في بناء الفرد والمجتمع

ان ابرز مميزات الاسلام هو التكامل بين القيم والالتقاء بين العناصر التي تشكل الفكر كله ، هذا التكامل هو سمة الاسلام ، وهو في نفس الوقت خصيصته التي تميز بها ، وتفرد بها عن كل فكر آخر ، بينما نجد الان في مجال النظريات والمذاهب عملية فصل كاملة بين كل علم من العلوم ، او فلسفة من الفلسفات •

ولا ريب ان السبب الوحيد للاختلاف بين وجهات النظر بين الباحثين ، انما يرجع الى أن بعض الباحثين قد درسوا فكر الامم الاخرى قبل ان يدرسوا فكرهم العربي الاسلامي ، أو انهم تحولوا تحت تأثير عوامل الهجرة ، أو تحديات المجتمعات ، أو بيئة الثقافة أو الدراسة ، من مفهوم التكامل في الفكر الاسلامي الى مفهوم التجزئة والانشطارية في فكر آخر •

من خلال هذه النقطة بالذات يقع كل الخلاف الذي يواجهالاسلام بالتحديات أو الشبهات المثارة في وجهه ، ولو أن العقل العربي الاسلامي تمثل مفهوم التكامل أساسا لتبين وجه الحق في كثير مما يثيرهالمستشرقون والمبشرون امام الاسلام من شبهات وتحديات •

لقد اقام الاسلام عقائده ومناهجه الفكرية من منطلق اساسي هو « الانسان »، والانسان مادة وروح ، وعقل وقلب ، وهو الى ذلك مسؤول بحكم ارادته الحرة عن عمله،وملتزم بحكم ايمانه بالله بالالتزام الاخلاقي والتماس منهج الاسلام في الحياة على ذلك النحو المرن

الواسع الذي دعي الى الحركة فيه بوصفه خليفة في الارض ، يعمل لتعميرها ، واستخراج كنوزها والاستمتاع بعطائها مع ضوابط تحفظ له كيانه الفردي ، وتحفظ له مع المجتمع رابطة الاخذ والعطاء .

وفي ضوء هذا المنطلق تتشكل معطيات الفكر ، وتبدو كل جوانب العقيدة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية والعلم والاخلاق ، واضحة في علاقاتها ــ بعضها ببعض ــ كعناصر تتمثل في كل متكامل لا انفصال بين معطياته ، ولا طغيان لأحدهما على الآخر .

فالاجزاء كلها تخدم الانسان ــ ككل ــ ، وتحفظ له وجوده الفردي ، ووجوده كجزء من المجتمع ، ولذلك فانها كلها تلتقي في مواءمة، ودون تعارض لتحقيق هذه الغاية ولا تنفك عنها .

في هذا الضوء نجد ان كل الشبهات المثارة لاوجه لها ، فليس هناك خلاف بين القيم الحضارية والقيم الدينية ، ذلك لان الحضارة والقيم الدينية في مفهوم الاسلام لاتخرج عن مفاهيم الاخلاق .

وليس هناك شكوك حول : ــ **تطوير الاسلام** ــ او الاجتهاد ، ذلك ان قيم الاسلام الاساسية ثابتة وراسخة ، لايجوز عليها التطور وانما يجوز التطور على الفروع والتفاصيل .

واداة الاجتهاد فيه قائمة لاتتوقف وهي ليست محاولة لإخضاع الاسلام لانحرافات الحضارة ، وليست محاولة لاتخاذ الاسلام اداة لتبرير المواقف المستحدثة المعارضة للشريعة الاسلامية ، او الاخلاق الاسلامية .

ومفهوم الاسلام هنا متكامل : دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، فليس الاسلام دينا لتربية الضمير ، وليست احكامه الدنيوية من باب

ضرب المثل ، وليس التقدم الحضاري من العوامل التي تستلزم التنازل عن قيم السلوك ولا القول بانها قيم وضعت في عصور اخرى •

ذلك لان التقدم الحضاري في مفهوم الاسلام ليس تقدما ماديا صرفا ، ولكنه معنوي ومادي معا ، ولن يحول التقدم بهذا المفهوم بين قيام الاخلاق واستمرارها ، بل هو يجري معها في طريق واحد •

والدين في مفهوم الاسلام يشتمل على علاقتين لا انفصام بينهما : علاقة الانسان بالله وعلاقة الانسان بالانسان ، فليس في مفهوم الاسلام أنه علاقة مع الله ولا صلة لها بالمجتمعات او الحضارات •

والاسلا ملايقر نسبية الاخلاق او زمانيتها او ارتباطها بالبيئات او العصور ، فالاخلاق قيم ثابتة مرتبطة بالانسان من حيث هو انسان لايخضع للتغيير ، انما تتغير العادات والتقاليد المحدثة •

وفي مفهو مالاسلام ان هناك قيما ثابتة لاسبيل الى تغيرها في العقائد والاخلاق ، وان هناك قيما تتغير وتتطور مع الأزمان والاحداث •

اما القيم الاصيلة الثابتة ، فان اي تطور حضاري او تغير في نظام المجتمع ، فإنه لايقضي عليها ، ولا يترخص لتأويلها •

وليست قيم الاسلام قيم عصور مضت ، أو بيئات بدوية كما ترددها الشبهات،وانما نزل القرآن للعالمين جميعا وللأزمنة والعصور على نحو سمح مرن يضع الاصول والضوابط ، ويفسح الاطار الواسع للتحرك والتطور والتغيير ، فلا توصف قيمة بأنها قديمة او بدوية أو خاصة بامة أو عصر •

وليس صحيحا ماترده الشبهات من ان الحضارة الاسلامية هي عصارة الحضارات القديمة ، الفارسية والهندية واليونانية ، بل حضارة

الاسلام خلق جديد ، متميز بطوابعه وقيمه ومفاهيمه ، ومعطيات الاسلام بالقرآن انشأت مجتمعا جديدا من نقطة البدء ، وصاغته وفق مفهوم انساني اخلاقي رباني متكامل ، قوامه التوحيد والعدل والايمان بالغيب ، والربط بين الدين والمجتمع ، والدنيا والآخرة والمادة والروح والعقل والقلب .

ولقد شهد المؤرخون بأن الاسلام كان القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ البشري وهي التي اعطت العصر الحديث اغلب مقدراته الايجابية .

وكان للاسلام اثره في الاصلاح الديني ، وفي مجال العلوم وفي مفهوم الحضارة بمعنى المدنية : مساواة وحرية وحقا للمرأة وفي مجال معطيات الفكر الاجتماعي والاقتصادي وعلوم النفس والاخلاق والتربية .

وفي مجال مذهب المعرفة القائم على العقل والقلب والعبرة بالتاريخ، ورسم نواميس الكون والحضارة والمجتمعات ، وفي مجال بناء المنهج العلمي التجريبي .

وفي الحق انه ليست هناك حضارة واحدة،ولكن هناك حضارة بمفهوم التوحيد تقوم على قيم الاسلام وجوهره،وهي تختلف في مقدراتها وغاياتها من الحضارات الاخرى التي تستهدف التقدم المادي وحده ، وتنكر الاخلاقيات ، ان للاسلام مفاهيمه في العلم واهدافه ومنعطفاته ، وله مفاهيمه في الفن وفي الحضارة وفي التقدم وفي التطور على نحو قد يختلف عن مفاهيم الحضارات ، وله ذاتيته الخاصة التي تحول بينه وبين الانصهار او الاحتواء .

وان تقدمية الإسلام لاتخرجه عن حدود الله ، أو عما حرم على

المسلمين ، ولا تجعل المسلمين خاضعين لاي شريعة غير شريعة الاسلام ، والاسلام يرحب بكل تقدم علمي وكل عمران وبناء .

ولكنه يجعل الغاية منـــه خالصة لله ولبني الانسان ، لا للظلم ولا للاستعمار ، ولا للتسلط ولا للتفرقة العنصرية ، او اعلاء جنس او لـــون او عنصر او امة ، وليس في الاسلام عائق عن التقدم ، بل هو دعوة اليه ، دعوة الى النظر في ملكوت السماوات والارض واستخرج كنوز البحار والجبال ، ودعوة الى بناء الحضارة واستغلال العلم لخدمة البشرية في اطار التوحيد والاخلاق ، والايمان بالجزاء الاخروي والحساب . وفي منطلق المسؤولية الفردية والالتزام الاخلاقي ، فاذا انحرفت مفاهيــــم بعض الحضارات الى اعلاء الدماء او العناصر ، او فصل الاخلاق عـــن قيم المجتمع ، أو سيادة القوة أو الثروة أو اسرار العلم ، كان للإسلام موقفه الثابت من حق الامم في المساواة واعلاء العمل على اللون والعنصر ، والدعوة الى وحدة البشرية والربط بين التقدم المادي والتقدم المعنوي ، وعدم تضحية القيم الروحية والاخلاقية ازاء ترف الحياة وزخرفها .

إن الايدلوجيات والمذاهب الفلسفية قد تعطي حلولا لبيئة معينة أو لعصر معين ، ولكنها لاتستطيع أن تعطي للبشرية حلولا دائمة ، ولا قيماً صالحة لكل عصر وبيئة .

والدين الحق وحده هو الذي يستطيع ان يعطي هذا ، ومن هنا فان هذه المذاهب تفقد جوهرها مع تغير الاحداث ، وتحتاج دائما الى التطوير والى الاضافة والحذف ، اما قيم الاسلام ، فلأنها من عند المصدر الذي أنشأ الانسان نفسه ، بل أنشأ الحياة كلها ، فانها قادرة على أن تقدم لكل عصر وكل بيئة حاجتها دون ان تخرج عن اصولهـــا الاصيلة ، ومقوماتها الاساسية .

واذا كانت بعض الامم قد آثرت المذاهب الفلسفية ، لأنهـا لـم تجد من الحقائق الثابتة مايمدها بمنهج صحيح ، فان المسلمين يستطيعون بالاسلام ان يحققوا ثبات العقيدة والشريعة والاخلاق ، ويحققـوا في نفس الوقت التطور بالفروع ، ويحققوا التقدم والحركة ومساوقـة ركب العلم دون أن يفقدوا ميزتهم الأساسية التي اتسمت بها حضارتهم أساسا ولا تنفك عنها ، تلك هي قيم التوحيد والايمان بالله والإيمـان بالبعث والجزاء .

ان أخطر ما واجه الحضارات في الأمم السابقة هو الانفصال عـن شيئين هامين : توحيد الله ، والايمان بالبعث والجزاء .

والدعوة التي تطرحها الصهيونية العالميـة من خلال علوم النفس والاجتماع والاجناس وغيرها انما تحاول ان تتنكر لهاتين الحقيقتـين الاساسيتين اللتين لو هدمتهما فقد استطاعت بروتوكولات صهيون ان تحقق المطامع والمخططات .

فاذا صمد المسلمون والعرب امام الايمان بالله والايمان بالبعث ، تحقق لهم اقامة المسؤولية الفردية للعمل والالتزام الاخلاقي ، وهمـا مناط البعث والجزاء والحساب ، وتحطمت المذاهب والمفاهيم والفلسفات التي قامت على نسبية الاخلاق ، وعلى انكار المسؤولية الفردية .

ان محاولة انكار عقيدة التوحيد والالتزام الاخلاقي في بنـاء الحضارات لن يعصم هذه الحضارات من نفس المصير الذي آلـت اليه حضارات كثيرة خرجت عن تحقيق ارادة الله في الارض وبنـاء المجتمع الذي يقوم على التقوى والاخاء والعدل والذي يتجه في اعماله ونتائجه الى ابتغاء الغاية الحتمية : إقامة المجتمع الرباني،مجتمع الانسانية كلها محررة من اهوائها وعنصريتها ومطامع الربـا ، وسيادة القوة .

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علـوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) صدق الله العظيم .

الجهاد والشريعة الإسلامية

هناك محاولة قديمة لتزييف الفكر الاسلامي والثقافة العربية بدأها الاستعمار منذ احتلال الاقطار العربية قبل منتصف القرن التاسع عشر، وقد كان لهذه المحاولة مخططها الماكر القائم على التمويه والتجاوز، غير ان هذا المخطط ماكاد يمضي في طريقه عن طريق التبشير والاستشراق ومعاهد الارساليات، ومناهجها القائمة على إفساد أبرز مقومات الاسلام والتي حملت العرب والمسلمين دوما على المقاومة ومواجهة الخطر، وهي «الجهاد»، تلك هي الفريضة الاساسية التي عرف المسلمون بها وجودهم، وبنوا عليها كيانهم و « الشريعة » التي أقامت حياتهم على جادة الحق، وبنت حضارتهم •

غير ان هذه الخطة الاستعمارية لم تلبث ان تضاعفت وتعقدت حين بدأت الفكرة الصهيونية في أواخر القرن الثامن عشر لتقتحم حياة العرب والمسلمين وفكرهم باضافة جديدة زادت محاولة التغريب عمقاً وحركة الغزو الاستعماري اتساعا، وذلك حين اضافت الى ذلك تحديات جديدة حين اضافت محاولة تزييف التاريخ العربي الاسلامي منذ بعثة سيدنا ابراهيم — عليه السلام — وكل مايتصل بها، ويمتد منها من تاريخ الى البعثة المحمدية، وذلك من اجل اخفاء حق، وتأكيد باطل، والغاء واقع اصيل، وذلك باثارة الشبهات حول وجود ابراهيم أولا، ثم إلى انكار رحلته الى الحجاز ليقطعوا تلك الصلة التي اكدها القرآن الكريم بين دين ابراهيم ودين محمد، وبين اسماعيل جد العرب — ابن ابراهيم —،

وقد سمعنا منذ العشرينات تلك الشبهات التي طرحت في الادب العربي لانكار ابراهيم والتوراة وكانت تلك هي بواكير الغزوة الصهيونية الفكرية بالاضافة الى غزوة الاستعمار .

ثم بدأت في ذلك الوقت الباكر الحملة على اللغة العربية ، واستهدفت « الحملة القرآنية » في الاساس ، ثم كانت محاولة هدم النوابغ من امثال الغزالي وابن خلدون وبناء المتهمين بالزندقة من امثال أبي نواس وبشار بن برد والمعري .

وكانت اضخم الاحداث تلك المحاولة الخطيرة في الفصل بين الاسلام والعروبة ، وخلق مواجهة وتضارب وتضاد بين العرب والمسلمين ، وكان ذلك كله يستهدف تلك الغايات التي لم تنكشف للمسلمين والعرب إلا بعد الحرب العالمية الثانية حين تكشفت الوثائق التي أبرزت أخطر عملية في تاريخ الاسلام الحديث ، وهي تحطيم وحدة العرب والمسلمين من أجل خلق ممر لرأس الافعى الصهيونية للعودة إلى فلسطين .

كان هدف الاستعمار الغربي هدم الجهاد والشريعة وهما عماد الاسلام من أجل البقاء والاستمرار في السيطرة على مقدرات المسلمين والعرب ، وجاء هدف الصهيونية بهدم كل مقومات التاريخ واللغة والوحدة الفكرية العربية الاسلامية من أجل القضاء على الحضارة العربية الاسلامية والوجود العربي .

ولقد كانت حركة « الماسونية » هي بؤرة العمل الصهيوني الخفي في أحشاء العالم الاسلامي من أجل تركيز القوائم للغزو الذي بدأ فعلا عام ١٩٤٨ باحتلال فلسطين ، وتم عام ١٩٦٧ باحتلال القدس بدأت هذه الحركة عملها في قلب الدولة العثمانية بواسطة « الدونمة » في (سالونيك)فكانوا العامل الاول لتمزيق وحدة العروبة والاسلام وإعلاء

مفاهيم الاقليمية ، وفصل الدين عن المجتمع ، وإشاعة ذلك الجو الذي هيأ للنفوذ الاجنبي سيطرته ، وفي ظله انتزعت فلسطين من العرب •

كان الاستعمار في ظل نفوذه يمنع دراسة باب الجهاد في الفقه ، وينزع القرآن من رأس مناهج المعرفة ، ويصور الاسلام دينا لاهوتيا محضا ، ويصف رجاله الشريعة الاسلامية بأنها قانون الصحراء •

وجاءت الصهيونية ، فزيفت المرسومات ودوائر المعارف لتنكر العلاقة بين الحنيفية والاسلام ، وبين إبراهيم والعرب ، وبين رسالات السماء في تسلسلها ودعوتها إلى التوحيد منذ أنزل الله الانبياء ، ومنذ أعد هذه المنطقة لرسالاته ووحيه وكلماته •

وقد عملوا حثيثا إلى ذلك منذ أواخر القرن التاسع عشر ،وشاركوا في مناهج الاستشراق بحملات عنيفة على التوحيد والرسول — عليه السلام — والاسلام والتاريخ واللغة العربية ، ومن خلال حملات التبشير ومعاهد الارساليات ومحافل الماسونية تشكل ذلك التحدي الخطير الذي يواجهه العرب اليوم بقوة ، ويكشفون عن زيوفه وشبهاته ، ويحطمون قوائمه بالكشف عن أصول الفكر الصهيوني وأعماقه المتصلة بالتلمود والمشنا وغيرها من مناهجهم التي أعيد تشكيلها في بروتوكولات صهيون ، والتي طرحت من بعد من خلال الفكر البشري دعوات تحمل ملامح الالحاد والاباحة الوثنية والمادية مجددة طوابع الهلينية والغنوصية التي خلقت في الماضي دعوات الباطنية وحركات القرامطة التي هددت وجود المسلمين وكيان الاسلام ، وكانت مقدمة للغزو الصليبي والتتري الذي يواجه المسلمون قرنين كاملين حتى سحقوه سحقا ، وقضوا عليه قضاء نهائيا حين التمسوا مفاهيم الاسلام وقيمه ، واستمدوا وجودهم الحقيقي من أبرز معلمين من معالم الاسلام وهما : « الجهاد » و « الشريعة » •

واليوم يواجه المسلمون نفس الموقف ، فلا يجدون سبيلا حقيقيا لهم إلا أن يجيدوا صناعة الموت من أجل الحياة ، فقد تأكدت لهم بعد هذا الصراع المرير خلال نصف قرن مع الاستعمار والصهيونية أنه «لابد من دخول فريضة الجهاد الى حياة المسلمين والعرب مرة أخرى بكل مفاهيمها وقيمها » .

وان المثل الأعلى الذي يتحرك العرب في إطاره اليوم هو ذلك المنهج الكامل الذي قدمه لهم الاسلام مفتوحا على التقدم والبناء والنمو ، وأنه لاسبيل اليوم إلى منهج سواه ، بعد أن تحددت الصورة ، وتكشفت أبعاد الخطر الاستعماري الصهيوني الذي يحاول أن يجتاح الوجود العربي والحضارة الاسلامية العربية بكل قيمها ومفاهيمها المستمدة أساسا من القرآن والتي تقوم على التوحيد والاخلاق والايمان .

لقد قدم الاسلام للعرب المثل الاعلى الذي انتصروا في ظله حتى بلغوا الذروة ، وأضاؤوا العالم ألف سنة كاملة ، فلما انصرفوا عنه امتحنوا فاذا عادوا اليه ، انتصروا ، ولن ينتصروا حتى يعودوا إليه .

إن الجهاد هو ثروة هذه الامة ، وهو نسكها ، وهو سياج بنائها ، والرباط في سبيل الله هو العمل الدائم الممتد الذي **لايغفل** عنه المسلمون يوما واحدا أو ساعة من يوم ، ولابد أن يعود المسلمون والعرب اليوم الى تينك القلعتين اللتين انسحبوا منهما منذ قرن أو يزيد ، إنهما قلعتا «الجهاد والشريعة الاسلامية » .

إن العرب اليوم وقد دخلوا مرحلة جديدة من الوحدة والمواجهة ، وبناء المجتمع على أساس العقيدة والاستمداد من مصادر الشريعة الغراء ، وربط العلم بالايمان إنما يلتمسون الطريق الصحيح إلى استعادة وجودهم وأرضهم ، وانهم على أول الطريق الذي سار فيه المجاهدون في كل مرحلة وأزمة من مراحل التاريخ الاسلامي وأزماته .

إن الانطلاق من المفهوم الاسلامي الأصيل للجهاد بالتأهب لمعركة في سبيل الله إنما هو تحقيق الهدف الأصيل في التحرك من داخل فكر الامة وقيمها •

لقد كان هدف التغريب هو حمل العرب والمسلمين لاعلى قبول ذهنية الغرب ، بل على قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء والتحرك من داخل دائرة الفكر الوافد ، وهو فكر زائف صيغ على النحو الذي يقتل هذه الامة في أعز مقوماتها ، كان هدف الصهيونية العالمية مع الاستعمار إخراج المسلمين من دائرة قيمهم وأصالتهم ومزاجهم النفسي بما يخلق فيهم الشعور بالنقص والتخلف •

وكان أكبر العوامل لتحقيق ذلك تحريف التاريخ الاسلامي • وتشويه مبادىء الاسلام وثقافته ، وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ البشرية •

ولقد كانت أزمة النكسة هي في الحقيقة صدمة الوعي بالخروج من دائرة التبعية الى دائرة الاصالة والرشد الفكري •

وإذا كان الغزو الفكري التبشيري والارساليات ، وتضافر أهداف الاستعمار والصهيونية قد عمل على إقامة بديل زائف قبل إسقاط الاصيل وإخراج العرب والمسلمين من دائرة فكرهم إلى دائرة التبعية والمتاهة ، فان أعظم ماتحقق اليوم هو انكشاف هذه الحقائق وبروزها على نحو لايختلف فيه احد ، وهي مقدمة وحدة الفكر التي ستعيد الأصالة إلى مكانها وتزييف البديل وإسقاطه •

وإذا كان العرب قد واجهوا ــ بأصالة الاسلام وترابط العروبة والاسلام ــ الصليبيين والتتار ،فانهم قادرون اليوم أن يواجهوا الاستعمار والصهيونية إذا تحركوا من مصادرهم ومعالمهم ، وتحرروا من خطر

الدخول مع العدو في مواجهة بمفاهيم واحدة وقيم مضللة ومن خلال دائرة الفكر الذي رسمه الغرب للعرب والمسلمين حتى لايستطيعوا أن يحققوا شيئا من خلال نظريات مادية تنكر الايمان والتوحيد ، وارتباط الاسلام بالحياة ، والخلق بالمجتمع •

ولما كان لكل أمة مميزات لاتستطيع أن تنبعث إلا من خلالها ، فان العرب يعرفون أن قيمهم كانت على مدى التاريخ هي رايات النصر ، وأنهم حطموا قاعدة كانت تؤمن بهاالوثنية القديمة والمادية الحديثة ،وهي أن الحجم من حيث العدد والعتاد ليس هو عامل النصر الاوحد ، وقد سجل القرآن ذلك وتحقق فعلا في مختلف المعارك التي خاضها المسلمون في قانون واضح هو : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) •

فالايمان بالله والعقيدة مصدر قوة كبرى في مجال المواجهة تضاف إلى قوة السلام والتدريب والبراعة والمباغتة •

لقد آمن العرب بأن هناك ضرورة أكيدة تساوي ضرورة الحياة نفسها هي التوصل إلى أكبر مدى من بناء قوتهم في مجال السلاح والتكنولوجيا والعلوم الكيماوية ، ولابد لهم في سبيل تحقيق ذلك من ترجمة هذه العلوم إلى اللغة العربية أولا ، ثم امتصاصها في داخل النفس العربية والفكر العربي على السواء وتشكيلها في نطاق عقيدتهم وقيمهم القرآنية التي هي الإطار الأصيل لكل تطوراتهم وتحولاتهم ونمائهم وتجددهم •

لقد تنبه العرب والمسلمون اليوم أن محاولة الاستعمار والصهيونية العالمية في نقل الفكر البشري كله والفكر العربي الاسلامي على الخصوص عن مجال العقيدة والتوحيد والاخلاق والايمان بالله إنما كان يستهدف القضاء على أكبر عوامل المواجهة والمقاومة وهي القضاء على القوة الوحيدة التي تسحقه ، وتنهي وجوده ، تلك هي :

« الجهاد والشريعة » •

الباب التاسع

حضارة الإسلام

هل كانت حضارة الاسلام جزءا من حضارة اخرى سابقة كما يحاول التغريب أن يزيف الحقائق ، إن الشواهد التاريخية ، وادلة الواقع ، وشهادات المنصفين كلها تكذب هذه الدعوى المبطلة ، وتكشف عن ان حضارة الاسلام لها ذاتيتها الخاصة ، وطابعها المميز ، وانها لم تكن عطاء محدودا ، ولا مرحلة عارضة ، ولكنها كانت نقطة التحول في تاريخ البشرية جميعا وفي تاريخ العلم ايضا .

الذاتية الخاصة والطابع المميز

هناك نظرية يطرحها الاستعمار والاستعلاء العنصري من خـلال منطلق باللون أو بالجنس أو بالدماء ، تقول هذه النظرية : إن هنـاك حضارة واحـدة ، وإن العرب بالاسلام كانوا حلقـة من حلقات هـذه الحضارة التي ظهرت على شواطىء البحر الابيض بالفينيقية قـديمـا والهلينية من بعدها ، والغرب في العصر الحديث ، يردد هذه النظرية كثير من كتاب الاستعمار في مقدمتهم جورج سارتون في كتابه :

The Unity and Dineristy

ومن الحق أن يقال : إن الاسلام جاء فاصلا بين عهدين في تاريـخ البشرية ، وانه قد صحح كل مفاهيم التوحيد والاخـلاق والاجتمـاع والفكر ، ووضعها في الصورة النهائية انطلاقا من مفهوم أصيل هو أن ثمار المعرفة الانسانية انما جاءت بها الاديان السماوية المنزلـة ، ثـم اختلطت بالفلسفات والتفسيرات البشرية ، ومفاهيم الوثنية والتعـدد والعنصرية وعبادة الاجساد والابطال ، ثم أعادتها الاديان مرة بعد مرة إلى جادة الحق ، ولذلك فقدجاء الاسلام راسما المنهج الرباني الذي يهدي البشرية إلى الانسانية والتوحيد الحق ، ويحرر العالم من زيف نظريات الفكر البشري ، ومن اضطرابها وفسادها .

ومن هنا ، فإن ما جاء به الإسلام لم يكن في الحق ــ كما صـوره

جورج سارتون وغيره من دعاة نظرية الحضارة الواحدة ــ كل مكرمة الفكر الإسلامي هو ماورثه العرب عن الفرس وما اقتبسوه من البيزنطيين ، أو ما أخذوه من الصائبة والوثنية والمجوس وغيرهم .

ذلك لأن « معطيات الإسلام » إنما جاءت متميزة عن كل ذلك مما ترجم إلى الفكر الإسلامي من فلسفات ،فقد استكمل الفكر الإنساني منهجه الأصيل ، ومضمونه الواضح المستمد من القرآن قبل أن تترجم الفلسفات ، ولم تزد الفلسفات الفكر الإسلامي شيئاً بل لعل الفكر الإسلامي ــ بذاتيته الأصيلة قد استطاع أن يتحرر من منطق اليونان ، ووثنية الفرس ، وتعدد الهنود وغيرهم ، وظل قادراً على أن يقدم للبشرية منهجاً صادقاً متكاملاً من « القرآن » الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

إن ماورثته البشرية من الفرس والبيزنطيين والصابئة والوثنية إنما هو ذلك الحصاد الذي واجهه الإسلام بالحق ، وقال فيه كلمته النافذة الحاسمة .

لقد كانت الأديان السماوية التي نزلت في أرض العرب دعوة الى الأخوة الإنسانية بين الأجناس ، غير أن ماأدخلته الاسرائيليات من دعوة صريحة إلى العنصرية كانت مخالفة لدعوة الله ، والعنصرية تمثل حزباً أو قبيلة ، أو تتحرك من خلال مفهوم معارض للواقع والحق والكتاب المنزل هو : الشعب المختار ، أما الحنيفية ، فهي تمثل الأخوة عن طريق المصاهرة ، ووحدة اللغة والثقافة والرسالة ، وقد فصل القرآن الكريم في هذه القضية فصلاً واضحاً .

هذه النزعة العنصرية هي التي تحاول أن تفرض نفسها على مفهوم الحضارة الواحد بينما حقائق التاريخ تثبت غير ذلك تماماً ، تثبت أن الإسلام جاء مجدداً لدين إبراهيم الحقيقي القائم على التوحيد الخالص ،

وأنه طرح على البشرية مفاهيم جديدة كانت مصدر حضارة لها ذاتيتها الخاصة وطابعها الفرد .

ومنذ جاء الإسلام ، فإن حوض البحر المتوسط قد انشطر إلى حضارتين ، فقد برزت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحي والفكري والنفسي والاجتماعي ، ومن خلال الإسلام قامت حضارة لها مضمونها الاجتماعي ، ولها نظريتها الخالصة ، ولها أسلوبها في المعرفة ، ولها منهجها العلمي التجريبي الذي قدمته إلى البشرية كلها ، وقامت عليه الحضارة الحديثة .

لقد قامت الحضارة الإسلامية على نحو معجز عجيب في خلال أقل من مائة عام من حدود فرنسا إلى حدود الصين ، فشكلت منهجاً جديداً مغايراً — بل معارضاً — في كل مضامينه لمفاهيم الفكر البشري الذي قامت عليه حضارة اليونان والرومان والفرس والحضارة الغربية الحديثة من بعد .

هذه الحضارة الإسلامية قامت على فكرة لها ذاتيها المستمدة من ربانيتها وإنسانيتها ، هي ماوصفها الدكتور إسماعيل رامي في الفاروقي في محاضراته عن مقارنات الأديان باسم :

« القول بوحدانية القيم » .

« وهو أمر تفرد به العرب دون سواهم ، ووحدانية القيم هي وحدانية الله ، وهذه الوحدانية هي إدراك عربي صميم طرأ على الوعي العربي مصطحباً جانبه الأخلاقي منذ نشأت حركة العروبة في الماضي السحيق » .

« على حين أنه غير العرب من الشعوب قد لبثت قروناً حتى بعد أن أخذ بالوجه الديني من تلك الوحدانية قبل أن يدرك جانبها «الخلقي»

واعني به وحدة المعيـار بين مختلف الناس بغض النظر عـن أجناسهم وألوانهم » •

« ولب هذه الرسالة : هي أن الله موجود ، وأنه واحـد ، أمـا وجوده ، فمعناه عند العقل العربي ، هو وجود القيم وجودا مستقلا عن الإنسان ووجـوده ، أعني أنها ليست مـن صنع الانسان يصنعها كمـا تقتضي ظروف عيشه ، ومعناه كذلك عند العقل العربي أن حياة الانسان على هذه الأرض لم تكن عبثا •

« أما كون الله واحداً ، فمعناه عند العقل العربي أن القيم تحمـل معياراً واحداً ، لايتأثر باختلاف الزمان والمكان ، فالمعيار واحد بكـل إنسان أنى كان وحيثما كان ، فليس لكل مجموعة من الناس معيارهـا الخلقي ومعيارها الذي تعيش به، الحق بـل الخير خير بالنسبة لكـل البشر ، والحق حق بالنسبة للناس أجمعين » •

«فالقول بوجود الله ووحدانيته إذن هو في صميـم الاعتراف بموضوعية القيم ، وتخليصها من قيـود « النسبية » التي تقر اختلاف المعايير باختلاف الظروف » •

« فالانسان أمام الله هـو الإنسان ، لا اختلاف بين فرد وفرد إذا ما قيس الأفراد بمقاييس الأخلاق التي هي مقياس الحق » •

« وهذا ما يميز العروبة عن سائـر أهـل الأرض جميعاً ، ذلـك باعتقادات القيم الأخلاقية حقيقة مبعوثة إليه من السماء ، هدايـة له في سيره على أن تلك القيم لم ترسل اليه دفعة واحدة ، بل أرسلت علـى دفعات بواسطة الانبياء من آدم إلى محمد ــ عليه السلام ــ وكـانت الرسالة الخلقية تزداد على مر الأيام قوة وجلاء كلما زاد الوعي العربي لهـا » أ • هـ •

من هذا التصور السليم الناضج يبين :

أولا ــ أن مفهوم نسبية الأخلاق ، أو التطور المطلق خارج « دائرة الثبات » ، والقول بأن لكل عصر مقاييسه الأخلاقية ، أو أن الأخلاق ترتبط بالبيئات والعصور ، كل هذا هو ماطرحته الفلسفة العنصرية قديماً والصهيونية التلمودية حديثاً ، وهو ما ترفضه الفطرة الإنسانية اساساً ، وما ترفضه الذاتية العربية والنفس المؤمنة ولا تقبله وهو أبرز ما يميز حضارة الإسلام عن حضارة الوثنية .

ثانياً ــ من هذا التمييز الواضح يتبين : أن العرب بالإسلام لم يكونوا قطعة « غيار » في الحضارة ، ولم يكونوا حملة علوم قديمة وفلسفات وثنية لتقديمها مرة أخرى، بل كانوا واجهة عريضة تحمل أسماء «الإنسانية» و «الأخوة البشرية» و « التوحيد » و « الايمان بالغيب ».

وهذه قيم مختلفة كل الاختلاف متباينة كل التباين عما طرحه الفكر البشري ممثلاً في العنصرية التلمودية (قديماً وحديثاً) .

ويذهب بعض الباحثين وفي مقدمتهم العلامة (علال الفاسي) إلى أن العمليات التاريخية التي سبقت بعثة الرسول لم تكن إلا تمهيداً لابلاغ الإنسان رشده عن طريق إكمال الدين ، ولم يكن « محمد » بدعاً من الرسل ، فقد سبقته نبوات ورسالات كما سبقته دعوات إصلاحية تشمل كل بقاع العالم ، ولكنها لم توفق إلى البقاء ، وأصابها الانحراف الذي يستوجب أن تجدد وتصلح ، لتفتح آفاق التقدم الإنساني ، فكان لا بد أن يبعث الرسول الخاتم الذي يضع الإنسان في جو الرشد المبني على العقل والروح ، والقلب والجسم ، فكل ماسبق من عمليات التاريخ كان يهدف لغاية واحدة هي وجود الرسول نفسه ، وبذلك يصبح ماضي الأمة وكأنه ما قبل التاريخ ، أما التاريخ الصحيح فيبدأ بالمجتمع الاسلامي» أ. هـ.

ومن هذا ينكشف زيف الدعوى بالقول بأن العرب والمسلمين لم يكونوا في وجودهم التاريخي الضخم الذي انفردوا به في العالم كله ألف سنة كاملة على الأقل (منذ بزوغ الإسلام حتى ظهور النهضة الأوروبية ١٥٠٠) جزءاً من حضارة البحر المتوسط أو مرحلة من مراحلها، بل وجوداً ذاتياً قائماً بالحق ، شطر البحر المتوسط ولا يزال يشطره إلى حضارتين .

●●●

نقطة التحول في تاريخ البشرية والعلم

إن هناك حقيقــة علمية تقول : إن « روجر بيكون » هو صاحب المنهج التجريبي ، هذا المنهج الذي قام على الملاحظة والتجربة التي هي أساس العلم الحديث كله ، والذي كان عصا التحويل في تاريخ البشرية كلها حين نقلها من المنهج النظري اليوناني المجرد إلى المنهج التجريبي ، فصنعت المعجزات ، وقام هذا البناء الضخم من الصناعة والتكنولوجيا .

هذه الحقيقة العلمية التي تحفل بها كتب تاريخ العلم لاشبهة فيها ؛ ولكن ما هي أرضيتها الأصيلة ، وما هي خلفيتها التاريخية .

يقول العلامة بريفولت في كتابه (Making of humanity) (بناء الانسانية) مايلي :

إن آراء روجر بيكون عن العلم أصدق وأوضح من آراء أسلافه فمن أين استمد دراسته العلمية ، ويجيب بأن «بيكون» تعلم في الجامعة الإسلامية في الأندلس .

يقول : إن روجر بيكون درس العلم العربي دراسة عميقة، وإنــه لا ينسب إليــه ولا لسميه الآخر (أي فرنسيس بيكون) أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا ، ولم يكن روجر في الحقيقة إلا واحداً من رسل العلم الإسلامي ، والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية ، ولــم يكف بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هو الطريق الوحيــد

للمعرفة الحقة ، ثم يشير إلى ما يتردد حول واضعي المنهج التجريبي ، ويصفها بأنها تصوير فاسد محرف لمصادر الحضارة الغربية .

ويقول : أما مصدر الحضارة الأوربية الحق فهو منهج العرب التجريبي وقد انتشر هذا المنهج في عصر بيكون وتعلمه الناس في أوربا تحدوهم إلى ذلك رغبة ملحة .

ثم يمضي بريفولت (حسب النص الذي نقله عنه العلامة محمد اقبال) فيقول : « إنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي هو تأثيره في العلم الطبيعي، والروح العلمي وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث ، والمصدران لازدهاره » .

ثم يصل بريفولت إلى أن يقرر في حسم وإصرار :

« إن مايدين به علمنا (أي علم أوربا) لعلم العرب ليس هو ماقدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير سالفة ، إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا :

« انه يدين لها بوجوده » .

« وقد كان العالم كما رأينا قبل العلم ، كانت علوم النجوم ورياضيات اليونان عناصر أجنبية لم تجد لها مكاناً ملائماً في الثقافة اليونانية ، وقد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ولكن :

طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ، ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة ، والبحث التجريبي ، كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني » .

« ان ماندعوه بالعلم ظهر في أوربا كنتيجة لروح جديدة في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء عن طريق التجربة والملاحظة والقياس

mesuemeмt ، ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح ، وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي » .

ويعلق (العلامة محمد إقبال) على هذا النص فيقول :

« فالمسلمون إذن هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي » .

ويقول (العلامة سيديو) معلقاً على الظاهرة الخطيرة في تاريخ البشرية :

« إن العرب المسلمين كانوا أساتذة أوربا كلها في جميع فروع المعرفة ، وإن ما شيد من المدارس والجامعات في أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة مابين الشرق الأقصى وبين هركول (مضيق جبل طارق) ناشراً آثار العلم العربي في كل مكان ، عاملاً على تجديد الدم في عروق العالم الهرم ، ونحن مدينون للعرب في الحقل العلمي » .

ويقول العلامة ليبري :

« احذفوا العرب من التاريخ يتأخر عصر التجدد في أوروبا عدة قرون فقد لمع العرب في كل الميادين العلمية ، كان العلماء في كل الميادين يقومون بقسطهم في البحث لم يدعوا باباً إلا طرقوه » .

وتقول الدكتورة سيجريد هونكه في كتابها (شمس الله تشرق على الغرب) : « إن مآثر العرب والمسلمين الخالدة لتقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية ، إن العرب والمسلمين هم مبدعو هذه التجربة بالمعنى الدقيق المكلمة ، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء العبور من الخاص إلى العام ، أي الطريقة الاستقرائية : الطريقة العلمية الأساسية .

ان المنجزات التي حققها رواد العلم العربي الإسلامي على أساس المشاهدة والتجربة هي التي حددت الحركة الأولية لتحرر الفكر الغربي عن طريق روجر بيكون والبير الكبير » •

ونكتفي بهذا القدر من النصوص في هذا السبيل وقد أوردنا الكثير منها في كتابنا (الإسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني) [1] •

ولقد كان التوسع الإسلامي هو مصدر النهضة للعالم كله ولأوربا بالذات ، فقد حمل إلى الأندلس أدق معدات العلم ، وآخر ماوصل إليه جابر بن حيان ، وثابت بن قره ، وابن الهيثم ، والرازي ، والفرغاني ، والبناني ، والقزويني،وابن يونس ، والبيروني، والخوارزمي وعشرات•

ولقد شهد الغربيون بالأثر الذي أوقف المد الإسلامي في معركة بواتيه ، فقد تساءل أناتول فرانس في كتابه (فوق الحجر الابيض) :

ماهو أتعس يوم في تاريخ فرنسا ؟

وأجاب : هو عام (٧٣٢) أي : العام الذي نشبت فيه معركة بواتيه ، ففي هذا العام تراجعت الحضارة العربية أمام البربرية الأوربية ، ولقد أعطت الحضارة الإسلامية الفكر الغربي الكثير بالاضافة إلى المنهج العلمي التجريبي : أعطتهم الفروسية ومفهوم كلمة الحرية وتفسيرات ابن خلدون للتاريخ والاقتصاد والعمران •

ولكن : من أين جاء المسلمون بالمنهج العلمي ؟

لقد جاؤوا به من القرآن نفسه ، ومن دعوة الله إليهم أن : (انظروا ماذا في السماوات والأرض) ومن إنزال سورة كاملة اسمها

---

(١) اصدار المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

سورة الحديد : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) يقول القاضي آرثر لايسي ، المؤرخ الأمريكي المشهور :

« إنني كفرد أنتمي إلى العنصر السكسوني أعترف بأننا مدينون لكم معشر العرب ، وأنتم السابقون ، إن اسبانيا العربية هي مدرسة أوربا التي علمتنا الأدب والفلسفة والعلوم ، ومنكم تعلمنا الكسور العشرية ، وحساب التفاضل والمقابلة ، ومنكم تعلمنا القول بكروية الأرض ، وان الكرة الفضية التي أهداها الشريف الجغرافي العربي الأول إلى روجر الثاني أمير نابولي في منتصف القرن الثاني عشر (القرن السادس الهجري) خير شاهد على ما أقول ، وذلك قبل رحلات كولومبس بخمسمائة سنة » .

ولقد حاول (دكتور جارودي) أن يكشف عن هذه الصفحة التاريخية من دور المسلمين والعرب في أخطر مرحلة تحول في تاريخ البشرية كلها حين قال :

« بينما كانت شعوب الشمال تتناحر في حروب دينية وتتصرف كالقبائل الهمجية كان شعب أسبانيا (المسلم) يشهد أغنى وأجمل حضارة شهدتها أوربا خلال العصور الوسطى ، وبفضلهم عرف العد العشري والجبر والكيمياء والطب وعلم الكون » .

ومن الحق أن يقال : إن عطاء الإسلام لم يقف عند العلوم وإنما تعداها إلى مفهوم المدنية والحضارة .

وكان أخطر ماحطمه هو الرق والعبودية ، وهو النظام القائم إذ ذاك في الامبراطوريات الثلاث : مصر الفرعونية ، وفارس المجوسية والامبراطورية الرومانية .

ولقد قدم الإسلام حرية العقيدة ، فأعلن أنه (لا إكراه في الدين) .

وأبطل التفرقة بين الناس جميعا ، وأعلن أنهم لا يتفاضلون بالجنس ولا باللون ولا بالعنصر ولا بالطبقة ، وانما يتفاضلون بأمر واحد : هو (التقوى) و (العمل الصالح) .

وكانت دعوة الاسلام إلى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر نبراساً حياً للعالمين جميعاً .

وكان من أعظم ماقدمه الإسلام للانسانية قوانين الكون ونواميس المجتمعات الممثلة في سنن الله التي لا تتخلف .

ودعا الإسلام إلى الترابط بين الفرد والجماعة ، وجعل الجماعة للفرد ، والفرد للجماعة ، ولم يدحض أحدهما ، أو يطغيه على الآخر .

●●●

لا ريب أن للمسلمين والعرب « حضارة » قائمة أصيلة ممتدة في تاريخهم بقيمها ومفاهيمها التي شكلتها عقيدتهم التي بدأت باسم (الحنيفية) على لسان ابراهيم ــ عليه السلام ــ والتي ختمت (بالإسلام) على لسان سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وليس هما دعويين أو دينين وانما هو دين واحد جاء في صورته الخاتمة باسم الإسلام ، وهو اسم دين الله المنزل منذ خلق الله السماوات والأرض .

وكل ما كان عند العرب قبل الإسلام من قيم وخلق وأريحية ونصرة وكرم ، فإنما هو بقية الخير الذي قدمته الحنيفية الإبراهيمية إلى هذه الأمة ، وهي الجذور الكريمة التي نشأعليها الإسلام ، وظهر في بيئتها التي كانت إذ ذاك أنقى بيئة وأصلحها للرسالة الخاتمة ، على الرغم مما كان في الجزيرة العربية من وثنية وشرك ، وهي وثنية قشرية لم تتجاوز القرون القليلة ، ولم تكن لها فلسفة عميقة ولا هياكل ضخمة ، ومن هنا فقد صاغ الاسلام نهجاً أخلاقياً جامعاً بين الروح والمادة ، والعقل والقلب في إطار التوحيد ، وبنى مجتمعاً جديداً ، كانوا نواة هذه الأمة التي لم تلبث في خلال سبعين عاماً أن امتدت الى حدود الصين شرقاً ، وإلى فرنسا غرباً عبر ثلاث قارات ، واستقبلتها الأمم والشعوب بالفرح

والابتهاج ، لأنها حررتها من عبودية الانسان للانسان ، ومن عبودية العقل للوثنية ، ولأنها هي العظمى ، فقد انفتحت لها العقول والقلوب ، وتدافعت البشرية كلها إلى ضيائها ، لأنها وجدت فيها نفسها .

فإذا جاء اليوم قائل يقول : إن للبشرية حضارة واحدة هي حضارة الغرب المسيطر بنفوذ الاستعمار ، وبقوة القسر ، وليس بإيمان الامم بها تقبلهم لها . قلنا له : إن في العالم حضارتين : هما حضارة التوحيد ، وحضارة الوثنية ، وإن لفوز الحضارة الغربية الحديثة مهما امتد واشتهر اتساعا بقوة العلم وكشوفه وأثره في حياة البشر ، وعمقاً بانتشارها إلى أقصى أقاصي الأرض،فإن ذلك كله لايلغي ولا يطغى على أصول الحضارة الإسلامية التي لم تكن حضارة مادية ، وإنما كانت مدنية ذات قيم ترفع شأن البشرية ، وتكرم الانسان ، وتنقذه من وثنية الحضارات القديمة ، وتحرره من فكر الهلينية والغنوصية جميعاً لترده إلى التوحيد الخالص والإيمان بالله ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والإيمان بالغيب ، وفهم مهمة الإنسان في الأرض على أنها مسؤولية فردية ، والتزام أخلاقي .

هذا الطابع من الحضارة الذي عرفه المسلمون ونشروه في العالم كله منذ أربعة عشر قرناً ، مايزال قائما في أعماق (عالم الإسلام) وإن غشيته الغواشي ، وحاولت قيم حضارة الغرب أن تصاوله ، وأن تزحف عليه ، وأن تزاحمه بقيم جديدة ، وذلك هو الصراع الذي يقوم من جانب القوة والسلطان والاستعمار الذي يفرض وجوده كما يفرض فكره ، ومن جانب الأصالة القادرة بقوتها الذاتية أن تحيا لا أن تموت مهما صاولتها القوى المتغلبة لتقضي عليها ، وهي لن يقضى عليها ، لأنها من الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ، ومن ثم ، فإنه غالب مهما بدا مغلوباً ، وقائم مهما بدا ضعيفاً .

وإن هذا هو الامتحان الذي يجتازه المسلمون ويجتازه مفكروهم

وعلماؤهم وأئمتهم من أجل المواجهة والمقاومة والتماس الحقيقة،وتصحيح المفاهيم وتحرير القيم .

ولا ريب أن حضارة الإسلام « حضارة التوحيد » تواجه اليوم من تحديات الإلحاد في مواجهة التوحيد ، والإباحة في مواجهة الأخلاق ، والعنصرية في مواجهة الأخوة البشرية ، والتدين في مواجهة الانحلال .

لقد شاءت البشرية أن تفصل نفسها عن الدين والوحي وعالم الغيب والبعث والنشور تحت سلطان فكرة ضالة هي فكرة الفصل بين عالم الواقع وعالم ما وراء الطبيعة باسم العلم وباسم العقل ، وقد استشرت هذه الفكرة بأيدي دعاة يجدون في إذاعة هذه الفكرة وقوداً لغايات بعيدة يقومون عليها ، ومن ثم فقد ظاهروا هذه النظرية التي هي فرض من الفروض لم تثبت أمام العلم ، ذلك أن العلم التجريبي لايقر فرضية الفكر المادي ، ولكنه يؤمن بأن هناك عالماً غامضاً لم يقدر له أن يقتحمه،وإن كانت بوادره ومظاهره واضحة لاتنكر،وإنما الذي يوقد نار الفتنة ، ويضرم هذه الشبهة إنما هي الفلسفة المادية التي قام عليها دعاة التلمود من حكماء الصهيونية وفي مقدمتهم فرويد ودوركايم وليفي بريل وسارتر وغيرهم .

وهذا هو الطابع الجديد الذي فرض نفسه على الفكر الغربي كله ، فاستوعبه واحتواه وأخرجه من قيمه الأولى التي كانت مرتبطة بالدين والخلق ، ثم تحولت ثمة إلى ما أطلق عليه الفلسفة المثالية ، وكانت هذه هي المرحلة الأخيرة في تطوير الفلسفة الأوربية على النحو الذي يضع المجتمعات أمام الإلحاد والاباحة في أسلوب فلسفي ، يفتح كل الأبواب للحريات المنطلقة بغير ضوابط ولا قيود .

وليس هذا الجديد في الفكر الغربي وما يؤثر به في هذا المجتمع ، إلا سبحا ضد التيار ، ومعارضة للفطرة البشرية وعزلاً للنفس الانسانية

عن روحها وأشواقها وطوابعها الجامعة بين العقل والروح ، والعلم والدين ، والمادة والقلب ، والدنيا والآخرة ، إنها نزعة الانشطارية القاسية التي ضربت في أعمدة الفكر الغربي ، فأججت تلك النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة: بالقلق والتمزق والشك والصراع والانفصام، وتحيي هذه الحضارة ، وتحيي هذا الفكر ليواجه الفكر الإسلامي القائم على التكامل والتوحيد ، والذي يجعل الإيمان بالله أساساً راسخاً من أسسه ، والأخلاق إطاراً لحركة المجتمع والإنسان في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والتربية والحضارة .

يجيء هذا الفكر ، فتزيغ القلوب والعقول التي لم تكن قد حصنت بقاعدة أساسية من اليقين والإيمان ، فإنها لم تلبث أن تداعت إلى مظاهر براقة وإغراء الرغبات واللذات، وتدافعت إلى الخطر في أشد الأوقات حاجة في هذه الأمة إلى التماسك والانفطام عن الشهوات والصمود في وجه العدو الصهيوني الزاحف الذي يفرض الاحتشاد بالايمان والقوة للمواجهة.

وهذه هي الأزمة الخطيرة التي تواجه المسلمين والعرب ، وتواجه حضارتهم الأصيلة، الى مايدعونا إليه دعاة التبعية،هو هذا الركام المضطرب من الشبهات والشكوك التي تواجه المجتمع الغربي اليوم في أشد مراحل (أزمة العصر والحضارة والإنسان المعاصر) ، حيث يبحث هذا المجتمع عن ضياء من خارجه ، وبديل للمادية المدمرة ، نجيء نحن لنأخذ هذه البقايا المضطربة من الركام ، لنلتمس بها قوةأو نصراً أو إقامة لمجتمع أصيل ، إن حاجتنا من الغرب هي أن نحصل على العلوم ، وأن نقيمها في داخل اللغة العربية ، والفكر العربي لننميها من خلال إطار إيماننا وقيمنا ، قوة تردع العدو ، وحماية للثغور ، واسترداداً للأرض ، وحصانة لمجتمع القرآن ، وأن تجتازه خيول الغزاة ، وتمكيناً لهذه الأمة من أداء رسالتها الحقة للعالمين .

الاجابة على هذا واضحة ، إن حضارة الغرب لم تقدم للانسان إلا هذا المتاع المادي الذي بلغ به مبلغ الترف والرفاهية ، فقتل فيه رجولته وقوته وإيمانه بالله خالق النواميس وصاحب القوى والكشوف ومصدرها الأصيل ، لقد أعطت الحضارة للانسان هذا المتاع المادي وصرفته بالفكر الوثني التلمودي عن طمأنينة القلب ، وسكينة النفس ، والقــدرة على المواءمة بين جزئي كيانه الروحي والمادي ، فعاش حياة صاعقة قاسية بين دوافع الوجودية ، أو مضاربات المادية والهيبية في مجال الصراع القتال .

•• وليكن معروفاً أن المسلمين والعرب ليسوا في حاجــة الى هذا العطاء الحضاري الغربي ، لأن لديهم من قيمهم ما يكفل لهم سلامة النفس ، وضياء الروح ، ولا ينقصهم إلا أن يحصلوا على منجزات العلوم ، ليقيموا حضارتهم ، ويؤكدوا وجودهم ، وينشروا رسالتهم .

وهكذا يؤكد هذا النص أن هناك محاولتين في مواجهة الإسلام : الأولى : أن يتحرك الإسلام في الخطوط التي رسمها له الاستعمار ، أي في دائرة التغريب ، والغــزو الثقافي ، ومــع العمــل الدائم للتبشير والاستشراق .

والمحاولة الثانية : هي نشر البدع والخرافــات بما يعني تحريف المفاهيم والقيم ، وهذا هو ما يطلق عليه (هدم الإسلام من الداخل) ، وان نظرة واحدة إلى هدف التغريب كما صوره دهاقنة الاستعمار والنفوذ الغربي ليؤكد هذا المعنى ، فهم يهدفون منه إلى إنشاء عقلية عامة ، تحتقر كل مقومات الحياة الإسلامية ، وتنفر من الدين ، وتعمل على إبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه ، وبذلك تعمل من خلف ستار ، ودون أن تواجه المشاعر الدينية بالعداوة السافرة .

وعندهم أن أبرز معالم التغريب هو غرس مفاهيم ثقافية وتربوية في نفوس المسلمين ، تخلق فيهم نزعة الاحتقار لقيمهم والاعتزاز بقيم الغرب •

وتتصل هذه المفاهيم بتحريف التاريخ الإسلامي ، وتشويه مبادىء الإسلام وثقافته ، وانتقاص الدور الذي لعبه في تاريخ الثقافة الانسانية ، ومحاولة خلق شعور بالنقص في نفوس المسلمين يحملهم على الرضى والخضوع للنزعات والمذاهب الغربية •

وكذلك العمل عن طريق المناهج الدراسية ووسائل الثقافةوالفكر على توهين القيم الإسلامية ، والنيل من اللغة العربية ، وتغييب هذه القيم وإحلال قيم أخرى بدلاً منها بحيث تصبح هذه القيم الجديدة معتقدات عامة •

وبالجملة ، فالتغريب محاولة لحمل عالم الإسلام على قبول ذهنية الغرب ، والانصهار في بوتقة فكره ومفاهيمه ، والتحرك من خلال المناهج والأساليب والوسائل التي فرضها على العقل الإسلامي العربي ، والنفس الإسلامية العربية ، وهذه هي أخطر مراحل التغريب •

ذلك لأن أعظم أخطار سيطرة فكر على فكر هي نقله من دائرةفكره وأساليبه ومزاجه النفسي وإرغام هذا الفكر على التحرك في دائرة الفكر الوافد المسيطر •

ولذلك فإن أولى خطوات التحرر من نفوذ التغريب والغزو الثقافي هي فرز المفاهيم الوافدة ، والكشف عنها ، وتنميتها وتحرير الفكر الإسلامي منها وإعادته إلى التماس مفاهيمه الأصيلة للقيم بدلاً من المفاهيم الدخيلة ، ونحن إزاء ذلك كله لا بد أن نواجه الحقائق الآتية :

أولا — أن كل ماكتبه الغربيون من حملة على الدين ، انما كان المقصود بها دين الغرب أساساً ، وأن نقل هذه القضية إلى أفق الفكر الإسلامي هو نوع من التمويه ، ذلك أن الفكر الاسلامي لم يعرف في تاريخه كله ، أزمة خلاف بين الدين والعلم ، أو مشكلة صراع بين الأخلاق والمجتمع .

أما مفهوم الغرب ، فقد كونته ظروفه التاريخية من جهة ، وطبيعة فهمه للدين والحياة من جهة أخرى ، بالإضافة الى موروثاته الوثنية اليونانية والرومانية .

ومن أكبر الاخطار أن مشاكل الغرب وقضاياه التي مرت بظروف مختلفة نقلناها وكأنها حقائق ، وأن نظرياته المطروحة للبحث ، وفروضه في مجال النفس والأخلاق والتربية حاولنا أن نؤمن بها وكأنها علم مقرر أو أمور ثابتة .

ثانياً — إن أموراً كثيرة قد جرى طرحها وفهمها من خلال مقاييس الغرب ، وللغرب مقاييس في مجال التاريخ واللغة والعقائد، ولنا مقاييس مختلفة ، ومفتاح مقاييسنا الأصيل هو تكامل القيم ، وترابطها كوحدات منتمية إلى أصل واحد .

ثالثاً — ان من أبرز قواعد مقاييسنا أن الإنسان يعيش في دائرتين متكاملتين متصلتين : دائرة مادية ، ودائرة معنوية ، وانه جماع الروح والمادة ، والعقل والقلب فقد جاءت رسالة الاسلام انسانية وليست روحية صرفة ، أو مادية صرفة .

رابعاً — إن تاريخ أية أمة هو وحدة متكاملة ، متصلة الحلقات ، وكذلك يمثل تاريخ فكرها وحدة لها ذاتيتها وكيانها ومزاجها النفسي والاجتماعي .

خامساً — ان هناك محاولة دائمة لترديد كلمة العقائد الموروثة في باب الانتقاص أو التقليل من شأنها ، وهي كلمة يراد بها أساساً الغض من شأن الأديان والقيم الإسلامية •

والمعروف أن العقائد الموروثة صنفان : أصيل وزائف ، وحي وميت ، وهي في إطلاقها دون تحديد نوعها إنما تحاول بالتمويه أن تخدع الناس عن غايتها •

أما في الفكر الإسلامي ، فالعقائد الموروثة أصيلة ، لأنها مستمدة من « القرآن » ، ولا سبيل الى التخلص منها ، أما العقائد الزائفة ، فتلك هي التي حاربها الإسلام نفسه كالوثنية والأساطير وعبادة الفرد ، وعبادة البطولة ، وإنكار ترابط الدنيا والآخرة ، أو إنكار البعث والجزاء •

سادساً — والقيم ثابتة ومتغيرة ولكن ليست هناك قيم تخضع للتطور الدائم المطلق ، فالقيم الأخلاقية ثابتة ثبوت الإنسان نفسه ، في تركيبه وخلقه ، وهي لاتتغير بتغير المجتمعات أو الأزمان ، وانما تتغير القيم الصغرى المتصلة بالتقاليد والعادات وغيرها •

سابعاً — هناك تفرقة واضحة في مفاهيم الفكر الإسلامي بين مناهج العلوم ومقاييس الانسانيات فيما يتصل بالنفس والأخلاق والمجتمع ، فمناهج العلوم مقاييس مادية ، وهي مستمدة من التجربة والاختبار الدائم المتماثل الذي لايتغير ، وهذه المقاييس لا تستطيع أن تخضع الانسان ولا المجتمع ولا النفوس والأخلاق إلى نتائجها • ويقرر الإسلام أن للعلوم المادية مقاييس ، وأن للانسانيات مقاييس أخرى ، فإذا حاولنا تطبيق مقاييس العلوم في مجال النفوس ، أخطأت ، وأفسدت ولم تصل إلى الغاية العلمية الحقيقية •

أما الخلاف ، فواضح جداً ، وعميق جداً ، حيث يصدر المسلمون والعرب عن أساس اجتماعي وعقلي وروحي مستمد من رسالات الأديان، ومن وحي الله ، ومن تراث الأنبياء ، ومن كتاب الله المنزل بالحق .

ويعطيهم هذا النهج إيماناً متكاملاً فيه الثبات والحركة ، وفيه المادة والروح ، وفيه الدنيا والآخرة ، وفيه تحقيق الذات مع ضبطها ، وفيه أخلاقية الحياة ، وجماع الحرية والعدل والعروبة والإسلام .

بينما يبدو في الجانب الآخر طابع الانشطارية ، والفصل الكامل بين القيم ، فهناك التطور المطلق ، ونسبية الأخلاق والدنيا نهاية وتحرير النفس من كل قيود الذات والغرائز ، والغاية تبرر الواسطة ، وإما الحرية وحدها وإما العدل وحده .

ومن هنا دخلت إلى الفكر الإسلامي دخائل مزقت وحدة فكره وأصابت جوهره بالعطب المادي ، وبالوصولية وبالنفعية ، وبالنظرة القاصرة عند اللحظة والوجهة المحددة على متاع الحياة الدنيا .

وهكذا أخذت التبعية تفرض نفسها عن طريق مناهج التعليم والثقافة لتشكل الأمم ذات التاريخ العريق وصاحبة رسالات السماء تشكيلا زائفاً ينتقص من قدرها وحقها ورسالتها في الحياة .

وقد جاء ذلك والغرب يمر بمرحلة الضعف والتخلف والتمزق ، بعد أن طوى مراحل عديدة وقف فيها من الدين موقف الخصومة ، ثم تجاوزه إلى إنكار الدين ، ثم إلى محاربة الدين حتى وصف على حد تعبير الشاعر المسلم محمد اقبال « بأن أوروبا اليوم أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسانية » .

ويقول جود : « إنه لم يزل سائداً في عقلية (الغرب) منذ قرون شره المال والتملك » ، وأيضا يقول جون جنتيز : « تلك الحضارة التي تعوزها

الروح ، إنهم يعبدون المصرف ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » .

هذه التبعية فرضت نفسها على المسلمين والعرب ، وحق لهم اليوم أن يتحرروا منها ، وأن يستشرفوا عصراً جديداً يلتمسون فيه مناهجهم الأصيلة التي كانت مصدر الحضارة ، وأساس المدنية، ودافع البشرية إلى الترقي والتحرر من قيود الوثنية وأخطار العبودية .

★ ★ ★

الباب العاشر

بناء الأجيال

إن اجيالنا الجديدة في حاجة إلى ان تعرف الحقائق ، وان توضع بين يديها ابعاد التحديات الخطيرة القائمة بيننا وبين التغريب ، ومحاولاته الماكرة ، ومن هنا كان لا بد ان نضع في تقديرنا ان انتصار المسلمين على عدوهم إنما كان بالتربية الصالحة ، وبناء الأجيال وصياغتها على الإيمان والرجولة ، ثم إعادة صياغتها من جديد كلما واجهتها الأزمات ، وفي مختلف الأحداث الضخام ومن هنا كان أكبر عوامل الدعوة الى الوحدة ، ودعم التجمع الإسلامي ينصب على مقاومة إذابة الشخصية الاسلامية .

وكان لا بد ان نطرح على الأجيال هذه الصور من الأخطاء والزيوف حتى تكون على بينة من أمرها ، ونكون قد اعذرنا إلى الله

حقائق يجب أن تعلن

في إحدى الندوات الجامعة التي ضمت شباب أربعين قطراً إسلامياً ماذا قلت للشباب ؟ قلت : إن الصهيونية العالمية اليوم والاستعمار الغربي يعملان على هدم مقومات هـذه الأمة ، عليكم أن تقرؤوا بروتوكولات صهيون لتروا كيف أنهم يحاولون تدمير مقوماتنا للقضـاء على وجودنا كعرب ومسلمين وكشرق عربي ، علينا بالحيطة إذن من نظريات كثيرة في مجال الثقافة والفكر والأدب والاجتمـاع والتربية ، علينـا أن نلتمس مصادرنا الغنية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية العربية ألف عام، هذه الحضارة التي لم تتوقف عن العطاء للعالم إلا حين توقفنا نحن عن الارتباط بالمصادر والمنابع •

القرآن مصدر الشرائع والفكر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هـو النموذج الحي والتطبيق العملي ، ومن ورائـه البطولات الإسلامية في مختلف المجالات •

إن العربي قادر على أن يأخذ من الحضارة الحديثة أرقى ما فيها من منتجات العلم في إطار فكره وقيمه ومفاهيمه ، فالإسلام قادر على التقبل والصهر والإذابة ، ولكن الخطر هو الاقتباس خارج نطاق الإطار الذي صنعته أربعة عشر قرناً ، والذي تشكلت فيه النفس العربية تشكلا كاملاً لم يعد في الاستطاعة ، بل من المستحيل خروجها منه بعد •

هناك مذاهب كثيرة وآراء ودعـوات ترد إلينا من الغرب ، هـذه

بضاعة ليست لنا ، وليست من صنع مجتمعنا أو فكرنا ، فلننظر فيها بذكاء وحذر ، ونأخذ منها ما يتفق مع قيمنا ، وندع ماسوى ذلك ، علينا ألا نكون مستعبدين لأي فكر وافد ، أو رأي هدام •

ليس في الفكر الإسلامي بطولة التماثيل ، ولكن بطولة الأعمال ، ليس في الفكر الإسلامي أساطير ، ولا رأي بين الظلال والأضواء ، بل هناك وضوح كامل •

إن الإسلام يقر التقدم والتطور والتجديد ، ولكنه يجعل التقدم مادياً وروحياً معاً ، وليس مادياً على إطلاقه ، ويجعل التطور داخل دائرة الثبات ، ويجعل التجديد نابعاً من القديم مرتبطاً به •

يوصينا الإسلام بأن نقرأ بحذر ، ولا نقبل كل ما نقرأه قضية مسلمة بها ، فليس هناك من كتاب حق كله ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلا القرآن، وكلام الرسول محمد النبي المؤيد بالوحي، وكل ماعدا ذلك يؤخذ منه ، ويرد عليه ، وينظر فيه ، فلا تغرنكم الأسماء اللامعة ، ولا الكلمات البراقة ، ولا الأغلفة الزاهية •

وقراءة الصحف لاتجدي في تكوين ملكة للكتابة والتفكير ، بل لا بد من قراءة كتب الأدب العربي ، والفكر الإسلامي ، اقرؤوا للغزالي والجاحظ ، وابن خلدون ، وفي العصر الحديث : اقرءوا مؤلفات فريد وجدي ومالك بن بني ، ومحمدأحمدالغمراوي ، وعمرفروخ ، والدكتورة بنت الشاطىء ، والدكتور محمد البهي •

ليس في الإسلام رجل دين ، ولكن هناك عالم دين ، وقد ارتبطت فكرة رجل الدين بالفكر الغربي المسيحي • العروبة والإسلام مترابطان ، فالأمة العربية صنعها الإسلام ووحدها الإسلام ، وأعطاها هذا الفكر الإنساني الرفيع الذي أنشأ على مدى التاريخ فيهم المعرفة ومنهج العلم التجريبي والشريعة الإسلامية •

إن ضعف العرب والمسلمين ، وتخلفهم عن الغرب ليس مصدره الإسلام بقدر ما هو الانفصال عن أصالة الإسلام وفكره وقيمه التي شكلت هذه الأمة منذ أربعة عشر قرناً ، والعقيدة جزء من تفكيرها مرتبطة بمجتمعها لا يستطيع العرب أن ينجحوا إلا إذا تحركوا من داخل فكرهم ، وأقاموا أخلاقهم ومنهجهم عليه .

إن كل حركة للتجديد ، أو التصحيح ، أو إعادة بناء الأمم يجب أن تبدأ من داخل إطار واضح ، وأن تتحرك إلى هدف واضح ، فما هو الإطار الذي يجب أن تتحرك من داخله حركة الأمة العربية بعد نكسة حزيران (١٩٦٧) .

إن إطار هذه الأمة قديم ومستمر وليس جديداً ولم ينقطع يوماً واحداً ، فهي منذ تشكلت في ضوء التوحيد ، ومن خلال القرآن ، وباسم اللغة العربية ما تزال قائمة بالحق ، به تقوم في كل أزماتها وتحدياتها ، فإذا أريد لها أن تخرج من ذلك الإطار ، فإنها سوف تختنق أو تنتحر ، وإن ذلك الإطار العربي الإسلامي الذي أقامته أديان السماء منطلقاً من حنيفية إبراهيم إلى الإسلام هو طريق واحد ، وهو منطلقها الصحيح إلى الهدف الواضح : امتلاك الإرادة والقيام بالحق على الرسالة . إن هناك تحديات ضخمة وصلت بعد النكسة إلى الذروة ، وضعت وجود العرب وذاتيتهم وكيانهم في الميزان . إن هناك محاولة لتذويب الشخصية ، وزرع فكرة اليأس والقنوط .

أما الشخصية التي عاشت أربعة عشر قرناً ، فإن تذويبها من الأمور التي لا تقع إلا بالتفريط الشديد في القيم والمقدرات وهو ما لا يمكن أن يسلم به العرب والمسلمون ، أما اليأس والقنوط ، فإن الإيمان العميق بالله والثقة في نصره ، والأخذ بأسباب النصر يحول دون وقوعه .

إننا نعرف أن هناك محاولة إلى إخراج الجيل الجديد من إطار الدين بالدعوة إلى علمنة الذات العربية ، ولكن أصالة الذات العربية وتشكيلها الكامل يحول دون تقبل هذه الدعوى الباطلة .

إن أخطر الأخطار هو اتخاذ أسلوب الأجنبي بما فيه من مداورة ومناورة أسلوباً لنا ومخططاً ، وإن محاولة وضعنا في هذا النهج هـو من أشد الأخطار ، إن لنا من خلال فكرنا ومن داخل إطارنا منهجاً نقف به في وجه العدو صامدين نابذين إلى سواء .

إن هـذه الأمة قد شكلت والدين جـزء منها ، والأخلاق عمـاد مقدراتها ، فهي لا تستطيع أن تنفصل عنها لتلتمس أسلوباً آخر أو منهجاً مغـايراً .

لقد عاش المسلمون حياتهم كلها ، وليس لهم إلا هدف واحد : هو رفض التلاشي في أية شخصية حضارية أخرى . والقدرة على الصمود في وجه الغزو الفكري ، إن نقطة البدء في كل نهضة هي العقيدة ، ولا يتنافى التقدم مع التمسك بأصول الدين والخلق ، بل إن أي تقدم منفصل عن الدين والخلـق من شأنه أن ينهار أو ينحرف . والقرآن هو سر بقـاء المسلمين ، وهو الرابطة القائمة بينهم وهو إمامهم ، ومن هنا فهو الضوء الذي يكشف لهم الطريق .

ليست العبرة بالتفوق التكنولوجي ، بل العبرة بالتحرك في إطـار المنهج الذي قام عليه بناء الأمة . « إن الإسلام وحده هو العقيدة القادرة على أن تطلق طاقات الأمة العربية » .

لا بد من دخول فريضة الجهاد إلى حياة المسلمين مرة أخرى كقوة حقيقية بمختلف أبعادها القائمة على التضحية بالأنفس والأموال . قال أرنست رينان : في عقيدتي أنه لا نجاح للمسلمين اليـوم إلا باتباع نفس

السبل التي سلكها محمد صلى الله عليه وسلم • وتلك ليست عقيدة رينان وحده ، بل هي محصلة تجربة العمر كله ، إن هذه الأمة لن تنبعث إلا على الإسلام نفسه مهما حاولت من التماس الطرق ، وإن أخوف ما يخافه الاستعمار أن تنبعث هذه الأمة من خلال الإسلام •

إن الفكر الإسلامي العربي يتعرض لعملية تطويق وحصار ، ولذلك، فإن على المثقفين العرب أن يفكروا بلغتهم ، وأن يتحركوا من داخل إطار فكرهم ، وأن يتجاوزوا سارتر وفرويد وماركس جميعاً ، إن لكل معضلة من المعضلات البشرية نظرة عربية إسلامية أصيلة ، وإن لنا نظرية أصلح في الاجتماع والنفس والتربية والأخلاق والاقتصاد ، فلنعرض عليها كل ما تطرحه الزوابع ، ولننظر دائما إلى مختلف النظريات والمذاهب على أنها تخص الآخرين وأنها مستمدة من بيئتهم ، وعلينا أن نقف منها في ضوء أصول فكرنا ، ولقد دعا الإسلام أتباعه إلى التحرر من التأثير الأجنبي بكل أنواعه •

إن أبرز مفاهيم الإسلام الذي انتصر به المسلمون هو أن تعاليم الإسلام وحدة متكاملة لا يصح تجزئتها أو تفتيتها ، والأخذ بفرع منها دون الآخر ، فكل فرع منها هو مؤثر في الفرع الآخر متأثر به • وقد دعا الإسلام إلى ضرورة التكامل بين تعاليمه الاجتماعية والأخلاقية والتربوية، «وليس الإسلام خادماً للمجتمعات ، بل هو حاكم ، له مقوماته المستقلة التي لا تخضع للمذاهب المختلفة ولا تؤول ، وليس الإسلام مطية ذلولا" لأهواء البشر ، ولا لانحرافات الحضارة والمجتمعات •

أما الإسلام ، فمن الحق أنه لا يسقط أمام الدعوات الغربية المختلفة، فإنه في طبيعة تركيبه مقاوم للنفوذ الأجنبي ، ولقد صدق بارتلمي سانهير حين قال : ما من دين استطاع أن يوحي إلى المتدين به شعوراً بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم ، إن الغربي لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا

إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً ، وليس مجرد أفكار وعقائد يناقشها بتفكيره ، وان الإسلام قد أحدث رقيّاً عظيماً جداً ، فقد أطلق العقل من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد ، وبين أيدي الكهنة ، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ، وإن تحريمه للصور في المساجد قد خلص الفكر الإسلامي من وثنية القرون الأولى ، واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه ، وأن يبحث عن حالته في صميم روحه » .

ولا ريب أن ضعف المجتمع الإسلامي الذي مر به كان مصدره تخلفه عن أصول فكره ، وانحرافه عن عقيدته ، والحقيقة الثابتة أن الإسلام لم يهزم قط ، لأنه لم يكن عاملاً حياً ، ولو كان موجوداً لكان من أسباب النصر ، وإن أعظم عوامل القوة هو تدريس حياة الرسول لأبنائنا متصلة بحياتهم وتاريخهم والتحديات التي تواجههم اليوم ، وإنك لن تستطيع أن تغير الواقع إلا إذا كان لديك نموذج تحتذيه ومثل أعلى ترنو إليه .

ولقد كانت هذه الأمة انبعاثاً من قيمها ومقدراتها قادرة على مقاومة كل غزو وكل دخيل وكل زائف وكل وافد ، ومن هنا فإن العمل الآن يجري من قبل أعداء هذه الأمة على محاولة تحطيم قدرتها على المقاومة .

إن المذاهب الفلسفية الحديثة في الأخلاق والاجتماع والنفس إنما تريد أن تحطم الإنسان العربي المسلم القادر على المقاومة ، وتدمر فيه إرادة الصمود ، وإرادة القتال ، ليست القيم الإسلامية قيماً أخروية تدعو إلى صلاح الفرد ، أو عزلته عن المجتمع ، ولكنها قيم إنسانية تدعو إلى بناء الحياة والحركة فيها والعمل ، وحماية الذمار ، وحراسة الثغور ، والمرابطة دون كل من يريد أن يقتحم الحمى ، من أجل بناء المجتمع الإسلامي الأمثل وحمل رسالة الإسلام الى كل الآفاق .

ولذلك فإن العرب والمسلمين لا بد أن يخرجــوا من مرحلة التبعية إلى مرحلة الرشد الفكري ، وعلى الفكر الإسلامي أن يتحرر من سيطرة الثقافات الوافدة ، والوثنيات والماديات ، ومن تراث الهلينية والغنوصية على السواء ، والتماس المنابع الأصيلة من القرآن : على أساس التوحيد الخالص ، على المسلمين والعرب أن يواجهوا خصومهم من داخل إطــار فكرهم ، وليس بمفاهيم وافدة ، وقيم مضللة ، واعتقادات جاهلية ومادية .

إن هناك محاولة لحمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية ، ليست هي ذهنية الغرب القائمة على التكنولوجيا والذرة ، وإنمــا قبول ذهنية الاستسلام والاحتواء ، والتحرك من دائرة مفاهيم الفكر الوافد .

لقد حذرنا رسولنا منذ قديم ... وقال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » .

إن هناك عشرات من الملل والنحل والأهواء ، ولكن الحق واحــد لا يتعدد وهو واضح لدينا : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ، فلنحــرر فكرنا مــن الوثنيات والإسرائيليات والشبهات ، ولنقف على المحجة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هناك شخصيات أربعاً تبرز الآن من وراء الدعوات الهدامــة ليست هي شخصيتنا **الأصيلة** : اليونانية والاغريقيــة والفرعونيــة ، والوثنية ، والجاهلية العربية والاوربية المادية .

ان الخصائص المميزة لثقافتنا العربية الاسلامية قائمة وابدية ، ذلك لانها تقوم على جذور عميقة من التوحيد ، والايمان بالغيب ، وترابط

الدنيا بالآخرة ، والعقل بالقلب ، والمادة بالروح ، والعلم بالدين ، ومن هنا فانها تختلف اختلافا جذريا عن الثقافات الوافدة ، ولا يمكن ان تنصهر فيها .

ان ابرز مافي مفاهيم الاسلام اننا نستطيع ان نأخذ كل شيء ، ونصهره في بوتقة التوحيد ، العلم والتكنولوجيا والحضارة ، ولا نقبل الا ما يتفق مع أصول الاسلام ، ونرفض كل ما يتعارض مع حدود الله دون تأويل أو اعتذار بحالة الضرورة .

ان هناك محاولات للدعوة الى هدم الاديان عن طريق علم الاديان المقارن ، وهي محاولات تقول : إن الامم بدأت وثنية ، ثم عرفت التوحيد ، وهو قول معارض لكل المقدرات التاريخية والاثرية ، ولنص القرآن نفسه ، وهو السند الموثق الذي لايأتيه الباطل ، فالامم قد بدأت بالتوحيد ، ثم انحرفت عنه ، ثم عادت اليه ، وهناك دعوات الى هدم الاخلاق عن طريق مناهج الوجودية والفرويدية ، وهناك دعوات الى هدم الاسرة عن طريق مناهج دور كايم وليفي بريل ، وهناك دعوة الى التماس مفهوم واحد للتاريخ هو التفسير المادي للتاريخ بينما هناك اكثر من تفسير ، وللاسلام تفسيره المتكامل الجامع بين عوامل المادة والروح .

وهناك دعوة صارخة الى إثارة العصبية والعرق والعنصرية ، والاسلام يدعو الى وحدة الجنس البشري ، وينكر المفاضلة بالانساب أو الالوان .

وهناك محاولة لاخراج اللغة العربية من مفهومها الخاص على

أساس أنها لغة القرآن بفرض مناهج من علم اللغات للتحكم فيها ، واعلاء العاميـات عليها تخلصا من وحدة القرآن التي جمعت بينها اربعة عشر قرنا ، واللغة العربية لاتنطبق عليها مناهج علـم اللغات من حيث إنهـا ليست لغة العرب وحدهم ، ولكنها لغة امة العرب بقـدر ما هي لغـة فكر وثقافة وحضارة وعبادة وصلاة لسبعمائة مليون من المسلمين .

على المسلمين والعرب أن يتجاوزوا مرحلة التقليد والتبعية الـى مرحلة الرشد الفكري التي وضعتهم منها نكسة ١٩٦٧ تطلعا الى فجـر جـديـد .

★ ★ ★

انتصر المسلمون بالتربية الصالحة ، وبناء الاجيال وصياغتها على الايمان والرجولة ، ثم اعادة صياغتها كلما واجهتهم الازمات ، وفي مختلف الاحداث الضخـام •

ففي مواجهة حملات الصليبيين والتتار والفرنجة ، اعاد المسلمون تكوين الفرد المسلم على اخلاق الاسلام، فاستطاعوا أن يحققوا النصر على نفس المستوى الذي حققه المسلمون الاوائل ، أو قريبا منه •

١ ــ وقد فهم المسلمون فهما اسلاميا متميزا خالصا عـن مفاهيم التربية في الامم والشعوب ، فهموها تهذيبا للنفس ، وترقية للذوق ، وبناء القدوة الحسنة ، والمثل الاعلى من خلال الاسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة الذين كونهم النبي على مفهوم التوحيد الخالص والتربية في مفهوم الإسلام اسلوب لبناء الإسلام بوصفه فرداً مسلما، وبوصفه جزءا من المجتمع الاسلامي، واعداده بالقدرة والكلمة والعادة ، وبالمواقف المختلفة والاحداث •

وتقوم التربية على نظرة واضحـة ، فهي تعتبر الفرد المسلم بناءً متكاملا ، قوامه الروح والعقل والجسم ، وتعنى به وفق فهم شامـل ، أساسه الإيمان بالله ، والعمل في الارض من أجل النماء والبناء والانشاء•

ويقوم فهم التربية الاسلامية على بناء الفرد في البيت بالقـدوة ، واقامة علاقة وطيدة بين البيت والمدرسة من خلال الاب والاستاذ والمتعلم جميعا ، كما اكد علماء التربية الاسلامية على ضرورة تلقي العلـم من

الاساتذة لامن الكتب وحدها ، وربطوا بين التعليم والتربية على أساس أن العلم وحده لايكفي ما لم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح .

وقوام التربية الاسلامية اساسا : هو « الاخلاق » ولا يقر الاسلام الفصل بين التعليم والتربية أو بين التربية والاخلاق .

وفي مفهوم الاسلام : ان العلم لابد ان تحميه وتظاهره قيمة اخلاقية واضحة ، وذلك حتى لاينحرف أو يفسد ، أو يتجه وجهة ضارة بالمجتمع الانساني .

ويرفض مفهوم الاسلام في التربية اباحة التحلل أو ترك الشباب ليجرب طريقه دون توجيه ، وينكر رفع الرقابة والحماية للنبت الصغار ، وهي حماية رحيمة ، ورقابة سمحة تعني اطلاق القدرات وتوجيهها نحو الخير والحب والايجابية .

ويتقرر هذا في مفهوم الاسلام ايمانا بان الشباب في هذه المرحلة في حاجة الى البناء والتكوين والتوجيه الذي لايتم الا من خلال الانتفاع بتجربة المربين والمعلمين ممن يجد الشباب عندهم القدوة ، ويلتمسون الخبرة الطويلة .

وليس في توجيه الشباب في مفهوم الاسلام مايحول دون استقلالهم الذاتي أو يمنع الفرصة المتاحة لهم لالتماس مناهج جديدة تتفق مع أجيالهم وأذواقهم ، فذلك كله يعترف به منهج التربية الاسلامية ويقره ، ويعمل على ايجاده ان لم يكن موجودا .

ولقد كان من أكبر المخاطر في تاريخ الاسلام كله التماس المسلمين لمناهج تقوم على قيم غير قيمهم الاصيلة المستمدة من القرآن وأسوة الرسول ، وإن كان من حقهم أن يعرفوا اساليب الامم مع التقدير الكامل لفوارق العصور والبيئات والأديان .

٢ ــ ركز منهج التربية الاسلامية على القدوة ، فالاطفال يأخذون بالتقليد أكثر مما يأخذون بالتوجيه ، قال عتبة بن ابي سفيان لمعلم ولده : « ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة عليك ، فالحسن ماصنعت ، والقبح عندهم ماتركت » •

ولقد رسم الاسلام منهجاً كاملا للتربية مرنا متطورا بالمجتمع والاخلاق ، مستمداً أصوله من القرآن مستهدفاً فتح النفس الانسانية بقوتها الكاملة على مجال العمل والحركة متحررة من كل خوف ملتمسة الخير والحق في مراقبة كاملة لله ، وإيثار للناس •

وقد فهم المسلمون الاول ان التربية جامعة للعقل والجسم ، تستهدف بناء البدن والروح والعقل ، وفي حدود التوازن الذي يعطي النفس منطلقها الى العمل والكسب ويحفظها في نفس الوقت من السرف •

وقد جمعت التربية الاسلامية بين تأديب النفس ، وتصفية الروح ، وتثقيف العقل ، وتقوية الجسم دون ان تضحي بأي منهم على حساب الآخر •

والايمان بالله هو حجر الزاوية في التربية الاسلامية ، وابرز عناصره التمييز بين الحلال والحرام ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر •

وهي تقوم في مجموع قيمها على اساس بناء الرجل المسلم ، والمرأة المسلمة على اساس الاعتماد على النفس ، والكرامة ، وحسن الظن بالناس والجرأة الادبية والصراحة والصدق والاستقامة في الرأي والعمل •

وقد علم المسلمون الاول ان منهج التربية الاسلامية انما يستهدف

بناء مجتمع سليم متعاطف متوازن يبناء افراده علـــى الاستقامـــة والايمـــان •

٣ ــ من خلال مفهوم التربيـــة الاسلامية صنع الاسلام بطولاتهم وأبطالهم ، وقد استمد المسلمون مفهومهم للبطولة من مقومات الاسلام نفسه •

واستهدفت البطولة الاسلامية وجه الله خالصة ، فالعمل البطولي في الاسلام موجه الى الله ، مستهدف تحقيق غاية كبرى هي رفعـــة الانسانية ، واقامة بناء الأمة الحق : الآمرة بالمعروف ، الناهية عن المنكر ، ولذلك فانه محرر دائما من المطامع والغايات •

وقد صور القرآن مفهوم العمل البطولي في الاسلام في كلمة حاسمة (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولافسادا) •

فالبطولة في الاسلام بطولة رسالة وهدف ، وغاية كبرى ، بطولة نشر دعوة التوحيد الحق ، وكلمة الله تعالى في الآفاق دون التـــــاس لمطمح في متاع الحياة الدنيا •

والبطولة في الاسلام ليست في القادة فحسب ، ولكنها في الكثرة الكاثرة ، كذلك يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا وللمسلمين دوي بالقرآن كدوي النحل ، وبات المشركون في خمورهم وملاعبهم » •

ومن ابرز مزايا البطولة الاسلامية : اخفاء البطولة وتوجيهها الى الله ، وعدم الاعـلان بها ، وفي تاريـخ الاسلام صور كثيرة ونـماذج متعددة من ابرزها قصة صاحب النقب : ذلك الجندي الباسـل الذي فتح للمسلمين ثغرة في سور دمشق بعد حصاره بضعة عشر يوما دون أن يعلن عن اسمه •

ولقد فهم المسلمون المثل الاعلى للبطولة فهماً مختلفاً عن المثل الاعلى في مجتمعات اخرى ، وهو يقوم على الجمع بين القوة والرحمة ، وبين الحق والعدل ، وبين الصبر والإيمان .

فالعمل في الاسلام موجه الى الله اساسا ، ومن هنا يختلف المثل الاعلى الاسلامي عنه في بطولات اليونان والجاهلية والغرب ، هذه البطولات التي قامت وتقوم على المطامع والاستعلاء والسيطرة والشهرة ، والتي لايتحرج البطل فيها من الحصول على النصر بأي سلاح أو من أي طريق ، والذي يجعل الغاية تبرر الواسطة .

أما في الاسلام ، فان الغاية فيه لاتبرر الواسطة مطلقا ، والبطولة والحرب السياسية جميعا لاتنفصل عن الالتزام الخلقي ، ولا قيمة فيه لاي بطولة أو نصر اذا جاءت بوسائل الغدر أو التآمر ، ولقد كان النموذج للبطولة الانسانية هو الرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فهو بحياته وخلقه وتطبيقه لمفهوم القرآن في البطولة يرسم للاجيال كلها الصورة المثلى التي يقترب منها ابطال الاسلام على مدى التاريخ .

واذا كان عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن ابي وقاص ، وابطال المسلمين جميعا كانوا يلتمسون هذا النموذج البطولي الفذ لقربه منهم ، فان المسلمين على مدى التاريخ : قادة وجنداً انما يلتمسون هذا النموذج الذي كان خلقه القرآن وكان تطبيقا كاملاً لمفهوم الاسلام .

ولقد عرف المسلمون في كل عصر ان اخلاص البطولة لله وان العمل لله لا لفرد في البطولة هو موضع التقدير والتكريم ، فلا يؤمن المسلمون

بما يسمى عبادة البطل ، او عبادة الفرد ، ورفع الابطال الى مرتبة الآلهة أو أنصاف الآلهة .

فقد قصر الاسلام العظمة والعبادة والقداسة لله سبحانه وتعالى وحـده ، ولم يجعـل ذلك لاحـد غيره ، بل انه حذر من ذلك بالنسبة للنبي نفسه ، كما حذر الرسول نفسه المسلمين من ذلك في مواقف كثيرة منها ــ موقفه الحاسم ــ عندما انكسفت الشمس يوم وفاة ابنه ابراهيم وقد سمع الناس يقولون : انما كسفت الشمس لموت ابراهيم ، فخرج غاضبا يجر رداءه ، وقال كلمته الحاسمة : « إن الشمس والقمر آيتـان من آيات الله لاتنكسف لموت أحد » ويبدو ذلـك واضحا في قولـه : « يافاطمة اعملي ما شئت فلن أغني عنك من الله شيئا » هذا الى عديـد من المعاني والصور تكشف بوضوح هذا المفهوم الاصيل في الاسلام .

كذلك رفض الاسلام مفهـوم « الأحجار » في تكريـم البطولـة وتخليدها ، فالبطولة في مفهوم الاسلام لاتقدس الفرد ، ولكنها تخلـد العمـل .

والاسلام يركز مفهوم البطولة في عمـل البطل لافي ذات البطل ، وحين يصل الأمر بالبطولة إلى مرحلة الاعجاب الـذي يقترب مـن القداسة ، ينتزع عمر بن الخطاب خالـد بن الوليد مـن ميدان الحرب ويعزله ، ويقول : « خفت أن يفتتن الناس به ، فرأيت أن يعرف النـاس أن الله هو الصانع » وفي هذا يحرر عمر المسلمين من العبودية للفرد ، كما يرفض عملية التجسيد ، فقد قطع عمر الشجرة التي بايع المسلمـون الرسول تحتها بيعة الرضوان حين رأى المسلمين يقصدونها .

ولقد آمن المسلمون بأن الابطال هم المادة التي يتخذها الاسلام لتحقيق مبادئه ، والاقرار قانون ، والاعمال هي الباقية ، ولذلك فهي التي تكرم وتخلد وتكريمها هو استئناف عملها على أيدي الاجيال المتتابعة . أما تجسيدها في حجر أو تمثال ، فهو مما لايتفق مع طابع التوحيد الذي يثبت الفكرة الصالحة ، ولايجسد صاحبها .

٤ ـ ولقد آمن المسلمون على توالي الاجيال أن « النصر » إنما يلتمس من مصادر الاسلام نفسه ، وأن تربية الاجيال على مفاهيم الاسلام هي الاسلوب الامثل لتنشئة أجيال صامدة قادرة على مواجهة أخطار الغزو الخارجي والوقوف في وجه العدو .

ولقد أكد المصلحون على مدى العصور « أنه لاينهض بالمسلمين روح أوربية ، ولاروح شيء خارج عن الاسلام ، وما ينهض بهم إلا روح القرآن الذي كان مبعث نهضتهم الأولى ، والذي به حياتهم الأدبية ، والذي فيه لهم النازع والوازع والمحرك والمسكن ، والذي بدونه ليس أمامهم إلا أمران : الفناء أو الانحلال . على حد قول الامير شكيب أرسلان « وان العلوم العصرية لاتفيد المسلمين إلا اذا اقترنت بأصول الاسلام ، وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم » . وقد أشار إلى ذلك جوستاف لوبون في كتابه « روح السياسة » حين قال « إن تهذيب المسلمين بالمعارف العصرية الاوربية خارجا عن دائرة تقليدهم وعقائدهم يزيدهم انحطاطا وفساد أخلاق ، ولن تنفعهم هذه العلوم إلا إذا كانت ضمن دائرة عقيدتهم » .

لقد آمن المسلمون بأن العلوم الحديثة لاتنهض بالمسلمين نهوضا حقيقيا إلا إذا حصلت ضمن دائرة لغتهم وتاريخهم ومشربهم .

ومن هنا حق عليهم أن يترجموا العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والتكنولوجية والطبية جميعا إلى لغتهم ، ثم ينطلقوا من خلالها إلـى بناء قوتهم الذاتية على مقتضى بناء الاجيال المسلمة القويـة المحصنـة بالايمان والتقى ، المفطومة عن الشهوات ، المندفعة لتحقيق رسالة المرابطة في الثغور في سبيل حماية الحدود مع الاعداد بالقوة لارهاب العدو ، ثم إقامة المجتمع الاسلامي على النحو الذي رسمه القرآن الكريم •

●●●

مقاومة إذابة الشخصية الإسلامية

أولا ــ مقاومة إذابة الشخصية الاسلامية .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الاسلام من لايعرف الجاهلية » .

ولقد دعا الإسلام معتنقيه إلى معارضة التقليد الأجنبي ، وحــذر من التشبه بالآخرين ، وحرص على أن تظل شخصية المسلم وفكره متميزا وحضارته ومجتمعه واضح الصورة . ولذلك فقد أعلن حربا لاهوادة فيها على التقليد، وعلى التبعية، وحكم على من تشبه بقوم بأنه قد انفصل عن أهله ، وأصبح من أهل القوم الآخرين ، كذلك دعا إلى إعلان التمييز بين الأمم من حيث العادات والأخلاق .

كذلك كشف الفكر الاسلامي عن أثر التقليد في فقدان الشخصية ، وأثر التبعية في عبودية الفكر والعقل .

ولقد أكد المؤرخون أن التقليد في مراحل الضعف، إنما يتركز دائما على جوانب الهدم والانحلال ، وينصب على الانهماك في اللذات . هذا فضلا عن أن القوى الكبرى لاتعطي للامم الناهضة أسرارها وعلومها ، وإنما تلهيها بفتات الاهواء وبريق الرغبات التي من شأنهــا أن تحطــم

المقومات ، وتعمل على تدمير النفس البشرية ، فتصبح غير قادرة على معارضة هذه القوى الكبرى •

لذلك ، فان أصدق الطرق وأصحها للامم التي تحوطها الأخطار هي في أن تظل دائما على تعبئة ومرابطة •

ومن هنا فان الذين قالوا : لنسر سيرة الاوربيين ، ونسلك طريقهم لم يكونوا صادقين في النصح والتوجيه •

وحين عمل الإسلام على تحرير أتباعه من التأثير الاجنبي بكل أنواعه فقد دعا إلى اليقظة إلى أخطار الحرب النفسية التي تهدف إلى تغيير المعالم الاصيلة لعقيدتهم وفكرهم وثقافتهم ومزاجهم النفسي •

ولقد حرصت الدعوة المسمومة إلى التبعية على إيجاد البديل في مواجهة الاصيل ، ولاريب أن الأمم العريقة التي تكامل فكرها لاتكون عادة في حاجة إلى مناهج وافدة ، فإذا نظرت فيها ، فمن أجل أن تعرف أساليب الأمم وأهدافها مع تقدير الفارق البعيد بين منهجين :

المنهج الوافد : وهو منهج جزئي انشطاري عاجز عن الاستمرار والدوام •

والمنهج الاصيل : وهو منهج متكامل جامع ، يستقطب النفس الانسانية من جميع أبعادها •

ولقد رأينا كيف أن النظريات التي قدمها الغرب سرعان ما تصدعت وبان فسادها بمرور الزمن ، واحتاجت إلى إجراء تعديلات بعد تعديلات وهي في أغلبها تعديلات جوهرية •

ذلك أن تحول الزمن واختلاف البيئات يفسد النظريات ، ويصيبها بالعطب والاضطراب ، ويكشف عن الفارق البعيد بينها وبين المناهج الربانية الثابتة بثبوت الفطرة القادرة على الاستجابة لكل الظروف والبيئات •

لقد احتاجت بعض المجتمعات إلى وضع مناهج للحياة (أيدلوجيات) لأنها لم تجد لها مناهج في أديانها ، أما المسلمون ، فانهم ليسوا في حاجة إلى بناء مناهج بشرية ، وعندهم منهج محكم من صنع العلي الخبير : الخبير بالنفس الانسانية (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

ولقد كان من أثر انطلاق الانسان ليصنع لنفسه منهجا أن فسر الحياة تفسيرا ماديا ، وفسر علاقات الانسان تفسيرا وثنيا ، وأباح الربا وأطلق الغريزة وفلسف ذلك كله على نحو يرضي النفوس الصغيرة .

٢ ــ إن هناك أربع شخصيات تبرز الآن ليست هي شخصيتنا الأصيلة : اليونانية الاغريقية ، الفرعونية الوثنية ، الجاهلية العربية ، الغربية الحديثة ، إنما تتمثل شخصيتنا في « الإسلامية » الأصيلة : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) .

إن محاولة ربطنا بالعهود القديمة السابقة للاسلام انما تمثل ردة ظالمة للعقل الإسلامي الذي صنعه القرآن،وقد توالت أجيال طويلة منذتحررت النفس الانسانية من أوهام الوثنيات وأخطاء الماديات ، ونمت جذور قوية ضاربة في أعماق الأعماق لم تعد معها لهذه الدعوات قدرة على انتزاع المسلمين من التشكل الذي صنعه الاسلام .

ولقد قامت الدعوة الفرعونية والفينيقية والبابلية والآشورية وحاولت أن تستقطب أقاليم معينة في البلاد العربية ، وأنفقت في سبيل ذلك جهدا ومالا ، ولكنها عجزت وفشلت ، وتبين أن الصلة القريبة هي أعمق من الصلة المنبتة ، وتأكد أن الروابط القديمة بين العرب وهذه الدعوات وهذا التاريخ الماضي قد انفصمت تماما ، وزالت وذابت ، فقد أعطى الاسلام النفس العربية أصالتها وفطرتها وحقيقتها ، فلم يعد في الامكان أن تعود الى أساطير وأوهام وفكر بشري ضال ممزق .

أما اليونانية ، فقد جرت المحاولات لدعوتنا إلى ربطنا بها امتدادا لوهم قائل بأن الفكر الاسلامي قد تأثر بالفكر اليوناني ، وذلك أيضا مما تبين زيفه وبطلانه وعجزه عن أن يثبت في ضوء الاسلام الكاشف ، فقد عرف المسلمون حقيقة الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية ، ولكنه من المؤكد أنهم وقفوا منه موقف التحفظ ، وما أخذوه منه أعادوا صياغته من جديد ، وحولوه في إطار فكرهم ، وصهروه في بوتقة منهجهم ، ولم يكونوا في يوم من الايام تابعين للفكر اليوناني ، ولا للفكر الوثني على إطلاقه مجوسيا أو هنديا أو غيره ٠

٣ ــ ولاريب أن التسلط الغربي الذي يستهدف اذابة الشخصية الاسلامية يعرف مدى قيمة الصمود الذي تحققه الاصالة إذا مااستطاعت أن تتحرر من قيود الاحتواء ، ونحن نعرف أن الغرب حاول طويلا أن يفسد الشخصية الاسلامية باخراجها من أخطر مفاهيمها الاصيلة وأعمقها ٠ ذلك مفهوم الجهاد ، وذلك بدعوته إلى الترف ، وإعلاء متع الحياة ، ومحاولة تضليل الشباب عن الطريق الصحيح لبناء الكيان الاجتماعي والنفسي والروحي ٠

حاولت المناهج الوافدة أن تعلم المسلمين الحرص والخوف والجبن والذلة مستهدفة إعجازهم عن مواجهة الموت في ميادين البطولة والجهاد، وحتى يقبلوا الحياة ذليلة ، وذلك بينما يدعوهم الاسلام إلى طلب الموت لتوهب لهم الحياة ، كذلك فانه في سبيل تدمير الشخصية الاسلامية ،فقد عمدت الصهيونية إلى طرح مفهوم تذليل « الرغبات الحسية » وتربية الأجيال على كراهية الآداب الاخلاقية ، وفتح الطريق أمام تقبل العري والاباحة ، ولايخجلون من أعضائهم التناسلية ، بينما الاسلام يعارض ذلك تمام المعارضة ، ولايرضاه للمسلم الذي فتح له طريق الزواج الشريف دون أن يحوجه إلى مواجهة خطر تلك التحديات ٠

كذلك فقد عالج الاسلام أمر الغريزة الجنسية بالمبردات والملطفات وبالاعلاء والتأجيل مع تقدير هذه الرغبات والاعتراف بها بوصفها جزءا لايتجزأ من كيان الانسان ، وهو في هذا يعارض المنهج الغربي الـــذي يعالج الغريزة الجنسية باثارتها وإشعالها عن طريق الأغنية الترفـــة ، والصورة العارية ، والقصة المكشوفة ، والكتب الزائفة .

٤ ــ كذلك فقد حرص الاسلام في سبيل دعم الشخصية الانسانية على التفرقـــة بين الاخلاق التي هي جزء من الدين والتقاليد والعادات التي هي من صنع المجتمعات ، أما الاخلاق فهي قيم أساسية لاتتغير بتغير الأزمان ، أما التقاليد والعادات فيجري عليها التغيير والتبديل . الاولى ثابتة ، لانها تتصل بالانسان نفسه ، والاخرى متغيرة ، لانها تتصـــل بالبيئات والعصور . ومنذ أن عرف الانسان الحياة وماتزال قيم الخـير والشر والحق والباطل ثابتة كما جاءت بها الاديان ، ولذلك فانه لاسبيل إلى القول بتحولها أو تطورها .

أما العادات ، فهي من نتاج المجتمع ، ولذلك يخطىء دعاة (مدرسة العلوم الاجتماعية) الذين يسيطرون الآن على مفاهيم الاخلاق والنفس والاجتماع في الفكر الغربي حينما تحكم على الاخلاق حكمها على العادات والتقاليد ، كذلك وفي طريق ضرب الشخصية الاسلامية حاول الاستعمار النفاذ الى خطة ماكرة تعمل على إعلاء العادات والتقاليـد ومايسمونـه « الفلكلور » وغيره والإذاعة به حتى ينخفض الاهتمـام بالاخـلاق ، ويتلاشى ، ويطغى زيف التقاليد الباطلة على أصالة القيم الربانية الثابتة .

٥ ــ هناك محاولة أخرى تحتاج الى جهد كبير ويقظة صادقة ،تلك هي ما تحاول المذاهب الوافدة أن تطرحه بالقول بحرية الناس في تصرفاتهم أو حرية الشباب في الاخذ بما يشاء من أساليب الحياة ووسائل العيش ، ذلك أن هناك قيما أساسية تحكم المجتمعات الاسلامية ، وضوابط ربانية

استهدفت حماية الشخصية الانسانية من التمزق والانهيار ، والاسـلام يجعل حماية المجتمع مرتبطة بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،والنصيحة للمسلمين •

والآن يستشري الخطر برفض التجربة للاجيال السابقة ، أو وجهة النظر الاخرى ، أو النصيحة الخالصة ، ويقول دعـاة الهزيمة : إن على الأبناء أن يشقوا طريقهم دون توجيه ، وتسمى تجربة الاجيال السابقـة باسم منفر ، وتوصف بأنها « وصايـة » وليست هي كـذلك في مفهوم الاسلام ، ولكنها التكامل والبناء على الأساس ، وإنشاء الأجيال القادرة على أن تحمل الأمانة •

إن النظر في تجربة الأجيال السابقة من ضرورات العمل الاصيل ، وهي تفترض تقبل الصالح ونقد المنحرف ، على أن يتم هذا النقدفي ضوء قيم الاسلام نفسه •

إن إغضاء النظر عن تجارب السابقين هو مغمز خطير يراد به تحطيم الرابطة الاصيلة بين الاجيال ، وخلق نوعمن الصراع بينها ليس صادقا ولاطبيعيا ، ولكنه زائف ومغرض ، إنما يرمي ذلك إلى دفع الاجيـال الجديدة إلى التمرد على القيم الاساسية للمجتمعات •

الأخطاء الشائعة

هذه محاولة لاحصاء مجموعة من الاخطاء المطروحة في محيط الفكر الاسلامي والثقافة العربية للرد عليها ، والكشف عن زيفها ، وإعادتها إلى أصولها ..

أولا : خطأ التجزئة بين العروبة والاسلام . فالواقع أن العروبة والاسلام مترابطان ترابطا جذريا . وقد فهم الغربيون هذا ،يقول العلامة (موروبيرجو) : إن العروبة تعني الاسلام ، وان الابتعاد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه ، وقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعني قوة الاسلام ونفس الشيء يتكرر اليوم حيث يحرز « الاسلام من انتصارات واسعة في إفريقيا » والواقع أن نظرية (عروبة بغير دين)كانت نظرية وافدة من الغرب ، ونحن نؤمن بأن قيمنا الفكرية المستمدة من الاديان هي عامل فعال في بناء الامم .

وان الثقافة العربية هي نتاج الفكر الاسلامي ، ومهد العروبة الجامعة ، وهي تمثل وحدة الفكر والشعور . وقد قرر هذا المعنى كثير من الباحثين ، وأشاروا الى تشابك الاسلام والعروبة فيالتاريخ تشابكا عضويا متفاعلا لامجال لفصل أحدهما عن الآخر ، بل قرر المنصفون أن النهضة العربية الحديثة ليست إلا تياراً من النهضة الاسلامية ، وأن جميع حركات التحرر التي عرفتها الاقطار الاسلامية انما كان مصدرها الاسلام ، ولايزال الفكر الاسلامي هو التراث الحضاري للعرب مسلمين ومسيحيين .

ثانياً : خطأ الخلط بين الثقافة والحضارة في الاقتباس ، فالثقافة فكر ، والحضارة مادة ، ولاريب أن الحضارة ملك للبشرية كلها ، ومن حقها أن تأخذ منها وقد شاركت الامم فيها من قبل ، وكان لها دور بنائها وكان للمسلمين والعرب فضل واضح في بناء الطابق الاول لهذه الحضارة فقد قدموا لها أعظم عطاء حين قدموا لها « المنهج العلمي التجريبي » .

أما الثقافة ، فانها تستمد جذورها من وجدان الامم وروحها وقيمها الذاتية التي كونتهاالاديان والمعتقدات منذ قرون،فهي تمثل طابعها الاصيل وهنا أيضا يختلف مفهوم الثقافة عن مفهوم المعرفة .

فالمعرفة « إنسانية » عامة كالحضارة وهي غير الثقافة التي تكون دائما مرتبطة بالعقائد والقيم الأساسية للامم .

ومن هنا يجيء خطأ القول الذي يذيعه دعاة التغريب والغزو الثقافي حين يدعون بأن المدنية الغربية (حضارة وثقافة) هي كل لايتجزأ لمن يقتبسها .

والواقع أن هذا تمويه تكشف خطؤه بسوابق تاريخية ، فقد أخذت اليابان والهند وغيرهما الحضارة دون الفكر والثقافة الغربيين .

وكذلك فعل الاوروبيون من قبل إزاء الاسلام وثقافته وعلومه ، ومن المستحيل أن يقبل المسلمون فكر غيرهم ، أو ينضووا تحت لواء عقائدهم ، وهم يؤمنون بأن قيمهم الاساسية هي مصدر قوتهم وحياتهم ، وهي التي تشكل وجودهم ، وأن لقيامهم مقومات لها طابعها الخاص المفرد حيث يقوم على التوحيد والمزج بين الروح والمادة ، والعلم والدين والعقل والقلب .

والواقع أنه لاعلاقةمطلقًا بين نقل العلوم وبين استيراد القيم .

ثالثاً : خطأ القصور في العلوم الإنسانية مع التوسع في العلوم المادية .

من أكبر الأخطاء التي تواجه العالم المعاصر والإنسان الحديث هذا العجز عن التوازن بين مطالب الفكر ، ومطالب المادة ، واتساع الانتاج العقلي والعلمي مع قصور المعطيات النفسية والروحية • وهذا ما عبر عنه كبار المصلحين بالعجز عن تطوير قلب الإنسانية كما تطور عقلها ، وكان من نتيجة ذلك ما يواجه البشر الآن من أخطار الحيرة والقلق والفراغ •

وقد عبر عن ذلك كثير من الفلاسفة الغربيين حيث يقول برجسون مثلا : (إن جسم البشرية قد تضخم تضخماً خارقاً للعـادة ، فأصبـح في حاجة إلى مزيد من العطاء الروحي) •

رابعا : خطأ الدعوة القائمة علـى الفصل بين الماضي والحاضر ، أو محاولة عزل الثقافة والأدب والفكر في حاضرها عن جذورها •

ولقـد قام الفكـر الغربي المعاصر أساساً علـى التراث الروماني واليوناني ، واستمد منه أبرز قيمه ودعائمه ، وقد حـدث هذا بينمـا انفصل الغرب عن التراث الإغريقي قرابـة ألف عام ، بينمـا لم ينفصل العرب والمسلمون عن تراثهم وما يزال حاضرهم استمراراً لماضيهم •

وقد انتهى الإغريق ومع ذلك ، فقد أحيا الغرب تراثهم ، أما التراث الإسلامي ، فإنه ميراث أمة لم تنته ، ولـم تذهب لغتهـا إلى المتحف ، وما زال فكرها حياً متفاعلاً في أمتها ، وفي البشرية كلها •

وقد أشار الباحثون إلى هذا الترابط ، ونوهوا باستحالة الفصل بين الحاضر والماضي • وقال هاملتون جب في هذا المعنى : « ليس بوسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم ، وسيظل الإسلام أهم صفحة من هـذا السجل الحافل إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا » •

خامساً : خطأ تعلم العلوم المستحدثة دون تأصيل مصادرها بينما هي

في جذورها تستند من المناهــج الإسلامية التي قام بها أعلام أفـذاذ في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والرياضية وفي علوم الطبيعة والفلــك والطب والكيمياء وغيره ..

وإذا كان الغربيون قد عادوا أخيراً يعترفون بفضل العرب والمسلمين ، ألا يحق للمسلمين والعرب المحدثين أن يعرفوا دور آبائهم وأجـدادهم في هذه العلوم التي يدرسونها، وكأنها نبت غريب، أو نتاج عربي خالص.

سادساً : خطأ القول بأن العالم الإسلامي قد بدأ نهضته بوصول الحملة الفرنسية ، والإرساليات التبشيرية أو حملات الاستعمار الغربي. ذلك أن هذا القول يعارض معارضة أكيدة حقائق التاريخ ووقائعــه ، ذلك أن العالم الإسلامي قد بدأ نهضته واستهل يقظته من أعماقه قبــل قدوم حملــة نابليون والإرساليات بنصف قرن تقريبــاً ، ففي منتصف القرن السابع عشر الميلادي (١٢٥٠ هجرية) صدرت صيحة اليقظة من قلب الجزيرة العربية ، ومن الأزهر الشريف في دعوة إلى تحرير العقيــدة الإسلامية . والتماس مفاهيمها الأصيلة مــن المنابــع الأولى ، وكشف الغشاوة عن الأمة والفكر والمجتمع على النحو الذي انطلق منذ ذلــك الوقت باسم حركة اليقظة .

سابعاً : خطأ القول بأن الإسلام دين عبادة ، والواقع أن الإسلام قد جمع بين العبادة الشرعية والأخلاق ، وجمــع بين العلاقتين ، بين الله والإنسان ، وبين الإنسان والإنسان ، فهو دين ونظام مجتمع ، وهــو عبادة ومنهج حياة ، وهو بهــذا يختلف عــن بعض الأديان التي تقصر نفسها على اللاهوت فقط وتفصل الجوانب الاجتماعيــــة والتشريعيــــة والاقتصادية والتربوية .

لقد واءم الإسلام بين الأمور الدنيوية والأخروية ، وحرم الترف والرهبانية جميعا ، وأقام مثلا أعلى رفيعاً جامعاً بين الدين والدنيا ، وقد

اعترف الغربيون بذلك ، وأكدوه حتى ليقول هاملتون جب (الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، ولكنه مدنية كاملة » •

ثامناً : خطأ القول بأن انحطاط المسلمين والعرب يرجع إلى ارتباطهم بالإسلام ، **والحق أن سر الانحطاط إنما يرجع إلى انفصالهم عن الإسلام** ، فإن الحقيقة الثابتة تاريخياً وعملياً أن الإسلام هو الذي أنشأ لهم حضارتهم ومجدهم ومكانتهم المعروفة ، وأنه حين أعطاهم هذا، فإنه لن يكون بحال من الأحوال عامل هزيمتهم أو ضعفهم ، وإنما يرجع الضعف والتخلف إلى الانصراف عنه والتحلل من ضوابطه وقواعده •

وإذا قيل في مناظرة لمجتمعات أخرى : إن الأديان كانت مصدر تخلفها ، فإن هذا لا ينطبق على الإسلام وهو مردود بتجربة التاريخ ، وربما كانت أديان أخرى قد حالت بتشكيلها البشري دون أن تعطي الأمم التي اعتنقتها تقدماً وقوة ،ولكن الإسلام بنصوصه الأصيلة ، ومعالمه الصادقة كان مصدر عطاء ليس للمسلمين وحدهم ، بل للبشرية كلها • وقد جاء ذلك ، لأنه قدم منهجاً متكاملاً جامعاً لا يفصل بين المادة والروح ، ولا بين الدنيا والآخرة ، ولا بين الدين والعلم ، وإنما يجمع ذلك كله تحت راية واحدة هي : « التوحيد الخالص لله الخالق » والإيمان بالجزاء والبعث والنشور في الآخرة ، واليقين بالمسؤولية الفردية ، والالتزام الأخلاقي في الحياة •

تاسعاً : خطأ النظر في الفكر الوافد على أنه حقائق أصيلة تؤخذ دون نظر أو تمحيص ، ذلك أن النظريات ما هي إلا تجارب يقوم بها أفراد من البشر يخطئون ويصيبون وهي تجارب في بيئاتها تستمد وجودها من تحديات ظروفها وعصرها ، ولذلك فإن أخطر ما يكون هو أن تنقل ــ مثل هذه النظريات التي هي فروض ــ من بيئة إلى بيئة تختلف من حيث الزمن والجذور والأديان • ومن الممكن أن ينظر إليها ويؤخذ

الصالح منها ، ولكن من الخطر أن تقبل أو تعتنق أو تدعي لنفسها قدرة الاحتواء والسيطرة .

ولقد كانت الذاتية العربية الإسلامية بكل مقدراتها وقيمها قادرة على أن تواجه الفكر الوافد ولا تدعه يسيطر عليها ، ولم يكن الفكر الإسلامي الأصيل ذو الجذور العميقة والعريقة ليخضع لنظرات ومذاهب وافدة هي بمثابة تجارب قوامها الفكر المادي ، أو الفكر الوثني الغريب عن روح الإسلام ، إن علينا أن ندرس تجارب الآخرين ، وعيوننا على بلادنا وظروفها ، وعلى فوارق الثقافات والبيئات والعلاقة بين النظريات وواقع الحياة .

عاشراً : خطأ نظرية التجزئة بين القيم المترابطة في مجال الفكر الإسلامي ككل ، وذلك في ظل تقدير أساسي لترابط أجزاء النفس الإنسانية .

والواقع أن الإسلام والفكر الاسلامي في أهم سماته لا يفصل بين الديني والدنيوي ، والروحي والمادي ، والدنيا والآخرة ، وليس للقيم الروحية استقلال ذاتي في الحياة وكل محاولة لفصل الروح عن المادة تعد عملاً عسيراً ، حيث لا انفصام بين الدين والحياة .

والإسلام يأخذ الكائن الإنساني كاملاً : روحه وجسده ، ويعتبر حياته الجسدية والنفسية كلا متسقاً متكاملاً ، ويؤمن بأن الفصل بين الأسباب الجسدية والنفسية ــ كما في الطب ــ فصل مصطنع ، وأن علاج أي مرض لابد فيه من الربط بين العاملين ، والاعتماد عليهما معاً في رسم خطة العلاج .

الحادي عشر :خطأ القول بأن في الإسلام طبقة تسمى «رجال الدين» لهم في علاقتهم بالإسلام حقوق ليست لغيرهم ، إذ الواقع أن في الإسلام

علماء دين هـم المتخصصون في الدراسات الإسلامية في مجـال الفقـه والتشريع •

الثاني عشر : خطأ الاعتماد على مصادر الغرب ، واعتبارها مراجع لدراسة تاريخنا ، ذلك أن كتابات الغرب تتسم في الأغلب بالعجز عـن وضوح الرؤيا والعجز عن الإنصاف أيضاً ، وتقوم في الأغلب على تقدير أساسي لقيم الفكر الغربي التي تختلف عن مفاهيم المسلمين والعرب •

ولا ريب أن أخطر ما يواجهنا هو محاولة معرفة أنفسنا من خلال مرآة الآخرين •

الثالث عشر : خطأ التفرقة بين العلم والأخلاق، ذلك أن الأخلاق هي من أكبر عوامل الضبط في مجال العلم حتى لاينطلق إلى التدمير ، وإذلال الأمم والشعوب باسم الاستعمار ، والفكر الإسـلامي يؤمن بالترابـط بين العلم والأخلاق • وقد عرف الغربيون فيه هذه الخصيصة حتى قال جوستاف لوبون : إن الفكر الإسلامي علم الإنسانية كيف تتفق حريـة الفكر مع استقامة الدين ، ويقول العلامة جود في كتابه سخافات المدنية الحديثة : إن هذه المدنية (أي الغربية) ليس فيها توازن بـين القـوة والأخلاق ، فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ عصر النهضة ظل العلم في الارتقاء ، والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافة بينهمـا ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر ، فتعجبه خوارقه الطبيعية وتسخيره المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هـو يمتاز في تأخر أخلاقه ، وفي شرهه وطمعه ، وفي طيشه ونزقه وفي قسوته وظلمه •

الرابع عشر : خطأ القول بأن هناك ثقافة عالمية واحدة،وأن هذه الدعوة إنما تستهدف سيادة الثقافـة الغربيـة وحضارتهـا على ثقافـات الأمم وحضارتها ، سيما أن ثقافة المسلمين والعرب ثقافة ذات أصالة وجـذور وذاتية خاصة ، ومن المستحيل خضوعها بالقهر لثقافات الأمم وهي ثقافة

الماضي : عجزت محاولات الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية ، كما العبودية والخضوع لغيرها ، وقد عجزت كل المحاولات السيطرة عليها في معطية استقلالية قد أعطت الأجيال والشعوب عطاءً ثراً ، وهي لا تقبل عجزت في الحاضر كل مذاهب الفلسفات الحديثة عن احتوائها أو استيعابها .

الخامس عشر : خطأ القول بتعصب المفكرين المسلمين والعرب ، ويشهد بإنصافهم البالغ ، وتحوطهم الشديد في إصدار الأحكام كثيرون، ومنهم (هاملتون جب) الذي يؤكد أنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى ، وأنهم حاولوا أن يفهموها ويدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم انهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية ، وفي مقدمة هؤلاء أبو الريحان البيروني وابن حزم : « فقد كان كتاب العرب والمسلمين يذكرون المخالفين لهم بكل حرمة ، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وطبقات الحكماء لابن القفطي ، وطبقات الأدباء لياقوت ، والوافي بالوفيات للصفدي ، وفي تاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ، أمثلة لهذا التسامح ، فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء أمة واحدة » .

السادس عشر : خطأ القول بأن المسلمين جاوزوا حرية الفكر بموقفهم من الحلاج وابن رشد ، والحق أن هؤلاء المفكرين لم يؤخذوا بجريرة الفكر ، بل أخذوا بجرائر أخرى ، فقد ظل الحسين بن منصور الحلاج متمتعاً بحريته إلى اليوم الذي ثبت فيه أنه كان يراسل رئيس القرامطة ، وبينهما اتفاق سري على قلب الدولة ، عند ذلك جرت محاكمته وقتله .

السابع عشر : خطأ التجاهل البشع لدور العرب والمسلمين في الحضارة الإنسانية بينما كان المسلمون والعرب هم الذين قدموا للدنيا المنهج العلمي التجريبي ، وقد شهد لهم المنصفون ، وقالوا : إن مأثرة

العرب الخالدة لتقدم على أساس أنهم مبتدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للعلم والمنشئون الحقيقيون للاستقصاء العلمي ، وأن المنجزات التي حققها المسلمون والعرب على أساس المشاهدة والتجربة هي التي كانت الأساس العلمي لما قدمه من بعد : روجر بيكون ، وفرنسيس بيكون .

الثامن عشر : خطأ القول بأن القضاء والقدر الإسلامي هو مصدر تخلف المسلمين ، ذلك أن مفهوم القضاء والقدر في الإسلام كان ومايزال أعظم حافز للمسلمين لأن يسترخصوا أرواحهم في سبيل الله .

التاسع عشر : خطأ القول بأن الفكر الإسلامي فكر تجريدي ، وأمامنا ثمرات الفقه والتشريع والعلوم كلها تكذب هذه الدعوى ، فإن الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامي ، وكيف أنه تناول كل حادث وقع بالبحث في حينه ، ووضع له الحلول الملائمة ، بل إن الفكر الإسلامي هو أكثر إيغالاً في الواقعية من الفكر الغربي ، حيث تناول الفقه مفردات الحياة اليومية ، ولم يقتصر على مسائل العبادات ، كما هو في بعض الأديان .

العشرون : خطأ الإعلاء بالدعوة إلى ما يسمى التولستوية أو الغاندية ذات الطابع القائم على الاستسلام ، والضعف ، والسلبية وعدم المقاومة .

ولا ريب أن هذه الدعوة بعيدة عن طوابع الفكر الإسلامي القائم على القوة والرحمة معاً ودعاة هذا المذهب يحاولون أن يصوروا الإسلام كذلك بينما هم ينكرون جانباً من أخطر جوانبه وهو الجهاد . فالإسلام يقوم على التسامح والسلام في نفس الوقت الذي يقوم فيه على الإعداد وتخويف العدو وحماية الثغور والمرابطة فيها ، فإذا ما اعتدى العدو ، أو انتهكت الأرض ، فقد أذن الله للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير .

الحادي والعشرون : خطأ القـول بأن الشريعـة الإسلامية شريعة أمة بدوية ، أو عصر من العصور ، أو مرحلة من مراحل التاريـخ التـي مضت ، أو أن لها علاقة بالفقه الروماني ، وأمامنا ألف دليل مـن كتابات رجالها ، ولكنا نعرض هنا لما قرره مؤتمر القانون الـدولي المنعقـد في لاهاي (أغسطس ١٩٣٢) حيث قال : « إن الشريعة الإسلامية تصلح أن تكون مصدراً عالمياً للقانون » وقد اتسمت الشريعة الإسلامية ــ على حد تعبير الدكتور مختار القاضي ــ بسمة متميزة تلك هي جمعها بين عنصري الثبات والتطور معاً ، وأنها توفق بينهما توفيقاً بديعاً فنياً ، فبينما تجـد في هذه الشريعة نصوصاً تنزل إلى التفصيلات ، وتنأى عـن التـأويـل والتغيير والتبديل كنصوص المـواريث والحـدود والكفـارات ، نرى نصوصاً أخرى تبيح للمشرع أن يبتدع أحكاماً في غير الحـالات التـي جاءت بها النصوص التفصيلية مادام الأمر يحقق مسألة عامة للمسلمين ، وأظهر مثل لهذه النصوص المرخصة هي المصالح المرسلـة والاستحسان بالضرورة ، وقياس ما لـم يرد فيـه نص على ماورد فيـه نص ، ولعل الشريعة الإسلامية هي الشريعة الوحيدة في الدنيا التي تطورت بوسائل داخلية دون أن تستعير نصاً من خارج نصوصها ، أو حكماً غير مستنبط من أحكامها ، بينما كل القوانين والشرائع تطورت بوسائل خارجية ماعدا الشريعة الإسلامية •

ويقول سانتلانا : إنه من العسير أن توجد أصول واحـدة تلتقي فيها الشريعتان : الإسلامية والرومانية ، ذلك أن الشريعة الإسلامية ذات الحدود المرسومة ، والمبادىء الثابتة لا يمكن إرجاعهـا أو نسبتها إلـى شرائعنا وقوانيننا ، لأنها شريعة دينية تغاير فكرنا أصلاً •

الثاني والعشرون : خطأ المحاولـة الخطيرة التـي يحـاول بعض المستشرقين ودعاة التغريب القيام بها ، وهي استخدام نصوص الشريعـة الإسلامية (بالتأويل) في تبرير أنماط الغرب الفكرية والاجتماعية •

خاتمة

ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري

ما أشد حاجتنا ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري أن نقف وقفة تدبر فيها أمرنا من خلال هذه المعركة الضارية التي شهدها القرن الرابع عشر الهجري في مواجهة الاستعمار والتغريب والشعوبية والصهيونية والإلحاد والمادية .

فقد تقاذفته جائحة خطيرة من المذاهب والدعوات ، وألقت إليه أوربا والغرب بفيض من فكرها ومفاهيمها التي أعانها على نشرها امتلاكها لنواصي التعليم والصحافة والثقافة عن طريق معاهد الإرساليات ومناهج التعليم الغربي وسيطرة خريجيها على مراكز الثقافة والفكر وقيادات العمل في مختلف الأجهزة ، لقد بدأ هذا العام الهجري في نفس الوقت الذي كانت ضربات معاول الاحتلال تدق أبواب مصر بعد أن سيطرت على الجزائر وتونس ، ومدت يدها إلى الهند والخليج العربي ، ودارت من وراء إفريقيا حيث أسقطت كل القوى الإسلامية القادرة في غرب البحر المتوسط في طريقها إلى سواحل المحيط الأطلسي في إفريقيا متجهة نحو الهند ، ثم لم تلبث الجولة أن استكملت في شرقي البحر المروسط بعد أن ضعفت الدولة العثمانية في خلال ثلاثين عاماً حيث كانت نهاية الحرب العالمية الأولى علامة على إتمام السيطرة وبدء المعركة الكبرى .

غير أنه لم تمر بعد ذلك ستون عاماً من النضال المرير والكفاح

الشاق حتى انجلت عما حدث في العاشر من رمضان علامة على انحسار المد الصهيوني الاستعماري الماركسي والانطلاق نحو ضوء جديد .

لم تكن هذه السنوات إلا محاولة من التوجية المتصل لتصحيح مسار المسلمين نحو الوسيلة الصحيحة لتحرير إرادتهم بتحرير فكرهم ، فقد كان الاستعمار عن طريق الغزو الثقافي والتغريب قد أدخل إلى العقل العربي الإسلامي مفهوماً خطيراً بالغ الخطأ هو أن يفكر من خلال دائرة الأضواء ، فلا يرى إلا مايراه الغرب ، ولا يقايس الأمور إلا بمقاييسه . ولقد وصل في ذلك إلى الغاية في السنوات الأخيرة بحيث عجز تماماً أن يفكر من خلال مفاهيمه الأصيلة وقيمه الأساسية وتجمد عن الحركة في إطاراته ومنطلقاته ، وكان قد أجرى تجربة نحو تطبيق الفكر الليبرالي الغربي ، ففشلت فشلاً ذريعاً ، وكان من نتيجتها سقوط فلسطين في يد الاستعمار البريطاني، وهكذا كشفت التجربة ــ مع احتواء الفكر الغربي للمسلمين والعرب ــ عن تلك النتيجة الخطيرة في هزائم ثلاث ٤٨/٥٦/٦٧ وكانت هزمة ١٩٦٧ ساحقة ، فقد ألغت الوجود الفلسطيني نهائياً ، وأسلمت بيت المقدس تماماً إلى إسرائيل التي أحرقت المسجد الأقصى وتوعدت ببناء هيكل سليمان مكانه .

وكان هذا النذير صادقاً وحاسماً في مواجهة صيحات المضللين الذين يدعون العرب الى أن يتخلصوا من كل ماضيهم وتراثهم وقيمهم كثمن للتحرر والانتصار على الصهيونية ، وكانوا في ذلك مغررين بنا وذاهبين إلى أقصى المدى في اجتثاث جذورنا . غير أنه جرياً من ذاتية الإسلام وقدرته على تصحيح مساره من داخله عندما تبدو علامات الخطر قد فرض الطريق الأصيل الذي سار فيه المسلمون والعرب ليقفوا في العاشر من رمضان على أول الطريق .

هذا هو الضوء الكاشف على طريق الاسلام قبل مقدم القرن

الخامس عشر الهجري بسبع سنوات وسوف يقبل القرن الخامس عشر بانتصارات أخرى مادام المسلمون قد أصروا على التماس الطريق المستقيم : صراط الله (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وسوف يسترد المسلمون القدس قبل بدء القرن الهجري بإذن الله •

غير أن ذلك كله لا يتحقق إلا إذا كان هناك إيمان عميق ، وتصميم متصل على أن يأخذ المسلمون بأسباب النصر ووسائله ، وأبرزها تطبيق الشريعة الاسلامية ، وتحرير التعليم من النفوذ الأجنبي ، ورده إلى مناهج الإسلام أخذاً بالتعليم الحديث والتكنولوجيا من خلال اللغة العربية ، وانطلاقاً إلى بناء المجتمع الإسلامي القرآني •

ولا بد أن يستوعب المسلمون في هذا المجال التجربة التي تواجههم ، ويفهموا غاياتها وأهدافها ، ويسحقوا الأهواء المضلة ، وليعلموا أن طريق الحق هو وحده المذلل ، وأن طريق الباطل مملوء بالصخور ، وسوف يجد أعداء البشرية أنفسهم قريبين من غايتهم ، ثم ينهزمون في اللحظات الأخيرة وبالسبب الأضعف •

إن هناك قوى متعددة تحاول أن تسيطر على وجودنا الإسلامي ، منها : الصهيونية ، والاستعمار ، والمادية ، والالحادية ، وهناك أدوات جبارة في أيدي هذه القوى ، منها : الصحافة ، والمال ، والأزياء ، وإن علينا أن نتحرر من نفوذ مدرستين : مدرسة تؤمن بالخرافات والاسرائيليات في الكتب المتأخرة ، ومدرسة تؤمن بمذهب المستشرقين والمبشرين الغربيين في فهم الدين والتاريخ •

وإن أخطر ما يواجهنا اليوم هو التحرر مما فرضه علينا النفوذ الاجنبي ، من عادات وتقاليد ومفاهيم ومصطلحات ، وأسلوب حياة نقبله

الآن كمسلمات دون أن نعرف مدى اتفاقها أو معارضتها لجوهر شخصيتنا ،وسوف يكون التحرر من هذه القيود أول طريق إلى النصر •

إن أخطر ما يحاول المضللون أن يغرسوه في أذهان شبابنا وأجيالنا الربط بين الأخذ بعلوم وتكنولوجيا العصر وبين اتباع أسلوب العيش الأوربي بكل علله وأمراضه •

وهل من الممكن لأمة ذات معتقد أصيل أن تأخذ أسلوب عيش مخالف لقيمها وعقائدها ؟ إن الأمة الإسلامية هي وحدها التي تستطيع أن تأخذ منهج العلوم والتكنيك وأن تظل في نفس الوقت محافظة على قيمها ، متحررة من نمط الحضارة الغربية التي دخلت مرحلة الانهيار ، والتي تقف الآن على أطراف الهاوية بما أصيبت به من إلحاد وتحلل وتمزق وغيبوبة وموبقات • ومن هنا يبرز الأمل الذي ترقبه الإنسانية في أن يحمل لواء الحضارة قوم يؤمنون بالله ، ويقيمون بناءهم على أساس الأخلاق ، فيحولون الدنيا في اتجاه العمل الانساني الأصيل القائم على الإخاء البشري ، وعلى المساواة بين الناس ، وعلى هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وعلى أن تكون الأمم ملكاً للأمم كلها ، ولا تكون ملكاً لحفنة من ملوك المال اليهود •

إن المسلمين اليوم هم المؤهلون لهذا الدور بالتماسهم مفهوم الإسلام ، وسوف تتحطم حضارة المجتمعات الغربية وتترك معاقلها ، وتبقى مقوماتها وأصولها الايجابية في أيدي المسلمين وحدهم ليحملوا مرة أخرى أمانة الحضارة الحقة على النحو الذي رسمه القرآن وجاء به الإسلام •

وان المسألة في ذلك ليست أكثر من مسألة وقت حتى يمتلك المسلمون في أيديهم مقاديرهم وإيراداتهم ، فيحولوا العلم إلى طريقه

الأصيل ، وسوف لا يكون التحدي الصهيوني القائم اليوم إلا مقدمة لتدمير حضارة المجتمعات الغربية ، وإفساح الطريق أمام قوة جديدة أكثر إيماناً بالله وفهماً لقوانين الكون ونواميس الطبيعة وسنن المجتمعات .

ونحن نعرف أن مؤتمراً خطيراً عقد في انجلترا في أوائل القرن التاسع عشر ، وخرج بمقررات مفادها أن الحضارة الغربية منهارة ، فلكي يطيلوا أمد انهيارها يجب القضاء على الوريث ، وهو الأمة الاسلامية بدينها وتراثها وموقفها الاستراتيجي ، وقد عملوا على تفتيت هذه الأمة لكي يطليوا في أمد انهيارهم ويؤخروا سقوط حضارتهم و (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

الفهرس